الدكتور علي الوردي
استاذ متمرس
بجامعة بغداد

لمحات اجتماعية من تاريخ العراق الحديث

ملحق الجزء السادس

(قصة الاشراف وابن سعود)

الدكتور علي الوردي
أستاذ متمرس
بجامعة بغداد

لمحات اجتماعية
من
تاريخ العراق الحديث

ملحق الجزء السادس

(قصة الاشـراف وابن سعود)

المقدمة

ان هذا البحث قد وضعته ملحقا للجزء السادس من كتابي « لمحات اجتماعية من تاريخ العراق الحديث » ، ولكنه في الواقع يصلح أن يكون ملحقا لجميع أجزاء الكتاب ـ السابقة واللاحقة معا • انه بحث في أحداث وقعت في الحجاز ونجد وسوريا ، وهي كلها ذات صلة وثيقة بالمجتمع العراقي وأحداثه ابتداءاً من النزاع الصفوي العثماني حتى ثورة الرابع عشر من تموز • وقد يصح أن أقول ان تلك الاحداث تلقي ضوءا غير قليل على أحداث العراق وتساعد على فهمها ، كما انها قد تساعد القارىء على فهم بعض خفايا الطبيعة البشرية وعقدها ومشاكلها بوجه عام •

نزاع الحسين وابن سعود :

يضم هذا الملحق تفاصيل مسهبة عن النزاع بين الحسين بن علي وعبدالعزيز بن سعود ، وهو نزاع يمكن اعتباره نموذجاً لما يجري بين البشر من تنازع على البقاء حيث يعتقد كل فريق منهم أن الحق معه وحده ، وان الباطل مع خصمه • ونحن اذ ندرسه الآن دراسة موضوعية حيادية نجد ان كلاً من الفريقين انما يأخذ من الحقيقة الجانب الذي يعجبه وينبذ الجانب الآخر •

اني أدركت في صباي الزمن الذي كان فيه الصراع محتدما بين الحسين وابن سعود ، ورأيت الناس في العراق منقسمين الى فريقين : أحدهما هاشمي الهوى والآخر سعودي • وكنت كغيري من الناس مندفعاً بما تمليه عليَّ بيئتي الاجتماعية ، فكنت أتعصب لما يتعصبون له ، وأنطق كما ينطقون • ولكنني بعدما مرت بي تجارب الحياة واطلعت على اسرار

التاريخ أدركت أني كنت أنظر الى الحقيقة من جانب واحد ، وان هناك جانباً آخر ينبغي النظر اليه أيضاً .

ان نزاع الحسين وابن سعود يمثل صراعاً بين شخصيتين متضادتين ـ على نحو ما صوّره برنارد شو في مسرحياته . فاحداهما مثالية مليئة بالاحلام والمبادىء ، والثانية واقعية لاتميل الى الاحلام والمثل بل تريد النجاح في الدنيا ولا تبالي بغيره . ومشكلة هذه الدنيا ان الشخصية الاولى كثيراً ما تخفق فيها وتتألم ، وان الثانية كثيرا ما تنجح وتزهو . ومن الممكن القول ان كُلاً من هاتين الشخصيتين لها دورها في مسيرة التاريخ، ولا بد للتاريخ من وجود عاملين يتفاعلان عليه أحدهما مثالي والآخر واقعي .

احداث سوريا :

ان الفصل الخاص بأحداث سوريا هو أكبر الفصول في هذا الملحق ، ولا أكتم القارىء ان هذا الفصل أجهدني كثيراً ، ولعله أكثر الفصول اجهاداً لي في جميع الكتب التي ألفتها .

يبحث هذا الفصل في الفترة التي تولى فيها فيصل بن الحسين الحكم في سوريا ، وهي فترة امتدت نحو سنتين ، فيما بين تشرين الاول ١٩١٨ وتموز ١٩٢٠ ، وكانت فترة صاخبة مليئة بالعبر ، ومن الجدير بكل قارىء عربي أن يطلع على أحداثها ويعتبر بها .

ان سوريا كانت في خلال تلك الفترة القصيرة أول دولة عربية في العصر الحديث تنال استقلالها وتحكم نفسها على الطريقة الديمقراطية الغربية . ولم يكن فيصل آنذاك قد تعلم فن السياسة جيدا ، وقد حاول أن يكون حاكماً شعبياً ، فكان لايبت في أمر قبل أن يستشير الشعب فيه . ولكن التجارب القاسية التي عاناها في تلك الفترة علمته دروساً لم يستطع

نسيانها طيلة حياته • وحين أصبح ملكاً في العراق بعدئذ كانت الدروس التى تعلمها في سوريا نصب عينيه دائماً • ولهذا رأيناه يتبع في العــراق سياسة مزدوجة ، اذ كان يداري الشعب تارة ويداري الانكليز تارة أخرى، وقد قاسى من جراء ذلك ما قاسى ، وكان ذلك من أسباب موتــــه المبكر •

ان كثيرا من العراقيين قد تولوا المناصب العالية في سوريا خـــلال تلك الفترة ، ولمـــا عادوا الى العراق بعدئذ كان لهم النصيب الاكبر من المناصب العالية فيه • ولكن الدروس التى تعلموها في سوريا كانت متفاوتة الاثر فيهم • فمنهم من تعلم كثيرا ، ومنهم من تعلم قليلا ، ومنهم من لـم يتعلم شيئاً • وحاول فيصل أن يكون فيهم كقائد الاركسترا ينظم عزفهم • وقد نجح في ذلك الى حد غير قليل • ولكنه لم يكد يموت في عام ١٩٣٣ حتى صاروايتكالبون على الحكم تكالباً عجيباً ، ومرت فترة أمدها ثماني سنوات كانت أبشع فترة في تاريخ العراق المعاصر • يقول الامير زيد : « بعد فيصل الاول ابتعد حكام العراق عن الشعب • صاروا لايعرفون مـا يريد الشعب • حذرت ونبهت ولكن لم يسمع مني أحد »[١] •

الاشراف والمجتمع :

حاولت في الفصلين الاول والثاني من هذا الملحق دراسة جانب من تاريخ أشراف مكة • ولعل من النافع أن أتطرق في هذه المقدمة الى دراسة ظاهرة الاشراف بوجه عام لمـا لها من أهمية اجتماعية وتاريخية ذات صلة وثيقة بالمجتمع العراقي •

ان الاشراف في الواقع يمثلون ظاهرة اجتماعية نلاحظها في جميــع البلاد الاسلامية ، وهي ظاهرة تقديس الافراد الذين ينتمون بالنسب الى

---

(١) سليمان موسى (مذكرات الامير زيد) ـ عمان ١٩٧٦ ـ ص ٢٠٤ •

النبي واعتبارهم طبقة عاليه متميزة عن غيرهم من الناس[٢] .

تُطلق على الفرد من هذه الطبقة ألقاب مختلفة في البلاد المختلفة . ففي العراق وايران واليمن وحضرموت وماليزيا وأندنوسيا يُطلق عليه لقب «السيد» ، وفي مصر والمغرب لقب «الشريف» ، وفي بعض أنحاء الهند وتركيا لقب « المير » ، وفي أفريقيا الشرقية والجنوبية « مولى » . أما في الحجاز فيُطلق على الحسني لقب « الشريف » ، وعلى الحسيني لقب « السيد » .

أن بداية ظهور الطبقة المتميزة في المجتمع الاسلامى كانت في العهد الاموي تحت اسم « قريش » ، أما قبل ذلك فكان المسلمون كلهم طبقة واحدة لاتفريق بينهم . وقد ظلت قريش تتميز على الناس حتى جاء العهد العباسي ، وعند ذلك تقلص نطاق تلك الطبقة حيث أصبحت مقصورة على الهاشميين وحدهم ، وهم فئتان : العباسيون والطالبيون . وكانت لكل فئة منهما نقابة خاصة بها ترعى أفرادها وتنظر في أمورهم ودعاواهم . ولما دالت دولة العباسين أصبحت الطبقة مقصورة على الطالبين وحدهم ، وقد تقلصت هي أيضا فصارت تشمل العلويين من أولاد فاطمة فقط . وظلت كذلك حتى يومنا هذا .

ومما يلفت النظر ان هذه الطبقة لها أحكام خاصة بها في الفقه الاسلامي . يقول حسن النجار في كتابه « الاشراف » ما نصه :

« ذكر العلامة الاجهوري في مشارق الانوار رواية عن مالك أنه يجوز أن يأخذ الاشراف صدقة الفرض وهي الزكاة السنوية .. ويُمنع أن يأخذوا من صدقة التطوع لأن في الثانية ذلا دون الاولى . ولكن المشهور عند اكثر الحنفية والشافعية وأحمد جواز أخذهم من صدقة

---

(٢) انظر فيما يخص مكانة « السادة » في المجتمع العراقي كتاب المؤلف « دراسة في طبيعة المجتمع العراقي » ــ الفصل التاسع .

التطوع دون صدقة الفرض ... وقال بعض الباحثين في حكمة التشريع ان سبب تحريم الصدقة عليهم أنها أوساخ الناس فهم أرفع قدرا وأعظم منزلة من ان تكون يدهم سفلى . وقال البعض أن سبب التحريم أنه قد كان لهم قديماً خمس الخمس من الغنيمة والفيء المأخوذين من الاعداء في الجهاد ، فلما مُنع عنهم هذا الحق الآن جاز لهم أُخذ الصدقة سواء كانت فرضاً أو نفلاً . وهذا السبب الاخير وجيه مقبول وعليه الفتوى الآن . غير أنه ينبغي للمتصدق عليهم أن يتأدب معهم حين يعطيهم فلا ينوي بذلك التصدق بل ينوي الهدية والتقرب الى رسول الله بواسطتهم ...»[٣].

هذه هي وجهة نظر الفقه السني في الاشراف ، أما الفقه الشيعي فهو قد جعل للاشراف مكانة أعلى ونصيباً اكبر من الخمس اذ خصص لهم نصف الخمس بدلا من خمسه . وهناك فرق آخر بين الفقهين في هذا الشأن هو أن الفقه السني فرض الخمس على الفيء والغنائم فقط ، بينما الفقه الشيعي فرض الخمس على جميع المكاسب والأرباح بالاضافة الى الفيء والغنائم .

ومن الجدير في الذكر في هذا الصدد أن بعض الفقهاء لم يعترفوا بهذا التمييز الطبقي للاشراف ، وحجتهم في ذلك ان الاسلام جاء لمحاربة الطبقات والاعتزاز بالنسب ، وليس من المعقول أن تنشأ فيه طبقة جديدة محل الطبقات التي زالت . وهؤلاء الفقهاء يفسرون « آل محمد » بأن المقصود بهم أمة محمد لاعترته ، ولهم في ذلك ادلة كثيرة لامجال هنا لذكرها[٤] . ولكن هذا الرأي لايقول به الا قلة من المسلمين ، أما الجمهور الغالب منهم فهم يرون خلافه ، ويروون في ذلك أحاديث نبوية

---

(٣) حسن النجار (الاشراف) ـ القاهرة ١٩٣٨ ـ ص ٣٠ ـ ٣١ .

(٤) انظر في هذا الموضوع كتاب « الاسلام الصحيح » لمحمد اسعاف النشاشيبي . وانظر في الرد عليه كتاب « الايمان الصحيح » لمحمد الكاظمي القزويني .

كثيرة. وقد جمع هذه الاحاديث ابن حجر الهيتمي في كتابه « الصواعق المحرقة في الرد على اهل البدع والزندقة » •

العمامة الخضراء :

أصبحت العمامة الخضراء في العصور المتأخرة هي العلامة التى تميز الأشراف عن غيرهم • وتنسب بدايتها الى الخليفة العباسي المأمون ، فهو عندما عيّن الامام العلوي علي الرضا ولي عهد له في عام ٢٠١ هـ خلع السواد الذي كان شعار العباسيين ولبس الخضرة بدلا عنه • ولكن ذلك لم يدم طويلا اذ سرعان ماعاد المأمون الى السواد بعد موت علي الرضا • وقد نسي اللون الاخضر بعد ذلك الى أن أعاده في مصر الملك الاشرف شعبان في عام ٧٧٣هـ ، حيث أمر بأن يضع الاشراف في عمائمهم علامة خضراء تميزهم • يقول المقريزي : ان هذا السلطان ألزم الاشراف بأن يتميزوا بعلامة خضراء في عمائم الرجال وأزر النساء ، فعملوا ذلك واستمر •.(٥)

ظل الاشراف يتميزون بعلامة خضراء في عمائمهم حتى عام ١٠٠٤ هـ عندما أمر حاكم مصر بأن تكون عمامة الاشراف كلها خضراء(٦) • ومنذ ذلك الحين انتشرت العمامة الخضراء في كثير من البلاد الاسلامية كعلامة تميز الاشراف عن غيرهم •

الواقع أن الاشراف لم يلتزموا كلهم بالعمامة الخضراء ، فمنهم من ظل محافظاً على العمامة البيضاء كما هو الحال في أشراف الحجاز واليمن ، ومنهم من لم يرغب أن يميز نفسه بأية علامة مهما كانت • والملاحظ بين شيعة العراق وايران ان السيد فيهم اذا كان من رجال الدين أو كان موسويا أي من سلالة موسى الكاظم لبس الغمامة السوداء • والمظنون ان

---

(٥) تقي الدين المقريزي (كتاب السلوك) ـ القاهرة ١٩٧٠ ـ ج٣ ، ق١ ، ص ١٩٩ •

(6) Encyclopaedia of Islam, art Sherif.

هذه العمامة من بقايا العهد العباسي ، ولعل الشريف الرضي أول من بدأ بها • فالمعروف عن الرضي انه عندما تولى نقابة الطالبين في عام ٤٠٣ هـ اتخذ السواد له شعارا على زي العباسيين[٧] •

وعلى أي حال فان بعض الاشراف اتخذوا العمامة الخضراء وسيلة للاستجداء المقنع ، كما أن بعض الذين هم ليسوا بأشراف اتخذوها وسيلة لرفع مكانتهم الاجتماعية وللاستجداء أيضاً • يحدثنا حسن النجار عن بعض الحيل التي يلجأ اليها المشعوذون في مصر في القرن العشرين فيقول ما نصه :

« يلبس بعض من لا اتصال لهم بآل البيت عمامة خضراء بحجة أنه نقيب أحد الاسياد ، أو ليجلس بجوار مقام أحدهم ، مدعياً أنه شريف منكود الحظ فقير الحال وأنه يريد كذا وكذا على قبول جده الحسين والسيدة مع أنه لايمت اليهما بصلة القرابة • وفي نظري ان مثل هذا الدجال الممقوت مع أنه أثم بلبس العمامة الخضراء التي أفتى العلماء بأختصاص الاشراف بها ، هو فوق ذلك خداع غشاش يبتز أموال الناس بالحيل ويأكلها بالباطل • ومن الدجل بالعمامة الخضراء أيضاً ما فعله رجل من اقصى الصعيد ، فلقد خطب بنتاً شريفة بالقاهرة مدعياً أنه شريف ، فلما رأوا على رأسه علامة الشرف صدقوه • ثم لم يكد يعقد عليها حتى علم أبوها من أحد أقاربه أنهم بالصراحة ليسوا من الاشراف•••»[٨] •

دعامة الاحلام :

ان المكانة العالية التى يتمتع بها الاشراف في المجتمع الاسلامي

---

(٧) آدم متز (الحضارة الاسلامية) ترجمة أبو ريدة — بيروت ١٩٦٧ — ج١ ، ص ٢٩٠ •

(٨) حسن النجار (المصدر السابق) — ص ٤٧ — ٤٨ •

وجدت لها دعامتان سندانها ، أولاهما كثرة الاحاديث التي تنسب الى النبي في الحث على رعاية ذريته واحترامهم ، والثانية رؤية المسلمين للنبي او أبنته فاطمة في المنام وهما يحثانهم على رعاية ذريتهما .

من العقائد التي راجت بين المسلمين أنهم اذا رأوا النبي في منامهم يحسبون أنهم قد رأوه حقاً ، لان الشيطان حسب أعتقادهم لايمكن أن يتشبه بالنبي في المنام . وقد أدت هذه العقيدة الى ظهور كثير من الاساطير والتقاليد غير الصالحة في المجتمع الاسلامي ـ كما شرحت ذلك بتفصيل في كتاب « الاحلام بين العلم والعقيدة » .

ان كثيرا من الاحلام التي تحث على احترام الاشراف قد رويت في الحجاز . وسبب ذلك ان الاشراف حكموا الحجاز مدة طويلة جدا وكانوا كغيرهم من حكام العصور السالفة يظلمون الناس ويعتدون عليهم ، كما ان بعض الاشراف كانوا بدواً يقطعون الطرق على الحجاج . ولذا كان الناس يتذمرون منهم ويلعنونهم طبعاً ، وعند هذا يظهر النبي او ابنته فاطمة لهم في المنام ليوبخاهم على تذمرهم ولعنهم .

روى ابن حجر الهيتمي وغيره كثيرا من هذه الاحلام واستدلوا بها على كرامة الاشراف وعلى وجوب رعايتهم والتجاوز عن سيئاتهم بحكم الشرع . وفيما يلي ننقل مجموعة من هذه الاحلام اخترناها من مختلف المصادر :

(١) كان احد الاشراف في المدينة ، واسمه مطير ، يلعب بالحمام ـ أي (مطيرچي) حسب تعبيرنا في العراق ـ ولما مات امتنع أحد الفقهاء من الصلاة عليه ، ولكن هذا الفقيه رأي النبي في منامه ومعه فاطمة الزهراء وقد أعرضت فاطمة عنه ، فأخذ الفقيه يستعطفها حتى أقبلت عليه وعاتبته قائلة : « أما يسع جاهنا مطيراً » . وقد أصبح الفقيه منذ ذلك الحين يبالغ في تعظيم الاشراف[٩] .

---

(٩) ابن حجر الهيتمي (الصواعق المحرقة) ـ القاهرة ـ ص ٢٤٠ .

(٢) كان الشيخ العابد محمد الفارسي يبغض اشراف المدينه من سلالة الحسين لتظاهرهم بالرفض ، ثم نام ذات يوم تجاه قبر النبي فرأى النبي في نومه وهو يقول له : يافلان مالي أراك تبغض أولادي ؟ . فقال له الشيخ : « حاشا لله ما أكرههم وانما كرهت ما رأيت من تعصبهم على اهل السنة » . فسأله النبي : « أليس الولد العاق يلحق بالنسب ؟ » . فأجابه الشيخ : « بلى يارسول الله » . فقال النبي : « هذا ولد عاق » . ولما استيقظ الشيخ من نومه صار لايلقى أحدا من بني الحسين الا بالغ في اكرامه(١٠) .

(٣) حج رجل من أهل اليمن مع عياله عن طريق البحر ، ولما وصل الى جدة فتشه المكاسون كما فتشوا النساء تحت ثيابهن . فتألم الرجل من ذلك وأخذ يدعو الله على شريف مكة الحاكم يومذاك وهو محمد بن بركات . ثم رأى في منامه النبي وهو معرض عنه . فسأله الرجل عن سبب اعراضه فأجابه النبي قائلا : « أما رأيت في الظلمة من هو أظلم من ابني هذا ؟! » . فانتبه الرجل من نومه مرعوباً وتاب الى الله أن يتعرض بعد هذا لاحد من الاشراف وان فعل مافعل(١١) .

(٤) عندما مات شريف مكة أبو نمي الاول امتنع الشيخ عفيف الدين الدلاصي من الصلاة عليه . ولكن الشيخ رأى في منامه في تلك الليلة فاطمة الزهراء وهي واقفة عند الكعبة والناس يسلمون عليها ، فلما جاء الشيخ للسلام عليها أعرضت عنه ثلاث مرات . وقد تحامل الشيخ فسألها عن سبب اعراضها فأجابته : « يموت ولدي ولم تصل عليه ! » ، فاعتذر منها وتاب عن مثل ذلك واعترف بالخطأ(١٢) .

---

(١٠) المصدر السابق — ص ٢٤٠ .
(١١) المصدر السابق — ص ٢٤٣ .
(١٢) عبدالملك العصامي (سمط النجوم العوالي) — القاهرة — ج٤ ، ص ٢٢٧ .

(٥) كان الشاعر ابن عنين الدمشقي قد حج الى مكة فقطع الطريق عليه بعض الاشراف ، ونهبوا ماكان معه وجرحوه . فنظم الشاعر قصيدة ذم بها الاشراف ذماً قبيحاً . ولما نام تلك الليلة رأى في أحلامه فاطمة الزهراء وهي تطوف بالبيت ، فسلّم عليها فلم تجبه ، فتضرع اليها وتذلل، وسألها عن ذنبه ، فأجابته بقصيدة تشبه قصيدته في الوزن والقافية ذكرت فيها أن اولادها حاشا أن يفعلوا الافعال التى وصفها في قصيدته انما هي الايام غدرت بهم وأساءت اليهم ، وهو يجب ان يتوب الى الله . فانتبه الشاعر من نومه مرعوباً فزعاً ، وقد شفاه الله من جراحه ، فنظم قصيدة جديدة تاب فيها الى الله من قصيدته الاولى وتعهد بأنه سيعتبر كل مايفعله الاشراف به حسناً حتى ولو قطعوه بالسيف أو الرمح[١٣] .

(٦) يروي الصوفي المشهور محي الدين بن عربي أن رجلا من أهل الحجاز حدثه قائلا : « كنت أكره ماتفعله الشرفاء بمكة في الناس ، فرأيت في النوم فاطمة بنت رسول الله وهي معرضة عني ، فسلمت عليها وسألتها عن اعراضها . فقالت : انك تقع في الشرفاء . فقلت لها : ياستي ، الا ترين ما يفعلون في الناس ؟ فقالت : أليس هم بنيّ ؟ فقلت لها : من الآن . وتبت فاقبلت عليّ . وإستيقظت »[١٤] .

ان هذه القصص التي ذكرناها آنفاً هي قليل من كثير ، ومن السهل العثور على أمثالها في مختلف البلاد الاسلامية . ولا حاجة بنا الى القول ان اشراف مكة استفادوا منها فائدة كبيرة في تدعيم حكمهم حيث استمروا يحكمون الحجاز نحو عشرة قرون ـ كما سنأتي اليه .

---

(١٣) احمد الداودي (عمدة الطالب) ـ بيروت ـ ص ١٠٦ـ١٠٧ .

(١٤) محمد اسعاف النشاشيبي (الأسلام الصحيح) ـ القدس ١٣٥٤هـ ـ ص ١٦٤ .

الفصل الاول

أشـــــراف مكة

ان اشراف الحجاز ، لاسيما في عصورهم المتأخرة ، كانوا كثيرين حدا • ولعل نسبتهم العدديه الى مجموع السكان تقرب من نسبة الســادة الى مجموع السكان في العراق • وهم كانوا من حيث مكانتهم الاجتماعيــة متفاوتين على درجات شتى • فهناك في الدرجة الاولى كان الاشراف الذين ينتمون الى اسرة الشريف الحاكم ، حيث كانت لهم مكانة تقرب من مكانة الامراء من أقرباء الملك في الدول الملكية ، ولكل واحد منهم قصوره وحشمه وعبيده • أما الباقون من الاشراف فكانوا يتفاوتون في المكانة حســب كفاءاتهم الشخصية أو عصبية أسرهم • ومنهم من كان بدويا وصار يقطع الطرق على الحجاج كغيره من البدو ، كما أن منهم من احترف الحـرف الوضيعة • يحدثنا ابن جبير الذى زار الحجاز في القرن السادس الهجري عن الحالة المزرية التى كان بعض الاشراف يعيشون فيها فيقول مانصه :

« واكثر سكان البلدة ـ يقصد بلدة جدة ـ مع ما فيها من الصحراء والجبال أشراف وعلويون وحسنيون وحسينيون وجعفريون رضى الله عن سلفهم الكريم • وهم من شظف العيش بحال يتصدع له الجماد اشفاقاً ، ويستخدمون أنفسهم في كل مهنة من المهن ، من اكراء جمال ان كان لهم ، أو مبيع لبن أو ماء ، أو غير ذلك من ثمر يلتقطونه أو حطب يحتطبونه ، وربما تناولوا ذلك نساءهم الشريفات بأنفسهن • فسبحانه المقدر لما يشاء • ولا شك أنهم أهل بيت ارتضى الله لهم الآخرة ولم يرتض لهم الدنيا ، جعلنا الله ممن يدين بحب أهل البيت الذين أذهب الرجس عنهم وطهرهم تطهيرا »[١] •

(١) محمد بن جبير (رحلة ابن جبير) ـ بغداد ١٩٣٧ ـ ص ٤٢ •

تأسيس شرافة مكة :

ظل أشراف الحجاز حتى منتصف القرن الرابع الهجري ليس لهم شيء من الحكم ، ولم يكن لديهم ما يميزهم عن بقية السكان سوى مكانتهم العالية الناشئة عن انتسابهم الى النبي • وفي عام ٣٥٨ هـ ـ الموافق لعـــام ٩٦٩ م ـ استطاع أحد الاشراف الحسنيين ، وهو جعفر بن الحسن من سلالة موسى الجون ، أن يؤسس له نوعاً من الامارة في مكة أُطلق عليها اســم « شرافة مكة » ، وهي الشرافة التي استمرت لهم حتى عام ١٩٢٥ م عندما قضى عليها ابن سعود ـ كما سنأتي اليه في فصل قادم •

كانت الظروف مساعدة لجعفر بن الحسن في تأسيس الشرافة • فقد كان الحجاز حينذاك تابعاً للدولة الاخشيدية في مصر ، وكانت تلك الدولة في أواخر ايامها ، ولم تلبث أن سقطت في أيدي الفاطميين • وحين أستتب الحكم للمعز الفاطمي في مصر كتب الى جعفر بن الحسن يعينه والياً على الحجاز باسم الدولة الفاطمية • وعند هذا قطع جعفر الدعاء للخلفاء العباسيين ـ وهو الدعاء الذي كان جارياً في العهد الاخشيدي ـ وصــــار يدعو للفاطميين بدلا من العباسيين ، كما أدخل عبارة « حي على خير العمل » في الاذان ، وهي العبارة التي يتميز بها أذان الشيعة عن أذان أهل السنة •

كان الاشراف الحسينيون يسكنون المدينة وحواليها ، ولهم نفوذ فيها • وقد انتهزوا الفرصة بدورهم ، فأعلنوا استقلالهم في المدينة في عام ٣٦٠ هـ ـ أي بعد سنتين من تأسيس أبناء عمهم الحسنيين لشرافة مكة ـ وأخذوا يدعون مثلهم للفاطميين ، كما أدخلوا في الأذان عبارة « حي على خيــر العمــل » •

عندما وصل خبر ذلك الى العباسيين في بغداد أرسلوا الى مكة نقيب الطالبيين الحسين بن موسى الموسوي والد الشريف الرضي ، حيث عينوه أميرا للحج العراقي • وقد استطاع هذا النقيب ان يقنع جعفر بن الحسن

بقطع الدعاء للفاطميين ، وباعادته للعباسيين • والظاهر أن جعفرا لم يستمر على ذلك طويلا ، بل عاد الى الدعاء للفاطميين ، وربما عاد مرة اخــرى للعباسين...[٢] •

ابو الفتوح :

مات المؤسس جعفر بن الحسن في عام ٣٧٠ هـ فخلفه على شــرافة مكة ابنه عيسى ، وحين مات عيسى في عام ٣٨٤ هـ خلفه أخوه الحسن وهو المعروف بلقب « أبي الفتوح » ، وكان من أعظم الاشراف شخصة وأقواهم بدناً ، قيل انه كان يمسك الدرهم فيفركه بيده ويمحو رسمه[٣] ، وكان بالاضافة الى ذلك شاعرا فصيحاً[٤] •

أمضى أبو الفتوح سنوات حكمه الاولى بالحروب ، حيث قاتل أبناء عمه الحسينيين في المدينة ، كما قاتل أبناء عمه الحسنيــين في اليمن[٥] • ويبدو انه كان شديد الطموح يريد الخلافة لنفسه ، فهو قد رأى في العالم الاسلامي ثلاثة خلفاء يتنازعون عليها هم : الخليفة العباسي في بغــداد ، والخليفة الفاطمي في مصر ، والخليفة الاموي في الاندلس • ولعله وجد نفسه أجدر منهم بها •

كان ابو الفتوح كغيره من الاشراف الحسنيين شيعيا من أتباع المذهب الزيدي • والمعروف عن المذهب الزيدي أنه يتميز عن المذاهب الشيعيــة الاخرى بكونه يترضى على الشيخين ويعتبرهما امامين عادلين، بينما المذاهب الاخرى تطعن فيهما وتتبرأ منهما • وفى عام ٤٠١ هـ وصل الى أبي الفتوح

---

(٢) احمد السباعي (تاريخ مكة) ــ مكة ١٣٧٢ هـ ــ ص ٢٩ •
(٣) المصدر السابق ــ ص ١٣٣ •
(٤) احمد الداودي (عمدة الطالب) ــ بيروت ــ ١٠٩ •
(٥) فؤاد حمزة (قلب/جزيرة العرب) ــ الرياض ١٩٦٨ ــ ص ٣١٤ •

من الخليفة الفاطمي الحاكم بأمر الله كتاب يأمره فيه بالبراءة من الشيخين وباعلان ذلك في الخطبة في الكعبة • فاستنكر أبو الفتوح هذا الامر ، وأراد أن ينتهزها فرصة للانفصال عن الفاطميين واعلان الخلافة لنفسه •

أوعز أبو الفتوح باعلان أمر الحاكم على المنبر في الكعبة ، فأدى ذلك الى ضجة وهياج لدى الحجاج وسكان الحجاز ، وتجمع الناس يريدون كسر المنبر على صاحبه • وعند هذا أعلن أبو الفتوح عصيانه على الفاطميين، وأعقب ذلك اعلانه الخلافة لنفسه باسم « الراشد بالله » ، وشرع يتلقى البيعة من أهل مكه والمدينة ، ثم بايعته بعدئذ قبائل البدو كبني سليم وبني هلال وبني عوف وبنى عامر • واستحوذ أبو الفتوح على ما فى الكعبة من أموال وتحف ، كما استولى على أموال بعض التجار في جدة ، وحمل سيفاً ادعى أنه سيف ذى الفقار ، كما حمل قضيباً ادعى أنه قضيب رسول الله[٦] •

وتوجه أبو الفتوح بعدئذ نحو الشام بقوة عظيمة مؤلفة من القبائل البدوية التى تابعته وغيرها ، وصار كلما مر بموضع جاء اليه سكانه طائعين مبايعين ـ كما هى عادة الناس تجاه من تقبل الدنيا عليه •

لم يقف الحاكم بأمر الله تجاه ذلك ساكناً ، بل أخذ يبذل الاموال لتفريق الناس عن ابي الفتوح ، وشجع أحد الاشراف من أقرباء أبي الفتوح على احتلال مكة واعلان الشرافة لنفسه ، كما قطع الميرة عن الحجاز مما أدى الى تضايق الحجازيين وتذمرهم • وأدرك أبو الفتوح ضرورة المصالحة مع الحاكم • فأرسل اليه يعلن التوبة اليه ، وأعاد الدعاء له في الكعبة ، فعفا عنه الحاكم وأبقاه على شرافة مكة •

---

(٦) عبدالملك العصامي (سمط النجوم العوالي) ـ القاهرة ـ ج٤ ـ ص ١٩٦ •

ومن الجدير بالذكر أن حادثة غريبة حدثت في عهد أبي الفتوح ، وذلك في عام ٤١٣ ، خلاصتها أن رجلا من الحجاج المصريين اقترب من الحجر الاسود وفي يده دبوس ، وضرب الحجر بالدبوس ثلاث ضربات حتى سقطت منه ثلاث قطع صغيرة وقال وهو يرتعد : « الى متى يُعبد هذا الحجر الى متى يُقبّل ؟! ولا محمد ولا علي فيمنعني من ذلك ، فاني أهدم اليوم هذا البيت ! » . وكان الرجل طويلا جسيماً وله أعوان قد وقفوا في باب المسجد للدفاع عنه . فتحاماه الناس وابتعدوا عنه ، ولكن رجلا من أهل اليمن اندفع نحوه فوجأه بخنجره . وعند هذا تكاثر الناس عليه فقتلوه وقطعوه اربا وأحرقوه ، ثم تبعوا أعوانه فقتلوا بعضهم وانثال أهل مكة على الحجاج المصريين فنهبوهم ، وانتشر النهب الى غيرهم . ولما هدأت الحالة جاء سدنة الكعبة من بني شيبة فأخذوا القطع التي سقطت من الحجر الاسود وعجنوها بالمسك واللاذن والعلك ، وأعادوها الى مواضعها . ولا تزال الشقوق حولها ظاهرة(٧) .

الهواشم :

مات أبو الفتوح في عام ٤٣٠ هـ ، فخلفه على الشرافة ابنه شكر ، وكان قويا مثله ، وجرت بينه وبين الحسينيين في المدينة حروب انتهت بتغلبه عليهم ، واصبحت المدينة منذ ذلك الحين خاضعة لشرافة مكة بعدما كانت مستقلة .

مات شكر في عام ٤٥٢ هـ ، ولم يخلف ولدا ذكرا ، بل كانت له بنت واحدة . وكان ذلك سببا للتنازع والحرب بين أسرتين من الاشراف هما : السليمانيون والهواشم . واستمرت الحروب بينهما مدة طويلة الى أن تمكن الهواشم من التغلب على خصومهم ، وعند هذا تولى شرافة مكة رئيسهم محمد وهو الذي اشتهر بكنيته « أبو هاشم » .

---

(٧) المصدر السابق ـ ج ٤ ، ص ١٩٧ ـ ١٩٨ .

ظلت أسرة الهواشم تحكم مكة حتى عام ٥٩٨ هـ ، والمعروف عنهـا انها كانت تتقلب في ولائها السياسي بين العباسيين والفاطميين ، فكانت تدعو لهؤلاء تارة ولأولئك تارة أخرى ـ تبعا لمن يدفع لها أكثر[٨] .

بدأ بهذا التقلب أبو هاشم نفسه ، فهو كان في السنوات الاولى من حكمه يدعو للفاطميين في الخطبة ويؤذن بأذانهم . ولكن السلطان السلجوقي ألب أرسلان أرسل اليه من العراق نقيب الطالبيين نور الهدى الزيني ، وقد تمكن النقيب في ٤٥٨هـ من اقناع ابي هاشم بقطع الخطبة للفاطميين والدعاء للعباسيين بدلا عنهم . وحين وصل الخبر الى الفاطميين غضبوا عليه وقطعوا الميرة عن الحجاز نكاية به ، فاضطر أبو هاشم الى رد الخطبة الى الفاطميين. وفي عام ٤٦٣ هـ أرسل ألب ارسلان اليه النقيب مرة اخرى وهو يحمل له خلعاً نفيسة وثلاثين ألف دينار مع تعهد بمرتب سنوى قدره عشرة آلاف دينار . وكان في صحبة النقيب عسكر ضخم . فقطع أبو هاشم الدعـاء للفاطميين وأخذ يدعو للعباسيين ، وقال في خطبته : « الحمد لله الذى هدانا أهل بيته الى الرأي المصيب ، وعوض بنيه لبسة الشباب بعد لبسة المشيب ، وأمال قلوبنا الى الطاعة ، ومتابعة امام الجماعة »[٩] .

والغريب أن ابا هاشم ظل محافظاً على اذان الشيعة بالرغم من دعائه للعباسيين ، فأرسل اليه العباسيون الشريف أبا طالب لاقناعه بترك أذان الشيعة . وقد حاوره أبو طالب في ذلك كثيرا ، فقال له أبو هاشم : « هذا أذان أمير المؤمنين علي بن أبي طالب » . فرد عليه أبو طالب قائلا : «ان ذلك لم يصح عنه وانما فعله ابن عمر في بعض أسفاره ، فما أنت وابـن عمر ؟! » . فاقتنع أبو هاشم بهذا وأسقط أذان الشيعة وعاد الى أذان أهل السنة[١٠] .

---

(8) Shorter Encyclopaedia of Islam - art. Mecca.

(٩) عبدالملك العصامي (المصدر السابق) ـ ج٤ ، ص ٢٠٠ .
(١٠) أحمد السباعي (المصدر السابق) ـ ص ١٣٥ .

لم يستمر أبو هاشم على الدعاء للعباسيين طويلا والواقع انه كان يتحول بين العباسيين والفاطميين تبعاً لضغط الظروف او اغراء النقود • واضطر العباسيون في عام ٤٨٤ أن يعاملوه بسياسة العنف ، حيث وجهوا اليه قوة من الاتراك ، وجرى بينه وبين الاتراك قتال شديد • وكان ذلك بداية الفتن الطائفية في مكة ، اذ اصبحت مواسم الحج في السنوات التالية موضع تنافس وخصام بين أتباع العباسيين والفاطميين ، كل فريق منهم يريد الدعاء والأذان له في الكعبة •

قتادة :

في عام ٥٩٨ هـ انتهت امارة الهواشم على يد خصم لهم من الاشراف اسمه قتادة بن ادريس • فقد كان هذا الرجل في بداية أمره يسكن مع قومه بالقرب من ينبع في حالة شبه بدوية • وكان يطمح للحصول على شرافة مكة • وفي ٢٧ رجب ٥٩٨ هـ بينما كان أهل مكة مشغولين باحتفال لهم فاجأهم قتادة بهجوم صاعق ، واستطاع بسهولة ان يستولى على مكة وان يطرد الهواشم منها •

أخذ قتادة يدعو للخليفة العباسي الناصر لدين الله • وفي عام ٦٠٠ هـ أرسل اليه الخليفة الناصر يستدعيه الى بغداد ، ووعده ومنّاه ، فاستجاب قتادة له ، ورحل متوجها الى العراق • وعندما وصل الى مقربة من النجف ، وكان قد خرج لاستقباله جمع غفير من الناس ، شاهد بينهم درويشا وهو يقود أسدا بسلسلة • فتشاءم قتادة من هذا المنظر وقال : « لا أدخل بلادا تذل فيها الاسود » • ثم عاد من فوره الى الحجاز ، وكتب الى الخليفة الناصر خمسة أبيات ننقل منها البيتين الاول والاخير ، وهما :

بلادي وان جارت عليّ عزيزة ولو أنني أعرى بها وأجوع
وما أنا الاّ المسك فيغير أرضكم أضوع وأما عندكم فأضيع[11]

(١١) أحمد الداودي (المصدر السابق) ـ ص ١١٥ ـ ١١٦ •

غضب الناصر من هذه الابيات غضبا شديدا ، وكتب الى قتادة يهدده قائلا : « أما بعد ، فاذا نزع الشتاء جلبابه ، ولبس الربيع اثوابه ، قاتلناكم بجنود لا قبل لكم بها ، ولنخرجنكم منها أذلة وانتم صاغرون » . ثم أعد الناصر كتيبة من الجند وأرسلها الى مكة لتأديب قتادة .

استعد قتادة لقتال الكتيبة الناصرية ، وأرسل الى ابناء عمه الحسينيين في المدينة يستنجد بهم وكتب لهم هذه الابيات :

بني عمنا من آل موسى وجعفر   وآل حسين كيف صبركم عنا

بني عمنا انـّـا كأفنان دوحـــة   فلا تتركونا يتخذنا الفنـا فنـا

اذا ما أخ خلـّى أخـــاه لآكـل   بـدا بأخيـه الأكل ثم به ثنـّى

وقد استجاب الحسينيون لاستنجاد قتادة ، فجاؤوا بجمعهم الى مكة، وحين وصلت الكتيبة الناصرية اليها قابلها الحسنيون والحسينيون معـاً فهزموها وبددوا شملها(١٢) .

لم يمض على هذه الحادثة سوى سنة واحدة تقريبا حتى نشبـت الحرب بين الحسنيين والحسينيين ، ووقع قتال شديد بينهما في موضع يقال له « ذو الحليفة » ، انتصر فيه قتادة ، وقال في ذلك بيتا من الشعر هو :

مصارع آل المصطفى عـدت مثلما   بدأت ولكن صرت بين الاقـارب

وقد اتجه قتادة بعد انتصاره نحو المدينة فحاصرها وكان الحسينيون في المدينة بقيادة رجل منهم اسمه سالم بن قاسم . وقد تمكن هذ االرجل من فـك الحصار عن المدينة ، ثم أخذ يطارد قتادة حتى وصل الى مكة وحاصرها ، وأرسل الى قتادة يقول له : « حصر بحصر يا ابن عم » . ولم يستطع سالم الاستمرار فيالحصار لان بعض أصحابه تفرقوا عنه باغراء من قتادة ، فعاد الى المدينة(١٣) .

---

(١٢) عبدالملك العصامي (المصدر السابق) – ج٤ ، ص ٢٠٩ .
(١٣) المصدر السابق –ج٤ ، ص ٢٠٩ – ٢١٠ .

دام حكم قتادة نحو عشرين سنة ، قضى معظمها في الحروب ، وفي نهب الحجاج . وقد وصفه صاحب كتاب عمدة الطالب بقوله : « كان قتادة جبارا فاتكا فيه قسوة وتشدد وحزم »[١٤] . ووصفه شاهد عيان بقوله : « رأيته يطوف بالبيت ويدعو بتضرع وخشوع ، والريّس على زمزم يدعو له ، وهو كالاسد شجاعة ، والقطب خشوعا وتضرعا ، والبدر كمالا وبهاءاً »[١٥] .

كان قتادة يقول : « أنا أحق من الناصر العباسي بالخلافة » . وهو قد أعاد الى الاذان عبارة « حي على خير العمل » . وفي عام ٦١٨ قتله ابنه حسن ، وقيل قتله خنقا ، ثم تولى الشرافة بعده . ويقول عبدالملك العصامي ــ وهو من أهل مكة ــ في التعليق على ذلك ما نصه : « ثم زاد ظلم قتادة في الناس وأذاه للحجاج من العراقيين وغيرهم ، وأظهر التعدي حتى ضج الناس ، وفسدت نيته على الخليفة الناصر العباسي ، فارتفعت الايدي بالدعاء عليه ، فقتله الله على يد ابنه حسن بن قتادة ... »[١٦] .

حميضة بن أبي نمي :

في عام ٦٥١ هـ تولى شرافة مكة رجل يُعد من مشاهير الاشراف وصلحائهم هو أبو نميّ الاول . وهو من سلالة قتادة ، وطالت مدة شرافته نحو خمسين عاما . ويقول عنه المقريزي : « كان يقال لولا أنه زيدي لصلح للخلافة لحسن صفاته »[١٧] .

مات أبو نمي في عام ٧٠١ هـ . وقد كان له ثلاثون ولدا ذكرا واثنتا

---

(١٤) أحمد الداودي (المصدر السابق) ــ ص ١١٥ .
(١٥) عبدالملك العصامي (المصدر السابق) ــ ج٤ ص ٢١٢ .
(١٦) المصدر السابق ــ ج٤ ، ص ٢١٣ .
(١٧) تقي الدين المقريزي (كتاب السلوك) ــ القاهرة ١٩٧٠ ــ ج١ ، ق٣ ، ص ٩٢٧ .

عشرة بنتا . فحصل تنافس عنيف بين أولاده على شرافة مكة استمر سنوات عديدة ، وجرت من جراء ذلك خطوب وأهوال .

كان التنافس على أشده بين أربعة من الاخوة هم : حميضة وأبو الغيث ورميثة وعطيفة . وكانوا يستمدون العون في تنافسهم من العراق أو مصر . وفي عام ٧١٥ هـ أرسل حميضة أحد عبيده الى أخيه ابي الغيث الذى كان ينافسه على الشرافة . فذبحه على مشهد من الناس ، ثم دعا اخوته الآخرين الى وليمة ، وقدم لهم رأس أخيهم القتيل مطبوخا في جفنة ، كما أقام على رأس كل واحد منهم غلامين أسودين شاهرين السيوف ، بغية أخذ البيعة له منهم . فأذعنوا له قهرا(١٨) .

هرب رميثة الى مصر مستغيثا بالملك الناصر بن قلاوون ، وذكر له ان حميضة قطع اسمه من الخطبة في الكعبة وخطب لصاحب اليمن . فجهز الناصر رميثة بقوة كبيرة . وعاد رميثة بتلك القوة الى مكة ، وتغلب على حميضة واسره ، ولكن حميضة تمكن من الهرب والتجأ الى العراق مستنجدا بالسلطان المغولي خدابندة بن أرغون بن أباقا بن هولاكو . فتلقاه خدابندة لقاءاً حسناً وأكرمه ، وأقام حميضة عنده مدة غير قصيرة .

ومن الجدير بالذكر ان خدابندة كان قد اعتنق مذهب التشيع الاثنى عشري منذ عهد قريب بتأثير العالم الشيعي المعروف بـ « العلامة الحلي » . فتمكن حميضة من التأثير في خدابندة عن طريق تعصبه المذهبي الجديد ، وحرضه على أن يرسل معه جيشا من المغول لاحتلال مكة والخطبة له على منابرها(١٩) . ويقال ان حميضة زين لخدابندة أيضا أن يذهب بالجيش

---

(١٨) عبدالملك العصامي (المصدر السابق) ـ ج٤ ، ص ٢٢٧ ـ ٢٢٨ .

(١٩) تقي الدين المقريزي (المصدر السابق) ـ القاهرة ١٩٧١ ـ ج٢ ، ق١ ص ١٤٧ ـ ١٤٨ .

الى المدينة عقب احتلال مكة لنبش قبر الشيخين ونقل رفاتهما الى خارج الحرم النبوي[٢٠] .

استجاب خدابندة لتحريض حميضة وجهزه بجيش كبير من المغول . وسار حميضة بهذا الجيش نحو الحجاز عن طريق الصحراء ، وانضـم اليه في الطريق كثير من القبائل ، وخاصة قبيلة خفاجة برئاسة محمد بن عيسى بن مهنا . وحين وصل حميضة بجموعه الى موضع في الصحراء بين البصرة والقطيف ، بالقرب من موقع الكويت الحالية ، وصلهم نبأ موت خدابندة بالهيضة . فادى هذا النبأ الى تفرق الجيش . وانتهزت القبائل الفرصة ، ولا سيما قبيلة خفاجـة ، فانثالت على الجيش نهبا وتقتيلا ، وكان رئيس خفاجة يهتف باسم الملك الناصر سلطان مصر[٢١] . وقـد أبدى حميضة في تلك الواقعة شجاعة نادرة حيث قاتل قتالا لم يُسمع بمثله. وصفه احد الذين شاهدوه في القتال فقال : « مازلت أسمع بحملات علي بن أبي طالب حتى رأيتها من السيد حميضة معاينة »[٢٢] .

كانت تلك الواقعة قد وقعت في أواخر ذي الحجة من عام ٧١٦ هـ . وقد تكبد فيها حميضة خسائر فادحة اذ فقد معظم رجاله ، كما نُهب كل ما كان لديه من حريم وأموال وخيول . ولما وصل خبر الواقعة الى الملـك الناصر في مصر سُرَّ به سرورا عظيما ، وأرسل يستدعي اليه رئيس خفاجة محمد بن عيسى ، ومنحه مكافأة جسيمة[٢٣] .

يقول النويري في التعليق على تلك الواقعة ما نصه : « وكان خربندا ـ يقصد خدابندة احتقارا له ـ قبل موته بسبعة أيام قد أمر باشهار النداء أن لايذكر أبو بكر وعمر رضي الله عنهما ، وعزم على تجريد ثلاثة آلاف

(٢٠) عباس العزاوي (العراق بين احتلالين) ـ بغداد ١٩٣٥ ، ج١ ص ٤٤١ ـ ٤٤٢ ، ٤٤٥ .
(٢١) تقي الدين المقريزي (المصدر السابق) ـ ج٢ ، ق١ ، ص ١٤٨ .
(٢٢) أحمد الداودي (المصدر السابق) ـ ص ١١٨ .
(٢٣) تقي الدين المقريزي (المصدر السابق) ـ ج٢ ، ق١ ، ص ١٤٨ .

فارس الى المدينه النبوية لينقل أبو بكر وعمر رضي الله عنهما من مدفنهما ، فعجل الله بهلاكه »[٢٤] .

استطاع حميضة أن يصل بمن نجا معه الى مكة ، وتمكن بعد جهود ومحاولات شتى أن يستعيد الشرافة له وأن يطرد منها أخاه رميثة . وقطع الخطبة للملك الناصر ، وصار يدعو للسلطان أبي سعيد بن خدابنـــدة . فذهب رميثة الى مصر ، وجهزه الملك الناصر بقوة عاد بها الى مكة . ولم يكد حميضة يسمع بمجيء أخيه رميثة حتى فر من مكة ، والتجأ الــــى اليمن ، ثم عاد منها بجيش لاستعادة مكة ، ولكن القدر لم يمهله اذ وثب عليه أحد غلمانه فقتله وهو نائم[٢٥] ، وكان ذلك في عام ٧٢٠ هـ ، فاستراح وأراح !

ومن الجدير بالذكر في هذا الصدد ان حميضة عندما كان في العراق تزوج من امرأة عراقية فأنجبت له ولدا اسمه « محمد » . وقد بقي هذا الولد في العراق لدى أخواله ، وصارت له ذرية كبيرة ، واشتهر من نسله عطيفة الذى توفي في عام ٩٣٤ هـ الموافق لعام ١٥٢٨ م. فقد نال هذا الرجل حظوة كبيرة لدى الشاه اسماعيل الصفوي عند فتحه بغداد في عام ٩١٤ هـ ، حيث أقطعه الشاه الاراضي المعروفه باسمه على شاطيء دجلة الايمن بين بغداد والكاظمية ، كما عينه أميرا للحج ونقيبا للروضة الكاظمية وسادنها. وينتمي الى عطيفة هذا كثير من الاسر المعروفة في العــــراق الآن ، كآل الحبوبي وآل زيني في النجف ، وآلبو نيسان في سامراء ، وآل الحسنـي وآل حمندي وآل العطار وآل الراضي وآل الهادي في بغداد ، وآل عطيفة وآل سركشيك وآل الحيدري في الكاظمية . وينتمي الى عطيفة أيضا كثير من خدام الروضة الكاظمية .

---

(٢٤) نقلا عن عباس العزاوي (المصدر السابق) ـ ج١ ، ص ٤٤٥ .

(٢٥) عبدالملك العصامي (المصدر السابق) ـ ج٤ ، ص ٢٣٠ ـ ٢٣١ .

أبو نمي الثاني :

في عام ٩٣١ هـ تولى شرافة مكة رجل يدعى « أبو نمى » ويُلقب بـ « الثاني » تمييزا له عن أبي نمي الاول • وقد نال هذا الرجل حظـوة كبيرة لدى السلطان العثماني سليمان القانوني اذ أرسل اليه في اسطنبول ابنه أحمد وهو يحمل كثيرا من هدايا جزيرة العرب كالخيول والصقور والاقمشة والاطياب • وكان أحمد جميل الوجه ، وحين دخل على السلطان وهو لابس الملابس الخاصة بالاشراف الحسنية قام السلطان له تعظيما ، وهو أمر لم يقع لاحد سواه ، وخلع عليه الخلع الكثيرة • وكذلك فعلت زوجة السلطان وأعلنت للناس أنها تعتبر الشريف أحمد في مقام ولـدها(٢٦) •

نال أبو نمي الثاني على أثر ذلك غاية المجد والنفوذ ، ودانت له الدنيا في الحجاز ، ومدحه الشعراء بقصائد « عصماء » • وقد دامت شرافة أبي نمي مدة تزيد على الستين عاما ، اذ هو مات في عام ٩٩٢ هـ • ولعله كان أطول الاشراف حكما •

يُعتبر أبو نمي الثاني المؤسس الحقيقي للشرافة ، وهو جد الاسرة التي ظلت محتفظة بالشرافة الى أن قضى عليها ابن سعود في عام ١٩٢٥ • والمعروف عن أبي نمي انه كان شديد الاعتزاز بالنسب وقد اعتاد في حياته على التمييز بين الناس حسب أنسابهم وبيوتاتهم ، مستندا في ذلك على حديث للنبي هو: «أُمرت ان انزل الناس منازلهم » • وكان رأيه ان العرق دساس فمن كان رفيع النسب كان رفيع الخلق أيضا ، أما الصعاليك من الناس فهم في نظر أبي نمي لئام واذا نالوا المنازل العالية في المجتمع فربما حصل من ذلك الضرر(٢٧) •

يبدو أن الدولة العثمانية كانت تؤيد أبا نمي في هذا الرأي ، وهو في

(٢٦) المصدر السابق ـ ج٤ ، ص ٣٢٦ •
(٢٧) المصدر السابق ـ ج٤ ص ٣٣٤ ـ ٣٣٥ •

الواقع رأي كان شائعا بين الناس يؤمن به الكثيرون ـ ومازال البعض منهم مؤمنا به حتى يوما هذا • وقد حدا هذا الرأي بأبي نمي الى وضع قواعد عرفت باسم « قانون أبي نمي » قصد بها تمييز الاشراف عن غيرهم رسميا • ومن الجدير بالذكر ان هذه القواعد ظلت مكتومة عن الناس لا يعرفها سوى عدد محدود من الاشراف ، وهم يتداولونها بينهم ولا يسمحون لاحد غيرهم بالاطلاع عليها • ويدعي صاحب كتاب « تاريخ الحجاز » انه أطلع على بعض تلك القواعد وقد ذكرها في كتابه على النحو التالي :

(١) الشرافة وراثية في الاسرة الهاشمية •

(٢) لايجوز لاي شريف أن يشتغل في أية مهنة او صنعة ما عدا القراشة ـ اي الحطب والفحم ـ والجمال والزرع •

(٣) اذا قُتل الشريف أُخذ من أهل القاتل أو قريته أربعة حيث يُقتلون قصاصا له •

(٤) صافع الشريف تُقطع يده •

(٥) شاتم الشريف يُقطع لسانه •

(٦) الشريف لايُحاكم في مجلس خصمه •

(٧) اذا هم الشريف بقتل شريف أو رفع عليه السلاح يُنفى من البلاد •

(٨) لايُقتل الشريف اذا قتل غير الشريف •

(٩) للشريف الحاكم ثلث دية القتيل[٢٨] •

يبدو ان هذا القانون لم ينفذ حرفيا لما فيه من شدة بالغة ومخالفة للشرع ، ولكنه على أي حال قد ساعد على صيانة مكانة الاشراف.وجعلهم نوعا من الطبقة المغلقة في الحجاز •

---

(٢٨) حسين محمد نصيف (تاريخ الحجاز) ـ القاهرة ١٣٤٩ هـ ـ ج١ ، ص ١٧ ـ ١٨ •

الطائفية في الحجاز :

ان النزاع الصفوي العثماني الذى حدث في العراق منذ القرن العاشر الهجري كان له أثره في الحجاز • ففي موسم الحج من عام ١٠٤٢ هـ ورد الى مكة أمر من السلطان العثماني في اسطنبول بمنع العجم من الحج والزيارة ، وقد نودي بهذا الامر في أسواق مكة لتبليغ العجم بذلك وهم يبلغونه اخوانهم اذا عادوا الى بلادهم(٢٩) •

كان يتولى شرافة مكة في ذلك الحين رجل اسمه زيد بن محسن ، وقد أعلن هذا الرجل تحوله من المذهب الزيدي الى المذهب الحنفي ــ وهو المذهب الذى كانت الدولة العثمانية تعتنقه • يقول صاحب كتاب « تاريخ مكة » عن هذا الرجل ما نصه : « كان يعتقد اعتقاد أهل بيته من الزيدية ، ثم باينهم ورجع الى معتقد أهل السُنة ، وتمذهب بمذهب الامام أبي حنيفة • وكف أهل بيته عن كثير مما كانوا ينالون من أهل السنة ومنعهم من اظهار معتقداتهم »(٣٠) •

وانتشرت بين سكان مكة في ذلك الحين اشاعة مفادها ان الشيعة لايتم حجهم في مذهبهم الا اذا لوثوا الكعبة بالنجاسة • وقد صدق الكثير من الناس بهذه الاشاعة كما هي عادة الناس عند استفحال التعصب الطائفي لديهم • وفي ٨ شوال ١٠٨٨ هـ ــ وهو يوافق ٤ كانون الاول ١٦٧٧ م ــ وقعت فتنة طائفية في مكة من جراء تلك الاشاعة • ننقل فيما يلي وصفا لتلك الحادثة كما رواها رجل من أهل مكة شاهدها بنفسه ، حيث قال ما نصه :

« وفي سنة ثمان وثمانين وألف يوم الخميس ثامن شوال منها وقع حادث غريب ، وكارث عجيب ، هو أنه وقع في ليلته أن لُوّث الحجر

---

(٢٩) أحمد السباعي (المصدر السابق) ــ ص ٢٥٧ •
(٣٠) المصدر السابق ــ ص ٢٥٨ •

الاسود وباب الكعبة ومصلى الجمعة وأستار البيت الشريف بشيء يشبه العذره في النتن والخبث ، فصار كل من يريد تقبيل الحجر يتلوث وجهه ويداه ، ففزعت الناس من ذلك ، وضجت الاتراك واجتمعت ، وغُسل الحجر والباب والاستار بالماء ، وبقي الاتراك والحجاج والمجاورون في أمر عظيم . وكان اذ ذاك رجل من فضلاء الاروام يلقب درس عام ، فكان يرى جماعة من الارفاض بالمسجد الحرام ، وينظر صلاتهم وسجودهم وحركاتهم عند البيت والمقام ، فيتحرق لذلك ويتأوه . فلما وقع هذا الواقع قال : ليس هذا الا فعل هؤلاء الارفاض اللئام ، الذين يلازمون المسجد الحرام . وكان حينئذ مع قضاء الملك العلام ، السيد محمد مؤمن الرضوي قاعدا خلف المقام ، يتلو كتاب الله ذي الجلال والاكرام ، فأتوا اليه ، وأخذت الختمة من يديه ، وضُرب على رأسه ، وسُحب حتى أُخرج من باب المسجد المعروف بباب الزيادة ، فطُرح خارج الباب ، وضُرب بالحجارة والكسارات حتى زهق ومات . وفي حال مسكهم اياه من المسجد كلمهم فيه شخص شريف من السادة الرفاعية يُسمى السيد شمس الدين ، فعدوا عليه وألحقوه به ، فضُرب حتى مات وجُرّ . ثم أصابوا آخر فضربوه وأخرجوه وقتلوه ، وعلى من قبله طرحوه . ثم فعلوا ذلك برابع ، ثم بخامس . ولقد رأيتهم مطروحين ، وبقي بعضهم على بعض ، الآتي والذاهب يوسعهم السب والركل . ولقد رأيت ذلك الشيء وتأملته فاذا هو ليس من القاذورات ، وانما هو من انواع الخضروات ، عجين بعدس ممخخ وادهان معفنات ، فصار ريحه ريح النجاسات . وكان هذا الفعل عند مغيب القمر من تلك الليلة ليلة الخميس ثامن الشهر المذكور ، ولم يُعلم الفاعل لذلك . وغلب على بعض الظنون ان ذلك جُعل عمدا وسيلة الى قتل أولئك . والله اعلم بالسرائر ، وهو متولي الباطن والظاهر »[٣١] .

(٣١) عبدالملك العصامي (المصدر السابق) — ج٤ ، ص ٥٢٩ .

ومما يلفت النظر ان حادثة أخرى تشبه هذه الحادثة وقعت في عـام ١١٤٣ هـ ، خلاصتها ان قافلة من حجاج الشيعة وصلت الى مكة متأخرة عن موسم الحج ، فاقام الشيعة في مكة بغية اداء الحج في الموسم القادم • وعند هذا انطلقت في مكة اشاعة بين العامة مفادها ان الشيعة وضعوا نجاسة فـي الكعبة • وثار الجمهور ، كما ثار العسكر معهم ، وذهبوا جميعا الى القاضي ، ولكن القاضي هرب منهم خوفا من فتنتهم • فتوجهوا الى المفتي وأخرجوه من بيته كما أخرجوا معه عددا من الفقهاء ، وذهبوا بهم الى وزير الشريف وتمكنوا ان ينتزعوا من الوزير أمرا بابعاد الشيعة عن مكة ، ثم خرجوا الى الاسواق ينادون بطرد الشيعة من مكة ونهب بيوتهم •

كان شريف مكة يومذاك اسمه محمد بن عبدالله ، ولم يكن راضيا عما وقع • فذهب الجمهور في اليوم التالي الى القاضي يطلبون منـــه التوسط لدى الشريف للتصديق على قرار الوزير بطرد الشيعة • فامتنع الشريف عن تصديق القرار أول الامر ، ثم اضطر أخيـــراً الى مجاراة الجمهور درءاً للفتنة العامة • فخرج الشيعة من مكة ، حيث ذهب بعضهم الى الطائف ، والبعض الآخر الى جدة • وعندما هدأت الفتنة تمـــكن الشريف من القبض على دعاتها ، ثم ارسل الى الشيعة يطلب منهم العودة الى مكة فعادوا[٣٢] •

ومن الجدير بالذكر في هذا الصدد ان تهمة تلويث الكعبة بالنجاسة أثيرت مـــرة أخرى حدينا في عام ١٩٤٢ حيث اتهم بها رجل ايـرانـي اسمه « سيد أبو طالب اليزدي » ، وقد صدر الحكم عليه بالاعدام ، ونفـذ الحكم فيه على مشهد من الناس بين الصفا والمروة • وأحدث اعدامـــه ضجة كبرى في ايران ، وقيل ان الملك عبدالعزيز بن سعود دفع تعويضـا لعائلة الرجل قدره مائة الف ريال •

---

(٣٢) أحمد السباعي (المصدر السابق) ـ ص ٢٩٦ •

من ذيول مؤتمر النجف :

في عام ١١٥٦ هـ – الموافق لعام ١٧٤٣ م – عقد نادر شاه مؤتمره المشهور في النجف بغية التوحيد بين الشيعة وأهل السنة ، وكان قد أحضر اليه عددا كبيرا من علماء الفريقين ، من ايران وافغانستان وتركستان ، كما حضره من بغداد الشيخ عبدالله السويدي الذى كان كبير علماء السنة في العراق ، وحضره من كربلاء السيد نصر الله الحائرى الذى كان كبير علماء الشيعة فيه • وبعد مناقشات طويلة بين الفريقين تم الاتفاق بينهما على شروط كان أهمها اثنان : اولهما أن يترك الشيعة سب الصحابة ، والثاني أن يعترف السنيون بالتشيع مذهباً خامساً يسمى بـ « المذهب الجعفري » نسبة الى الامام جعفر الصادق • وكان من جملة الشروط أيضا أن يُسمح للشيعة بالصلاة والخطبة في الركن الشامي من الكعبة عند موسم الحج ، وذلك بعد فراغ الامام المختص به من صلاته[٣٣] •

وبعد انتهاء المؤتمر أرسل نادر شاه السيد نصرالله الحائري الى مكة لكي يقوم بالصلاة في الركن الشامي حسب قرار المؤتمر ، وأرسل معه نسخة من محضر المؤتمر ، كما أرسل كُتبا الى شريف مكة مسعود بن سعيد ، والى قاضيها ومفتيها ، يخبرهم بأنه مرسل اليهم امام المذهب الجعفري لتنفيذ قرارات المؤتمر •

حين وصل الحائري الى مكة استقبله الشريف مسعود باللطف والترحاب ، وسمح له بالصلاة والخطبة في الركن الشامي • ولكن العامة لم يهن عليهم ذلك ، فهاجوا وماجوا ، علما بأن قصة تلويث الكعبة الثانية لم يكن قد مر عليها سوى ثلاثة عشر عاما • وتدل بعض القرائن على ان

(٣٣) انظر تفاصيل المؤتمر وقراراته في الجزء الاول من هـذا الكتاب – الفصل الخامس •

الشيخ عبدالله السويدي.الذي جـاء الى الحج في تلك السـنة كانت له يد في اثارة العامة •

أرسل الوزير التركي في جدة الى الشريف مسعود يطلب منه تسليم الحائري اليه ليقتله • فامتنع الشريف عن تسليمه وقال : « اني سأحافظ عليه الى أن اكتب الى دار الخلافة وأتلقى جوابها فيما تأمر »(٣٤) • فلم يرض الوزير التركي عن هذا الجواب ، واتهم الشريف بالميل الى المذهب الجعفري •

أسرع الشريف فكتب الى السلطان في اسطنبول يخبره بالامـر ، ويطلب منه الرأي • فوصله الجواب من السلطان خلال مدة قصيرة يأمره بالقاء القبض على الحائري وتسليمه الى أمير الحج الشامي أسعد باشـا العظم • ففعل الشريف ما أمره السلطان به • وحُمل الحائري مخفورا مع أسعد باشا الى الشام ، وسُجن هناك في قلعة دمشق • وبعد مـدة يسيرة طُلب الحائري الى اسطنبول فحمل مخفورا اليها • ويُروى انـه مات مسموما ، غير ان جنازته شيعت تشييعا رسميا ودُفن في قبر لائق به ، وما زال قبره قائما(٣٥) •

يبدو ان الشريف مسعود شعر بحراجة مركزه عقب هذه الحادثة ، وربما بلغه ما أشيع عنه من الميل الى المذهب الجعفري ، فأمر بلعن الرافضة على المنابر(٣٦) درءاً للتهمة عنه •

الحرب مع الوهابيين :

في أواسط القرن الثامن عشر الميلادي بدأت الدعوة الوهابية بالظهور في نجد • وبعد سنوات قليلة من ظهورها أرسل الوهابيون ثلاثين من علمائهم

---

(٣٤) أحمد السباعي (المصدر السابق) ـ ص ٣٠٠ •
(٣٥) علي الوردي (لمحات اجتماعية) ـ بغداد ١٩٦٩ ـ ج١ ، ص ١٤١ •
(٣٦) أحمد السباعي (المصدر السابق) ـ ص ٣٠٠ •

الى مكة لمناظرة علمائها • يقول دحلان صاحب كتاب « خلاصة الكلام في أمراء البلد الحرام » : ان الشريف مسعود أمر علماء الحرمين أن يناظروا علماء الوهابية ، فناظروهم ، فوجدوا عقائدهم فاسدة ، وكتب قاضي الشرع حجة بكفرهم وحبسهم • فسجن الشريف مسعود بعضهم وفر الباقون(٣٧) •

أمر الشريف مسعود بمنع الوهابيين من الحج ، وظل المنع ساريا في عهد خلفائه • وفي عام ١٧٨٨ م تولى شرافة مكة غالب بن مساعد ، وكان داهية جبارا • وكانت الدعوة الوهابية قد تنامت في زمانه وانضمت اليها قبائل كثيرة • فصمم الشريف غالب على محاربتها والقضاء عليها •

وجه غالب حملات عديدة الى نجد لم ينجح فيها ، واضطر في عام ١٧٩٨ م الى عقد الصلح مع الوهابيين وسمح لهم بالحج • وقد انتهز الوهابيون فرصة توقف القتال مع غالب ، فصاروا يوجهون غاراتهم على العراق • وفي عام ١٨٠٢ م قاموا بفعلتهم المشهورة في كربلاء حيث اقتحموها بغتة وقتلوا كثيرا من سكانها ونهبوها كما نهبوا خزانة المرقد الحسيني ـ على نحو ما ذكرناه بتفصيل في الجزء الاول من هذا الكتاب •

انتقض الصلح بين الوهابيين والشريف غالب في عام ١٨٠٢ • وقد التحق بالوهابيين عثمان المضائفي وكان وزير الشريف غالب وزوج اخته ، فتقوى الوهابيون به • وعاد المضائفي على رأس جيش كبير من القبائل الوهابية ، فحاصر الطائف وفتحها • وقام الوهابيون في الطائف بمذبحة فظيعة ، ونهبوها نهبا ، على عادتهم في كل بلدة يفتحونها ، اذ هم يعتبرون سكانها مشركين يجوز سفك دمائهم ونهب أموالهم •

كان الامير سعود بن عبدالعزيز عند فتح الطائف متوجها نحو غزو

---

(٣٧) محسن الامين (كشف الارتياب) ـ ط ٣ ـ ص ٧ •

العراق ، فلما وصل اليه خبر فتح الطائف على يد قوات عثمان المضائفي سر به سرورا عظيما وترك غزو العراق وتوجه نحو الحجاز • وقد تمكن الامير سعود من فتح مكة بلا قتال ، ذلك لان الشريف كان قد انسحب منها قبيل ذلك وذهب الى جدة فتحصن فيها •

في ٨ محرم عام ١٢١٨ هـ ــ وهو يوافق ٣٠ نيسان ١٨٠٣ م ــ دخل الامير سعود مكة محرماً ، فطاف وسعى ونحر نحو مائة بعير • وفي اليوم التالي نادى مناديه يأمر الناس بالاجتماع ضحى الغد • وعندما تم اجتماع الناس في الوقت المحدد صعد الامير سعود على درج الصفا ، وكان المفتي عن يمينه والقاضي عن يساره ، وخطب تقليدا للنبي عند فتحه مكة ، حيث قال ما نصه :

« الله اكبر ، الله اكبر ، لا اله الا الله وحده ، صدق وعده ، ونصر عبده ، وأنجزوعده ، وأعز جنده ، لا اله الا الله ، ولا نعبد الا اياه ، مخلصين له الدين ، ولو كره الكافرون ، الحمد الذي صدقنا وعده • ياأهل مكة انتم جيران بيته آمنون بأمنه وسكنى حرمه ، وانتم في خير بقعة • اعلموا ان مكة حرام ما فيها ، لايُختلى خلاها ، ولا ينفر صيدها ، ولا يعضد شجرها ، وانما أحلت ساعة من نهار • انّا كنا أضعف العرب ، ولما أراد الله ظهور هذا الدين دعونا اليه وكل يهزأ بنا ويقاتلنا عليه وينهب مواشينا ونشتريها منه • ولم نزل ندعو الناس للاسلام وجميع من تراه عيونكم ومن تسمعون به من القبائل انما أسلموا بهذا السيف ــ ورفع سيفه تجاه الكعبة ــ وقد كنتُ في هذا العام غازيا نحو العراق فلما سمعت ما وقع من المسلمين بغزوة الطائف ، وأقبلوا عليكم يغزونكم ، خفت عليكم من العربان والبادية • فاحمدوا الله الذى هداكم للاسلام وانقذكم من الشرك، وانا أدعوكم أن تعبدوا الله وحده وتقلعوا عن الشرك الذى كنتم عليه ، وأطلب منكم أن تبايعوني على دين الله ورسوله ، وتوالون من والاه ، وتعادون من عاداه ، في السراء والضراء ، والسمع والطاعة » •

وبعد أن انتهى الامير سعود من خطبته جلس ، وتهافت الناس عليه يبايعونه وكان في مقدمتهم المفتي والقاضي والشريف عبدالمعين أخو الشريف غالب • ثم أمر الامير سعود أهل مكة بهدم جميع القبب والقبور التي فيها حتى لايكون هناك معبود غير الله •

وفي الصباح التالي بادر الوهابيون ومعهم الكثيرون من أهل مكة ، ومعهم المساحي ، فهدموا القبب القائمة في المصلى ، ثم هدموا قبة مولد النبي ومولد ابي بكر ومولد علي بن ابي طالب وقبة السيدة خديجة ، وظلوا كذلك حتى لم يبق في مكة أثر من قبة • وكانوا في أثناء الهدم يرتجزون ويضربون الطبول ويشتمون القبور ويقولون : « ما هي الا أسماء سميتموها » • ويقال ان أحدهم بال على قبر السيد المحجوب[٣٨] •

وأمر الامير سعود باحراق النارجيلات وآلات اللهو ، ومنع من تدخين التتن والتنباك ، كما منع الاستغاثة بالمخلوقين وبناء القبب على القبور وتقبيل الاعتاب • وكذلك منع كل عبارة تضاف الى الاذان كالصلاة على النبي ، أو قول المؤذن « يا أرحم الراحمين » ، أو الترضي عن الصحابة ، فقد اعتبرها من قبيل الشرك • ثم أمر بتدريس كتاب محمد بن عبدالوهاب المسمى بـ « كشف الشبهات » في المسجد في حلقة عامة يحضرها العلماء والاهالي ، ففعلوا ذلك •

وبعد أن مكث الامير سعود في مكة نحو أربعة وعشرين يوما توجه بجيوشه نحو جدة بغية فتحها • وكان الشريف غالب قد تحصن وراء أسوار جدة مستعدا لقتاله • فدام القتال بين الفريقين ثمانية ايام دون ان يفلح سعود في فتح جدة • وقد اضطر سعود الى العودة الى نجد على أثر خبر مقلق وصله منه • وتمكن الشريف غالب من العودة الى مكة •

---

(٣٨) المصدر السابق ــ ص ٢١ ــ ٢٣ •

ظلت الحروب متصلة بين الشريف غالب والوهابيين • واستطاع الوهابيون في عام ١٨٠٤ أن يشددوا الحصار على مكة وقطع المؤون عنها • فاستفحلت المجاعة فيها واستمرت حتى السنة التالية ، واضطر بعض الناس الى أكل الجلود والنوى وبزر الخشخاش ، والمهرة والكلاب[٣٩] وكل حيوان ، وشربوا الدم ، وأكلوا نباتا يسمى « الاخريط » كان يسبب فيهم ورما ، وشوهد الاطفال موتى في الازقة[٤٠] •

اضطر الشريف غالب في شباط ١٨٠٦ الى عقد الصلح مع الوهابيين، وتم الصلح بينهما على أن يكون الحجاز خاضعا للوهابيين وان يبقى الشريف غالب على امارته تابعا لهم •

وحين حل موسم الحج في السنة التالية قال الامير سعود لاميري الحج الشامي والمصري : « ما هذه العويدات التى تأتون بها وتعظمونها !؟ » مشيرا الى المحامل ، فأجاباه بأن هذه المحامل اشارة لاجتماع الناس وهي عادة قديمة • فقال لهم : « لا تفعلوا ذلك بعد هذا العام ، وان أتيتم بها فاني أكسرها » • وكذلك اشترط عليهما أن لايأتيا بطبول وزمور •

وفي موسم الحج التالي حين وصل أمير الحج الشامي الى مقربة من المدينة أرسل اليه الامير سعود يقول : « لاتدخل الحجاز الا على الشرط الذى شرطناه عليك في العام الماضي » • فعاد أمير الحج مع من كان معه من الحجاج الى بلادهم • ويُروى أن سعود أمر باحراق المحمل المصري في تلك السنة • كما أمر مناديه بأن ينادي في الناس : « لا يأتي الحرمين بعد هذا العام من يكون حليق الذقن » • ومنذ ذلك الحين انقطع المصريون

---

(٣٩) احمد السباعي (المصدر السابق) ــ ص ٣٥١ •

(٤٠) محسن الامين (المصدر السابق) ــ ص ٣٢ •

والشاميون عن الحج[٤١] ، كما انقطع العراقيون[٤٢] .

وأمر سعود بهدم جميع القبب التى كانت في البقيع وفي المدينة ، ما عدا قبة المسجد النبوي ، كما استحوذ على جميع التحف والجواهر المخزونة في الحجرة النبوية كان من بينها أربع شمعدانات من الزمرد في كل واحد منها قطعة من الماس تضيء بدلا من الشمعة[٤٣] .

الحملة المصرية :

أوعز السلطان العثماني محمود الثاني الى محمد علي باشا والي مصر بارسال الجيوش الى الحجاز لطرد الوهابيين منه . فجهز محمد علي حملة قوية بقيادة ابنه الاكبر طوسون باشا ، وفي عام ١٨١١ عبرت الحملة البحر الاحمر بالسفن الى ينبع فاحتلت البلدة بعد قتال شديد ، ونهب الجنود البلدة كما سبوا نساءها على رواية الجبرتي[٤٤] . ولكن الحملة حين تقدمت نحو المدينة ووصلت الى مقربة من بدر باغتها الوهابيون وهزموها شر هزيمة ، مما اضطرها الى الانسحاب الى ينبع .

جهز محمد علي باشا حملة أخرى ، واستطاعت هذه الحملة أن تستميل اليها القبائل بما اغدقت عليها من الاموال الطائلة . وتمكنت أخيرا من فتح المدينة وجدة ومكة . وقد أيدها الشريف غالب وتعاون معها . وتوجه الشريف على رأس قوة كبيرة نحو الطائف وفتحها . وقد وقع عثمان المضائفي في أسره ، فأمر الشريف بوضع سلسلة من الحديد في عنقه وارساله الى مصر .

---

(٤١) حافظ وهبة (جزيرة العرب في القرن العشرين) ـ القاهرة ١٩٦٧ ، ص ٢٢٦ .

(٤٢) محسن الامين (المصدر السابق) ـ ص ٣٥ .

(٤٣) المصدر السابق ـ ص ٣٥ .

(٤٤) نقلا عن المصدر السابق ـ ص ٣٧ .

حين وصل الى محمد علي باشا خبر الانتصارات التى نالتها جيوشه في الحجاز جاء بنفسه اليه وعند وصوله الى جدة حضر الشريف غالب لمقابلته فيها ، ثم جاء اليه أيضا وفد من الامير سعود يطلب الصلح كما يطلب الافراج عن عثمان المضائفي ، وقدم فدية عنه قدرها مائة ألف ريال فرنسي ، فقال محمد علي للوفد : « أما المضائفي فأُرسل الى اسلامبول ، وأما الصلح فلا نأباه بشرط دفع كل ما صرفناه على العساكر من ابتداء الحرب الى اليوم وارجاع ما أخذه من ذخائر الحجرة النبوية ... » . فعاد الوفد خائبا ، كما ان المضايفي أُرسل الى اسطنبول فطيف به في أسواقها مع زميل له اسمه ابن مضيان ، ثم قُتلا[٤٥] .

غادر محمد علي باشا جدة متوجها الى مكة ، وعند وصوله اليها احتفى به الشريف غالب احتفاءاً عظيما وبالغ في ضيافته . وكان محمد علي من جانبه يبالغ في احترام الشريف ويقبل يده أمام الناس . وقد تعاهد الرجلان في جوف الكعبة على الوفاء وعدم الخيانة .

كان السلطان العثماني غاضبا على الشريف غالب لما سبق له من صلح مع الوهابيين ، فكتب الى محمد علي يأمره باعتقال الشريف وارساله الى اسطنبول . وقد شعر محمد علي بالحيرة لتنفيذ هذا الامر السلطاني بعد ما تعاهد مع الشريف في جوف الكعبة على الوفاء وعدم الخيانة . وقد وجد محمد علي أخيرا حيلة شرعية تمكنه من تنفيذ الامر حيث كلف أبنه طوسون باشا به ، ولم يقم هو به بنفسه تخلصا من نكث العهد بزعمه . وقد قام طوسون باشا بالامر ، فأمر باعتقال الشريف غالب بعد تقبيل يده .

أُرسل الشريف غالب الى مصر مع ولديه عبدالله وحسين وأربعة من عبيده . ثم صودرت أمواله وأملاكه واستولي على جميع ما في داره ، وأخرج حرمه وجواريه من الدار بعد تفتيشهن تفتيشا فاحشا . ولكنه عند

---

(٤٥) المصدر السابق ــ ص ٤١ .

وصوله مصر استقبل باحتفاء كبير وأطلقت له المدافع ، وسُمح لحريمه بالالتحاق به • ثم أُرسل بعد ذلك الى سالونيك مع حريمه وولديه وعبيده • وأمر السلطان باعادة كل ما صودر منه ، ومنحه المرتبات الكافية له • وقضى الشريف غالب بقية عمره في سالونيك ، وقد توفى بمرض الطاعون في عام ١٨١٦[٤٦] •

ظلت الحروب مستمرة بين الحملة المصرية والوهابيين • وقد اضطر محمد علي باشا الى العودة الى مصر في عام ١٨١٥ تاركا قيادة الحملة الى ابنه طوسون • وفي أواخر ١٨١٦ مات طوسون من جراء حمى اصابته ، فعين محمد علي ابنه الثاني ابراهيم باشا قائدا للحملة • وقد استطاع ابراهيم أن يغلب الوهابيين وان يطاردهم حتى وصل في عام ١٨١٨ الى عاصمتهم الدرعية • وبعد أن حاصر الدرعية طيلة ستة أشهر استسلمت له • فقتل ابراهيم علماءها ثم أرسل عبدالله بن سعود ، الذى كان قد خلف أباه في امارة الوهابيين ، الى اسطنبول حيث نُفذ فيه حكم الاعدام بأمر من السلطان • وفي حزيران ١٨١٩ وصل الى ابراهيم باشا أمر من أبيه محمد علي بتدمير الدرعية تدميرا تاما ، فقام ابراهيم بما أُمر به ، واصبحت الدرعية مجموعة من الاطلال[٤٧] •

بين عون وزيد :

دام الحكم المصري في الحجاز نحو ثلاثين سنة اذ لم ينسحب الجيش المصري من الحجاز الا في عام ١٨٤٠ م • وكانت تلك الفترة ذات أثر كبير في منصب الشرافة ، فقد كان شريف مكة قبل ذلك يحكم الحجاز

(٤٦) عبدالله فيلبي (تاريخ نجد) ـ ترجمة عمر الديراوي ـ بيروت ـ ص ١٣٩ •

(٤٧) المصدر السابق ـ ص ١٦١ •

حكما مطلقا وتكاد سيادة الدولة العثمانية عليه تكون اسمية(٤٨) • أما بعد ذلك فقد أصبح الشريف يشاركه في الحكم والي تركي ومعه قوات نظامية تخضع لامره • وقد بدأ منذ ذلك الحين صراع بين الوالي والشريف يشتد تارة ويخف تارة أخرى • فالوالي يريد أن يفرض سيادة الدولة في الحجاز ، بينما الشريف يريد أن يستعيد مجد اجداده في الحكم المطلق •

ومن الممكن القول ان الصراع بين الاشراف أنفسهم قد دخل فيه من جراء ذلك عامل جديد لم يكن موجودا من قبل ، هو نفوذ الدولة وأمر السلطان • فبعد ما كان الصراع بين الاسر المتنافسة محصورا في داخل الحجاز ويعتمد على القوة وحدها ، أصبح الان يدور بالاضافة الى ذلك في أروقة أسطنبول حيث تحاول كل أسرة نيل الحظوة لدى السلطان وتشويه سمعة غريمتها لديه •

شهدت فترة الحكم المصري في الحجاز بداية الصراع المشهور بين أسرتين من الاشراف هما : اسرة ذوي زيد واسرة ذوي عون • وهو الصراع الذى استمر حتى عهد ما بعد الحرب العالمية الاولى وكان له أثره في تاريخ الاشراف القريب •

كان عبدالمطلب بن غالب هو زعيم ذوي زيد ، وقد تولى الشرافة في عام ١٨٢٧ ، ولكن عهده لم يدم طويلا اذ كان ينافسه على الشرافة محمد بن عبدالمعين زعيم ذوي عون • ويدعي ذوو زيد أن محمد بن عبدالمعين لم يكن شريفا بل هو مجهول النسب كان يعمل خادما عند الشريفة حزيمة أخت عبدالمطلب ولكن محمد علي باشا أراد أن يجعل منه ندا لعبدالمطلب نكاية به ولكي يشق الاشراف ويضعفهم •

---

(٤٨) سليمان موسى (الحركة العربية) - بيروت ١٩٧٠ - ص ٤٤ •

وفي أوائل عام ١٨٢٨ م حدثت معركة شديدة في الطائف بين قوات عبدالمطلب وقوات محمد بن عبدالمعين ، وقد ساعدت القوات المصرية محمدا ، فانتصر على خصمه • فطلب عبدالمطلب منه الامان ، وغادر الحجاز ذاهبا الى اسطنبول • وقد احتفى به السلطان محمود عند وصوله وأكرمه وأبقاه عنده في اسطنبول •

استمرت شرافة محمد حتى عام ١٨٥١ عندما صدر أمر السلطان بعزله لسبب غير معروف ، وقد عينت الدولة عبدالمطلب في الشرافة مكانه• وقد ذهب محمد الى اسطنبول فعاش هو واولاده في كنف السلطان مكرما على نحو ما عاش خصمه عبدالمطلب من قبل •

لم تدم شرافة عبدالمطلب في هذه المرة سوى اربع سنوات تقريبا ، ففي عام ١٨٥٤ حدث حادث أدى الى عزله • وخلاصة الحادث ان الوالي التركي كامل باشا قد وصله أمر من السلطان بمنع بيع الرقيق علنا في الاسواق تنفيذا لمعاهدة عُقدت بين الدولة العثمانية وبريطانيا • وقد استدعى كامل باشا دلالي الرقيق وأبلغهم الامر ، ولم يكد ينتشر الخبر في مكة حتى هاج الناس وتنادوا بالجهاد ، واجتمع طلبة العلم في بيت رئيس العلماء وطلبوا منه أن لايرضخ لهذا الامر الذى هو مخالف للشرع في نظرهم ، كما طلبوا منه أن يذهب معهم الى دار القاضي ليمنع من صدور الامر • فاستجاب رئيس العلماء لطلبهم وسار معهم متجها الى دار القاضي، وانضم الجمهور اليهم في الطريق وهم ينادون بالثورة ، واشتبكوا مع الحامية التركية في قتال عنيف امتد الى المسجد الحرام ، وسقط فيه عدة قتلى من الفريقين •

كان الشريف عبدالمطلب يومذاك في الطائف ، ولما علم بالامر قرر أن يقف الى جانب الاهالي ضد الحامية التركية ، وجمع اتباعه وتوجه بهم نحو مكة • وأسرعت الحامية التركية بالانسحاب الى جدة ، فتحصنت فيها • وأعلن الوالي ان أمر السلطان قد وصله بعزل عبدالمطلب من الشرافة واعادة محمد بن عبدالمعين اليها •

وفي ٢٦ نيسان ١٨٥٥ وصلت باخرة الى جدة وهي تحمل محمد بن عبدالمعين ، فأقيمت الزينات في جدة احتفاءا بمقدمه • وسار محمد على رأس قوات كبيرة نحو الطائف التي كان عبدالمطلب متحصنا فيها • ثم هاجم الطائف هجوما شديدا واقتحمها وأسر عبدالمطلب ، وأرسله مخفورا الى اسطنبول ، فعفا عنه السلطان وأقامه في أحد القصور مكرما(٤٩) •

في ٢٩ آذار ١٨٥٨ مات محمد بن عبدالمعين على أثر مرض لم يمهله الا اياما ، فتولى الشرافة من بعده ابنه عبدالله • وظل عبدالله في منصب الشرافة الى أن حل عهد الدستور الاول في الدولة العثمانية على يد مدحت باشا في عام ١٨٧٧ ، فعُزل عبدالله وعُين مكانه اخوه الحسين بن محمد الذي كان من المؤيدين لمدحت باشا والدستور •

دامت شرافة الحسين بن محمد سنتين وبضعة أشهر ، ففي عام ١٨٨٠ قتل الحسين في جدة على يد درويش افغاني اذ طعنه بخنجر مسموم • وقد اختلفت الاقاويل في سبب قتله ، وقيل ان السلطان عبدالحميد هو الذي دبر أمر اغتياله بعد الغاء الدستور ونفي مدحت باشا •

أعيد عبدالمطلب الى منصب الشرافة وقد نقلته من اسطنبول الى الحجاز باخرة سلطانية خاصة • فوصل الى مكة في ٢٨ أيار ١٨٨٠ م ، فاستقبل فيها استقبالا عظيما ، وكان حينذاك كبير السن ، وأخذ يقسو على اتباع ذوي عون وعلى أنصار الدستور • وفي عام ١٨٨١ م عندما جيء بمدحت باشا وأصحابه الى مكة في طريقهم الى سجن الطائف كان عبدالمطلب يطل عليهم من نافذة قصره وهو يقول : « نصحت لك يامدحت فلم تقبل »(٥٠) •

لم تبق أسرة ذوي عون ساكتة تجاه حكم عبدالمطلب ، فقد ذهب

(٤٩) أحمد السباعي (المصدر السابق) ـ ص ٣٧٥ ـ ٣٧٦ •
(٥٠) المصدر السابق ـ ص ٣٨٤ •

وفد منهم الى اسطنبول وابرزوا للسلطان عبدالحميد وثائق تثبت اتصال عبدالمطلب بالانكليز • ويدعي ذوو زيد أن الوثائق كانت مزورة[٥١] • والظاهر انها أثرت على السلطان فأصدر أمـــره في عام **١٨٨٢** بعزل عبدالمطلب من الشرافة ، وعين مكانه رجلا من ذوي عون هو عون بن محمد ابن عبدالمعين ـ وهو المشهور باسم « عون الرفيق » • وقد اعتقل عبدالمطلب على أثر ذلك وظل رهن الاعتقال حتى مات في أوائل عام **١٨٨٦** م عن عمر يناهز المائة •

عون الرفيق :

تولى عون الرفيق شرافة مكة ثلاثا وعشرين سنة من عام **١٨٨٢** الى **١٩٠٥** والواقع أنه يستحق أن يكتب عنه كتاب قائم بذاته لما اشتهر بـه من غرابة الاطوار وما دار حوله من أقاويل مختلفة وأساطير •

وصفه أحد المؤرخين بقوله ان شرافة مكة بلغت في عهده « منتهى ضعفها وغاية هبوطها »[٥٢] ، بينما وصفه مؤرخ آخر بأنه « مأمون عصره ورشيد مصره »[٥٣] • وقد أعطانا مؤلف « تاريخ مكة » صورة عنه لعلها أقرب الى الواقع من غيرها ، فهو يقول فيه ما نصه :

« ويبدو أن الشريف عون كان ••• غريب الاطوار متناقض الاعمال، يقدس بعض معاصريه فيه غزارته العلمية ومحبته للخير العام وتبسطه في مجالسه الخاصة وتودده للمسالمين • وينعى عليه غيرهم تبذله بين ندمائه ، وقسوته في معاملة الحجاج ، وامعانه في عقوبة مخالفيه ، واصطناعـــه

---

(٥١) انيس صـايغ (الهاشـميون والثورة العربية الكبرى) ، بيروت ١٩٦٦ ـ ص ٣٥ •

(٥٢) فؤاد حمزة (المصدر السابق) ـ ص ٣٢٣ •

(٥٣) نقلا عن كتاب مخطوط للسيد هبةالدين الشهرستاني عنوانـه « ذكرى جلالة الحسين » • واني أشكر السيد جواد الشهرستاني على اعارته اياي هذا الكتاب •

(الخزناوية) الذين كانوا يضطهدون الشعب » • ويصف مؤلـــف « تاريخ مكة » الخزناوية بأنهم رجال اتخذهم الشريف عـــون كحرس خاص لخدمته فصاروا يتسلطون على الاهالي ويستغلون نفوذهم فـــي اضطهاد من يضطهدونه أو يطمعون في أمواله فكان لايجـــرأ أحد على الشكوى منهم • وقيل ان الشريف عون كان يختارهـــم من طبقات العامة ويخولهم من النفوذ ما يستطيعون به اذلال الخاصة نكاية بهم(٥٤) •

ومن الامور التي اشتهر بها الشريف عون الرفيق تقريبه لرجـــل من المجاذيب اسمه « علي بو » ، فقد كان هذا الرجل قبلئذ يـــذرع الشـــوارع بجسمه العاري وهو مطرق لايكلم الناس ، فاذا حادثه أحد المارة وألح عليه في الحديث أجابه بعبارة واحدة اعتاد عليها ولا يجيب بغيرها ، وهـــي : « مقضية ، مقضية ، ان شاء الله » • ويقال في سبب تقريب الشريف عون له أنه تنبأ له بنبوءة صحت فيما بعد ، فآمن عون بقدسيته ، وبنى لـــه قصرا فخما وألبسه الملابس الفاخرة ، واتخذه أنيسا له ، وجعل أعيان مكة يقبلون يده ويحترمونه • وقد ظل هذا الرجل على هذه المنزلة العالية الى ان مات عون الرفيق في عام ١٩٠٥ ، فعاد الى الشوارع يذرعها من جديد(٥٥) •

ومما اشتهر به الشريف عون أيضا انه كان يحب العدل ، أو كان يريد الاشـــتهار به ، الى درجـــة عجيبة • قيل أنه كان أحيانا يأمر بحبس الحيوانات والجمادات اذا كانت سببا في وقوع جناية على أحد ، فاذا وقعت صخرة على انسان فجرحته أمر بضرب تلك الصخرة او اعدامها لكي يفهم الناس أنه لايفوته قصاص مجرم ولو كان جمادا لاتكليف عليه • وحـــدث مرة أن سقط ديـك على أخشاب تعود لامرأة شامية ، وسببت

---

(٥٤) أحمد السباعي (المصدر السابق) — ص ٣٩٠ •

(٥٥) المصدر السابق — ص ٣٩٠ — ٣٩١ •

الاخشاب له جرحا ، فأمر الشريف بحبس الاخشاب ، ولم يطلق سراحها الا بعد أن قدمت له المرأة عريضة بذلك(٥٦) •

من التهم التى اتهم بها الشريف عون أنه كان يميل الى العقيدة الوهابية ، وسبب هذه التهمة أنه أمر بهدم بعض القبور المقدسة كقبر عبدالله بن الزبير في مكة ، وقبر حواء في جدة • ويروي أمين الريحاني أن قناصل الدول الاجنبية اعترضوا على الشريف عون عندما أمر بهدم قبر حواء ، وقالوا له : « لك ماتشاء في الاولياء ، ولكن حواء أم الناس أجمعين ، ونحن نحتج على هدم مقامها » • فاقتنع الشريف عون بما قالوا وترك هدم ذلك القبر(٥٧) •

والغريب أنه في الوقت الذي كان فيه خصومه يتهمونه بالوهابية كان الشيعة يظنون انه منهم • فقد كان الشيخ باقر التستري ، وهو من علماء الشيعة ، مقربا الى الشريف عون يفد عليه ويقضيالاعوام عنده ، وكان هذا الشيخ واثقا من تشيع الشريف عون •

ويستدل الشيعة على تشيع الشريف عون بعدة أمور منها : انه أبطل مظاهر الفرح الذى اعتاد عليها اهل الحجاز في يوم عاشوراء اعتقادا منهم أنه اليوم الذى استوت فيه سفينة نوح على الجودي ، فقال الشريف عون لهم : « اننا أمة محمد ، وسفينة آل الرسول صادفت هذا اليوم بلاءها المشهور ــ يقصد مقتل الحسين في كربلا ــ فلا بد أن يحزن فيه الرسول وتحزن أمته »(٥٨) •

ومنها أنه نظم قصيدة طويلة في رثاء فاطمة الزهراء وذم من آذاها ، وألقاها بنفسه على الحجاج في الكعبة عام ١٩٠٤ • والواقع ان هذه القصيدة

(٥٦) نقلا عن الكتاب المخطوط للشهرستاني •
(٥٧) أمين الريحاني (ملوك العرب) ــ بيروت ١٩٥١ ــ ج١ ، ص ٦٣•
(٥٨) نقلا عن الكتاب المخطوط للشهرستاني •

اشتهرت لدى الشيعة في العراق ، ومازال قراء التعزية يتلونها في مجالسهم الحسينية ، وهم يرددون منها البيت التالي بوجه خاص :

بنت مـن ؟ أم مـن ؟ حليلة مـن ؟ ويل لمن سن ظلمها وأذاهـا

يمكن القول على أي حال ان الشريف عون لم يكن وهابيا ولا شيعيا، بل كان مذهبا قائما بذاته • يصفه أحد الذين خالطوه وعرفوه بقوله : « انه كان يجاري كل طائفة باكمل ما عندهم حتى يستطلع ما في خواطرهم ، وينفذ فيهم سياسته وارادته ، ويستجمع من كل ذلك قلوب الطوائف الاسلامية قريبها والبعيد ••• وكان الشريف عون عالما بارعا في الفنون متضلعا في أكثر العلوم لايدخل عليه عالم الا ويخرج معتقدا ان علمه دون علم الشريف ••• وكانت كل طائفة من المسلمين تحج وتعتقد ان امير الحرمين أحد أفراد طائفتها••• »[٥٩] •

ان هذه السياسة الغريبة التي سار عليها الشريف عون لابد أن يرضى عنها قوم ويغضب منها آخرون • والظاهر ان العامة كانوا في الغالب راضين عنها ومعجبين بها ، أما الخاصة فكانوا ناقمين عليها • فقد كان في مقدمة الناقمين على الشريف عون الوالي نوري باشا وأعيان مكة وعلماؤها ، وكتبوا عليه المضابط الى السلطان عبدالحميد يشكونه ويذمونه • فأرسل السلطان الى مكة لجنة للتحقيق برئاسة راتب باشا • وحين وصلت اللجنة الى جدة كان في استقبالها رسول من الشريف عون وهو يحمل صرة فيها ستة آلاف ليرة ذهب هدية الى راتب باشا[٦٠] ولما حققت اللجنة في الشكاوي بعدئذ وجدت أنها لاصحة لها وبرأت الشريف عون من التهم التي أُلصقت به « زوراً وبهتاناً » • وبعد مدة قصيرة أمر السلطان بعزل نوري باشا من الولاية وتعيين راتب باشا مكانه •

---

(٥٩) نقلا عن الكتاب المخطوط للشهرستاني •

(٦٠) سليمان موسى (المصدر السابق) ـص ٤٥ •

وفي عام ١٩٠٤ نظم الشاعر المعروف أحمد شوقي قصيدة طويلة ذم فيها الشريف عون ذما مقذعا وحث السلطان على عزله • وقد رفع القصيدة الى السلطان • وفيما يلي ننقل أبياتا نموذجية منها :

ضج الحجاز وضج البيت والحرم ... واستصرخت ربها في مكة الامم
قد مسها في حماك الضر فاقض لها ... خليفة الله أنت السيد الحكم
لك الربوع التي ريع الحجيج بها ... أللشريف عليها أم لك العلم
أ'هين فيها ضيوف الله واضطهدوا ... إن أنت لم تنتقم فالله منتقم
أفي الضحى وعيون الجند ناظرة ... تسبى النساء ويؤذي الاهل والحشم
ويسفك الدم في أرض مقدسة ... وتستباح بها الاعراض والحرم
يد الشريف على أيدي الولاة علت ... ونعله دون ركن البيت تستلم
نيرون ان قيس في باب الطغاة به ... مبالغ فيه والحجّاج متهم
أدّبه أدّب أمير المؤمنين فما ... في العفو عن فاسق فضل ولا كرم
لاترج فيه وقاراً للرسول فما ... بين البغاة وبين المصطفى رحم
ابن الرسول فتى فيه شمائله ... وفيه نخوته والعهد والشمم
ماكان طه لرهط الفاسقين أباً ... آل النبي بأعلام الهدى ختموا
محمد رُوّعت في القبّر أعظمه ... وبات مستأمنا في قومه الصنم
وخان عون الرفيق ألعهد في بلد ... منه العهود أتت للناس والذمم[٦١]

لم تؤثر هذه القصيدة على بلاغتها في السلطان شيئاً • ولعل الصرر التي كان الوالي يتسلمها من الشريف عون كانت اكثر بلاغة من القصيدة •

وعلى أي حال فقد مات عون في السنة التالية ، فتولى الشرافة من بعده ابن اخيه علي بن عبدالله ولكنه عزل في عام ١٩٠٨ ، وتولى الشرافة من بعده الحسين بن علي •

---

(٦١) أحمد شوقي (الشوقيات) ـ بيروت ـ ج١ ـ ص ٢١١ ـ ٢١٣ •

الفصل الثاني

الحسين بن علي

ان الحسين بن علي هو اشهر من تولى شرافة مكة في جميع العصور . فهو قد وصل بالشرافه الى القمة ولكنها سرعان ما انهارت على يده . وهو فوق ذلك ذو أهمية كبرى في تاريخ العرب المعاصر وتاريخ القومية العربية . وسنحاول في هذا الفصل ذكر شيء من حياته حتى قيامه بالثورة على الاتراك ، على أن نعود لدراسة بقية حياته في فصول تالية .

بداية حياته :

هو الحسين بن علي بن محمد بن عبدالمعين من ذوي عون . ولد في اسطنبول في عام ١٨٥٣ من أم شركسية اسمها « وسيلة خانم » . وكان جده وابوه واعمامه يعيشون يومذاك في اسطنبول عندما كانت الشرافة في يد خصمهم عبدالمطلب من ذوي زيد .

وفي عام ١٨٥٥ عندما تولى الشرافة محمد بن عبدالمعين ـ على أثر عزل عبدالمطلب منها ـ غادر اسطنبول الى مكة مع أولاده وأهل بيته ، وكان من بينهم حفيده الصغير الحسين . وفي عام ١٨٥٨ حين مات محمد تولى الشرافة من بعده ابنه عبدالله . وقد عاد علي والد الحسين الى اسطنبول حيث توفي فيها عام ١٨٧٠ . أما ولده الحسين فقد بقي في كنف عمه عبدالله في مكة . وفي عام ١٨٧٥ تزوج الحسين عابدية خانم ، وهي ابنة عمه عبدالله ، فولدت له اربعة أولاد هم : الحسن وعلي وعبدالله وفيصل . وقد مات الاول منهم في صباه ، ثم ماتت الام أيضا في عام ١٨٨٩ .

ظهرت أولى بوادر نشاطه السياسي في عام ١٨٨٠ حين تولى الشرافة

عبدالمطلب من ذوي زيد للمرة الثانية . فقد كان الحسين من جملة اعضاء الوفد العوني الذى ذهب الى اسطنبول لتحريض السلطان على عــزل عبدالمطلب . ويدعي ذوو زيد أن الحسين كان من انشط اعضاء الوفد ، وأنه هو الذى قام بتزوير الوثائق ضد عبدالمطلب ، كما اتهموه بأنه اتصل بالسفير البريطاني في اسطنبول طالبا منه مساعدته ضد ذوي زيد ، وحثه على الاعتماد على ذوي عون دون غيرهم[1] .

ولما تم عزل عبدالمطلب من الشرافة في عام ١٨٨٢ ، وتولى عــون الرفيق الشرافة من بعده ، كانت العلاقة بين الحسين وعمه عون حسنة جدا. فقد كان عون يكثر من زيارة الحسين في بيته ويلاطف أهله ويلاعــب اولاده حتى أنه كان يضع اللجام في فم عبدالله بن الحسين ويأمره بالجري كالفرس ليأنس به[2] .

ويروي عبدالله في مذكراته حادثة طريفة جرت له في تلك الايام ، خلاصتها أنه واخوته كان لهم معلم يعلمهم الخط اسمه الشيخ عثمان اليمني، وكان هذا المعلم ذا لثة دامية وفم كريه ، وقد اعتاد أن يضع القلم في فمــه ثم يغمسه في الدواة فيختلط فيها الحبر بالدم . واراد عبدالله أن يعمل له مقلبا فجاء بشيء من الفلفل القوي ووضعه في محبرة أخيه فيصل . ولمــا وضع الشيخ القلم في فمه بعد غمسه في المحبرة ، أحسّ بلذع الفلفل ، ثم اشتد به الالم وتورم فمه ، وقرر معاقبة فيصل ظناً منه أنه الفاعل ، ووضع قدمي فيصل في الفلقة ، وصار فيصل يصرخ ويقسم أنه بريء . وانتهى الحادث بصرف المعلم بعد الاعتذار اليه ومنحه نقودا وكسوة . ولما وصل الخبر الى الشريف عون الرفيق استدعى اليه عبدالله ، وصار يضحــك

---

(١) انيس صائغ (الهاشميون والثورة العربيــة الكبرى) ـ بيروت ١٩٦٦ ـ ص ٣٤ ـ ٣٥ .

(٢) نقلا عن الكتاب المخطوط للسيد هبةالدين الشهرستاني .

ويتعجب من عمله ويقول : « فطنة عجيبة غريبة » • ثم أمر باحضار المعلم كما أمر باحضار طبيب الاسنان ، وقال للمعلم : « يا عثمان ، تريد ان تعلم أبناءنا الخط وهم علموك كيف تكون النظافة » ، ثم نادى طبيب الاسنان وأمره بأن يخلع أسنان المعلم ، فأخذ المعلم يصيح ويستغيث • فأمر الشريف عون بالكف عنه وباعطائه ألفا وخمسمائة ريال وأوصاه بأن يتداوى(٣) •

لم تبق العلاقة الحسنة بين الحسين وعمه الشريف عون طويلا ، بل صارت تسوء شيئاً فشيئاً بمرور الايام • فقد أخذ الشريف عون يتهم الحسين بأنه يؤلب الناس عليه ويحرضهم على التذمر منه ، وطلب من السلطان عبدالحميد استدعاءه الى اسطنبول ليتخلص منه • فورد الامر من السلطان بأن يأتي الحسين اليه • فرحل الحسين الى اسطنبول في عام ١٨٩٣ واستقبله السلطان بلطف ، وعينه عضوا في مجلس شورى الدولة • وأمر بأن تُعد له دار مؤثثة على البوسفور •

عندما استقر الحسين فى داره في اسطنبول استدعى اليه اولاده وأهل بيته ، فوصل هؤلاء اليها في أوائل آذار ١٨٩٤ • وبعد وصولهم بخمسة عشر يوما صدرت الارادة السلطانية بتعيين صفوت أفندي العوا ـ وهو ضابط شامي ـ لتعليمَ اولاد الحسين بعض الدروس كالحساب والتاريخ والجغرافية واللغة التركية • ويروي أمين الريحاني ان عبدالله كان دؤوبا على الدرس بينما كان فيصل كسولا متأخرا في دروسه دائما ، وقد ذهب صفوت العوا الى الحسين يشكو اليه من كسل فيصل وتأخره ، فقال له الحسين : « اضربه يا ابني ولا تخف ••• »(٤) •

تزوج الحسين في اسطنبول فتاة شركسية ولدت له ابنته صالحة ، وقد ماتت الزوجة بعد فترة قصيرة ، فتزوج الحسين بعدها عادلة هانم وهي

---

(٣) عبدالله بن الحسين (مذكراتي) ـ القدس ١٩٤٥ ـ ص ١١ ـ ١٣•
(٤) أمين الريحاني (فيصل الاول) ـ بيروت ١٩٥٨ ـ ص ١٢ •

حفيدة رشيد باشا السياسي التركي المشهور ، فولدت له ولده زيد وبنتين هما : فاطمة وسارة[٥] .

تروي المس بيل في احدى رسائلها نقلا عن نوري السعيد : ان عبدالله كان الولد المفضل لابيه ، بينما كان فيصل غير مقرب اليه . أما علي فكثيرا ماكان الخصام يحصل بينه وبين زوجة أبيه عادلة هانم على ادارة البيت ، ولهذا كان علي يكره ابنها زيد ، بينما كان فيصل يحبه[٦] .

طال بقاء الحسين في اسطنبول نحو سبعة عشر عاما . ولم تكن حياته فيها مرفهة بالدرجة المناسبة لمركزه . تروي المسز أرسكين عن فيصل انه قال في وصف حياتهم في اسطنبول : « انها كانت ضيقة شاقة ، فلم يكن يتوفر لنا اللحم فيها الا مرة واحدة في الاسبوع الواحد »[٧] . ويقول عبدالله في مذكراته : « اما اقامتنا في اسطنبول فكانت اقامة جبر واكراه ، واقامة تعلم وعبر ... »[٨] .

تعيين الحسين شريفا :

عند اعلان الدستور العثماني في ٢٤ تموز ١٩٠٨ كانت شرافة مكة في يد علي بن عبدالله ، وهو ابن عم الحسين وأخو زوجته الاولى . وقد تباطأ في تأييد الدستور فصدر الامر بعزله وبتعيين عمه عبد الآله بن محمد بدلا عنه . وكان عبدالآله مقيما في اسطنبول ، وكان كبير السن مريضا . وقد

---

(٥) سليمان موسى (مذكرات الامير زيد) ـ عمان ١٩٧٦ ـ ص ١٤ ، ٢١٣ .

(6) Burgoyne (Gertrude Bell) London 1961 — vol. 2, P. 245.

(٧) ارسكين (فيصل ملك العراق) ـ ترجمة عمر أبو النصر ـ بيروت ـ ١٩٣٤ ـ ص ٣٣ .

(٨) عبدالله بن الحسين (المصدر السابق) ـ ص ١٧ .

مات فجأة بعد يومين من صدور أمر تعيينه . وقيل انه مات من شدة الفرح[٩] ، كما قيل انه مات مسموما[١٠] .

قدّم الحسين الى السلطان عبدالحميد ـ وكان لايزال في الحكم ـ عريضة طلب فيها تعيينه للشرافة لكونه « أسن العائلة الهاشمية وأحقها بمقام الآباء » . وحمل العريضة ابنه عبدالله حيث ذهب بها الى الصدر الاعظم كامل باشا . وفي ١ تشرين الثاني استدعى السلطان عبدالحميد اليه الحسين وعينه شريفا لمكة كما منحه رتبة الوزارة .

اختلفت الاقوال في السبب الذى حدا بالحكومة العثمانية الى تعيين الحسين لشرافة مكة . فمنهم من يقول : ان الاتحاديين هم الذين اختاروا الحسين للشرافة بينما كان السلطان معارضا لهذا الاختيار[١١] . ومنهم من يقول : ان الاتحاديين كانوا يرغبون في تعيين علي حيدر ، وهو حفيد عبدالمطلب من ذوي زيد ، ولكن السفير البريطاني ضغط عليهم من أجل تعيين الحسين[١٢] . ويقال أيضاً أن السفير البريطاني كان له نفوذ لدى الصدر الاعظم كامل باشا ، وقد أصر هذا الرجل على تعيين الحسين بخلاف رأي السلطان اذ كان السلطان يعتقد أن الحسين رجل خطر ، وانه سوف لا يكتفي بالشرافة بل سيطمح الى اكثر منها ، وربما هدد عرش السلطنة العثمانية[١٣] .

ان عبدالله يروي في مذكراته رواية تدل على النقيض ، مما ذكرنا ، حيث يقول ان أباه الحسين عندما أراد مغادرة اسطنبول للتوجه الى مكة

(٩) أنيس صائغ (المصدر السابق) ـ ص ٣٦ ـ ٣٧ .
(١٠) أحمد السباعي (تاريخ مكة) ـ القاهرة ١٣٧٢ هـ ـ ص ٣٩٦ .
(١١) جورج انطونيوس (يقظة العرب) ـ ترجمة ناصر الدين الاسد واحسان عباس ـ بيروت ١٩٦٢ ـ ص ١٧٨ .
(١٢) أنيس صائغ (المصدر السابق) ـ ص ٣٧ .
(١٣) محمد طاهر العمري (مقدرات العراق السياسية) ـ بغداد ١٩٢٥ ـ ج١ ، ص ١٧٧ .

قابل السلطان عبدالحميد لتوديعه ، واختلى به أكثر من ساعة ونصف ، فقال له السلطان : « أسأل الله أن يجازي من حال بيني وبين الاستفادة من مواهبك الهاشمية . واني لست بالامين على الدولة من هذه الفئة المتغلبة ». فقال له الحسين : اذا ضاقت بك الدنيا فالجأ الينا وسوف نجبي لك الاموال ونخضع لك رقاب العصاة . فاغرورقت عينا السلطان بالـــدموع وقال : أشكرك ، أشكرك ، بارك الله فيك ، ولكن الوقت لم يحن بعد ...[١٤].

وصوله الى مكة :

غادر الحسين وأهله اسطنبول في تشرين الثاني ١٩٠٨ في باخرة من بواخر الشركة الخديوية. وكان فى توديعه كثيرون، فى مقدمتهم كامل باشا. وفي ٣ كانون الاول وصلت الباخرة الى جدة ، وكان استقباله فيها فخمـــا يحدثنا عنه رجل من أهلها حيث يقول ما نصه :

« ... كان رصيف الميناء مكتظا بالمستقبلين وعلى رأسهم عدد كبير من الاشراف ، فحيوه أحسن تحية ، واظهروا له عظيم السرور بتوليته امــارة مكة ، وتلك عادة الناس جميعا وبالاخص الحجازيين ، أن يظهروا السرور بكل وال وأمير وان كانت قلوبهم غير راضية . ونزل فى جدة ضيفا على والدي الشيخ محمد نصيف ، وحياه الحاج محمد علي زينل ... بخطبة مسهبة حوت من غرر المديح ودرر الثناء شيئاً كثيرا ، وأجابه الحســـين بالتأثر الذى أسال عبراته من مآقيه ... »[١٥] .

كانت قد حضرت الى جدة وفود كثيرة من مختلف مدن الحجـــاز وقبائله للترحيب بالحسين . وكان من جملة تلك الوفود وفد يمثل حزب الاتحاد والترقي . وقام رئيس الوفد يخطب مرحبا بالحسين واصفا اياه بـ

---

(١٤) عبدالله بن الحسين (المصدر السابق) ــ ص ٢٧ .

(١٥) حسين محمد نصيف (تاريخ الحجاز) ــ القـــاهرة ١٣٤٩ هـ ــ ج١ ، ص ٧ .

« الامير الدستوري » ، وأعرب عن أمله بأنه سوف يعمل بمقتضى روح العصر والتجدد . فرد الحسين على هذا الخطاب بعنف مشيرا الـى انه لايعرف هذه الامور الجديدة ، وان الحجاز هى بلاد الله لاتقوم فيها غير شريعة الله المشتملة على الامر بالمعروف والنهي عن المنكر ، فليذهب كل منكم الى عمله : المأمور في وظيفته ، والتاجر في تجارته ، والصانع فـي حرفته . واياكم من قال وقيل وما يقولون ، فهذه بلاد الله ليست بملك أحد ، وان السلطان الذى أمر بالدستور يفتخر هو وأسلافه بأنهم خدام الحرمين . ان دستور بلاد الله شريعة الله وسنة نبيه ! فخرج أعضاء الوفد من عند الحسين وهم يتعثرون ، وكتبوا الى اسطنبول يقولون : ان عبدالحميد بعث الينا رجلا لايعبأ بأحد ولا يقر بدستور ولا بتجدد(١٦) .

مكث الحسين في جدة ثلاثة ايام ، ثم غادرها الى مكة ، فوصلها في ٧ كانون الاول . وكان فى استقباله أخوه الشريف ناصر ، والمشير كاظم باشا ، وقاضي مكة ، وسادن الكعبة عبدالقادر الشيبي ، وكثيرون غيرهم .

وفي اليوم الثالث من وصوله الى مكة أرسل ابنه عبدالله الى الطائف لاحضار خاله الشريف المعزول علي بن عبدالله الذى كان فيها . يروي عبدالله في مذكراته انه عندما وصل الى الطائف وقابل الشريف المعزول مختليا به جرت بينهما المحاورة التالية :

علي : « ما الذي ستفعلونه بي ؟ » .

عبدالله : « الخير كله ان شاء الله » .

علي : « هل ترضى يا عبدالله بسفري الى اسطنبول فيفعل بي سفهاء الاتحاد والترقي ما فعلوه بوزرائهم ؟ » .

عبدالله : « لايكون ذلك ان شاء الله » .

---

(١٦) عبدالله بن الحسين (المصدر السابق) ـ ص ٢٤ ـ ٢٥ .

علي : « كيف ؟ » •

عبدالله : « الذي تحب ، ان رأيت البقاء فأنت في بلادك بعد أن تتفاهم مع ابن عمك ، وان اردت الخروج فابق بمصر ولا تسافر الى اسطنبول من هنا الا بعد أن تطمئن » •

علي : « أتضمن لي هذا ؟ » •

عبدالله : « أسعى ان شاء الله » •

علي : « ألست خالك ؟ » •

عبدالله : « بلى والله » •

علي : « أترضى لي الاهانة ؟ » •

عبدالله : « حاشا لله ، ولكن عليّ عهد الله لك فى انني ان عجزت عن تنفيذ مرغوبك ان لا افارقك حيث تسير » •

علي : « رضيت الآن » • ثم دمعت عيناه وقبّل عبدالله[١٧] •

وعندما وصل علي الى مكة بصحبة ابن اخته عبدالله توجه لمقابلة الحسين ، فاستقبله الحسين من باب البهو ، ثم أجلسه على سريره ، واختلى به ساعة من الزمن • وفي اليوم التالي عقد الحسين مجلسا خاصا لتقرير مصير الشريف المعزول ، فاختلفوا في امره ، وأصرّ عبدالله على السماح له بالذهاب الى مصر قائلا : « انني تعهدت له بأنه اذا سيق الى اسطنبول فانني أسافر معه يصيبني ما يصيبه » • وتم القرار أخيرا على السماح له بالسفر الى مصر[١٨] • ويقال انه عند رحيله الى مصر حمل معه كثيرا من الاموال ، فاشترى بها أملاكا وعقارا وقصرا بديعا في حدائق القبة التي كانت يومذاك من ضواحي القاهرة ، وعاش هناك عيشة رضية مرفهة[١٩] •

---

(١٧) المصدر السابق — ص ٣٨ •

(١٨) المصدر السابق — ص ٣٩ •

(١٩) حسين محمد نصيف (المصدر السابق) — ص ٥ •

نشاط الحسين :

كان التقليد المتبع في الحجاز منذ انتهاء الحملة المصرية في عام ١٨٤٠م أن يتولى الشريف شؤون البدو والقبائل بينما يتولى الوالي التركي شؤون الادارة في المدن • ولكن الحسين لم يخضع لهذا التقليد بل حاول الخروج عليه ، وصار ينازع الوالي سلطاته ، ولم يترك أحدا من الاهالي يتقاضى الا عنده ، سواء في ذلك الاحوال الشخصية او الحقوق المدنية • واخذ الحسين يوطد علاقاته مع اعيان الحجاز عن طريق التواضع والتحبب لهم ، ويحرضهم على رفع الشكاوى على الوالي الى اسطنبول[٢٠] • وتمكن بهذه الوسيلة من عزل خمسة ولاة خلال ثمانية اعوام •

في خريف ١٩٠٨ جرت انتخابات المبعوثين ، ففاز بالنيابة عن مكة اثنان هما : عبدالله بن الحسين ، والشيخ حسن الشيبي وهو ابن سادن الكعبة • وقد سافر الرجلان الى اسطنبول عن طريق البحر لحضور جلسات مجلس المبعوثين • ولكنهما عند وصولهما أخبرهما رئيس المجلس بورود برقيات من مكة تعترض على انتخابهما قائلة بان عبدالله لايليق بالنيابة لان عمره دون السن القانونية ، وان الشيخ حسن الشيبي أمي لايقرأ ولا يكتب • ولما عرضت تلك البرقيات على المجلس قام أحد النواب محتجا عليها حيث قال : « ومن تريدون ؟ أتبعث اليكم مكة أفضل من ابن الشريف وابن فاتح بيت الله ؟! » • فصاح المجلس كله : « لا اعتراض ، لااعتراض» • وعند هذا أُدخل عبدالله وصاحبه الى قاعة المجلس[٢١] •

ولما جرت انتخابات المبعوثين للمرة الثانية ، في ربيع ١٩١٢ م ، اعيد انتخاب عبدالله عن مكة ، وانتخب أخوه فيصل عن جدة • وقد اعتاد عبدالله واخوه أن يقضيا فترة انعقاد المجلس في اسطنبول ثم يعودا الى الحجاز في الصيف •

---

(٢٠) المصدر السابق ـ ج١ ص ٨ •

(٢١) عبدالله بن الحسين (المصدر السابق) ـ ص ٥٣ •

والمعروف عن عبدالله انه كان لبق الحديث مرحا وله جاذبية شخصية ومقدرة على المعاشرة ، ولهذا كان هو الممثل الفعلي لابيه في أوساط اسطنبول السياسية . أما اخوه فيصل فكان على النقيض منه قليل الكلام يميل الى الجد وذا مزاج عصبي ، ولم يعرف عنه أنه قام في اسطنبول بأي نشاط ملحوظ في داخل المجلس او خارجه .

مع ابن سعود :

في عام ١٩١٠ م ظهرت اولى بوادر الصراع بين الحسين وابن سعود ، وهو الصراع الذي استمر نحو خمسة عشر سنة ، يخمد تارة ويفور تارة أخرى ، حتى انتهى أخيرا الى انتصار ابن سعود وزوال حكم الاشراف في الحجاز - كما سنأتي اليه في فصول قادمة .

كان ابن سعود في عام ١٩١٠ تحيط به ظروف سيئة ، كما حل به عسر مالي شديد بسبب انحباس المطر . والظاهر ان الدولة العثمانية أرادت انتهاز الفرصة لفرض سيادتها عليه فأوعزت الى الحسين بالزحف عليه . وفي شهر تموز تحرك الحسين بقواته نحو نجد . وحين وصل الى « الشعرا » التي هي أولى قرى نجد من جهة الحجاز وقع في يده سعد أخو ابن سعود اسيرا . وكتب الحسين الى ابن سعود يقول له : « اذا هجمت علينا تركنا لك المعسكر والخيام وعدنا بأخيك سعد الى مكة فيبقى عندنا الى ان تطلب الصلح » .

قام بالتوسط في الصلح بين الفريقين خالد بن لؤي أمير الخرمة ، وهو من الاشراف غير أنه كان ميالا الى ابن سعود والوهابية . وذهب الى ابن سعود وقال له بلهجته البدوية : « اسمع يا عبدالعزيز أنا أعلّمك . لاغاية للشريف سيئة معك لا والله . ولكنه يبي - يقصد يبغي - يبيّض وجهه مع الترك . فاكتب له ورقة تنفعه عند الترك ولا تضرك . وأنا أتكفل برجوع سعد ، واتكفل ان الشريف لايتدخل في أمور نجد ، هذا اذا

كنت لاتتجاوز الحدود • اما اذا هو اعتدى عليك فانا خالد بن لؤي أعاهدك عهد الله عليه • فاكون معك والله كما كان آبائي مع آبائك وكمــــا كان اجدادي مع أجدادك » • فاقتنع ابن سعود بما قال خالد وكتب له ورقة تعهد فيها أن يدفع للدولة ستة آلاف مجيدي في كل سنة(٢٢) •

أطلق الحسين سراح سعد • وفي ٢٣ ايلول أرسل ابن سعود ابن عم له اسمه عبدالعزيز بن عبدالله الى الحسين ومعه ثلاث أفراس أصيلة هدية له مع رسالة مليئة بالتزلف والتحبب هذا نصها :

حضرة جناب الاجل الافخم بهي الشيم أميــــر مكة المكرمة سيدنا الشريف حسين باشا بن السيد علي دام مجده وعلاه أمين •

بعد اهداء مزيد السلام عليكم ورحمة الله وبركاته على الدوام ، مع السؤال عن شريف خاطركم العاطر • لازلتم بكمال الصحة والســـرور حائزين الاوصاف الحميدة • أحوالنا من كرم الله جميلة ، وتقدم لسعادتكم قبل هذا كتاب نرجو أنه وصل وانتم مسرورون • ثم نعرض لدولتكـــم العزيز أنه بموجب شفقتكم وعلو همتكم وانظاركم العالية قدمنا أخينا عبد العزيز عبدالله السعود لموجب خدمتكم وأحبينا المصاوغة ـ يقصد المهاداة ـ معكم لموجب التبرك بأقدامكم ، وأرسلنا معه الصقلاوية والحمــــــداني وكحيلان ، ولا والله ما قصدنا في ارسالها لانكم بحاجتها ، ولا شك في غايتنا نبي ـ يقصد نبغي ـ نقرب أنفسنا منكم • فاننا هنا حاسبين أنفسنا مـــن خدامكم ، والفضل لله ثم لكم ، والا هديتنا لحضرتكم رؤوسنا وما تحت أيدينا ، ولكنها هي صوغة ـ يقصد هدية ـ للاولاد الكرام • وحررنا هذا الكتاب لموجب التعرض لخدمتكم وما يبدو من اللازم ، والا امركم علينا تام على كل حال ، ومهما تفعلونه معنا وتبسطون أنظاركم علينا تجدونه ان شاء

---

(٢٢) أمين الريحاني (تاريخ نجد الحديث وملحقاته) ـ بيروت ١٩٥٤ ، ص ١٩٢ ـ ١٩٣ •

الله مضاعفا بالخدمات والسمع والطاعة • هذا ما لزم تعريفه • والولد برسم الخدمة مع ابلاغ السلام حضرات الاخوان السادات الكرام علي وفيصل وزيد ، ومن عندنا اولادنا محمد وسعود وكافة السعود يسلمون ، ودمتم محروسين •

خادم الدولة والملة والوطن

١٨ رمضان سنة ١٣٢٨ هـ　　　　أمير نجد ورؤساء عشائرها

عبدالعزيز السعود(٢٣)

كتب الحسين بعد هذا الى ابن سعود يذكر له ما بلغه عنه من أنه يعد العدة للهجوم على الحجاز ، وأن بعض القبائل القاطنة على الحدود تشكو من اعتداءاته عليها • وأجاب ابن سعود برسالة فيها من التزلف والتحبب أكثر مما في الرسالة الاولى وهي طويلة نقتطف منها ما يلي :

« ••• فالآن ابنكم وخادمكم ومملوك فضلكم ـ يقصد نفسه ـ سامع ومطيع لله ثم لحضرتكم ••• فكما تأمرون أفعل امتثالا لامر الله ثم امركم•• فان كنت المجرم فانا تحت أمركم كما تأمرون أفعل ومصطبر لأدبكم ••• وانا والله وبالله وتالله ان رضاكم وامتثال خدمتكم عندي أعز من رضا عبدالرحمن ـ يقصد والده ـ وخدمته • ثم أنا معطيكم عهد الله وأمان الله اني ولد لك سامع مطيع ما أخالف شورتك في جميع أمر ، وانا تحت أمركم تريدون المقابلة بيني وبين المزوّرين في أي وقت تبغونه أحضر ، فان كان تحبونه من بعيد فالمراجعة بيننا ونحن تحت تدبير الله ثم تدبيركم، وانما لايزوّرون على حضرتكم اني مستغزي أهل نجد قصد محاربتكم او مكابرتكم ، لاوالله ، لا والله ، لا والله • اني ما استغزيتهم الا لموجب

(٢٣) حافظ وهبة (جزيرة العرب في القرن العشرين) ـ القاهرة ١٩٦٧ ، ص ٣٣٧ ـ ٣٣٨ • وانظر كذلك : أمين سعيد (تاريخ الدولة السعودية) ، بيروت ، ج٢ ، ص ٥١ ـ ٥٢ •

تجافينا وبعض الفساد اللي لا يخفى جنابكم • ولا يقطع عقلكم ان قدومي بها المحل قصدي محاربة أو أمر يغضب خواطركم ، الا انما هو تقرب لخدمتكم ••• واجبنا تعجيل الطارش لموجب رد جوابكم العزيز • ونحن بانتظار تدبير الله ثم تدبيركم ، وتحت الامر • هذا ما لزم • والرجا ابلاغ سلامنا الاخوان السادات الكرام • ومن عندنا أولادكم محمد وسعود وكافة السعود يقبلون أياديكم ودمتم محروسين ــ ١٥ شوال ١٣٢٨ »(٢٤).

لاحاجة بنا الى القول ان هذا التخضع الذى أبداه ابن سعود نحو الحسين انما هو من مظاهر الدهاء الذى أشتهر ابن سعود به • فهو كان في تلك الآونة مشغولا بمشاكله الداخلية ، ولم يكن يرى من المصلحة أن يتورط في مشكلة أخرى مع الحسين ، فآثر أن يترضاه ويتحبب اليه مؤقتا الى ان ينتهي من حل مشاكله الداخلية • والظاهر ان الحسين لم يفهم ذلك ، ولعله اغتر بما أبداه ابن سعود له من التزلف والتخضع ، وظن انه ضعيف وسيبقى ضعيفا دائما • وقد ظل الحسين ينظر الى ابن سعود طيلة السنوات التالية بمثل هذه النظرة ويعامله على أساسها • وتلك غلطة من الحسين كانت من أهم العوامل التي أدت الى نهايته المؤسفة أخيرا •

حملة عسير :

ان منطقة عسير جزء من اليمن تقع الى الجنوب من الحجاز ، وكانت في تلك الايام متصرفية تابعة للدولة العثمانية مركزها بلدة « أبها » ، وكان متصرفها سليمان شفيق باشا • وفي عام ١٩١٠ م ثار السيد محمد الادريسي على الدولة ، وكان له نفوذ وقدسية في تلك المنطقة ، فنال نجاحا في ثورته، وكان الايطاليون يساعدونه فيها • وفي أواخر ذلك العام استطاع الادريسي ان يحاصر « أبها » ، وكانت فيها قوات تركية كبيرة ، ودام الحصار نحو عشرة أشهر عانى السكان منه الويلات ، وأكلوا القطط والكلاب ، ومات

(٢٤) حافظ وهبة (المصدر السابق) ــ ص ٣٣٨ ــ ٣٣٩ •

منهم اكثر من خمسة آلاف شخص جوعا[٢٥] •

استعانت الدولة العثمانية بالحسين لاخماد ثورة الادريسي • فأعد الحسين حملة لها ، واستدعى اليه ابنه عبدالله من اسطنبول ليكون معه في الحملة ، كما استصحب معه ابنه الاخر فيصل • وفي ١٦ نيسان ١٩١١ تحركت الحملة من مكة وهي تضم بالاضافة الى القوات المحلية ثلاثة أفواج تركية يبلغ عدد رجالها ثلاثة آلاف •

حين تغلغلت الحملة في أراضي عسير أخذت القوات الادريسية تشن الغارات عليها مرة بعد مرة ، وكبدتها خسائر فادحة[٢٦] • وفي ١٦ تموز وصلت الحملة الى « ابها » وتمكنت من فك الحصار عنها ودخولها •

حل عيد الدستور في ٢٤ تموز ـ أي بعد أيام قليلة من دخول الحسين الى « أبها » ـ وصادف ان كان ذلك اليوم نفسه يوم ذكرى مبعث النبي حسب التقويم القمري • فأقيم احتفال في « أبها » بهذه المناسبة ، وألقى فيه الحسين خطبة مدح فيها الدولة العثمانية ، وذم الادريسي ذما قبيحا متهما اياه بأنه يخدم الدول الاجنبية لاغراضه الشخصية وفيما يلي نص الخطبة :

« أيها الاخوان اعلموا علم اليقين انه لولا وجود هذه الدولة العثمانية وشدة اعتناء خلفائها بالامة الاسلامية خصوصا مولانا أمير المؤمنين الحالي ـ يقصد السلطان رشاد ـ لاختطفتكم الدول الاجنبية اختطاف الذئب للغنم المنفردة ، فان جميع الدول ساعية من زمن بعيد في اضمحلال الشريعة المحمدية بواسطة هؤلاء المغرورين الذين يخدمونها لاغراضهم الشخصية • اخواني هل يرضيكم أفعال هؤلاء القوم الساعين في تخريب بلادكم باسم الحق • لاأدري كيف اغتررتم لهؤلاء وأمثالهم وأنتم أولو العقول الراجحة

(٢٥) سليمان موسى (الحركة العربية) ـ بيروت ١٩٧٠ ـ ص ٥٤ •
(٢٦) عبدالله بن الحسين (المصدر السابق) ـ ص ٦١ •

والنخوة العربية الاصيلة • آباؤكم الأولون كانوا عز العرب وعنهم ورثتم الهمم العالية • ألستم أبناء التبابعة ؟! ألستم الذين قال فيكم جدي رسول الله صلى الله عليه وسلم : العلم يماني والحكمة يمانية ؟! ألستم أنتم أبنـــاء اسلافكم الكرام الذين اشتهروا بالذكاء الفطري والمجد المؤثل ؟! فالله الله يا أمناء الامة العربية في دينكم لاتضيعوه ، بل احفظوه ، واستظلوا بظـــل الراية العثمانية التي هي شعار الاسلام ، ولا تغتروا بأقوال المفسدين الساعين في تنفيذ أغراض المحركين لهم أعداء الدين الاسلامي ، وانتم لطيب عنصركم وعدم معرفتكم بالسياسة الاجنبية تظنون أنهم انما يخدمون الدين مع انهـم والله عن الدين بمعزل لايخدمون الا أغراضهم الشخصية مستترين باسم الدين • فأحذركم ان لاتغتروا بمثل هؤلاء الاوغاد المارقين عن الدين ، بل كونوا مطيعين لامير المؤمنين • ولتعلموا أن من خالفه فقد خالف اللـــه ورسوله ، ومن خالفه فقد باء بغضب من الله وخسر الدنيا والآخرة ، ذلك هو الخسران المبين »(٢٧) •

بداية الخلاف مع الاتراك :

كانت خطبة الحسين في « أبها » تمثل قمة الانسجام بينه وبين الاتراك، ولكن هذا الانسجام لم يدم طويلا وسرعان ما أخذ يتلاشى ، وحل العداء محله تدريجيا •

بدأ الخلاف بين الحسين والاتراك في « أبها » عقب القاء الخطبة ، فقد لاحظ متصرف عسير ان الحسين لم يكن خالص النية في حملته في عسير بل كان يقصد منها تقوية نفوذه • وكان المتصرف مقتنعا بان الحسين لايقل في عدائه للدولة العثمانية عن الادريسي ، وقد وصفه بقوله : « انه ادريسي مجهز بالبنادق والمدافع »(٢٨) •

---

(٢٧) حسين محمد نصيف (المصدر السابق) ـ ج١ ص ٢١ •

(٢٨) علي فؤاد (كيف غزونا مصر) ـ ترجمة نجيب الارمنازي ـ بيروت ١٩٦٢ ـ ص ٨٧ •

ومما زاد في شدة الخلاف بين الحسين والاتراك ـ حسبما رواه عبدالله في مذكراته ـ ان الحسين شاهد بعض مناظر الفضائع التى اقترفها الجنود الاتراك في أتباع الادريسي ، فقد عُرضت عليه أربع مرات جثث شويت على النار شياً وأُدخلت أعمدة الخيام من أدبارها حتى خرجت من افواهها، كما عُرضت عليه ستة رؤوس مقطوعة وقد وضع قضيب كل رجل منهم في فمه . ولما شاهد الحسين ذلك قال لنظيف بك أحد قواد الترك : « هذا لا يليق ! » فأجابه نظيف بك : « أليسوا قد حرقوا قلوبنا ؟! »(٢٩) .

قرر الحسين العودة الى الحجاز مع قواته قبل الانتهاء من حرب الادريسي . فغادر « أبها » في ٣١ تموز ١٩١١ . ويروي عبدالله فيمذكراته قصة لها دلالتها في هذا الصدد ، هي ان الحسين عندما وصل الى الطائف كان في استقباله والي الحجاز حازم بك ومعه الشريف ناصر بن محسن من ذوي زيد ، وكان الحسين قد علم قبل وصوله بان الشريف ناصر نشر الاشاعات السيئة عن حملة عسير كما أشاع أن الحسين نفسه قُتل فيها . ولم يكد الحسين يراه بين المستقبلين الى جانب الوالي حتى أمر باخراجه اخراجا عنيفا ، فاحتج الوالي على ذلك قائلا : « عفوا يا سيدي فانه قد جاء معي » . فأجاب الحسين : « وان كان قد جاء معك ؟! » . فقال الوالي : « أنا ممثل السلطان ، وهذه المعاملة تحقير للسلطان نفسه » . فأجابه الحسين : « هل تركتم ناحية من السلطان لم تحقروها ؟! أنا ممثل السلطان هنا لا أنتم »(٣٠) .

أبرق الوالي الى اسطنبول بما جرى ، فوردت من الصدر الاعظم ابراهيم حقي باشا الى الحسين البرقية التالية : « لقد بلغت المسامع السنية المعاملة الشديدة التى وقعت من ذاتكم الهاشمية على الشريف ناصر بن

(٢٩) عبدالله بن الحسين (المصدر السابق) ـ ص ٦٦ .
(٣٠) المصدر السابق ـ ص ٦٨ .

محسن الذى هرع لاستقبالكم مع عطوفة حازم بك والي الحجاز ، وان الرغبة السلطانية منصرفة الى استدعاء الشريف المومى اليه الى مقامكم السامي وتلطيفه وارضائه » •

فأجاب الحسين بالبرقية التالية : « بما ان الاسباب الموجبة لما نال الشريف ناصر بن محسن من زجر واخراج لاتتعلق بي شخصيا ، فانا لاأرى اظهار الندم على ما فعلت ، وان ما اشاعه المومى اليه من اخبار اضمحلال القوى التى كانت معي وابادتنا لم يقصد منه الا ايجاد حركة ثورية هنا أيضا ، فهو يستحق ما وقع عليه • وقد بلغني الخبر من مكتوبي الولاية ، ثم جاء به الوالي وهو يعرف ذلك وما في هذا من المداهنة والفساد ليس من خلقي » •

عاد الجواب فورا من الصدر الاعظم يقول : « ان الباب العالي لا يستطيع غض النظر عن ما في كسر الرغبة السنية التى تبلغتموها بالبرقية السابقة التى نؤيدها بهذه ، مردفين انتظار السلطان النتيجة » •

فأجاب الحسين بما يلي : « انني ، مع كرامتي لنفسي ، الرجل الذى يعتبر قاعدة الثاني بعد ولي العهد في المكانة ، ولا أظن ان الرغبة السنية تقصد الحط من هذا المركز القديم • والباب العالي ، الذى لايستطيع غض النظر عن نفوذ الذات السنية ، كيف يوجه هذه التهمة الشائنة الى رجل لم ينفض بعدُ غبار السفر عن رجله في مجد السلطان ؟! وان الباب العالي حر في ما يحب أن يفعله » •

لم يرد الصدر الاعظم على هذه البرقية • والظاهر ان الحكومة التركية شُغلت بأمر جديد ألهاها عن مشكلة الحسين ، هو قرب اندلاع الحرب بينها وبين ايطاليا ، ولعلها رغبت في المصالحة معه من جراء ذلك • ففي ليلة عيد الفطر الذى حل في ٢٥ ايلول ١٩١١ ، جاء عثمان بك قائد الجندرمة الى الحسين وذكر له ان برقية وردت من الباب العالي الى الوالي

تطلب منه أن يزور الحسين معتذرا وقال : « هل يقبله سيدنا ؟ » • فأبدى الحسين ترحيبه به ، وتمت الزيارة في صباح اليوم التالي عند صلاة العيد ![٣١] •

لم يمض على المصالحة سوى اربعة ايام حتى اندلعت الحرب مع ايطاليا • وقد تشجع الادريسي بهذه الحرب فعاود الهجوم على القوات التركية في عسير ، وأمدنه ايطاليا بالاسلحة كما قامت المدمرات الايطالية بقصف الحاميات التركية في ساحل البحر الاحمر •

استعانت الدولة العثمانية بالحسين مرة اخرى • وأرسل الحسين قواته الى عسير في ربيع ١٩١٢ بقيادة ابنه فيصل • ولم يستطع فيصل ان يفعل شيئاً ذا أهمية ، فقد أنهك الحر والملاريا قواته ، واصيب فيصل نفسه بالملاريا • وأشيع في مكة أن فيصل مات من شدة الحمى • ويقال ان بنتا لفيصل انتابها الذعر عند سماعها خبر موت ابيها ، فسقطت على رأسها ، وأصيبت من جراء ذلك بشلل أقعدها • وعاد فيصل اخيرا وهو محمولا على كرسي من شدة الوهن[٣٢] •

بداية الاتصال بالانكليز :

في الاسبوع الاول من شباط ١٩١٤ كان عبدالله بن الحسين في طريقه من مكة الى اسطنبول وقد نزل في القاهرة ضيفا على الخديوي عباس حلمي في قصر عابدين • وانتهز عبدالله الفرصة فقابل كتشنر المعتمد البريطاني في مصر بحضور سكرتيره الشرقي رونالد ستورز ، وأخذ يحدثه عن العلاقات المتوترة بين الاتراك ووالده الحسين ، وألمح الى ان الاتراك ربما عزلوا والده عن الشرافة ، وسأله بصورة غير مباشرة عن موقف الحكومة البريطانية من ذلك وهل من المحتمل أن تساعد والده اذا

---

(٣١) المصدر السابق ــ ص ٧٠ •

(٣٢) أمين الريحاني (فيصل الاول) ــ ص ١٣ ــ ١٤ •

اعلن الثورة على الاتراك • فأجابه كتشنر جواباً مطاطاً غامضاً مشيراً الى الصداقة التقليدية القائمة بين بريطانيا وتركيا وأن ليس من المحتمل ان تدخل بريطانيا في الشؤون الداخلية للدولة العثمانية • وقابل عبدالله بعد هذا ستورز منفردا ، وبسط في الحديث معه في الموضوع نفسه ، فكان جواب ستورز لايختلف عن جواب رئيسه كتشنر (٣٣) •

عند عودة عبدالله من اسطنبول في نيسان عام ١٩١٤ مر بالقاهرة ونزل في قصر عابدين كذلك ، فزاره ستورز هنالك ، وجرى بينهما حديث طويل• ويقول ستورز في مذكراته عن هذا الحديث ما يلي :

« ••• اني زرته في قصر عابدين ، وجلست طيلة ساعتين تحت تأثير سحر حديثه ••• حيث أخذ يرتل لي المعلقات السبع وهي القصائد الرائعة من الشعر الجاهلي ويقص لي عن أمجاد ومناحات عنتر بن شداد ، ولابد أننا تناولنا اثناء ذلك مقادير كبيرة من القهوة الخديوية الممتازة ••• ثم سألني بشكل مطلق : هل بوسع بريطانيا العظمى تجهيز أبيه الشريف باثني عشر رشاشا ، أو حتى بستة رشاشات ؟ ولما سألته عن الغرض من هذه الرشاشات ، أجابني بجواب كل طالب للسلاح : انها للدفاع • ثم أضاف الى ذلك : انها للدفاع تجاه هجوم الاتراك • وشعرت بأني لست في حاجة الى تعليمات من رؤسائي لاقول له : اننا لايخطر لنا ببال أن نقدم سلاحا يُشهر في وجه دولة صديقة ـ يقصد الدولة العثمانية ـ ولم يكن لعبدالله ان ينتظر مني غير هذا الجواب ، غير اننا افترقنا على خير ما يكون من الصداقة والود » (٣٤) •

شعر عبدالله بالخيبة من اجتماعه بستورز ولكن شيئاً واحدا استفاده من

---

(٣٣) جورج انطونيوس (المصدر السابق) ـ ص ٢٠٦ •
(34) Storrs (Orientations) – London 1939 – P. 129 – 130.

هذا الاجتماع هو نشوء صداقة متينة بينه وبين ستورز • فقد كان كلاهما مولعين بالشطرنج وبالادب العربي القديم ، وصار من عادة عبدالله انـــه كلما مر بالقاهرة التقى بصديقه ستورز ، ويجرى التقاؤهما عادة في غرفة خلفية في بناية جريدة المقطم[٣٥] • ويقول ستورز في مذكراته : ان العلاقة بينه وبين عبدالله صارت تنمو بمرور الزمن[٣٦] •

علي اصغر البزاز :

عندما أُعلنت الحرب العامة في أوربا في آب ١٩١٤ ، كان كتشنر في اجازة في بريطانيا فعُين وزيرا للحربية فيها • وكتب اليه ستورز من القاهرة قائلا : « هل لك أن تفوضني في التأكد من عبدالله عن الاتجاه الذى سيسير فيه العرب اذا دخلت تركيا الحرب ، اذ أن من الواضح ان انحيازهم الى جانبنا ، فضلا عن الاعتبارات الاخرى ، سيقوي من موقفنا العسكري »[٣٧] • فوصل الرد فى ٢٤ ايلول الى القائم باعمال دار الاعتماد البريطاني فـــي القاهرة على النحو التالي :

« اطلب من ستورز ان يرسل من قبلي رسولا سريا يجري اختياره بحذر الى الشريف عبدالله للتأكد هل سيقف هو ووالده وعرب الحجاز الى جانبنا أو سيكون ضدنا فيما اذا تمكن النفوذ الالماني المسلح في اسطنبول من ارغام السلطان رغم ارادته ، وارغام الباب العالي ، للقيام باعمال عدوانية وحربية معادية لبريطانيا العظمى »[٣٨] •

أخذ ستورز بناءا على هذه الاوامر التى تلقاها يبحث عن رسول أمين

---

(٣٥) زين نور الدين زين (الصراع الدولي في الشرق الاوسط) ـ بيروت ١٩٧١ ـ ص ٢٠٥ •

(36) Storrs (Op. cit) p. 120.

(٣٧) جورج انطونيوس (المصدر السابق) ـ ص ٢٠٩ ـ ٢١٠ •

(38) Storrs (Op. cit.) — P. 157.

ليرسله الى مكة • وقد وقع اختياره أخيرا على رجل بهائي يعمل بزازا في حي الجمالية في القاهرة اسمه علي أصغر ، وكان سبب اختيار هذا الرجل هو أنه والد زوجة حسين روحي أفندي المترجم في دار الاعتماد • ولم يشأ ستورز أن يذكر اسم هذا الرجل في مذكراته بل أطلق عليه حرف «اكس» للتستر عليه •

غادر علي أصغر القاهرة وهو يحمل معه هدية من ستورز الى عبدالله مع رسالة يذكر فيها ان الحكومة التركية عازمة على اعلان الحرب على بريطانيا ولذا فان الحكومة البريطانية مستعدة لتقديم المساعدات اللازمة للحسين للدفاع عن حقوق العرب • وقد وصل الى جدة في ٨ تشرين الاول ، ومنها استكرى حمارا لينقله الى مكة • وعند وصوله الى مكة لم يجد فيها الحسين وأولاده اذ هم كانوا يصطافون في الطائف كعادتهم في كل عام • وكان ينوب عن الحسين في مكة احد أقربائه هو الشريف شرف ، ويقول علي أصغر عن الشريف شرف : انه كان مثل المصريين يعتقد بأن الالمان سينتصرون في الحرب •

أرسل علي أصغر الى الطائف رسولا خاصا لكي يخبر الحسين بأمره • وانتهز الفرصة فقام بالطواف حول الكعبة • وهو يصف الطواف بأنه سخيف جدا ولكنه نوع من الرياضة البدنية الجيدة(٣٩) •

وبعد أيام قليلة وصل الحسين واولاده الى مكة • وحين قرأ الحسين رسالة ستورز استشار ولديه عبدالله وفيصل فيما يجيب به على ستورز ، فاختلف الولدان في الرأي ، اذ كان من رأي عبدالله القيام بالثورة على الاتراك وبالتعاون مع بريطانيا ، أما فيصل فكان رأيه : أن العرب ليس لهم الاستعداد الكافي للثورة ، وهو يخشى أن تنتهي الثورة بالفشل ، ويرى

(39) Loc. cit.

من الافضل ان يقف العرب الى جانب تركيا في ساعة محنتها فيكسبوا بذلك عرفانها •

كان كل من عبدالله وفيصل مصرا على رأيه لايتزحزح عنه • وبعد التفكير توصل الحسين الى قرار وسط هو أن يكتب عبدالله الى ستورز يخبره بأنه راغب في الوصول الى تفاهم مع بريطانيا ولكن مركزه الديني يمنعه من تغيير موقف الحياد الذى هو عليه ، وانه مع ذلك قد يعلن الثورة على الاتراك اذا اضطروه الى ذلك على شرط ان تتعهد له بريطانيا بتقديم مساعدة فعالة (٤٠) •

عاد علي أصغر بالجواب الى القاهرة ، فوصلها في ٣١ تشرين الاول• وكانت الحرب قد أُعلنت بين بريطانيا وتركيا في ذلك اليوم • وقد أبرقت دار الاعتماد بجواب عبدالله الى كتشنر فورا ، فجاء الجواب منه في اليوم نفسه ، وهذا نصه :

« سلامات الى الشريف عبدالله • لقد تمكنت المانيا الآن من شراء الحكومة التركية بالذهب بالرغم من أن بريطانيا وفرنسا وروسيا قد تكفلت بالحفاظ على سلامة الامبراطورية العثمانية اذا بقيت تركيا على الحياد في هذه الحرب • ان الحكومة التركية قامت ، على غير رغبة السلطان وبسبب الضغط الالماني ، بارتكاب أعمال حربية بغزوها حدود مصر بعصابات مسلحة يتبعها جنود أتراك يتجمعون الآن في العقبة لغزو مصر • فاذا ساعدت الامة العربية بريطانيا في هذه الحرب فان بريطانيا ستضمن عدم وقوع تدخل في الشؤون الداخلية للجزيرة العربية وستقدم للعرب كل مساعدة ضد أي عدوان اجنبي خارجي • ومن الممكن ان يتولى الخلافة في مكة او المدينة شخص من العنصر العربي العريق ، ويمكن ان يحدث خير باذن الله من

---

(٤٠) جورج انطونيوس (المصدر السابق) ـ ص ٢١١ ـ ٢١٢ •

هذه الشرور الواقعة الان »[٤١] .

أعد ستورز رسالة الى عبدالله وفق هذه البرقية التى وصلته من كتشنر ، وحمل علي أصغر الرسالة الى مكة ، وعاد منها الى القاهرة في ١٠ كانون الاول . فكتبت دار الاعتماد في القاهرة الى وزارة الخارجية البريطانية في لندن البرقية التالية :

« عاد الرسول من رحلته الثانية يحمل رسالة ثانية من الشريف عبدالله والرسالة مكتوبة بعبارات ودية وتؤكد مرة ثانية مشاعره الودية تجـــاه بريطانيا العظمى وتنص بصراحة على أن والده لاينوى اتباع سياسة معادية لمصالحنا . وأكد شريف مكة في حديث شفوي مراراً علي ان صداقته أقوى كثيرا مما تعبر عنه رسالته ولكنه أشار الى ان مركزه في العالم الاسلامي والوضع السياسي الراهن في الحجاز يجعلان من المستحيل عليه قطع علاقته حالا مع تركيا ولكنه بانتظار الفرصة المواتية . وقد أخبر الرسول بأن الاتراك يستغلون بين العرب قطعنا المزعوم للمؤون عن الاماكن المقدسة »[٤٢] .

بعثة فيصل :

لم يكن الاتراك يعرفون ما يجري من اتصال خفي بين الحســـين والانكليز . ولما أعلنوا دعوة « الجهاد » أرسلوا الى الحسين يطلبون منه تأييد الدعوة ، فأجابهم قائلا : انه يؤيد الدعوة من صميم قلبه وهو يضرع الى الله ان يكللها بالنجاح ولكنه يخشى أن يشارك في الجهاد فينتقم الانكليز منه بقصف موانيه وقطع المواد الغذائية عن الحجاز فتنشأ المجاعة فيه وتثور القبائل .

أدرك الاتراك ان الشريف يتمحل الاعذار لكي يتقاعس عن نصرتهم،

---

(٤١) دائرة الوثائق العامة في لندن ــ رقم (أف ٠ أو ٣٧١ ــ ٢١٣٩) .
(٤٢) دائرة الوثائق العامة في لندن ــ رقم (أف٠ أو٠ ٣٧١ــ٢١٣٩) .

فعزموا على التخلص منه • وفي احد الايام من شهر شباط ١٩١٥ بينما كان الوالي التركي وهيب باشا مسافرا من مكه الى المدينة سقطت حقيبة من امتعة أحد حاشيته ، فعثر عليها أعرابي وسلمها الى الشريف علي ، وارسلها علي بدوره الى ابيه • وتبين ان الحقيبة تضم وثائق فيها دليل على ان الاتراك يدبرون مؤامرة ضد الحسين •

قرر الحسين ارسال ولده فيصل الى اسطنبول ، وكان السبب الظاهر لذلك هو ان يعرض على السلطان وعلى الصدر الاعظم شكواه من الوالي وهيب باشا ، أما السبب الحقيقي فهو الاتصال بالزعماء العرب في دمشق ومعرفة موقفهم من عروض كتشنر ومدى تحمسهم لها واستعدادهم لتنفيذها •

وصل فيصل الى دمشق في ٢٦ آذار ١٩١٥ ، فاستقبله جمال باشا بمظاهر الترحيب ودعاه للاقامة في مقر القيادة العامة ، ولكن فيصل اعتذر عن قبول الدعوة بحجة أنه كان قد وعد آل البكري بالنزول عندهم • وقد قضى فيصل في ضيافة آل البكري أربعة اسابيع اجتمع فيها سرا بالاعضاء البارزين من جمعية « العربية الفتاة » ، وانضم الى جمعيتهم بعد أن حلف اليمين ، كما اجتمع بالضباط العرب من اعضاء جمعية « العهد » ، وبعض الزعماء الدمشقيين كرضا باشا الركابي رئيس البلدية ، والشيخ بدرالدين الحسيني كبير علماء الشام • وكانت محادثات فيصل معهم تجري في غاية الحذر والكتمان ، فكانوا يأتونه الى دار آل البكري حوالي منتصف الليل خوفا من الرقباء والجواسيس • وقد أخبرهم فيصل بعروض كتشنر على والده ، وعن تردد والده تجاهها ، وطلب منهم ابداء رأيهم فيها ، واعطاهم مهلة للتفكير الى حين عودته من اسطنبول •

غادر فيصل دمشق الى اسطنبول فوصلها في ٢٣ نيسان ، فاستقبل فيها بحفاوة • وقابل السلطان وكبار رجال الدولة وعرض عليهم الوثائق التى

تتضمن المؤامرة على والده • فطيبوا خاطره وأصدروا الامر بنقل وهيب باشا من الحجاز وعينوا مكانه غالب باشا وهو رجل مسالم طيب القلب وأوصوه أن يحسن علاقته مع الحسين(٤٣) • ويُعزى سبب هذا اللين الذى أبداه رجال الدولة تجاه الحسين الى اشتداد حملة الدردنيل في تلك الآونة • فقد كانت الدولة العثمانية آنذاك في أحرج اوقاتها ، وكادت اسطنبول تسقط في أيدى الحلفاء • ولهذا وجد رجال الدولة ان من المصلحة مـــداراة الحسين الى أن تنقشع عنهم غمة الدردنيل •

عاد فيصل الى دمشق فوصلها في ٢٣ أيار فوجد زعماءها قد استقر رأيهم على تأييد الثورة عند قيامها ، وكتبوا فى ذلك ميثاقا يتضمن خارطة للبلاد العربية التى يجب على بريطانيا الاعتراف باستقلالها لقاء قيام العرب بمؤازرتها اثناء الحرب • واختلى فيصل بياسين الهاشمي زمنا غير قصير ، وكان هذا الرجل له اهمية في الشام يومذاك اذ كان رئيس اركان حرب الفيلق الثاني عشر الذى كان مقره في دمشق ويتألف معظم جنوده مـــن العرب • فسأله فيصل عن نوع المساعدة التي يمكن ان تقدمها الحجاز الى سوريا من اجل المشاركة في الثورة ، فأجابه الهاشمي : « لانطلب شيئاً ولا نحتاج الى شيء وما عليك الا ان تقودنا وتسير في الطليعة »(٤٤) •

أقسم ستة من زعماء دمشق يمين الولاء وتعاهدوا على ان يعتبروا الشريف حسين ممثل الشعب العربي ، وعلى ان تهب الفرق العربية المرابطة في الشام هبة رجل واحد في حالة موافقة بريطانيا على الشروط الواردة في الميثاق • وتأكيدا لهذا العهد أعطى الشيخ بدرالدين الحسيني خاتمه الى فيصل ليسلمه الى والده رمزا لثقة اهل الشام به(٤٥) •

---

(٤٣) أمين سعيد (الثورة العربية الكبرى) ـ القاهرة ـ ج١ ، ص ١٠٦ •
(٤٤) المصدر السابق ـ ج١ ص ١٠٩ •
(٤٥) جورج انطونيوس (المصدر السابق) ـ ص ٢٤٥ •

تبرع فيصل لجمعيه « الفتاة » بمبلغ ألف ليرة ذهب لمساعدتها في اعمالها ، وأمر بأن تكتب نسخة من الميثاق بخط صغير جدا ، وأعطاها لاحد اتباعه فوضعها في حذائه وخاط عليها بطانة الحذاء • بغية ايصالها سرا الى الحسين في مكة •

وجد فيصل أنه لايستطيع العودة الى الحجاز قبل أن يقابل جمال باشا ويستأذنه بالسفر ، وكان جمال باشا يومذاك في القدس ، فسافر فيصل اليه بالقطار • وعند وصوله انتهز الفرصة لزيارة معسكر الجيش المعد لحملة سيناء الثانية ، فأقيمت له حفلة لتكريمه ، وخطب هوفي الحفلة فقال: «يجب على الامة العربية أن تشترك في الجهاد ، وانا ذاهب الى الحجاز لاعود على رأس جيش كبير من المتطوعين فيشترك في الحملة الثانية »[٤٦] •

عاد فيصل الى مكة فوصلها في ٢٠ حزيران ١٩١٥ وقدم لوالده تقريرا مفصلا عن مهمته وشرح له كيف تغير هو في رأيه فبعد ما كان معارضا للثورة على الاتراك أصبح مؤيدا لها •

مراسلات مكماهون :

استقر رأي الحسين أخيرا على مفاوضة الانكليز تمهيدا لاعلان الثورة ، فأرسل في منتصف تموز رجلا يثق به الى المعتمد البريطاني في القاهرة السر هنري مكماهون • وبدأت منذ ذلك الحين المراسلات المشهورة بين الرجلين وهي التى عُرفت باسم « مراسلات الحسين ـ مكماهون » •

كانت المراسلات تجري باللغة العربية وقد بلغ عددها عشر رسائل ، خمس منها مرسلة من الحسين الى مكماهون ، والاخرى اجوبة عليها • والملاحظ ان الحسين كتب رسائله على طريقة النثر الفني الذى اعتاد العرب عليه قديما ، حيث ملأها بالجمل المعترضة والتضمينات والاستطرادات

---

(٤٦) أمين سعيد (المصدر السابق) ـ ج١ ، ص ١٠٧ •

والامثال والحكم المأثورة والعبارات الرنانة الجوفاء • والظاهر ان مكماهون استغل ذلك فكان يرد على تلك الرسائل بعبارات مطاطة يخيل لقارئهـــا انها تتعهد بكل شيء بينما هي في الواقع لاتتعهد بشيء • ولم يفت مكماهون أن يبدأ رسائله بعبارات التحية التقليدية المليئة بالمدائح المفرطة كقـــوله يخاطب الشريف : « الى السيد الحسيب النسيب ، سلالة الاشراف ، وتاج الفخار ، وفرع الشجرة المحمدية ، والدوحة القرشية الاحمدية ، صاحب المقام الرفيع والمكانة السامية ، السيد ابن السيد ، والشريف ابن الشريف ، السيد الجليل المبجل ، دولتلو الشريف حسين ، سيد الجميع ، أمير مكة المكرمة ، قبلة العالمين ، ومحط رحال المؤمنين الطائعين ، عمت بركاته الناس أجمعين ••• »[٤٧] •

مشكلة الحسين أنه بدلا من أن يعقد مع الانكليز معاهدة واضحـــة العبارة دقيقة الدلالة ، اعتمد على مثل هذه المراسلات التى يمكن تفسيرها حسب اختلاف وجهات النظر • ولما نصحه بعض مستشاريه بأن يطلب من الانكليز وضع اتفاقية يصادق عليها البرلمان البريطاني أجابهم بان الذيـــن اتفقوا معه هم الحكومة نفسها ، ثم أشار الى جيبه وقال : « وعودهـــم هنـــا »[٤٨] •

يعتقد بعض الكتاب البريطانيين ان الغموض في مراسلات مكماهون كان متعمدا ، وهم يعزونه الى سكرتيره ستورز الذى كان يعرف اللغــــة العربية جيدا • فقد كان الانكليز حينذاك يفاوضون فرنسا حول سوريا ، وكان اتجاه المفاوضات يناقض الوعود التى قدموها للحسين • ولكي يتخلص

---

(٤٧) انظر صورتها بالزنكغراف في : زين نورالدين زين (المصدر السابق) ـ ص ٢٨٣ •

(٤٨) خيرية قاسمية (الحكومة العربية في دمشق) ـ القاهرة ١٩٧١ ـ ص ٢٩ •

الانكليز من هذا المأزق تعمدوا جعل مراسلاتهم مع الحسين مليئة بالغموض والعبارات الرنانة[49] •

بين الباطن والظاهر :

في أوائل عام ١٩١٦ قرر الحسين ارسال ابنه فيصل الى دمشق مرة اخرى ليدرس الوضع فيها ومبلغ استعداد الشاميين لتأييد الثورة عند قيامها • وقد سافر فيصل الى دمشق ومعه خمسون فارسا بدعوى أنهم طلائع قوات المجاهدين التي يجري اعدادها في الحجاز للاشتراك في حملة سينـــاء الثانيـــة •

نزل فيصل كالعادة في ضيافة آل البكري بينما نزل فرسانه في مزرعة لآل البكري تقع في القابون على بعد خمسة اميال من دمشق • وبعد دراسة الحالة وجد فيصل ان دمشق تختلف عما كانت عليه في زيارته الاولى ، فقد كان جمال باشا قد بدأ منذ الصيف الماضي بشن حملة ارهاب على دعاة العروبة في الشام ، فشنق عددا منهم في ٢١ آب ١٩١٥ ، بينما كان عدد آخر منهم تجري محاكمتهم بقسوة في عالية ، وتم نقل الضباط العرب مع جنودهم الى اماكن نائية وجيء بقوات تركية صميمية لتحل محلهم في الشام ، كما تم نفي الكثير من الوجهاء مع عائلاتهم الى بلاد الاناضول • اضف الى ذلك أن المجاعة قد بدأت تظهر في بلاد الشام ، واستفحلت بشكل خاص في لبنان، فانشغل الناس بها عن الثورة وقضايا القومية •

وفي شهر شباط جاء وزير الحربية التركية أنور باشا الى دمشق ومنها سافر بالقطار الى المدينة بصحبة جمال باشا وفيصل • وقد دُعي الحسين الى المدينة للاجتماع بالوزيرين ولكنه اعتذر عن ذلك وأرسل لكل منهما سيفا مرصعا •

(49) Elizabeth Monrce (Britain's Monent In the Middle East) — London 1963 — P. 31 — 32.

جرى في المدينة استعراض للقوة التي كان الحسين يعدها للثورة باطنا ويتظاهر بأنها معدة للاشتراك في حملة سيناء • وقد وجه أنور باشا الى فيصل سؤالا : هل ان هذه القوة كلها قد أعدت لحرب اعداء الاسلام ؟ فأجاب فيصل : نعم(٥٠) •

عاد أنور وجمال الى دمشق ومعهما فيصل • وفي أوائل شهر آذار عندما عاد أنور باشا الى اسطنبول ابرق الى الحسين يكرر الطلب عليه باعلان الجهاد المقدس • وكان الحسين حينذاك قد نفذ صبره وأراد أن يكشف عن بعض نيته تجاه الاتراك ، فأرسل في ١٦ آذار برقية الى الصدر الاعظم وانور باشا قال فيها : انه لايعلن الجهاد الا بشروط هي : اعلان العفو العام عن المتهمين السياسيين ، ومنح سوريا والعراق مايطلبانه من نظام لامركزي ، وجعل امارة مكة وراثية في أولادي ، واذا لم تُقبل هذه المطالب فأرجوكم أن لاتنتظروا مني الاشتراك في حرب كنت قد نصحت بأن لاتدخلوا فيها ، وسأكتفي بالدعاء للدولة بالنصر والظفر •

كانت هذه البرقية ذات وقع شديد على الصدر الاعظم وانور باشا ، فأبرقا الى الحسين بجواب عنيف أشارا فيه الى ان فيصل سيبقى في دمشق ضيفا على الجيش الرابع حتى نهاية الحرب • وانكم اذا لم ترسلوا المجاهدين الذين وعدتم بارسالهم الى دمشق فان النتيجة بحقكم سوف لاتكون سارة • فأجابهما الحسين قائلا : انه عندما بعث فيصل الى دمشق كان يعتقد انه سوف لايراه مرة اخرى ، فافعلوا ما شئتم •

يبدو ان الصدر الاعظم وجد ان هذا العنف تجاه الحسين قد يورطهم في مشكلة هم في غنى عنها ، فأبرق اليه بعد يومين برقية فيها ما يشبه الاعتذار فأجابه الحسين بالشكر ووعده بأنه سيرسل المجاهدين حال وصول فيصل الى المدينة(٥١) •

---

(٥٠) أرسكين (المصدر السابق) ـ ص ٤٩ ـ ٥٠ •

(٥١) عبدالله بن الحسين (المصدر السابق) ـ ص ١٠٥ ـ ١٠٧ •

فيصل ممثلا :

مكث فيصل في دمشق مع فرسانه الخمسين زهاء خمسة أشهر ، وقد برزت آنذاك مواهبه السياسية اذ كان بارعا في مداهنته لجمال باشا وازالة الريبة من قلبه في الوقت الذى كان ابوه يعد العدة للثورة على الاتراك .

يقول جمال باشا في مذكراته : انه استدعى اليه فيصل في أوائل نيسان ١٩١٦ بحضور رئيس أركان حربه علي فؤاد بك ، وأخذ يعاتبه عتابا شديدا على سلوك ابيه في مكة وسلوك أخيه علي في المدينة ، وقال له : « أني أريد ان تدرك انكم ان اردتم ان تظلوا أصدقاءنا فعليكم مراعاة قوانين الصداقة ، أما اذا كنتم ذوي غايات أخرى فالاولى ان تلجأوا الى السلاح وتجنحوا الى ثورتكم في الحال وبذلك تنتهي تلك المهزلة ويصبح كل منا عدوا للآخر ظاهر العداوة ، وحينئذ يصبح الامر بيد الله ... » . فامتقع لون فيصل من تأثير هذا الكلام ـ حسب رواية جمال باشا ـ وعلا وجهه الاصفرار ، ثم قام من مقعده والتفت نحو جمال باشا ويده على صدره وقال: « عفوا ياصاحب السعادة ! كيف يخطر لك ان تعزو الينا أمثال هذه التهم؟ وكيف يليق بنا ان نكون خونة ونحن تلك الاسرة التى هي من سلالة الرسول والتي ترى من أكبر الشرف لها أن تكون من الرعايا المخلصين الموالين للخليفة ! فأبي وأخي وأنا لسنا خائنين للشعب او الحكومة ، بل نحن الخدم الاوفياء الامناء لسلطاننا الامجد الذى طالما غمرنا بانعاماته ، فلتكن موقنا بأني سأسوي الخلاف القائم بين أخي والحاكم بصري باشا ، وسأكلفه بالحضور لتقبيل يديك ! » . ويقول جمال باشا : ان فيصل بعد أن خرج من عنده ذهب الى دار علي فؤاد بك وهو في حالة تهيج وبكى بكاءا مرا . ثم يقول جمال باشا تعليقا على ذلك : اني وايم الله لو كنت أعلم بأمر المراسلات التى كانت تجري يومذاك بين مكماهون والشريف حسين لامرت حالا بالقبض على فيصل في دمشق وعلى اخيه علي في المدينة ، ولارسلت

فرقة تركية على جناح السرعة الى مكة للقبض على الشريف حسين في مكة ، فأقضي بذلك على تلك الثورة المشؤومة في مهدها[(٥٢)] .

كان فيصل فى تلك الفترة يسعى للحصول من جمال باشا على عفو عن المتهمين الذين تجري محاكمتهم في عالية ، فكان يتشفع لهم عنده ويحرض اعيان دمشق على التشفع لهم ايضا • وفي يوم جمعة أقام فيصل وليمة لجمال باشا وضباطه في مزرعة آل البكري في القابون ، وحاول بعد الفراغ من الطعام ان يدير الحديث الى قضية المتهمين واستحسان العفو عنهم ، فقال له جمال باشا : « لو عرفت التفاصيل لاسفت أشد الاسف على توسطك بالصفح عنهم » •

وفى فجر ٦ أيار تم شنق سبعة من المتهمين في ساحة المرجة في دمشق، واربعة عشر في ساحة البرج في بيروت • وكان فيصل يومذاك مقيما في مزرعة القابون ، وبينما كان يتناول طعام الافطار مع مضيفيه من آل البكري وصلهم رسول من دمشق يحمل اليهم العدد الخاص من جريدة «الشرق» الذى كان يتضمن قصة الشنق واسماء المشنوقين فخيم الوجوم على الحاضرين ، وقرأ بعضهم الفاتحة ، غير ان فيصل قفز واقفا كمن أصابه مس مفاجيء ، فانتزع الكوفية من على رأسه ، ورمى بها على الارض ، وداسها بعنف ، وصاح : « طاب الموت ياعرب »[(٥٣)] .

أسرع فيصل ذاهبا الى دمشق حيث قابل جمال باشا وقد حدثه جمال باشا عن الاسباب التى حملته على شنق المتهمين وشرح له « خيانتهم » وكيف أنهم اتصلوا بالدول الاجنبية • ويروي جمال باشا في مذكراته : ان فيصل قال له : « قسما بحرمة الاجداد لو علمت أن جريمة الجناة كانت بهذه

---

(٥٢) جمال باشا (مذكرات جمال باشا) ـ ترجمة علي أحمد شكري ـ بغداد ١٩٦٣ ـ ص ٢٤٣ ـ ٢٤٤ •

(٥٣) جورج انطونيوس (المصدر السابق) ـ ص ٥٨٤ ـ ٢٨٥ •

الشناعة لما أحجمت فقط عن طلب الشفاعة لهم بل لطلبت ان تمزق أوصالهم ليطول عذابهم . الا لعنه الله عليهم »[٥٤] .

تمثيلية اخرى :

وصلت الى فيصل في منتصف أيار رسالة سرية من أبيه يخبره فيها بقرب اندلاع الثورة . فأخذ فيصل يبحث عن حيلة يستطيع بها مغادرة دمشق الى مكة دون ان يثير ريبة جمال باشا .

ذهب فيصل لمقابله جمال باشا وقال له : ان المجاهدين قد تم حشدهم في المدينة وانهم على استعداد للمجيء الى دمشق للإشتراك في حملة سيناء. وتساءل فيصل : الا يرى الباشا ان مما يزيد من مهابة وصولهم ان يبعث والده بأحد أبنائه ليكون في مقدمتهم ؟ . فأنطلت الحيلة على جمال باشا ، واقترح على فيصل ان يكون هو في مقدمة المجاهدين . فأظهر فيصل تمنعاً وقال ان له أخوين اكبر منه سنا ويجب ان يكون لهما الحق في التقدم عليه. فأجابه الباشا قائلا : « ومع ذلك فاني ارجوك أن تذهب ، ولياًت أحد أخويك أيضا اذا استطاع ، ولكن من الضروري ان تذهب الى المدينة لتستعجل اتمام الاعدادات ، ولتصحبك حاشيتك الخاصة »[٥٥] .

يدعي جمال باشا في مذكراته انه فطن الى حيلة فيصل وانه انما سمح له بمغادرة دمشق لانه كان قد أعد خطة لضرب ثورة الحسين عند قيامها. وفيما يلي نص ماقال جمال باشا في مذكراته في هذا الموضوع :

« وفي ذات يوم حوالي منتصف مايس جاءني الشريف فيصل وأخبرني ان اخاه قد تلقى الاوامر من أبيه بالانضمام الى جيش سيناء وانه هو – أي فيصل – يرغب بعد استئذاني في الذهاب الى المدينة ليجيء بأخيه

---

(٥٤) جمال باشا (المصدر السابق) – ص ٢٤٢ .
(٥٥) جورج انطونيوس (المصدر السابق) – ص ٢٨٨ .

الى القدس • واكد ليّ ان ذهابه سيؤثر في نفوس المجاهدين تأثيرا حسنا • ولما كنتُ قد تعودت الخديعة من الشريف حسين واولاده آثرت أن أكون انا الغالب ففكرت قليلا ثم قلت : (حسنا جدا ، لقد صرحت لك • فاغد الى المتطوعين في المدينة واستقبلهم باسمي ثم ائتني بهم هنا • وسآمر مصلحة السكك الحديدية بنقل الجنود ، وأرسل معك بعض العلماء من دمشق ليكونوا في ركابك ، وبذلك تستطيع ان تؤلف وفدا خاصا لاستقبال المجاهدين) • وما كدت أفرغ من هذه الكلمات حتى أبرقت أسارير وجهه وكاد فؤاده يطير فرحا • فتجلت لي الحقيقة وتكشفت ، حتى لقد التفتُ الى علي فؤاد بك رئيس اركان حربي قائلا : (انني موقن بأن الثورة سيشب ضرامها في الحجز في القريب العاجل ، فاني قد رأيت الشريف فيصل قد فرح أشد الفرح لخديعتي حتى أنه لم يستطع اخفاء شعوره) • وكان علي فؤاد بك يرى رأيي وقد وافق على الخطة التي سلكتها نظرا لتقرر اتخاذ خطة اخرى ••• »[٥٦] •

ويقول جمال باشا انه لم يكد فيصل يغادر دمشق بالقطار حتى أرسل وراءه قائدا معروفا بوطنيته وثباته هو فخري باشا لكي يتسلم القيادة في الحجاز عند اول قيام الثورة • وكانت هنك قوة تركية مؤلفة من ألفين او ثلاثة آلاف جندي قد أرسلت من اسطنبول الى اليمن ، فأمر جمال باشا بأن تبقى في المدينة وان يتم تسليحها بالبنادق التي كان في النية ارسالها الى رجال الشريف • والظاهر ان جمال كان واثقا من ان هذه الاجراءات كافية للقضاء على الثورة في مهدها[٥٧] •

اعلان الثورة :

في صيف ١٩١٦ كن غالب باشا يتولى قيادة الجيش في الحجاز بالاضافة

---

(٥٦) جمال باشا (المصدر السابق) ـ ص ٢٤٤ ـ ٢٤٥ •
(٥٧) المصدر السابق ـ ص ٢٤٦ ـ ٢٤٧ •

الى منصب الوالي ، وهو كما اشرنا اليه من قبل رجل مسالم طيب القلب• وكان يشكو من مرض الكليه ، فغادر مكة مع القسم الاكبر من جنوده الى الطائف لقضاء فصل الصيف فيها غافلا عما يخبئه القدر له •

لم يكن قد بقي في مكة من الجيش سوى ألف ومائتي جندي • وفي صباح ١٠ حزيران ١٩١٦ م ـ الموافق ليوم ٩ شعبان ١٣٣٤ هـ ـ بينما كان الجنود يتدربون خارج ثكنتهم بلا سلاح فوجئوا بالرصاص ينهمر عليهم ، فأسرع قائدهم درويش بك الى التلفون وسأل الحسين عن سبب هـــذا الرصاص ؟ فكان جواب الحسين له : « ان العرب لاترضاكم حكاما عليهم وانتم في ديارهم قد أهنتموهم وعاديتموهم » • وعند هذا لجأ درويش بك الى الحيلة فتظاهر بأنه مستعد للاستسلام هو وجنوده ولكنه لم يكد يدخل الثكنة حتى أوعز الى جنوده بتناول اسلحتهم • وبذا بدأ القتال الشديد بينهم وبين البدو المحاصرين لهم[٥٨] •

كان الاتراك يملكون مزية لم يكن العرب يملكونها في بداية الثورة هي المدافع ، وكانت لديهم في مكة ثكنتان هي « جياد » التي تقع على بعد ثلاثمائة متر من قصر الحسين ، وثكنة « جرول » التي كانت على بعد ألفي متر منه • وقد أخذت مدافع هاتين الثكنتين توجه قنابلها على القصر ، وظلت تواصل قصفه يوما بعد يوم • وقد ابدى الحسين شجاعة فائقة في اثناء ذلك، فكان يثابر على الجلوس في مكتبه يوميا وهو ثابت لم يغير مكان جلوسه • وقد دخلت احدى القنابل غرفته ومرت على قيد شبر منه واخترقت اساس الغرفه وهو لابعبأ بها • وظلت فرقته الموسيقية تعزف أمام القصر على عادتها في كل يوم • وحدث ان سقطت قنبلة بالقرب من العازفين فانفرط عقدهم خائفين ، ولكن الحسين أمرهم أن يواصلوا العزف ولو ماتوا كلهم ، فعادوا الى العزف تحت خطر القنابل[٥٩] •

---

(٥٨) محمد طاهر العمري (المصدر السابق)ـ ج١ ، ص ٢٤٣ ـ ٢٤٤ •
(٥٩) سليمان موسى (المصدر السابق) ـ ص ٧٦ •

ليس هنا مجال الحديث عن الثورة العربية ، وهو حديث طويل متشعب[٦٠] ، يكفي أن نذكر هنا أن اول حامية تركية استسلمت للثورة هي حامية جدة وذلك في ١٦ حزيران ـ اي بعد ستة ايام من اعلان الثورة ـ وقد ساعد الاسطول البريطاني على اخضاعها • وفي ٦ تموز تم الاستيلاء على ثكنتي جياد وجرول • وفي ٢٢ ايلول استسلمت حامية الطائف • ولم يصمد في القتال سوى فخري باشا قائد حامية المدينة ، فقد كان هذا الرجل شديد المراس صارما مؤمنا بعثمانيته وصوفيا من اتباع الطريقة البكتاشية • وصار يرتقي منبر الحرم النبوي مرة بعد مرة فيسب العرب ويسب الحسين وجميع الاشراف ويصفهم بأنهم قد تآمروا مع الكفار على الخلافة الاسلامية •

لم تتمكن الثورة من احتلال المدينة ، واكتفت أخيرا بتطويقها بقسم من قواتها بينما وجهت القسم الآخر نحو الشمال • وكانت القوات التي توجهت نحو الشمال بقيادة فيصل بن الحسين يعاونه عدد من الضباط العراقيين والسوريين ، ومعهم الضابط البريطاني المعروف لورنس • وقد احتلت هذه القوات ميناء « الوجه » في ٢٤ كانون الثاني ١٩١٧ ، والعقبة في ٦ تموز ، ثم وصلت الى دمشق في ١ تشرين الاول ١٩١٨ •

ومن الجدير بالذكر في هذا الصدد ان الحسين بويع بالملك في مكة في ٢٩ تشرين الاول ١٩١٦ • ويقول عبدالله في مذكراته : ان الحسين لم يكن راغبا في ذلك وأنه أصر على رفض البيعة ، ولكن رجال الدولة وقواد الثورة ومن كان في مكة من كبار حجاج العراق والشام ألحوا عليه في قبول البيعة وقالوا له : « لسنا جميعا على استعداد لخدمة الثورة الا على شرط قبول ما عرضناه ••• » ، فرضي الحسين •••[٦١] •

(٦٠) راجع الجزء الرابع من هذا الكتاب ـ الفصل الثاني •
(٦١) عبدالله بن الحسين (المصدر السابق) ـ ص ١٢٩ ـ ١٣٠ •

الفصل الثالث

الحكم الشريفي في ســـوريا

في صيف ١٩١٨ كانت قوات الامير فيصل بن الحسين المعسكرة في شرقي الاردن تمثل الجناح الايمن للقوات الانكليزية المحتشدة في فلسطين بقيادة الجنرال اللنبي • وفي ١٩ ايلول بدأ الجنرال اللنبي بشن هجومه الكبير على القوات التركية ، وفي خلال ثلاثة أيام استطاع بخطة بارعة أن ينزل بالقوات التركية ضربات ماحقة مزقتها تمزيقا • وعند هذا صارت القوات العربية تسابق مع القوات الانكليزية في سبيل الوصول الى دمشق• وفي ٣٠ منه وصلت طلائع الفريقين الى مقربة منها ، وقد اضطر الاتراك الى الانسحاب من دمشق على عجل ، ونسفوا قبيل انسحابهم مخازن العتاد فيها على نحو ما فعلوا في بغداد عند انسحابهم منها •

وفي الساعة السادسة من صباح اليوم التالي – أي ١ تشرين الاول – دخلت الى دمشق الخيالة الاسترالية من الجهة الغربية ، بينما دخلت اليها القوات العربية من الجهة الجنوبية • وقيل ان الجنرال اللنبي كان يرغب في أن يدخل العرب الى دمشق مع قواته جنبا الى جنب لكي يجعل لجيشه في أذهان الاهالي صورة الحليف لا صورة الفاتح •

كان الشريف ناصر على رأس القوات العربية الداخلة الى دمشق ممثلا للامير فيصل • وكان معه عودة أبو تايه شيخ عشيرة الحويطات ، ونوري الشعلان شيخ عشيرة الرولة ، وسلطان الاطرش شيخ الدروز ، كما كان معه لورنس ونوري السعيد• وقد قابل سكان دمشق القوات العربية والانكليزية بحماس منقطع النظير ، فكانت الشوارع مزدحمة بالجماهير الى حد يكاد يتعذر المرور فيها ، والهتافات تشق عنان السماء • وقـــد

وصف صبحي العمري ما شاهده في دمشق عند دخوله اليها ، وكان ضابطا نظامياً في القوات العربية ، فقال :

« ••• وعند مدخل حي الميدان شاهدنا الالوف من الخلق التي جاءت ترحب بنا • وسرنا في طريق الميدان فوجدنا الناس متجمعين على الطريق اعتبارا من بوابة الله حتى المرجة بالالوف ، في الشوارع وعلى السطوح ، نساءاً ورجالا وشباباً وشيباً • لقد كان الجميع يرحبون بنا بمختلف الوسائل ، بالتصفيق والنداءات والاناشيد والزغاريد ونثر الازهار • وكان في يد بعض الرجال قماقم ماء الورد والزهر يرشونه علينا ، وهي عادة دمشقية للترحيب ••• »[١] •

كان ذلك ايذاناً ببدء الحكم الشريفي في سوريا ، وهو الحكم الذى دام سنتين وكان مليئاً بالاحداث المثيرة والدروس الاجتماعية •

وسنحاول في هذا الفصل دراسة تلك الاحداث والدروس بايجاز •

اول الاحداث :

أول حادث مثير شهدته دمشق في العهد الشريفى هو حادث الاميرين الجزائريين سعيد وعبدالقادر • فهذان الاميران هما حفيدا الثائر الجزائرى المشهور عبدالقادر الجزائري • وكانا يسكنان دمشق ولهما فيها عدد كبير من الاتباع يعرفون بـ « المغاربة » • والواقع أنهما أنقذا دمشق من النهب والفوضى عند إنسحاب الاتراك منها في ٣٠ ايلول ، فقد وزعا اتباعهما المغاربة في مختلف أحياء المدينة ، وصار هؤلاء الاتباع يجولون على خيولهم في أحياء المدينة وخاصة في أحياء اليهود والنصارى ، وكان لهم أثر فعال في نشر الامن والطمأنينة بين السكان •

كان آخر من انسحب من الاتراك هو وكيل الوالي الميرألاي بهجت بك ، وقد اجتمع قبيل انسحابه بشكري باشا الايوبي وسلمه ادارة المدينة•

---

(١) صبحي العمري (لورنس كما عرفته) ـ بيروت ١٩٦٩ ـ ص ٢٢٧•

ولكن الايوبي وجد ان الامير سعيد الجزائري قد تولى الادارة في المدينة فعلا فلم يشأ أن ينازعه عليها • وكان الامير سعيد قد رفع العلم العربي على بناية السراي ، وأعلن قيام حكومة مؤقتة برئاسته باسم الملك حسين ، وأبرق بذلك الى مختلف أنحاء سوريا •

وفي صباح اليوم التالي عندما دخلت القوات العربية الى دمشق ، كان الأميران سعيد وعبدالقادر مجتمعين مع شكري الايوبي والشريف ناصر في السراي ، فدخل عليهم آنذاك لورنس ومعه نوري السعيد • وكان لورنس له معرفة سابقة بالامير عبدالقادر ويحمل له حقداً ويتهمه بالميل الى الاتراك وخيانة العرب • ولم يكد الامير سعيد يلمح لورنس داخلا حتى وقف في وجهه وأخذ يخاطبه بلهجة تنم عن التحدي حيث قال له : « لقد ألّفنا بالامس أنا وأخي عبدالقادر أحفاد عبدالقادر الجزائري مع شكري باشا الايوبي سليل صلاح‌الدين حكومة وطنية ونادينا بالحسين ملكا على العرب على مسمع ومرأى من الاتراك والالمان المدحورين »[٢]•

غضب لورنس من هذا الكلام غضبا شديدا وهمّ بالرد عليه ، غير أنه سمع صوت مشاجرة في القاعة المجاورة ، فأسرع ليرى ماحدث ، وهناك وجد عودة أبو تايه وسلطان الاطرش قد شهر كل منهما سلاحه في وجه الآخر ، كما شهر أتباعهما أسلحتهم ، وكاد الرصاص ينطلق لو لم يلق بعض الحاضرين أنفسهم بين المتخاصمين ، ويمنعونهم من اطلاق الرصاص[٣] •

حين عاد لورنس الى القاعة الاولى وجد الاميرين الجزائريين قد غادراها الى البيت • فأرسل يستدعيهما اليه • وبعد قليل وصل الاميران

---

(٢) لورنس (اعمدة الحكمة السبعة) ــ بيروت ١٩٦٣ ــ ص ٤٣٧ •

(٣) نقلا عن سليمان موسى (مذكرات الامير زيد) ــ عمان ١٩٧٦ ــ ص ١٦٦ •

الى السراي ومعهما حرسهما الخاص والشرر يتطاير من عيونهما • فأعلن لورنس على مشهد من الحاضرين قائلا : انه بصفته مندوباً عن الامير فيصل يعزل حكومة دمشق المحلية التي شكلها الامير سعيد الجـــزائري وأخوه ويعين بدلا عنها حكومة جديدة برئاسة رضا باشا الركابي على أن ينوب عنه الى حين حضوره شكري باشا الايوبي ، ويكون نوري السعيد قائدا عاماً للقوات المسلحة •

كان لهذا الكلام وقع شديد جداً على الاميرين ، وأخذ سعيد يسب لورنس وينعته بأنه نصراني انكليزي ، واستنجد بالشريف ناصر عليه باعتباره ابن دينه وعنصره • ثم قام عبدالقادر وهو شاهر خنجره ، وانقض على لورنس شاتماً له وفمه يرتجف من شدة الغضب ، غير ان عودة أبو تايه سارع لمساعدة لورنس وانقض على عبدالقادر حائلا دون وصوله الى لورنس ، وتدخل نوري الشعلان معلناً أن قبيلة رولة القوية تقف الى جانب لورنس[٤] • فانسحب الاميران من السراي وهما يهددان ويتوعدان بالانتقام من لورنس لكونه نصرانياً كافراً[٥] •

صمم لورنس على قتل عبدالقادر ، وكلف نوري السعيد بذلك ، وقد كلف نوري بدوره صبحي العمري • يقول صبحي العمري في ذلك ما نصه :

« ففي اليوم الاول او الثاني من دخول دمشق ، وكنت مسؤولا عن أمن المنطقة الوسطى من المدينة ، ومقري قرب مقر القيادة التى كانت في فندق فيكتوريا ، طلبني نوري السعيد الى المقر المذكور وكان لورنس جالساً بقربه وقال لي : « ان الامير عبدالقادر يشتغل ضد الحكم العربي

(٤) لورنس (المصدر السابق) ـ ص ٤٣٩ ـ ٤٤٠ •

(٥) نايتلي وسمبسون (المخفي من حياة لورنس العرب) ـ ترجمة لاوند والعابد ـ بيروت ١٩٧١ ـ ص ٩٦ •

ويعمل لحساب الفرنسيين وهو يسعى الى الاخلال بالأمن فاريــدك أن تصحب عدداً من جنود سريتك وتقتله »• فدُهشت من هذا الامــر ، وبعد تفكير قليل قلت له : « افهم من أمرك ياسيدي انك تطلب منــي احضاره ، فاذا عصى الامر وقاوم فاننا نجلبه حياً أو ميتاً » • فغرق نوري في تفكير قصير وراح يتبادل النظرات مع لورنس ثم قال : « طيب ، افعل »• ثم قال : « اذهب الى مدير الشرطة واطلب منه بصورة سرية شخصــاً يدلك على بيت عبدالقادر » • وذهبت الى مدير الشرطة وبلغته الامــر فأرسل اليّ الشخص ، وما كدت أصل الى مقري حتى جاءني رســول يبلغني طلب نوري السعيد حضوري • فلما دخلت عليه وجدت لورنس لايزال عنده • قال لي : « صرفنا النظر عن الامر » • وخرجت••• »[٦].

ظل عبدالقادر مطلق السراح حتى ٩ تشرين الثاني ١٩١٨ ، ففي صباح ذلك اليوم جاء أفراد من الشرطة اليه في بيته لاعتقاله هو وأخيــه سعيد • وقد تمكنت الشرطة من اعتقال أخيه ، أما هو فقد قاوم الشرطة وصار يشتم رئيس الحكومة رضا الركابي ، ثم أسرع الى فرسه وانطلق بها نحو طريق الصالحية ، ولما وصل الى جسر الصالحية أطلقت عليـه الشرطة النار وأردته قتيلا •

أُودع سعيد في سجن المزة عشرة أيام ، ثم نُقل الى حيفا ووضـع فيها تحت الرقابة • وفي منتصف ١٩١٩ أُطلق سراحه وسُمح له بالاقامة في بيروت • وهناك انضم الى الفريق الممالىء لفرنسا والمعادي لحكومة دمشق العربية ، وأخذ ينفق الاموال في الدعاية لنفسه ولفرنسا ، وأقبـل عليه الكثيرون من اللبنانيين يؤيدونه ، وشرعت الصحف الميالة الى فرنسا تكيل له الثناء وتنشر أخباره بشكل يلفت الانظار اليه ويرفع من شأنه•••

---

(٦) صبحي العمري (المصدر السابق) ــ ص ٢٣٣ •

النهب في دمشق :

في اليوم التالي لدخول القوات العربية دمشق وقعت فيها بعض حوادث النهب ، ويعزوها لورنس الى الامير عبدالقادر الجزائري حيث يقول : « في صباح اليوم التالي جاء لايقاظي مواطن يرتجف من الخوف . وأبلغني بأن عبدالقادر قد أعلن الثورة على الحكم الذى أقمناه في الامس. فاستدعيت نورى السعيد على جناح السرعة موقناً بأن هذا الجزائري الاحمق انما يحفر قبره بيده . وكان هذا قد حشد رجاله وخطب فيهم معلنا بأن رجال الحكم ليسوا سوى صنائع بريطانيا ودعا الى القضاء على حكمهم في المهد خدمة للدين والخلافة . وبما أن أنصاره كانوا معتادين على الطاعة دون مناقشة فقد اعتبروا كلامه منزلاً وهبوا لمحاربتنا . والدروز الذين كنت في الامس قد رفضت اغداق المكافآت عليهم لخدمات متأخرة أدوها الينا ، تبع عدد منهم عبدالقادر ، ليس حباً بـه ، أو غيرة على الدين والخلافة ، أو ولاءاً للاتراك المقهورين ، بل حباً بالسلب والنهب طالما ان الفرصة مؤاتية . ويثبت صحة ذلك انهم انقضوا على الحوانيت المفتوحة لسلب ما فيها عوضاً عن التوجه الينا لمحاربتنا ... »(٧) .

ان صبحي العمري لايوافق لورنس على قوله هذا ، فهو يذكر الحادثة على النحو التالي حيث يقول : « : ... أصبح الأمن مستتباً ولم يعكر صفوه سوى حادثة واحدة كانت آخر الحوادث الفردية البسيطة التي كان لابد من وقوعها في مثل هذه الاحوال . وهذه الحادثة هي أن افراداً من بدو الشعلان والدروز أرادوا الاستفادة من هذه الحالة لينهبوا ما يمكن أن تصل اليه أيديهم ، فذهب عدد منهم الى بعض البيوت شمالي المزة من جهة زقاق الصخر ، وعدد آخر الى قرب الربوة ، فنهبوا بعض المساكن وتوجهوا من هناك نحو دمشق . فأُعلمت بذلك وصدر لي الامر بضربهم والقبض على من يمكن القبض عليه » .

---

(٧) لورنس (المصدر السابق) ـ ص ٤٤١ .

ويصف العمري كيف ضرب الناهبين بالرشاشات فيقول : « نصبنا الرشاشات في المكان الذى شُيِّد عليه فندق سميراميس اليوم وانتظرت وصولهم • ولم تمر دقائق قليلة حتى رأيناهم مقبلين من جهات الربوة ، وكانوا نحو مائة بين خيال وهجان • لم يكن على الشارع سوى بناية واحدة مقابل الجسر الحالي القائم بجانب التكية • وكانوا يحملون على رواحلهم ما كانوا نهبوه من الدور ، كما كانوا يتقدمون وهم يحدون • تركتهم حتى وصلت مقدمتهم الى قرب الجسر الذى يقابلنا ، وعندها أمرت بفتح النار عليهم اعتبارا من مؤخرتهم حتى مقدمتهم في آن واحد • وبدأوا يتساقطون عن رواحلهم : فالمتقدمون القريبون منا اندفعوا منهزمين من فوق الجسر باتجاه محطة الحجاز ، فحصدهم الجنود برصاص بنادقهم ، والآخرون منهم من فرّ على الطريق نحو بوابة الصالحية ، ومنهم من فرّ على طريق الربوة • وانتهت القضية خلال عشر دقائق • وامتلأ الشارع من مقابل التكية الى محطة الحجاز باثنين وعشرين قتيلا ونحو من ثلاثين جريحا • بعد ذلك ارسلت الجنود نحوهم ، فجمعوا من سلم منهم كما جمعوا السلاح والابل والخيل في اصطبلات الشرطة تحت الحراسة • أما القتلى والجرحى فتركتهم كُلاً في مكانه للعبرة • وبعد مرور ساعة وردني أمر باطلاق سراحهم وتسليمهم رواحلهم وجرحاهم وبنادقهم على أن يبارحوا المدينة • وهكذا كان ولم يقع غير هذه الحادثة المهمة ••• »[8] •

بين فيصل واللنبي :

في الساعة الواحدة بعد ظهر ٣ تشرين الاول دخل الى دمشق الجنرال اللنبي وهو راكب سيارة مكشوفة • فنزل في فندق فكتوريا • ويقال انه كان عند وصوله مضطرب البال قلقاً لانه تسلم قبل قليل برقية تأمره بأنه عند استيلائه على دمشق يجب ان يعمل طبقاً لاتفاقية سايكس

(٨) صبحي العمري (المصدر السابق) ـ ص ٢٢٩ •

بيكو[٩] ، وهي الاتفاقية التي تجعل سوريا تحت نفوذ فرنسا • ويقال أيضاً ان برقيات أخرى كانت قد وصلته من دوائر بريطانية وفرنسية فحواها « اخنقوا حركة فيصل ولورنس في مهدها ، أوقفوا السيل العربي• تذكروا اتفاقية سايكس بيكو »[١٠] • فأسرع اللنبي يستدعي اليه قائد الخيالة الاسترالي الجنرال شوفيل وطلب منه أن يبعث بسيارة ليأتي بفيصل الى فندق فكتوريا حالاً •

كان فيصل عند وصول أمر اللنبي اليه قد وصل بالقطار الى مقربة من دمشق ، وكانت جماهير المدينة قد تجمعت على ارصفة الشوارع وشرفات الدور استعداداً لاستقباله • ويبدو أن فيصل وجد نفسه في موقف حرج لايدري كيف يخرج منه : هل يستجيب لامر القائد فيخيب ظن الجماهير ، أم يستجيب للجماهير فيعصي أمر القائد ؟!

قرر فيصل الاستجابة للجماهير على أن يذهب لمقابلة القائد بعدئذ • ولهذا ترك السيارة التي جاء بها شوفيل وامتطى جواداً عربياً ، وسار في شوارع دمشق في موكب حافل يحيط به ألف وخمسمائة فارس من البدو بأيديهم السيوف والرماح • فاستقبله الاهالي بهتاف يصم الآذان ، ونثروا عليه الزهور والرياحين • ولم يتمالك فيصل نفسه من البكاء[١١] •

اتجه فيصل في مسيرته نحو فندق فكتوريا ، وحين دخل قاعة الاستقبال وجد اللنبي واقفا ينتظره مع حاشيته • وكانت تلك اول مقابلة بينهما • يقول ويفل : ان الرجلين كانا على طرفي نقيض ، فقد كان اللنبي الرجل البريطاني الضخم البنية الواثق من نفسه المعتاد على اصدار الأوامر

(٩) نايتلي وسمبسون (المصدر السابق) ـ ص ٩١ •

(١٠) زين نورالدين زين (الصراع الدولي في الشرق الاوسط) ـ بيروت ١٩٧١ ـ ص ٧٩•

(١١) أرسكين (فيصل ملك العراق) ـ ترجمة عمر ابو النصر ـ بيروت ١٩٣٤ ـ ص ١١٢ •

بينما كان فيصل يمثل العربي النحيل البسيط الزاهد ولكن تبدو عليه سيماء الامارة ... [١٢] .

يروي شوفيل في تقرير له نُشر مؤخرا : ان اللنبي بدأ يتكلم موجهاً كلامه الى فيصل ، بينما كان لورنس يترجم بينهما ، فقال ما معناه ان فيصل سيتولى حكم سوريا بالنيابة عن والده تحت حماية فرنسا وباشرافها ودعمها المالي ، وان هذا الحكم سيشمل سوريا الداخلية فقط ولا علاقة له بلبنان وفلسطين . فرد فيصل على هذا الكلام قائلا : انه لايعترف لفرنسا بأي شأن وأنه على استعداد لتلقي المساعدة البريطانية دون سواها ، ولن يقبل ببلد لامنفذ له على البحر . وهنا التفت اللنبي نحو لورنس يسأله : « ألم تخبره بأن سوريا ستكون تحت وصاية فرنسا ؟ » . فأجاب لورنس : « لا ياسيدي ، كنت أجهل ذلك » . فقال اللنبي له : « ولكنك كنت تعلم علم اليقين بأنه لن يكون لفيصل علاقة بلبنان » . فأجاب لورنس : « لا ياسيدي كنت أجهل ذلك أيضاً » .

ختم اللنبي المحاورة أخيراً بأن صرح قائلاً : « أنا السر أدموند اللنبي القائد العام ، وأنت فيصل جنرال تحت امرتي ، وعليك أن تطيع أوامري وتقبل بالوضع الحاضر الى أن تتم تسوية الامور بعد أن تضع الحرب أوزارها » . فانصاع فيصل لهذا القرار وانصرف مع حاشيته خارجاً[١٣] .

وعلى أثر خروج فيصل طلب لورنس من اللنبي أن يعفيه من الخدمة ، وذكر له ان وقت اجازته قد حان وانه يرغب في العودة الى بريطانيا . فأجابه اللنبي : « نعم من الافضل ان تسافر » . فانصرف

(١٢) زين نورالدين زين (المصدر السابق) ـ ص ٧٩ ـ ٨٠ .

(١٣) نايتلي وسمبسون (المصدر السابق) ـ ص ١٠١ ـ ١٠٢ .

لورنس ، وفي ٤ تشرين الأول غادر دمشق متوجها الى لندن • وفى ٣٠ منه قابل لورنس الملك جورج الخامس لكي يتسلم منه الوسام الذى مُنح له تقديراً لاعماله الباهرة في الثورة العربية • ويروي أحد الذين حضروا المقابلة ان لورنس رفض قبول الوسام من الملك معتذرا بأنه قد ارتبط بعهد مع فيصل بينما هو يرى الحكومة البريطانية الآن على وشك التخلي عن العرب حسب اتفاقية سايكس بيكو • وأضاف لورنس الى ذلك قائلا : انه كان أميراً بين العرب وهو الآن ينوي أن يلتزم جانبهم في السراء والضراء ، وقد يحارب فرنسا اذا اقتضت الضرورة من أجل انقاذ سوريا• ثم أنهى لورنس حديثه مع الملك طالباً منه المغفرة لرفضه الوسام منه(١٤)•

حادثة في حلب :

كان الفرنسيون يبذلون أقصى جهدهم لتدعيم نفوذهم في لبنان ، وجاؤوا بمبلغ ضخم من الجنيهات المصرية يُقدر بخمسة ملايين ونصف بغية توزيعه على الانصار والدعاة • واتخذوا من بيروت مركزاً لدعايتهم• يروي اسكندر الرياشي أن الضابط الفرنسي كولوندر استدعى اليه الزعيم اللبناني حبيب السعد وقال له بحضور الرياشي : « الحكاية أصبحت بعد دخول الانكليز بجيشهم الكبير حكاية تزاحم بيننا وبينهم على هذه البلاد ، فهم أخذوا ينكرون علينا معاهدة سايكس بيكو ويتمسكون بحق الفتح اعتباراً ان جيشهم هو الذى فتحها » • ويقول الرياشي ان كولوندر قال له : اذا كان الانكليز قد ملأوا سوريا ولبنان بجيوشهم فان فرنسا ماتزال تملك وسائل أخرى لمنافستهم(١٥) •

---

(14) Stewart (T. E. Lawrence) London 1977 — P. 218

(١٥) اسكندر الرياشي (رؤساء لبنان كما عرفتهم) ـ بيروت ١٩٦١ ـ ص ٢١٦ •

وفي الوقت الذي كان فيه لبنان يعج بالدعاية لفرنسا ، كانت سوريا على العكس من ذلك تعج بالدعاية ضد فرنسا • واتخذت الدعاية في كلا البلدين صبغة دينية وصارت تضرب على الاوتار الطائفية مما أدى الى حادثة مؤسفة في حلب •

كان سبب الحادثة ان اشاعة انتشرت في حلب في أواخر شباط ١٩١٩ مفادها أن الجنود الارمن المتطوعين في القوات الفرنسية اعتدوا على العرب القاطنين في أطنه وما حولها ، فهاج المسلمون في حلب وقرروا القيام بمظاهرة استنكارية في يوم ٢٨ شباط ، وكان ذلك اليوم يوم جمعة •

كان شكري الايوبي يومذاك حاكماً عسكرياً لولاية حلب ، بينما كان علي جودت الايوبي حاكماً عسكرياً لمدينة حلب • ويقول علي جودت في مذكراته : انه حين بلغه قرار المظاهرة اقترح على شكري باشا منعها لما يمكن أن ينتج عنها من محذور ولكن شكري باشا لم يوافق على اقتراحه • وبينما كان علي جودت في داره في صباح الجمعة يستقبل زائريه كالعادة اذ بجرس التلفون يرن ، واذا بشكري باشا يخبره أن مذبحة وقعت بين المسلمين والارمن في سوق الجمعة فأسرع علي جودت ممتطيا حصانه وذهب الى مقر جنوده ليوجههم الى محل الحادثة • وفي خلال ساعة واحدة تقريبا انتهت الحادثة بعد أن سقط عدد من القتلى والجرحى قدره البعض بأكثر من مائة(١٦) •

قام الفرنسيون للحادثة وقعدوا ، واعتبروها دليلا على صحة مايدعونه من ان العرب لايصلحون للحكم الذاتي ، وأخذوا ينشرون الدعاية السيئة حولها في أوربا(١٧) • وأخذت جمعية الصليب الاحمر الامريكية تبذل

---

(١٦) علي جودت (ذكريات) ــ بيروت ١٩٦٧ ــ ص ٧٥ ــ ٧٦ •
(١٧) محمد طاهر العمري (مقدرات العراق السياسية) ــ بغداد ١٩٢٥ ــ ج٣ ، ص ١٤٢ •

المساعدة لمن شاء من الارمن للهجرة من حلب ، فأوصلتهم الى بيروت وأمنت سفرهم بحراً الى البلاد التي اختاروها[١٨] .

أُستدعي شكري الايوبي الى دمشق وحل محله جعفر العسكري ، كما عُين ناجي السويدي معاوناً له[١٩] . ودعا ناجي السويدي وجهاء الارمن والمسلمين الى اجتماع عام من أجل تصفية القلوب . وعلى أثر ذلك أقام وجهاء الارمن حفلة شاي في المنتم الارمني دعوا اليها وجهاء الحلبيين من جميع الطوائف ، فتبادلوا عواطف الود والاخاء وأبرق وجهاء الارمن الى المفوضية الفرنسية العليا في بيروت يرجون منهم عدم استخدام متطوعي الارمن ضد سوريا والسوريين[٢٠] .

فيصل في فرنسا :

في ٨ تشرين الثاني أرسل لورنس الى الحسين في مكة البرقية التالية :

« أعتقد ان محادثات ستجري بين الحلفاء في باريس خلال خمسة عشر يوما حول قضية العرب . ان الجنرال اللنبي قد أبرق بأنك ترغب في أن يكون لك مندوب هنالك . فاذا كان الامر كذلك ، فاني آمل أنك سوف ترسل فيصل لإن انتصاراته الباهرة قد جعلت له سمعة شخصية في اوربا ... فاذا وافقت على ارساله أرجو أن تبرق اليه لكي يكون مستعدا أن يغادر سوريا حالاً ، ولمدة شهر واحد تقريباً ، كما أرجو أن تطلب من الجنرال اللنبي لكي يعد سفينة لنقله الى فرنسا . انك يجب أن تبرق الى حكومات بريطانيا العظمى وفرنسا والولايات المتحدة وايطاليا

---

(١٨) يوسف الحكيم (سوريا والعهد الفيصلي) - بيروت ١٩٦٦ - ص ٦١ .

(١٩) علي جودت (المصدر السابق) - ص ٧٨ .

(٢٠) يوسف الحكيم (المصدر السابق) - ص ٦١ .

تخبرهم ان ابنك ذاهب الى باريس مندوباً عنك »[٢١] .

وعلى أثر تسلم الحسين هذه البرقية أبرق الى ابنه فيصل برقية كان هذا نصها :

« حليفتنا بريطانيا العظمى ترغب حضورك نائباً عن مصالح العرب ، وكل ما يكون أساساً لحياتهم سواء ما يتعلق بالحدود او الادارة مما هو معلوم لدبك في مجتمع سيعقد في باريس في ٢٤ نوفمبر الجاري ، فانفاذاً لرأي عظمتها توجه بكل سرعة ممكنة لباريس ... وحيث ان رابطتنا الوحيدة هي العظمة البريطانية ولا علاقة لنا ولا مناسبة مع سواها في أساساتنا السياسية ، فكل ملاحظاتك وما تراه في الموضوع تبديه لعظمائها ونوابها الاماجد ان كانوا زملاءك في المجتمع او معتمديها السياسيين ، وما يكلفونك به من قول أو عمل ان كان في المجتمع أو سواه تعمل به ، وتجنب كل ما سوى ذلك . هذه درجة مأذونيتك عما يختص بالمجتمع وخير الاهالي بالمصلحة والقصد والله يتولاك »[٢٢] .

وفي ١٦ منه أبرق لورنس الى فيصل عن طريق وزارة الخارجية البريطانية يطلب منه أن يأتي الى أوربا بملابسه العربية وان يصحبه ضابط عراقي واحد ، هو نوري السعيد ان امكن ، كما يصحبه أيضاً اثنان من أعوانه السوريين الرئيسيين[٢٣] .

كان فيصل عند وصول برقية أبيه في حلب ، فأسرع متوجهاً الى بيروت عن طريق حمص وطرابلس . ولما وصل الى بيروت استقبله المسلمون فيها استقبالا حماسيا عظيماً ، وقد أوقف بعض الشبان عربة

(21) Mousa (T. E. Lawrence) – London 1967 – P. 216.

(٢٢) حافظ وهبة (جزيرة العرب في القرن العشرين) – القاهرة ١٩٦٧ – ص ١٧٤ .

(23) Mousa (Op. cit.) – P. 217.

فيصل وحلوا رباط جيادها وأخذوا يجرونها في شوارع بيروت وهم ينادون : « ما بنرضى غيرك سلطان » و « لا نرضى الا بالعرب »[٢٤] . والظاهر أنهم أرادوا بذلك تحدي الفرنسيين وأعوانهم المارونيين .

انزعج الفرنسيون من هذه الزيارة حتى أنهم كادوا يتجاهلونها ، واعتبروها جزءاً من المخطط البريطاني الرامي الى تشجيع الفئات اللبنانية الموالية لبريطانيا ولفيصل ، وكذلك اعتبروها جزءاً من جهود فيصل في سبيل ضم لبنان الى حكومة دمشق[٢٥] .

غادر فيصل بيروت في ٢٠ تشرين الثاني على ظهر طراد بريطاني ومعه حاشية مؤلفة من نوري السعيد ورستم حيدر وفائز الغصين وتحسين قدري وأخيه الطبيب أحمد قدري . فوصل الى مارسليا في ٢٥ منه ، وهناك وجد لورنس في استقباله وهو بملابسه العسكرية ولكنه كان واضعاً العقال على رأسه بدلا من القبعة العسكرية .

كان في استقبال فيصل من الجانب الفرنسي الكولونيل بريموند ، وهو الضابط الذى عاش في المغرب عدة سنوات واتقن اللغة العربية . وكان استقباله مزيجاً من الجفاء والمجاملة ، وقد أخبر بريموند فيصل بأن الحكومة الفرنسية ترحب به ضيفاً كريماً ولكنها لاتعترف له بأي مركز دبلوماسي ، أي انها لاتعتبره مندوباً للملك حسين في مؤتمر الصلح . ثم التفت بريموند نحو لورنس قائلا له : ان الحكومة الفرنسية ترحب به كضابط بريطاني يلبس الملابس المناسبة لرتبته العسكرية انما هي لاترحب به اذا ظل متنكراً بزي العرب . وقد غضب لورنس من ذلك وقال : « انكم تطردونني وسأسافر في هذا المساء » . وغادر لورنس فرنسا فعلاً بعد أن أعاد للفرنسيين الوسام الذى كانوا قد منحوه اياه خلال الحرب .

---

(٢٤) سليمان موسى (الحركة العربية) ـ بيروت ١٩٧٠ ـ ٤١٧ .
(٢٥) زين نورالدين زين (المصدر السابق) ـ ص ٩٢ .

كان الفرنسيون يعتقدون أن لورنس يعمـــل ضد مصالحهم وأنه يحرض فيصل على مقاومة مطامحهم في سوريا • وكانوا كذلك يعتقدون ان دعوة الملك حسين لارسال مندوب عنه في مؤتمر الصلح هي من تدبير لورنس(٢٦) •

نظمت الحكومة الفرنسية لفيصل منهجاً طويلا قصدت به أن يزور مواقع المعارك التي جرت خلال الحرب ، وقد أحاطته بكل مظاهر التكريم والتبجيل بغية التأثير عليه نفسياً • وفطن فيصل الى أنها تريد ابعاده عن باريس وعن الاشتراك في مؤتمر الصلح عند افتتاحه(٢٧) •

لم يتحمل فيصل هذه المكايدات الفرنسية ، فأمسك بيد بريمـــوند وأخذه الى جانب وقال له : « نحن حاربنا معاً جنباً الى جنب ، ومعنى ذلك اننا اخوة في السلاح • اخبرني بصراحة ماهي الحقيقة ؟ وكذلك أخبرني بلا مواربة هل أن الحكومة الفرنسية ترغب في حضوري الى باريس أم لا ؟ لقد تركت أخي زيد في دمشق نائباً عني ، وهو شاب ، ولما كانت الامور غير مستقرة هنالك فان من الافضل لي أن اعود الى دمشق بدلا من اضاعة الوقت هنا »(٢٨)

أثرت هذه الكلمة في بريموند فاتصل بحكومته يقترح عليها دعوة فيصل لمقابلة رئيس الجمهورية • وأخذت الحكومة بهذا الاقتراح ، وفي ٧ كانون الاول قابل فيصل هنري بوانكاريه رئيس الجمهورية الفرنسية ، وكان المترجم بينهما قدور بن غبريط التونسي • ولم تدم المقابلة سوى دقائق ، ولم يتجاوز الحديث فيها عبارات المجاملات المألوفة(٢٩) •

---

(26) Mousa (Op. cit.) — P. 218.

(٢٧) أحمد قدري (مذكراتي عن الثورة العربية الكبرى) ـ دمشق ١٩٥٦ ـ ص ٩٤ •

(28) Mousa (Op. cit.) — P. 219.

(٢٩) خيرية قاسمية (عوني عبدالهادي) ـ بيروت ١٩٧٤ ـ ص ٢١ •

فيصل في بريطانيا :

في ٩ كانون الاول غادر فيصل مع حاشيته باريس متوجهاً الى لندن ، فجرى له فيها استقبال حافل ، ونزل ضيفاً على الحكومة البريطانية في فندق « كارلتون » الذى كان أفخم فنادق لندن في تلك الايام . وقد مكث فيصل في بريطانيا شهراً واحداً ، وكان لورنس يلازمه كظله ساعياً لتلبية طلباته ، ويخاطبه بكلمة « سيدي » .

وفي ١٢ منه قابل فيصل الملك جورج الخامس ، وكان لورنس معه بصفته مترجماً وقد لبس الملابس العربية كاملة . وقد أثارت هذه الملابس امتعاض أحد رجال حاشية الملك ، وأخذ يوبخ لورنس قائلا : « هل من الصواب ، يا كولونيل لورنس ، أن يأتي أحد رعايا الملك ، وهو ضابط علاوة على ذلك ، لابساً ملابس أجنبية ؟ » . فأجابه لورنس بهدوء : « اذا كان الانسان يخدم سيدين وقد تحتم عليه أن يغيظ أحدهما فمن الافضل أن يغيظ اقواهما . . اني جئت لاكون مترجماً للامير فيصل وهذا هو زيه »(٣٠) .

قدم الملك جورج قلادة فكتوريا الى فيصل وقال : انه يقدمها تذكاراً للدماء المشتركة التي أهرقها العرب والانكليز في ساحات القتال جنباً الى جنب ، وانه يؤمل أن يكون الود بينهما دائماً الى ما لا نهاية له . وتكلم فيصل فقال : انه جاء مندوباً عن والده لتقديم الشكر على ما لقيه من مساعدة من الملك جورج وحكومته وأن والده يتمنى أن تبقى محبتكم نحونا مدى الايام . فأجاب الملك جورج : اننا لانتخلى عن مساعدة والدكم والعرب جميعاً وأطمنكم انكم ستجدون بريطانيا معكم ...(٣١) .

كان فيصل طيلة المدة التي قضاها في لندن موضع احترام وتكريم ،

(30) Hart (T. E. Lawrence) — London 1965 — P. 386.

(٣١) سليمان موسى (المصدر السابق) — ص ٤٢٥ .

اذ كان كبار الشخصيات البريطانية يتسابقون للقائه واقامة المآدب الفخمة له في قصورهم • ويقول عوني عبدالهادي الذي كان أحد أفراد حاشيته : « ان هذه الايام القليلة التى قضاها الامير فيصل في لندن كانت كافية لتطور سموه تطوراً كبيراً ، نقلته من أمير عربي عـــريق في البداوة الى امير متحضر »(٣٢) •

اتفاقية وايزمن فيصل :

انتهز وايزمن ــ الزعيم الصهيوني المعروف ــ فرصة وجود فيصل في لندن فطلب منه موعداً لمقابلته بغية اقناعه بالموافقة على وعد بلفور • وفي ١١ كانون الاول ١٩١٨ جرت أول مقابلة بينهما في فندق كارلتون ، وحضر المقابلة لورنس بصفته مترجماً •

المظنون أن وايزمن استغل حالة القلق التى كانت مستحـــوذة على فيصل تجاه مطامع الفرنسيين في سوريا وميل البريطانيين للمساومة معهم على حساب العرب ، فأخذ يشرح لفيصل كيف أن اليهود يمكن ان يكونوا السند الوحيد للعرب في هذه المحنة : فاليهود لديهم المال الكثير والخبرة الاقتصادية ، كما ان لهم نفوذهم الكبير فى مختلف الدول الكبرى ولاسيما في أمريكا ، فاذا اتفق العرب معهم ، وهم أبناء عم ، فليس هناك قوة فـــي الارض تستطيع أن تهضم لهم حقاً • وذكر وايزمن لفيصل ان اليهود ليس لهم أية مطامع سياسية في فلسطين ، فهم تجار وأصحاب أموال ، وليس لديهم سلاح يقاتلون به او يستحوذون به على البلاد ، كل غرضهم هو تعمير البلاد العربية بأموالهم وعقولهم ، فالاراضي العربيـــة كثيرة غير معمورة بينما اليهود على استعداد لتقديم يد العون للعرب كأصـــدقاء مخلصين ••• (٣٣) •

---

(٣٢) خيرية قاسمية (المصدر السابق) ــ ص ٢٣ •

(٣٣) سليمان موسى (المصدر السابق) ــ ص ٤٣٥ ــ ٤٣٦ •

ظل وايزمن يردد على فيصل هذه الاقوال وأمثالها • ومن الجدير بالذكر ان هذه الاقوال لم تكن جديدة ، فطالما كان الصهاينة يرددونها على زعماء العرب منذ عهد ما قبل الحرب ، وقد صدق بها بعضهم ، ولا سيما بعض أقطاب حزب اللامركزية في مصر(٣٤) ، كما صدق بها الحسين نفسه(٣٥) • أضف الى ذلك ان لورنس كان يرى مثل هذا الرأي في اليهود وقد بذل جهده في اقناع فيصل بصحته •

يمكن القول على أي حال ان وايزمن استطاع بمعونة لورنس أن يؤثر على فيصل تأثيراً بليغاً ، وأن يقنعه بصحة ما قال له عن اخلاص اليهود للعرب ومدى الفائدة التي سيجنيها العرب منهم • فلما انتهى وايزمن من كلامه مع فيصل ، تكلم فيصل قائلا : « ان العرب سيقبلون مطلوب اليهود اذا لمسوا منهم الاخلاص والنفع ، فالعرب بحاجة الى الاموال لاصلاح مافسد في بلادهم ، ويطلبون منكم المعاونة السياسية عند الامم وخصوصاً أمريكا »• وعند هذا مد وايزمن يده وقال لفيصل انه يعاهده باسم اليهود « بأننا نموت سواء ونحيا سواء » • فقال فيصل : « ان وفيت بقولك هذا فاني موفي لك بقولي المملكة العربية لاتتجزأ »(٣٦) •

تم الاتفاق بين فيصل ووايزمن أخيرا على توقيع اتفاقية تتضمن تسع مواد تنص على القرابة العرقية والصلات القديمة بين العرب واليهود ، وعلى ضرورة التعاون بينهما ، وتقديم الضمانات لتنفيذ تصريح بلفور ، وتشجيع الهجرة اليهودية الى فلسطين ، وحرية ممارسة العقيدة الدينية •

---

(٣٤) عبدالعزيز محمد عوض (الشخصية الفلسطينية والاستيطان اليهودي) ـ في مجلة (شؤون فلسطينية) ـ في عددها الصادر في آب ١٩٧٤ •

(٣٥) سليمان موسى (المصدر السابق) ـ ص ٤٢٨ •

(٣٦) المصدر السابق ـ ص ٤٣ •

يبدو أن فيصل حين رأى الصيغة النهائية للاتفاقية مكتوبة على الآلة الطابعة ومعدة للتوقيع عليها أدرك مغبة ما فعل ، ولهذا وجدناه يمسك القلم ويكتب في ذيلها التحفظ التالي :

« اذا نالت العرب استقلالها كما طلبناه بتقريرنا المؤرخ ٤ كانون ثاني ١٩١٩ المقدم لنظارة خارجية بريطانيا العظمى فانني موافق على ما ذكر بنطاق هذه المواد وان حصل أدنا تغير أو تبديل فلا أكون ملزوماً ومربوطاً بأي كلمت كانت بل تُعد هذه المقاولة لاشيء ولا حكم لها ولا اعتبار ولا أطالب بأي صورت كانت »[٣٧] •

لاشك ان هذه العبارة التى كتبها فيصل كانت ضربة سياسية بارعة جعلت الاتفاقية لاقيمة لها من الناحية العملية ، ولكننا مع ذلك نلاحظ أن لورنس حين ترجم العبارة الى اللغة الانكليزية أجرى عليها بعض التحريف بحيث شوه المقصد منها • فقد كانت ترجمتها على النحو التالي :

« اذا تأسس العرب كما طلبناه في تقريرنا المقدم الى وزارة الخارجية البريطانية فأنني سأنفذ ماكُتب في هذه الاتفاقية • واذا حدثت تغييرات فانني غير مسؤول عن فشل تنفيذ هذه الاتفاقية »[٣٨] •

يواجهنا هنا سؤال : هل كان لورنس في تأييده للصهيونية عميلا لها مأجوراً ، أم كان ينفذ تعليمات بلفور وزير الخارجية البريطانية ، أم كان غير ذلك ؟ •

في رأي المؤرخ البريطاني المعروف توينبي ان لورنس انما كان في محاولته التقريب بين العرب واليهود يعمل بدافع من اجتهاده الشخصي •

---

(٣٧) انظر صورة التحفظ بالزنكغراف كما كتبه فيصل بخطه في مجلة (آفاق عربية) ــ في عددها الصادر في حزيران ١٩٧٧ ــ ص ١١٧ •

(٣٨) المصدر السابق ــ ص ١١٩ •

يقول توينبي في هذا الصدد ما نصه : « ... ان لورنس كان رجلا مستقل الرأي . وفيما أعلم فان لورنس نصح فيصلاً بأنه لايستطيع أن يحارب على جبهتين في وقت واحد : فرنسا والصهيونية ، وان خطر فرنسا ماثل للعيان وهى تريد القضاء على سوريا بينما مشاريع الصهاينة ما تزال في نطاق النظريات ، وان الحكمة تقضي عليه الآن أن يستعين باليهود لمقاومة فرنسا ، وفيما بعد يكون لكل حادث حديث »(٣٩) .

ان عوني عبدالهادي الذي كان من حاشية فيصل في لندن له رأي آخر في لورنس ، فهو يقول : «لقد كان لورنس يلعب على الحبلين، كان يتظاهر للعرب بأنه عربي صميم وانه صديق العرب الحميم ، فيما كان يعمل لمصلحة العرب مرة ويعمل لمصلحة اليهود مرة أخرى . ولورنس هو انجليزي وليس عربياً ولا يهودياً . وليس من يجهل الدور الذي لعبه في اقنــاع سمو الامير بتوقيع الاتفاقية المعروفة باتفاقية فيصل ـ وايزمان »(٤٠) .

ولا بد لنا في هذه المناسبة من أن ننقل رأي وايزمن نفسه في لورنس. فهو يقول عنه في مذكراته ما نصه « ينبغي في هذه النقطة أن أظهر تقديري للخدمات التي قدمها لورنس لقضيتنا ، وأن أضيف شيئاً في وصف شخصيته الرائعة ... ان علاقته بالحركة الصهيونية كانت ايجابية جداً ، على الرغم من كونه شديد الميل للعرب وما وصف به خطأً من كونه معادي للصهيونية. لقد كان رأي لورنس ، كما كان رأي فيصل ، ان اليهود يمكن أن يقدموا مساعدة عظيمة للعرب ، وان العالم العربى سيجني نفعاً كثيراً من انشاء وطن لليهود في فلسطين ... »(٤١) .

---

(٣٩) سليمان موسى (المصدر السابق) ـ ص ٤٣٤ (حاشية) .

(٤٠) خيرية قاسمية (المصدر السابق) ـ ص ٢٥ .

(41) Weizmann (Trial and Error) – New York 1949 – P. 236.

عودته الى باريس :

عاد فيصل مع حاشيته الى باريس في ٩ كانون الثاني ١٩١٩ ، فنزل في قصر الكونتيسة تونير ضيفاً على الحكومة الفرنسية • وكتب فيصل الى الحكومة الفرنسية يطلب السماح له بحضور مؤتمر الصلح ممثلا للبلاد العربية • فجاء الجواب منها مفاده أن الحكومة الفرنسية تأسف لعدم تمكنها من حجز مقعد له في المؤتمر • وكان هذا الجواب صدمة عنيفة لفيصل • وأسرع لورنس لمقابلة لويد جورج واللورد كرزن اللذين كانا نازلين في فندق « استوريا » • وفي الساعة الثانية بعد منتصف الليل عاد لورنس الى فيصل ، وكان فيصل مازال ساهراً وهو يتمشى في غرفته نهب الحيرة والقلق ، فبادره لورنس قائلا : « سيدي ، لويد جورج يهديك سلامه ويقول لك لقد خصص لك مقعدان في المؤتمر بدلا من واحد »[٤٢] • فابتهج فيصل بذلك كثيراً وارتفع اعتبار لورنس في نظره[٤٣] •

افتتح مؤتمر الصلح في ضاحية فرساي في ١٨ منه • وقد مثل العرب فيه فيصل ورستم حيدر ، وكان يساعدهما نوري السعيد وعوني عبدالهادي ولورنس • وكان لورنس يضع العقال على رأسه ، فكان ذلك يزعج الفرنسيين •

يمكن القول بوجه عام ان وجود فيصل في مؤتمر الصلح قد أكسب العرب شيئاً من السمعة وزاد من عدد أنصارهم • فهو قد بهر الانظار ــ ولا سيما انظار النساء ــ بوسامته وعباءته البيضاء الفضفاضة وعقاله المذهب • ودأبت الصحف على نشر صوره والحديث عنه • ولم يكن الاوربيون يومذاك قد اعتادوا على رؤية شيوخ العرب كما اعتادوا عليها في أيامنا هذه •

(٤٢) خيرية قاسمية (الحكومة العربية في دمشق) ـ القاهرة ١٩٧١ ـ ص ٩٥ •

(٤٣) سليمان موسى (المصدر السابق) ــ ص ٤٦٥ •

وقد تذكروا عد رؤيته مباهج ألف ليلة وليلة • يقول عنه أحد الامريكيين الذين حضروا المؤتمر وهو المحامي روبرت لانسنغ : « ان صوته يبدو كأنه ينفث رائحة البخور ويدل على وجود سجادات باذخة وعمائم خضر تلمع بالذهب والجواهر » • ويصف هذا المحامي شخصية فيصل بقوله : « انه مع حداثة سنه قد أبدى نضوجاً في التفكير قلما يُشاهد في الشباب ، وكان يبدو في مظهره ولباسه كأحد الانبياء الاقدمين الذين ينوؤون تحت المعرفة الثقيلة »(٤٤) •

وكان من بين الذين انجذبوا الى فيصل الاديب الفرنسي أناتول فرانس • فقد كان هذا الاديب يسكن في شارع الشانزليزيه قريباً من القصر الذي نزل فيه فيصل ، وكثيراً ما كان يتردد على فيصل ويتناول الطعام على مائدته(٤٥) ، كما كان يدعو فيصل الى مائدته ومعه رؤساء تحرير الصحف الفرنسية (٤٦) •

وكذلك انجذبت الى فيصل زوجة الرئيس الامريكي ويلسون ، فهي وصفت فيصل بأن وجهه يشبه صورة المسيح • وكتبت اليه فيما بعد عدة رسائل • والمظنون انها كانت ذات تأثير على زوجها في مصلحة العرب(٤٧) •

ومن الجدير بالذكر ان الانكليز كان لهم ضلع في ترويج الدعاية لفيصل في اروقة المؤتمر وعلى اعمدة الصحف • والمظنون انهم كانوا يريدون أن يجعلوا من فيصل ورقة رابحة في أيديهم عند مساومتهم مع الفرنسيين في بعض القضايا المتنازع عليها ولا سيما قضية الموصل ـ كما سنأتي اليه •

---

(44) Lansing (The Big Four and Others of The Peace Cnsference) – London 1922 – P.

(٤٥) ابراهيم سليم نجار (الملك فيصل الاول) ـ بيروت ـ ص ٦٧ (حاشية) •

(٤٦) خيرية قاسمية (عوني عبدالهادي) ـ ص ٢٧ •

(47) Mousa (Op. Cit.) – P. 226.

وقد أدرك الفرنسيون ما وراء هذه اللعبة البريطانية من سر ، وصاروا ينظرون الى فيصل نظرتهم الى عميل بريطاني ، وأخذت الصحف فيما بعد تضرب على هذا الوتر وتحاول الحط من شأن فيصل وترويج الدعاية السيئة ضده •

ماذا جرى في المؤتمر :

تقرر أن يكون يوم ٦ شباط موعداً لالقاء فيصل خطابه في مؤتمر الصلح • وقد أمضى فيصل الليلة السابقة في اعداد الخطاب بمساعدة رستم حيدر وعوني عبدالهادي ، وأعد لورنس ترجمة الخطاب الى اللغة الانكليزية بمساعدتهما أيضاً •

وعندما ألقى فيصل خطابه في الموعد المحدد كان اسلوبه هادئاً رصيناً فيه صراحة مزيجة بالتهذيب ، وقد استهجن بلطف اتفاقية سايكس بيكو وبسط مطاليب العرب في الوحدة والاستقلال ، وذكر كيف ان العرب انضموا الى الحلفاء في الحرب في أحرج الاوقات وبلغت ضحاياهم عشرين ألف قتيل • وحين قاطعه أحد الحاضرين مشيراً الى أن العرب من الشعوب غير المتقدمة حضارياً ، رد عليه فيصل بصوت جهوري حاد قائلا : « انني انتمي الى شعب تمتع بالحضارة عندما كانت جميع البلاد الاخرى التي يجلس ممثلوها في هذه القاعة مسكونة بالبرابرة » • وقد حاول أورلاندو ممثل ايطاليا الرد عليه مشيراً الى اقدمية روما في الحضارة ، فقاطعه فيصل بشدة قائلا : « نعم ، هكذا كان الامر قبل تأسيس روما »(٤٨) •

وقف رجل واحد في المؤتمر يؤيد فيصل بقوة ، كما وقف رجل آخر يعارضه بقوة أيضاً • أما الرجل المؤيد فهو الدكتور هوارد بلس رئيس

(48) Lloyd George (The Truth about the Peace Treaties) — London 1938 — vol 2, P. 1039 .

الكلية البروتستانيه السوريه التي تسمى اليوم بـ « جامعة بيروت الامريكية » • ويفسر اسكندر الرياشي التأييد الذي أبداه الدكتور بلس نحو العرب بانه من جراء المنافسة الشديدة التى كانت موجودة في بيروت بين الكلية البروتستانية الامريكية والكلية اليسوعية الفرنسية ، فان الفرنسيين حين دخلوا بيروت في تشرين الاول ١٩١٨ شرعوا يملأون الدوائر الحكومية بالمتخرجين من الكلية اليسوعية والمعاهد الكاثوليكية الاخرى ، فغضب الدكتور بلس من ذلك وحمل حقيبته راحلا الى باريس لمقابلة الرئيس ويلسون ، وكانت بينهما علاقة وثيقة ، فأنزله ويلسون منزلة الرفيق وأخذ يصغي اليه[٤٩] •

وعلى أي حال فقد ألقى الدكتور بلس في ١٣ شباط خطاباً في المؤتمر طالب فيه بارسال لجنة حيادية الى سوريا للتعرف على رغبة السكان حسب مبدأ تقرير المصير الذى يدعو اليه الرئيس ويلسون • وقد تأثر ويلسون بهذا الخطاب الى حد كبير •

أما الرجل الذى وقف يعارض فيصل في المؤتمر فهو شكري غانم وهو لبناني الاصل غير أنه كان يقيم في فرنسا منذ خمس وثلاثين سنة ، ولـه شهرة ككاتب مسرحي ، ويتولى تحرير جريدة « المستقبل » العربية التى كانت تصدر في باريس خلال الحرب •

دخل هذا الرجل الى قاعة المؤتمر على أثر انتهاء الدكتور بلس من ألقاء خطابه ، وهو على رأس وفد يسمي نفسه « الوفد السوري » ، فقدم كلمنصو الوفد الى المؤتمر ثم طلب من شكري غانم أن يلقي خطابه • فألقى شكري خطاباً طويلا منمق العبارة تحدى به فيصل تحدياً مثيراً حيث قال ما معناه : ان فيصل يمثل الحجاز ولا يحق له التكلم باسم جميع العرب ولا

(٤٩) اسكندر الرياشي (المصدر السابق) ـ ص ٢١٨ ـ ٢٢١ •

سيما السوريين ، فان دمشق تبعد عن مكة بما لايقل عن ألف وخمسمائة كيلو متر ، فاية صلات روحية وتقارب ذهني تربط بين الحجازي والسورى أو بين البدو والحضر ؟ فان ضم سوريا الى الجزيرة العربية هو افتئات صارخ على قدسية الارض الذى أنبتت الشعب السوري وتاريخه . ثم استطرد شكري الى موضوع استفتاء الشعب السورى فقال انه لايوصي به في الوقت الحاضر وان من الافضل منطقياً ان تعين الدول الكبرى دولة من بينها لمعونة هذا البلد الصغير لكي ينهض بنفسه ، ثم قال شكري راجياً من الدول ان تكون فرنسا هي التى تُوكل اليها هذه المهمة النبيلة ، اذ هى الدولة الوحيدة المؤهلة لانجاز ما يصبو اليه السوريون . ثم انهى شكري خطابه ببيت من الشعر العربى القديم وهو :

رب يوم بكيت منه فلما   صرت في غيره بكيت عليه

ثم قال : « ايها السادة هل ستتركوننا نبكي على ماضينا المفجع وانتم أملنا الوحيد ، أنتم الذين نعتبركم ممثلي العدالة والحق والرحمة الانسانية »(٥٠) .

لوحظ على أثر شروع شكري غانم بالقاء خطابه أن أحد أعضاء الوفد الامريكي دفع الى الرئيس ويلسون قصاصة ورق ذكر فيها ان شكري قضى معظم حياته في فرنسا . فأدى ذلك بويلسون الى عدم المبالاة بخطابه ، ثم نهض ويلسون بعد قليل وأخذ يتمشى نحو الجانب الآخر من القاعة حتى وصل الى النافذة وصار ينظر من خلالها الى الخارج وهو واضع يديه في جيوب معطفه ، فادى ذلك الى ارباك الفرنسيين وازعاجهم . ومال كلمنصو نحو وزير خارجيته بيشون ليؤنبه على الاتيان بشكري غانم الى المؤتمر ، حيث همس في اذنه بخشونة قائلا : « لماذا جئت بهذا الرجل الى هنا ؟ »

---

(٥٠) زين نورالدين زين (المصدر السابق) ص ١٠٤ ــ ١٠٥ .

فمد بيشون يديه بصورة احتجاج يائس وقال : « لم أكن أعلم انه سيعالج الامر على هذا المنوال ! »[٥١]

تعيين لجنة تحقيق :

في صباح ٢٠ آذار جرى اجتماع سري حضره رؤساء الدول الاربع الكبرى في شقة لويد جورج بباريس ، وجرى فيه نقاش حاد حول العرب والقضية السورية • وقد فتح النقاش وزير الخارجية الفرنسي بيشون فأشار الى الاتفاق المبدأي الذي حصل بين كلمنصو ولويد جورج في لندن قبل المؤتمر ، فأجابه لويد جورج انه لايحيد عن مضمون اتفاقية سايكس بيكو الا بالنسبة للموصل وفلسطين ، واذا كانت فرنسا تعتزم احتلال دمشق بجيوش فرنسية فانه يعتبر ذلك انتهاكاً صارخاً لمعاهدتنا مع العرب ، فرد عليه بيشون : أن ليس هناك أية معاهدة بين فرنسا والعرب • فقال لويد جورج : ان اتفاقية سايكس بيكو ترتكز برمتها على رسالة بعثها مكماهون الى الملك حسين ، وهي الرسالة المؤرخة في ٢٤ تشرين الاول ١٩١٥ • وقرأ لويد جورج منها مقتطفات تؤيد وجهة نظره ، ثم أخذ يطنب في ذكر المساعدة التي قدمها الملك حسين والعرب للحلفاء في أثناء الحرب ، حيث قال ان بريطانيا جندت حوالي مليون جندي ضد الاتراك ، وأن جنودهم هم الذين احتلوا سوريا بمساعدة العرب الذين كانت مساعدتهم « جوهرية » ، وان الملك حسين وضع جميع موارده في ميدان القتال وقدم بذلك مساعدة مادية قصوى لكسب الحرب • وأيده الجنرال اللنبي على قوله هذا حيث قال : « ان مساعدة العرب لاتُقدر بثمن »•

وعند هذا تدخل الرئيس ويلسون في الجدال وقال : ان الولايات المتحدة لاتهمها مدعيات بريطانيا وفرنسا بالنسبة لاي شعب الا اذا كان

(٥١) المصدر السابق ــ ص ١٠٤ ــ ١٠٦ •

الاهلون يريدونهما ، ولذلك فان السبيل الوحيد لمعالجة القضية هو اكتشاف رغبة أهالي تلك المناطق • فوافق الحاضرون على اقتراح ويلسون ، ولكن كلمنصو قال ان التحقيق يجب أن يشمل فلسطين والعراق وأرمينيا ، فأجاب لويد جورج انه لايعترض على ذلك •

وعلى أي حال فقد انتهى الاجتماع والقلوب متنافرة ، حتى أن ويلسون خرج من قاعة الاجتماع وهو يلعن كل واحد وكل شيء قائلا انه لم يفعل طيلة ثماني وأربعين ساعة سوى الكلام وانه مشمئز من الموضوع كله(٥٢).

وفي اجتماع آخر عقده الاربعة الكبار في ٢٥ آذار تمت الموافقة رسمياً على تعيين لجنة من أعضاء فرنسيين وبريطانيين وايطاليين وأمريكيين وارسالها الى سوريا والى المناطق المجاورة لها ان دعت الحاجة الى ذلك ، لكي تستطلع الحقائق وتكتب عنها تقريرا الى مؤتمر الصلح •

كان هذا القرار مبعث سرور عظيم لفيصل • يحكى أنه حين سمع به أخذ يشرب الشمبانيا ــ لاول مرة ــ عباً كأنه يشرب الماء ، ثم ركب عربته ومر بها على مقر الوفدين الامريكي والبريطاني ، فأخذ يقذف مبنى الكريون وفندق الماجستيك ووزارة الخارجية الفرنسية بالحشايا والوسائد ، قائلا انه لايستطيع أن يعبر عن مشاعره الا بتلك الطريقة مادام لايملك القنابل(٥٣).

بين فيصل وفرانكفورتر :

في ١ آذار ١٩١٩ نشرت جريدة « الماتان » الفرنسية تصريحاً لفيصل قال فيه : « يسرنا بحكم الانسانية والمروءة أن نرى اليهود التاعسين يهاجرون الى فلسطين فيقيمون على الرحب عاملين بمقتضى الواجبات الوطنية على

---

(٥٢) سليمان موسى (المصدر السابق) ــ ص ٤٧٢ ــ ٤٧٣ •

(٥٣) جورج انطونيوس (يقظة العرب) ــ ترجمة ناصر الدين الاسد واحسان عباس ــ بيروت ١٩٦٢ ــ ص ٤٠٠ •

شرط أن يكونوا تحت سلطة اسلامية او تحت سلطة نصرانية تتلقى وكالتها من قبل عصبة الامم ».

يقول وايزمن في مذكراته : ان هذا التصريح الذى نشرته جريدة « الماتان » للامير فيصل كان صريح العداء لنا ، وقد أسرع سكرتير الامير الى تكذيبه[٥٤] . أما عوني عبدالهادي الذى كان حينذاك سكرتير فيصل فقد أنكر تكذيبه للتصريح[٥٥] .

ومهما كان الحال فقد اهتم الصهاينة لهذا التصريح ، واتصلوا بصديقهم لورنس لكي يعمل بما يخفف من تأثيره او يلغيه ، فدبر لورنس اجتماعا بين فيصل والمستر فليكس فرانكفورتر عضو الوفد الصهيوني الامريكي في مؤتمر الصلح . وتم الاتفاق بين الرجلين على أن يتبادلا رسالتين تتضمنان فحوى مادار بينهما من حديث . ويقال ان لورنس وفرانكفورتر اجتمعا بعدئذ فكتب فرانكفورتر الرسالة التى سيوجهها باسمه الى فيصل ، وكتب لورنس الرسالة التى سيجيب فيصل بها عليه[٥٦] . ثم ذهب لورنس الى فيصل ، وعاد وهو يحمل الرسالة وعليها توقيع فيصل . وفيما يلي نص الرسالة مترجمة عن مذكرات وايزمن :

وفد الحجاز ـ باريس

٣ آذار ١٩١٩

عزيزي المستر فرانكفورتر

أود انتهاز هذه الفرصة لاول اتصال لي بالصهيونيين الامريكيين لاخبرك بما كنت أقوله للدكتور وايزمن في الجزيرة العربية وأوربا .

---

(54) Weizmann (op. cit.) — P. 245.

(٥٥) خيرية قاسمية (عوني عبدالهادي) ـ ص ٢٥ .

(٥٦) سليمان موسى (الحركة العربية) ـ ص ٤٤٤ .

فنحن نشعر بأن العرب واليهود أبناء عم ، وانهم يعانون نفس الاضطهاد من دول أقوى منهم • ومن حسن الصدف أنهم تمكنوا من ان يخطوا الخطوة الاولى للتعاون في سبيل تحقيق أهدافهم القومية معاً • نحن العرب ، وخاصة المثقفين منا ، ننظر الى الحركة الصهيونية بعطف عميق جداً • ان وفدنا في باريس مطلع كل الاطلاع على المقترحات التى قدمتها المنظمة الصهيونية الى مؤتمر الصلح ، ونحن نعتبر هذه المقترحات معتدلة ومناسبة • وسوف نبذل أقصى جهدنا ، في القدر المتعلق بنا ، للعمل على تحقيقها ، كما نرحب باليهود القادمين الى الوطن ترحيباً قلبياً صميمياً • لقد كانت لدينا أوثق الصلات مع زعماء حركتكم ، لاسيما الدكتور وايزمن ، وهى مازالت مستمرة • انه كان اكبر مساعد لقضيتنا ، وأنا آمل أن العرب قد يصبحون في وقت قريب قادرين على مكافأة اليهود على جميلهم • اننا نعمل معاً في سبيل اصلاح الشرق الاوسط وانعاشه ، وان حركتنا وحركتكم تكمل احداهما الاخرى • ان الحركة اليهودية قومية وليست استعمارية ، وكذلك حركتنا قومية ليست استعمارية ، وهناك مجال في سوريا لكلتيهما • أنا اعتقد في الواقع ان اية حركة منهما لايمكن ان تنال نجاحاً حقيقياً بدون الاخرى• ان الذين هم أقل اطلاعا ومسؤولية من زعمائنا يتناسون ضرورة التعاون بين العرب واليهود ، وأخذوا يستغلون الخلافات المحلية التى لابد ان تنشأ في فلسطين في المراحل الاولى من الحركة • وأخشى ان بعض هؤلاء قد شوه أهدافكم لدى الفلاحين العرب ، كما شوه أهدافنا لدى الفلاحين اليهود ، وكانت النتيجة ان استفاد اولو المصالح من هذه الخلافات المصطنعة• اني أود أن أعبر لك عن اعتقادى الجازم بان هذه الخلافات ليست خلافات مبدأية ، انما هي مسائل تتعلق بالتفاصيل ، كشأن الخلافات التى لابد أن تنشأ بين الاقوام المتجاورة ، والتي يسهل حلها عن طريق حسن النية المتبادل• والواقع ان كل هذه الخلافات تقريباً سوف تزول حين تتضح الحقائق

وضوحاً أكمل • انني وشعبي نتطلع الى اليـــوم الذى سوف نعاونكم وتعاونوننا فيه ، حتى تستعيد البلاد التي يهمنا ويهمكم أمرها مكانها اللائق بين شعوب العالم المتمدن •

المخلص لـكم

فيصل[٥٧]

اهتم الصهاينة بهذه الرسالة واستندوا عليها أكثر مما فعلوا مـع اتفاقية وايزمن فيصل • فالتذييل الذى كتبه فيصل في اتفاقيتـه مع وايزمن افقدها قيمتها ، أما هذه الرسالة فقد اعتبروها وثيقة مهمة في أيديهـم يستندون عليها في نزاعهم مع العرب • يقول وايزمن في مذكراته : « ان هذه الرسالة الرائعة ينبغي أن تؤخذ بعين الاعتبار من قبل النقاد الذين يتهموننا بأننا بدأنا عملنا الصهيوني في فلسطين من غير اهتمام برغبات العالم العربي أو رفاهه • يجب ان لايغرب عن البال ان الآراء التى تضمنتها هذه الرسالة هي من قائد العرب المعترف به ، وحامل آمالهم ، وانها كانت نتيجة مداولات عديدة ••• »[٥٨] •

في عام ١٩٢٩ عندما جاءت لجنة شو البريطانية الى فلسطين أبـرز الصهاينة هذه الرسالة للجنة مستندين عليها • وقد اضطر عوني عبدالهادي الذي كان يومذاك في فلسطين أن يبرق الى فيصل في بغداد يسأله مستوضحاً عنها • فأجابه رئيس الديوان الملكي رستم حيدر قائلا : « ان جلالته لايذكر أنه كتب شيئاً مثل هذا بعلم منه »[٥٩] • ويعلق عوني عبدالهادي على ذلك قائلا : « أستطيع ان أؤكد أن فيصل لم يكتب مطلقا تلك الرسالة • فاذا كانت

---

(57) Weizmann (op. cit.) — P. 245 — 246.

(58) Ibid., P. 246.

(٥٩) سليمان موسى (المصدر السابق) ـ ص ٤٤٥ •

تلك الرسالة حقيقية فلماذا عجز الصهاينة عن ابراز نسختها الاصلية التى تحمل توقيع فيصل ؟ ان كل ما أبرزوه منها نسخة ثانية مطبوعة بالآلةالطابعة مع كلمة « فيصل » في زاوية منها • ولما نظرت اليها تبينت حالا انها مزورة•• ومـن المحتمـل ان لورنس هـو الذى ارسل الرسالة بدون علم مـن فيصل »(٦٠) •

عودة فيصل :

عندما قرر الاربعة الكبار في ٢٥ آذار ١٩١٩ ارسال لجنة للتحقيق الى سوريا قرر فيصل العودة الى سوريا لكي يعمل على تهيئة الرأي العام فيها لاستقبال اللجنة • فأناب عنه في مؤتمر الصلح عـوني عبدالهادي ورستم حيدر ، وغادر باريس متوجهاً الى سوريا •

وصل فيصل الى بيروت في ٣٠ نيسان ، فجرى له فيها استقبال عظيم اشتركت فيه وفود من مختلف المناطق السورية وقد غادر فيصل بيروت ترافقه تلك الوفود متجهاً نحو دمشق ، فوصلها في ٣ أيار ، وكان استقباله فيها منقطع النظير حيث نصبت له أقواس النصر وركب هو عربة تجرهـا ثمانية جياد على طريقة ملوك بريطانيا •

كان فيصل عند وصوله منتشياً متفائلا يظن أن الدنيا اصبحت في قبضة يده ، وكان قد وضع كل أمله في لجنة التحقيق القادمة ، وكان واثقا أن اللجنة ستتعرف الى رغبة السكان في الاستقلال ولا بد ان تستجيب الدول لتلك الرغبة وينتهي الامر حسب المرام ! •

وبعد يومين من وصوله الى دمشق استدعى الوفود التى جاءت معه من بيروت الى اجتماع عام يعقد مساءاً فى بهو دار الحكومة • وحين التأم جمعهم ألقى فيصل خطابا طويلا استعرض فيه الثورة التي قام بها أبوه في

(60) Mousa (op. cit.) – P. 230.

الحجاز ، ومساعيه هو في اوربا ومؤتمر الصلح ، والصعوبات التي واجهها هناك ومبلغ نجاحه في تذليلها • والملاحظ ان فيصل أخذ في خطابه يضرب على وتر جديد لم يكن معروفاً من قبل ، حيث تحول عن المطالبة بالوحدة العربية التي تشمل الاقطار العربية كلها الى المطالبة باستقلال كل قطر عربي على حدة ، وعلل ذلك بأن الاقطار العربية يختلف بعضها عن بعض من حيث مستوى التعليم والثقافة ، ولهذا فان الظروف الحالية ليست كافية لتجعل العرب أمة واحدة • ثم ختم فيصل خطابه بقوله : « فالموقف اليوم هو بيدكم • ان التسويات الخارجية قد تمت بفضل الباري سبحانه وتعالى وبحسن نية من حالفنا من الدول العظام التي لايمكنني أن أفرق بين الواحدة والاخرى في حسن النية وهم قد قبلوا مانثرت بين أيديهم من أقوال » •

كان فيصل يقصد من كلامه هذا اعلان استقلال سوريا عن الحجاز فلا تبقى تابعة له • والتفت نحو الحاضرين يسألهم : هل هم يوافقونه في هذا الاتجاه ؟ وهل هم يعتمدون عليه ؟ وهل يستطيع أن يواصل السير على ذلك برضاهم ؟ فكان جوابهم : نعم ، نعم ، نعم ، كل الرضا وفوق الرضا • ثم صاروا يهتفون له ويصفقون مرة بعد مرة •

وفي الختام طلب فيصل من الحاضرين أن يبدي كل واحد منهم رأيه بكل حرية وصراحة • فقاموا واحداً بعد الآخر يتكلمون على النحو التالي :

سعد الدين الخليل : « ان حوران تقدم لسموه ما يطلب » •

أحد اعضاء الوفد الفلسطيني : « ان دماء الفلسطينيين وأموالهم للامير ! •» •

أحد اعضاء الوفد العامري : « اننا قد لبسنا للحرب عدتها ، نحن وجميع العرب • من لم يقتل فليمت ! » •

نوري الشعلان : « حنا كلنا عرب الرولة أطوع لك من يمينك ، ومن لا يكون مثلنا ليس من دين الاسلام ! » .

نسيب الاطرش : « نحن جميع عشائر سوريا العربان والدروز نضحي حياتنا تجاه خدمتك وخدمة الامة العربية ، والحائد عن ذلك يكون خائن الناموس والشرف والعرب ! » .

عبدالحسين صادق : « انني باسم جبل عامل أبايعك على الموت ! ».

محمد فوزي العظم ومحمد عابدين وأسعد الصاجب : « نحن رهينو أمرك نفديك ونعتمدك ! » .

بطريرك الروم الكاثوليك : « كما تأمرون سموكم فآمروا بما تشاؤون ! » .

بطريرك الروم الارثودكس : « بيننا وبين سموكم اتفاق في هذه القاعة على شرائط معدودة لاتبرح من ذاكرتكم الشفافة ، فنحن عليه راسخون ! ».

مطران السريان الكاثوليك : « اني اعتمد نفس الاعتماد الذي اعتمده بطريرك الروم الارثودكس ! » .

مطران السريان القديم : « أقول بلسان أمة السريان في سوريا انهم طوع أمرك ، نبايعك بقلوبنا ونعتمد عليك ! » .

رئيس حاخامي اليهود : « ان اموالنا ونفوسنا بين يديك يا سمو الامير ! » .

سعيد سليمان : « عموم أهل قضاء بعلبك تحت أمرك ، مئات وألوف رهن اشارتك ! ».

عمر الاتاسي : « قدمت من حمص وما ودعت الحمصيين الا بعد أن اعتمدوني وهم يسلمونك دماءهم وأرواحهم !. » .

ابراهيم الخطيب : « فوضناك ان تكون سلطاناً ، جبل لبنان جزء متمم لسوريا لاينفك عنها ! »٠

مطران الارمن (باللغة التركية) : « أشـكر مالقيه مهاجرو الارمن من عطف العرب وانسانيتهم خلال سني الحرب الاربع ٠ ان تاريخنا سيكتب اسم العرب بمداد من ذهب ، فانا أبارك لكم وأشكركم ! » ٠

وبعد ما انهوا من كلماتهم استأنف فيصل الخطاب ، فأقسم بشرف آبائه وأجداده أن ينظر الى السوريين نظرة واحدة بلا تفريق حسب أديانهم او انتسابهم العائلي والطبقي ، فالكفاءة الشخصية هي الاساس ، والرجل قد يكون من عائلة رفيعة الشأن ولكنه غير قادر على ادارة وظيفة، فليعلم كل انسان اني لاأتحزب لشخص لانه من أسرة ذات شأن وقوة بل أنظر الى اقتداره الشخصي٠٠٠(٦١) ٠

المؤتمر السوري :

أهم ماكان يشغل بال فيصل آنذاك هو كيف يمكن تعبئة الرأي العام السوري لمواجهة لجنة التحقيق بالرأي المطلوب ٠ وبعد المداولة مع مستشاريه استقر رأيه على انتخاب مجلس نيابي لكي يضع اللجنة أمام الامر الواقع باعتبار ان هذا المجلس يمثل الشعب السوري حسب الطريقة الديمقراطية المتعارف عليها في البلاد المتمدنة ٠

كان الظن السائد ان اللجنة سوف تصل قريباً ، ولهذا أوعز فيصل باجراء الانتخابات على عجل ٠ وقد جرت الانتخابات في سوريا وفقاً لقانون الانتخاب العثماني ، أما في لبنان وفلسطين فقد جرى الانتخاب على طريقة المضابط ٠

وبينما كان فيصل مشغولا بالانتخابات وصلته من رستم حيدر من

---

(٦١) أمين سعيد (المصدر السابق) ــ ج ، ص ٢٥ ــ ٣٤ ٠

باريس برقية مفادها : ان فرنسا عارضت الاشتراك في اللجنة وان بريطانيا تابعتها على ذلك ولكن الرئيس ويلسون أصر على ارسال اللجنة على ان تكون أمريكية بحتة ، وسوف تصل اللجنة الى سوريا قريباً •

أصيب فيصل بخيبة أمل من هذا الخبر ولكنه مع ذلك ظل يعمل مع اعوانه لتحضير الرأي العام لمواجهة اللجنة الاميريكية عند وصولها ، وأخذ الدعاة ينتشرون في مختلف انحاء البلاد يوصون الناس بأن يكونوا على رأي موحد أمام اللجنة حيث يطالبون بوحدة سوريا الطبيعية التي تشمل لبنان وفلسطين ، وباستقلالها ، على أن تكون تحت انتداب امريكا ، او انتداب بريطانيا في حالة امتناع امريكا عن قبول الانتداب ، أما فرنسا فلا يمكن قبول انتدابها أبداً •

وبعد أن تمت الانتخابات جرى افتتاح المجلس في ٣ حزيران باسم « المؤتمر السوري » ، وحضره مائة واربعة اعضاء ، بينما تغيب ستة عشر عضواً وهم من نواب لبنان اذ منعتهم السلطة الفرنسية من الحضور • وقد انتخب هاشم الاتاسي بالاجماع رئيساً للمؤتمر •

ومما يلفت النظر ان جدالا عنيفاً وقع في الجلسة الثانية من المؤتمر ، وذلك عندما تُليت العريضة التى قدمت لشكر الامير فيصل على جهوده في خدمة سوريا ، فقد لاحظ رجال الدين المسلمون ان العريضة خالية من البسملة ، واعترضوا على ذلك • فرد عليهم بعض النواب من الشبان ، اذ كان رأيهم ان الامة تتطلع الى فجر جديد وحكومة تتفق مع روح العصر ، ولهذا يجب ان تبقى الاديان على حرمتها وقداستها بعيدة عن السياسة كما هو الحال في أوربا وأمريكا • فثار رجال الدين على هذا الرأي ، واحتدم الجدال بين الفريقين حتى كاد يصل الى درجة الانقسام والتشاحن• وعند هذا قام النائب المسيحي يوسف الحكيم فاقترح حلا وسطاً للتوفيق بين الفريقين هو أن تُكتب في اعلى العريضة كلمتان فقط هما : « باسم

الله ، فصفق النواب جميعاً لهذا الرأي ووافقوا عليه[٦٢] •

حرب دعائية :

في ١٠ حزيران وصلت لجنة التحقيق الامريكية الى يافا وهي برئاسة المستر تشارلس كراين ومعه الدكتور هنري كنغ • واخذت تتنقل في أنحاء البلاد حيث قضت اثنين وأربعين يوماً زارت خلالها ٣٦ مدينة واستقبلت ١٥٢٠ وفداً وتلقت ١٨٦٣ عريضة •

وجدت اللجنة في جميع المناطق ــ باستثناء لبنان ــ ان اكثر الناس متفقون على الرأي الذى يريده فيصل ، اى المطالبة باستقلال البلاد السورية كلها مع انتداب امريكا او بريطانيا عليها • أما في لبنان ، ولا سيما في الاوساط المارونية ، فكان الامر على النقيض من ذلك حيث كان الناس يطالبون بالانتداب الفرنسي •

كان في لبنان عاملان لهما أثرهما في توجيه الناس نحو المطالبة بالانتداب الفرنسي ، هما جهود القساوسة المارونيين من جهة والاموال الفرنسية من الجهة الاخرى •

كان القساوسة المارونيون ينظرون الى القضية كأنها قضية دينية مذهبية ، فقد اعتبروا اللجنة الامريكية ذات ميول بروتستانية وطلبوا من أتباعهم أن يقاوموها ويتضافروا عليها[٦٣] • أما الاموال الفرنسية فهي بطبيعتها أقوى أثراً من الدعاية الدينية وقد أثارت في الناس موجة من التظاهرات المؤيدة لفرنسا بشكل أذهل اللجنة الامريكية •

كان الصحافي اللبناني اسكندر الرياشي من جملة الذين كلفهم الفرنسيون بتوزيع الاموال في تلك الايام ، وهو يصف ذلك في كتابين من

---

(٦٢) يوسف الحكيم (المصدر السابق) ــ ص ٩٥ ــ ٩٦ •
(٦٣) أمين الريحاني (فيصل الاول) ــ بيروت ١٩٥٨ ــ ص ٤٨ •

كتبه وصفاً طريفاً • فهو يقول : ان الفرنسيين استخدموا في دعايتهم جميع الوسائل التى وقعت في أيديهم وجميع الرجال الذين استطاعوا استخدامهم ، وقد داخ المستر كراين رئيس اللجنة منذ الساعة الاولى اذ احتشد حول مكتبه الالوف وهم يهزجون بالاغنية الجديدة التي ملأت قرى لبنان يومذاك وهي : « فرنسا أم الدنيا عموم ـ اعتزوا يالبنانية » • وكان القبضايات ـ أي اشقياء بيروت ـ من بين الذين استخدمهم الفرنسيون لهذا الغرض ، فقد أخذوا يطوفون على الناس بعرائض يطالبون بها بالانتداب الفرنسي ، وجعلوهم يوقعونها قسراً • وقد تسلم أحد الاشقياء عرائض بهذا المعنى ، ثم أعادها بعد ثلاثة أيام وهي تحمل عشرة آلاف توقيع ، وكان جزاؤه ليرة ذهب عن كل توقيع[٦٤] • وكان بعضهم يصنع آلاف الاختام ليملأ بها العرائض[٦٥] •

كان المستر كراين قد علم سابقاً بأن المسلمين والدروز لايريدون فرنسا ، ولكنه فوجىء بأكداس العرائض تطالب بانتداب فرنسا وهي مملوءة بأسماء محمد ومحمود وعلي وحسين • وشهدت بيروت بالاضافة الى ذلك فرسان الدروز يرتدون البرانس البيضاء والحمراء والقفاطين المزركشة ، ويحملون السيوف المعكوفة وقد كحلوا أعينهم بدائرة وسيعة من كحل الصحراء ، وهم يأتون يومياً بمواكب وهاجة هازجة مهللة • وقد بلغت مصاريف هذه المواكب ما يزيد على المليون ونصف المليون ليرة ذهب ، اذ ان كل فارس درزي لابد أن يحصل على تعويض عن ثمن مجيئه الى بيروت من الشوف او من جبل الدروز ، ورب فارس يأتي عدة مرات بعد أن يبدل ملابسه واسمه ، وفي كل مرة يحصل على حق تعبه[٦٦] •

---

(٦٤) اسكندر الرياشي (قبل وبعد) ـ بيروت ١٩٥٣ ـ ص ٣٠ •
(٦٥) اسكندر الرياشي (رؤساء لبنان كما عرفتهم) ـ ص ٢٢٦ •
(٦٦) اسكندر الرياشي (قبل وبعد) ـ ص ٣٥ •

أصبحت البلاد السورية كأنها في معمعة حرب دعائية وصراع شديد بين دمشق وبيروت ، احداهما تدعو الى الانتداب الفرنسي والاخرى تدعو الى الانتداب الامريكي او البريطاني . وصار كل من يدعو الى الانتداب الفرنسي في سوريا يُعد خائنا للوطن . أما في لبنان فكانت وصمة الخيانة من نصيب من يدعو الى الانتداب الامريكي او البريطاني .

يقول يوسف الحكيم في مذكراته : ان سوريا كانت تضم فئة صغيرة من الناس تدعو الى الانتداب الفرنسي غير أنها لم تكن تجرأ على الاعلان عن صوتها مخافة احتقار الجماهير لها ، فكانت ساكتة على مضض ولاتتكلم الا همسا مع من تثق به . ويروي الحكيم قصة زعيم دمشقي عرض عليه صديق له أن يأخذ من الفرنسيين ألف ليرة ذهب لكي يدعو الى الانتداب الفرنسي ، فرفض الزعيم ذلك رفضاً باتاً ، فوجه الصديق اليه سؤالا : « هل ترى الانتداب البريطاني أفضل من الانتداب الفرنسي ؟! » . فكان جواب الزعيم : انه لايفضل أحدهما على الآخر ولكنه لايرى من الحكمة أن تقوم الاقلية الصغيرة بمقاومة الاكثرية في فكرتها(٦٧) .

عادت اللجنة الامريكية الى باريس بعد انجاز عملها ، وقدمت تقريرها الى الوفد الامريكي في مؤتمر الصلح . وقد تضمن التقرير تحبيذ نظام الانتداب لمدة محدودة على سوريا والعراق ، على ان تكون الولايات المتحدة الامريكية منتدبة على سوريا ، وتكون بريطانيا منتدبة على العراق ، واذا رفضت الولايات المتحدة قبول الانتداب على سوريا فانه يُمنح لبريطانيا . أما اذا أصرت فرنسا على التشبث بمصالحها في سوريا فيمكن منحها الوصاية على لبنان الصغير فقط . وقد تضمن التقرير كذلك تحديد الهجرة اليهودية ونبذ فكرة جعل فلسطين دولة يهودية(٦٨) .

---

(٦٧) يوسف الحكيم (المصدر السابق) ـ ص ٨٨ .
(٦٨) سليمان موسى (المصدر السابق) ـ ص ٤٩٣ ـ ٤٩٤ .

لم يجد التقرير من يهتم به في مؤتمر الصلح ، فقد تكاتفت فرنسا وبريطانيا على قتله في مهده • وشاء القدرأن يبتلى الرئيس ويلسون بمرض خطر في تلك الآونة • ولهذا أُلقي التقرير في زوايا الاهمال • ولم يُنشر الا في الشهر الاخير من ١٩٢٢ ، وذلك بعد فوات الاوان ! •

يمكن القول على أي حال ان الاستفتاء الذى أجرته اللجنة في سوريا قد أغضب فرنسا دون أن ينتفع منه العرب ، فقد أخذت الصحف الفرنسية تهاجم بريطانيا مهاجمة شديدة وتتهمها بأنها هي التي حرضت السوريين على معاداة فرنسا بغية التملص من الالتزامات التى تفرضها اتفاقية سايكس بيكو، او المساومة على تعديلها • ولم تسكت الصحف البريطانية عن هذا الاتهام فأخذت تكيل للصحف الفرنسية بصاعها(٦٩) •

اتفاق فرنسا وبريطانيا :

كان المقرر حسب اتفاقية سايكس بيكو أن تكون سوريا كلها تحت اشراف فرنسا علاوة على منطقة الموصل الغنية بالنفط • والظاهر ان بريطانيا ندمت على تنازلها لفرنسا عن منطقة الموصل ، فأخذت تسعى لاستعادتها من فرنسا وضمها الى العراق •

يقول لويد جورج في مذكراته : « عندما جاء كلمنصو الى لندن بعد الحرب رافقته الى السفارة الفرنسية • ولما وصلنا السفارة سألني ماذا أريد الحصول عليه بوجه خاص من فرنسا ؟ فأجبته حالا انني أريد ضم الموصل الى العراق وان تكون فلسطين من دان حتى بئر سبع تحت السيطرة البريطانية • فوافق كلمنصو على ذلك بلا تردد »(٧٠) •

من الطبيعي ان تكون موافقة كلمنصو على التنازل عن منطقة الموصل

---

(٦٩) جورج انطونيوس (المصدر السابق) ـ ص ٤١١ •
(70) Lloyd George (op. cit.) – vol. 2, 1038.

لقاء عوض ، وكان هذا العوض ان تكون سوريا كلها تحت الانتداب الفرنسي[71] • وقد تم الاتفاق النهائي بين بريطانيا وفرنسا على ذلك في ١٥ ايلول ١٩١٩ حيث تقرر سحب الحاميات الانكليزية من سوريا وكليكيا، وأن تكون سوريا مع لبنان تحت الانتداب الفرنسي ، وذلك لقاء أن تكون فلسطين والعراق تحت الانتداب البريطاني • ويقال ان الاتفاق تضمن كذلك أن تتخلى بريطانيا عن فيصل وان تطلق يد فرنسا في معالجته كما تشاء[72] •

كان لويد جورج قد ارسل قبل توقيعه الاتفاق برقية الى فيصل يطلب منه المجيء سريعاً • فبادر فيصل الى مغادرة دمشق بعد ست ساعات من وصول البرقية اليه ، حيث سافر بالقطار الى حيفا ومنها ركب مدمرة بريطانية أوصلته الى مرسيليا في١٧ ايلول، وهناك قرأ في الصحف تفاصيل الاتفاق الذى تم بين لويد جورج وكلمنصو ، فسيطر عليه الغم[73] •

وصل فيصل الى لندن في مساء ١٨ ايلول ، فذهب لمقابلة لويد جورج بصحبة اللنبي ، وقد جامله لويد جورج وعمل على تطييب خاطره ولكنه أفهمه بصراحة ان عليه أن يتفق مع فرنسا[74] ، وقال له : « لايمكننا أن نتخلى عن حليفتنا بعد أن وعدت بالمحافظة على استقلال سوريا ، فعليكم أن تتفاهموا مع مسيو كليمنصو »[75] • ووعده لويد جورج أن يسعى لتأييد وجهة نظره لدى كلمنصو •

شعر فيصل كأن الانكليز الذين كانوا حلفاءه بالامس قد باعوه الى خصومه الفرنسيين ، فاعترض واحتج بلا جدوى • وكان قبل هذا قد وضع

---

(71) Moussa (op. cit.) — P. 220.

(٧٢) أمين سعيد (الوطن العربي) — القاهرة — ص ٣٠ •
(٧٣) سليمان موسى (المصدر السابق) — ص ٥٠٦ •
(٧٤) أحمد قدري (المصدر السابق) — ص ١٣٨ •
(٧٥) يوسف الحكيم (المصدر السابق) — ص ١١٣ •

أمله في امريكا فخاب أمله فيها كذلك • وقد أدرك انه امام طريقين لاثالث لهما : اما التفاهم مع فرنسا او اعلان القطيعه مع بريطانيا وفرنسا معا • وقرر أخيراً أن يذهب الى فرنسا ويحاول الوصول الى اتفاق معها بالتي هـــي أحسن وأمره الى الله •

مشروع معاهدة :

وصل فيصل الى باريس في ٢٠ تشرين الاول ١٩١٩ ، ومكث فيها مدة تزيد على الشهرين قضاها في المفاوضات مع المسؤولين في وزارة الخارجية الفرنسية تحت اشراف كلمنصو • وكان يساعد فيصل في المفاوضات رستم حيدر وعوني عبدالهادي • وكانت المفاوضات صعبة اعتورتها العراقيل بين الحين والآخر •

تم الاتفاق أخيراً بين الفريقين على مسودة معاهدة قال عنها عونـي عبدالهادي أنها كانت أحسن ما يمكن الوصول اليه في تلك الظروف باعتبار ان السياسي الماهر يجب أن يفرق بين الممكن وغير الممكن[٧٦] • ومـــن الجدير بالذكر في هذا الصدد أن كلمنصو كان يختلف عن الســـــاسة التقليديين في معالجته للقضايا الاستعمارية اذ كان مرناً متساهلا ، وكـان هؤلاء الساسة يتهمونه بالتقدمية ويخشون منه • يقول الباحث السويدي لونروث : ان الاوساط المالية والعسكرية في فرنسا كانت تتهم كلمنصـــو بانه متساهل اكثر مما ينبغي تجاه قضية سوريا[٧٧] • ويروي ابراهيم نجار الذي كان من حاشية فيصل حينذاك : ان كلمنصو قال لفيصل وهو يشير الى شعر رأسه : « ان هذا الشعر الذي تراه في رأسي قد ابيض من معاناة السياسة في هذه البلاد • أنا غير استعماري ولا أعتقد بالاستعمار • وأنـــا

(٧٦) خيرية قاسمية (الحكومة العربية في دمشق) ــ ص ١٦٠ •
(77) Lonnroth (Lawrence of Arabia) — Trans by Lewis — P. 77.

أعرض عليك معاهدة لاتجد سياسياً فرنسياً غيري يجرأ على عرضها عليك وتوقيعها • ففكر ملياً واعطني جوابك »[٧٨] •

نصت المعاهدة على أن تحترم فرنسا من جانبها استقلال الدولـــة العربية في دمشق ، وان على هذه الدولة أن تحترم احتلال فرنسا للبنان والساحل حتى الاسكندرونة ، وان تستمد كل معونة تحتاجها من فرنسا • وقد أشارت المعاهدة الى أن هذه تدابير موقتة ريثما تتم التسوية النهائية في مؤتمر الصلح •

كان فيصل في قرارة نفسه يميل الى تصديق المعاهـــدة ، كما أن مستشاريه وافقوا عليها ما عدا الدكتور أحمد قدري • وقد كتب فيصل الى أبيه الحسين رسالة أشار فيها الى موقفه الحرج واضطراره الى الاتفاق مع فرنسا ، حيث قال في رسالته : قد توافرت القناعة عندي بأن بريطانيـــا استخدمتنا لمصالحها وتركتنا ، وان أمريكا تخلت عنا بعد أن أضرت بنـــا وكانت السبب في وقوعنا في هذا المأزق الحــــرج ، وان من الصعب على السوريين ان ينتصروا على الفرنسيين لعدم وجود الوسائط والآلات الحربية وعدم وجود التربية الملية التي تدفع الامة ، ولهذا فقد رأيت لدى وصولي الى باريس أن أتوصل الى نوع من التفاهم مع الفرنسيين أخرج بـه عن المجرى القديم القائم على التزام جانب الانكليز التزاماً تاماً[٧٩] •

كان الحسين في تلك الآونة غاضباً على ابنه فيصل لاعلانه استقلال سوريا عن الحجاز ، ولمـــا وصلته رسالة فيصل لم يوافق على ما ورد فيها ، وأرسل طبيبه الخاص الدكتور ثابت نعمان الى باريس وهو يحمل رسـالة الى فيصل يأمره فيها بعدم التوقيع على أية معاهدة مخالفة للوعود البريطانية السابقة له • وقد وصل الدكتور ثابت الى باريس قبل توقيع المعاهدة • ولهذا

---

(٧٨) ابراهيم سليم نجار (المصدر السابق) ــ ص ٦٨ •

(٧٩) سليمان موسى (المصدر السابق) ــ ص ٥٢٠ ــ ٥٢١ •

اضطر فيصل الى الاعتذار عن توقيع المعاهدة ووعد كلمنصو بأنه سيعرض مشروع المعاهدة على السوريين ويحثهم على قبولها[٨٠] .

غادر فيصل فرنسا الى سوريا ، وتشير القرائن الى أنه كان ينوي أن يقنع السوريين بقبول المعاهدة وبذلك يضع أباه أمام الامر الواقع بحجة أن أهل البلاد هم الذين وافقوا على المعاهدة وأنه لاشأن له في الامر .

الحماس في سوريا :

ان الفترة التي غاب فيها فيصل عن سوريا ـ وهي التى دامت زهاء أربعة اشهر ـ تميزت بظهور الحماس الشعبي واستفحاله . فقد كان الامير زيد ينوب عن أخيه فيصل في الحكم ، وكان شاباً قليل الخبرة ، فاندفع مع الحماس الشعبي وصار يؤيده علناً أحياناً ، وسراً أحيانا اخرى .

بدأ الحماس الشعبي منذ غادر فيصل دمشق الى أوربا في ١٢ ايلول. ويقال انه هو الذي بذر بذرته الاولى لانه اجتمع قبيل سفره ببعض الزعماء وقال لهم : انه ينتظر منهم أن يقوموا بحركة شعبية لتحويل الامة الى أمة مسلحة وتحويل الوطن الى ثكنة عسكرية[٨١] . ولعل فيصل أراد بذلك تدعيم موقفه في المفاوضات المقبلة مع ساسة بريطانيا وفرنسا ، ولم يدر ان الحماس الشعبي اذا انطلق هادراً فلن يستطيع أحد ايقافه عند حد معين .

حين وصلت الاخبار الى دمشق عن الاتفاق الذى حصل بين فيصل وكلمنصو هاج الناس وأخذوا يعلنون تذمرهم من بريطانيا ويقولون عنها أنها باعت سوريا للفرنسيين لقاءنفط الموصل. ولما بدأت القوات البريطانية تنسحب من سوريا وفقاً للاتفاق ازداد هياج الناس وقرروا تأسيس جيش سوري لسد الفراغ الذى تركه انسحاب القوات البريطانية . فاتصل سكان محلات

---

(٨٠) المصدر السابق ـ ص ٥٣٤ .

(٨١) خيرية قاسمية (المصدر السابق) ـ ص ١٤٤ .

دمشق بعضهم ببعض واتفقوا على انتداب أربعة رجال من كل محـــلة ليجتمعوا ويقرروا ما يرونه لازما للدفاع عن الوطن • وأخذ المنـدوبون يجتمعون كل مساء في محلة من المحلات ، حيث أصبح اجتماعهم كأنه برلمان شعبي محلي تُلقى فيه الخطب والقصائد الحماسية(٨٢) •

وفي ١٠ تشرين الثاني خرجت في دمشق مظاهرة كبرى وتوجهت الى دار الحكومة وقدمت الى الامير زيد برقية احتجاج على فكرة تجزئة البلاد لارسالها الى فيصل بباريس • وفي اليوم التالي تلقى زيد من فيصل برقية يقول فيها : « لاتزال المخابرات جارية مع الحلفاء ، أوصوا الشعب بالتروي والتعقل مع المحافظة على الامن والسكينة بانتظار جوابي »(٨٣) • فلم تؤثر هذه البرقية في الشعب شيئاً ، ولعله ازداد بها حماساً وهياجاً •

ظهرت في تلك الآونة مواهب زعيم شعبي قادر على اثارة الجماهير بخطبه الحماسية هو الشيخ كامل القصاب ، وكان معمماً من رجال الدين • وفي ٢٧ تشرين الثاني انعقد اجتماع كبير في دار آل البارودي في حـــي القنوات حضره مشائخ الدروز ، وقام الشيخ كامل فخطب بأسلوبه المثير مشيدا بالغيرة الوطنية التى تجلت في الامة العربية والضحايا التي قدمتها في سبيل حريتها واستقلالها ، وندد بما شاع عن رغبة الامير فيصل في التفاهم مع الفرنسيين « أعداء الامس واليوم والغد » • وفي نهاية خطابه طلـــب تشكيل لجنة باسم « اللجنة الوطنية العليا » لاعداد المقاومة ضد الفرنسيين وتنظيم المتطوعين للتجنيد وجمع التبرعات للمجهود الحربي • فصفـــق الحاضرون له طويلا وأجابوه على طلبه لتشكيل اللجنة وانتخبوه رئيسا لها بالاجماع(٨٤) •

---

(٨٢) أمين سعيد (الثورة العربية الكبرى) ـ القاهرة ـ ج٢ ص ١٠٢ •
(٨٣) يوسف الحكيم (المصدر السابق) ـ ص ١١٦ •
(٨٤) المصدر السابق ـ ص ١٢٢ •

قررت اللجنة الوطنية العليا تأليف لجان فرعية لجمع المال اللازم للحركة الوطنية بنسبة اثنين في المائة من ثروة كل فرد من أفراد الامة ، ومن شاء أن يزيد فله الفضل • كما قررت اللجنة تأليف كتيبة من المتطوعين يبلغ تعدادها ألف رجل وتتولى هي تجهيزها وارسالها الى ميدان القتال • وفي ١٠ كانون الاول أعلن الشيخ كامل القصاب في اجتماع للجنة : أنه قابل رجال الحكومة ووجدهم على وفاق مع الشعب فما يريده يريدونه ، ثم قال : ان الامة قررت الدفاع وان رجالا من محلة الميدان قد تطوعوا فعلا وسينصبون خيامهم غداً في المزة(٨٥) •

وفي ٢١ منه أقر الامير زيد مشروع قانون للتجنيد الاجباري يقضي بتجنيد من أكمل العشرين الى الاربعين ، وجعل مدة الخدمة ستة أشهر والبدل النقدي ثلاثين جنيهاً مع استثناء وحيد والديه •

وفي تلك الآونة ظهرت عصابات لمحاربة الفرنسيين في جبال العلويين، وفي تل كلخ قرب حماة ، وفي البقاع وجبل عامل ومرتفعات الجولان ، وكانت حكومة دمشق تشجع تلك العصابات سراً وتمدها بالمال والسلاح •

ومما يجدر ذكره في هذا الصدد ان القوات الفرنسية كانت حينذاك مشغولة بمحاربة القوات التركية في منطقة كليكيا • وكان السوريون يشعرون بالتعاطف مع الاتراك نكاية بالفرنسيين ، وأخذت مناشير الدعاية التركية تنتشر في حلب بتشجيع من بعض الضباط السوريين والعراقيين ، وكانت تلك المناشير مذيلة بتوقيع مصطفى كمال باشا • ننقل فيما يلي فقرة من احداها وهي موجهة الى الشعب السوري :

« بصفتي مسلما أتوسل اليكم الا تكترثوا بما بيننا من خلاف أدى بنا الى القطيعة • ينبغي لنا أن نزيل كل سوء تفاهم وقع بيننا ولنوجه جميعنا

---

(٨٥) أمين سعيد (المصدر السابق) ـ ج٢ ص ١٠٢ ـ ١٠٣ •

سلاحنا ضد الاحزاب الخائنة التي ترغب في تجزئة بلادنا...ان المجاهدين الذين يؤمنون بالحق سيقومون قريباً بزيارة اخوانهم العرب ، وسوف يمزقون شمل الاعداء ، فلنعش اخوة في الدين ، والموت لاعدائنا »(٨٦) .

الجنرال غورو :

عينت فرنسا الجنرال غورو مفوضا سامياً لها في بيروت ، وكان هذا الجنرال من قواد حملة الدردنيل وكانت له شهرة فيها وقد فقد فيها أحد ذراعيه. والظاهر ان فرنسا قصدت من تعيين هذا الرجل أن تحسم قضية سوريا التي أقلقتها طويلا عن طريق الحل العسكري .

وصل غورو الى بيروت في ٢١ تشرين الثاني ١٩١٩ ، فجرى له فيها استقبال فخم الى أبعد الحدود . والمعروف عنه أنه كان رجلا فخوراً يحب الزهو ، ولهذا احاط نفسه منذ قدومه بمظاهر الفخفخة . يقول عنه بشارة الخوري في مذكراته : « أراد هذا الجنرال أن يحيط نفسه بأبهة منذ تسلمه مهام منصبه ، ومن مظاهر ذلك تأليفه حرساً وطنياً لمواكبته على الخيول العربية في تنقله في أسواق المدينة ، وقد فرض أن يكون جميع أفراد الحرس من جبل الدروز . وقد ظنهم كذلك ، ولكن بعض الفرسان جيء بهم من قرى لبنان وكحلت عيونهم ليوهموا السلطة أنهم من جبل الدروز ، وأخذ أحد السياسيين جعالة على تطوعهم لابأس بقيمتها ، وهكذا كلّف ذلك الحرس مالا وفيراً »(٨٧) .

أهم مشكلة واجهها غورو عقب وصوله الى بيروت هي أشتداد الحرب بين القوات التركية والفرنسية في منطقة كليكيا ، فعندما انسحبت القوات البريطانية من تلك المنطقة انفردت القوات الفرنسية وحدها بمواجهة

---

(٨٦) زين نور الدين زين (المصدر السابق) ــص ١٤٠ ، ٢٤٦ .

(٨٧) بشارة خليل الخوري (حقائق لبنانية) ــ بيروت ــ ص ٩٨ــ٩٩ .

القوات التركية ، وكان مصطفى كمال باشا قد أعد هناك جيشاً نظامياً كبيراً كما سلح عصابات من الفلاحين أخذت تقتحم القرى ، وقد نال الارمـــن القاطنين في تلك القرى من البلاء شيئاً كثيراً •

وجه غورو الى كليكيا فرقتين كبيرتين ، ولكنه وجد صعوبة كبيرة في تموين الفرقتين وامدادها ، ذلك لان حكومة دمشق منعته من استعمال القطار السوري لنقل المؤون ، فاضطر من جراء ذلك الى نقلها عن طريق البحر الى الاسكندرونة ، وهذا يتطلب مدة خمسة عشر يوما بينما كان طريق القطار يتطلب أربعة أيام فقط(٨٨). ولاحاجة الى القول ان هذا العمل من حكومة دمشق جعل غورو يضمر الحقد الشديد عليها ويصمم على القضاء عليها •

خبر مثير :

كان فيصل قبل عودته الى سوريا قد اتفق مع كلمنصو على أن تبقى المعاهدة طي الكتمان لكي يتمكن عند وصوله الى دمشـــق مـن اقناع السوريين بها في جو هادىء خالي من الانفعالات • والغريب انه لم يكد يغادر مرسيليا في ٧ كانون الثاني ١٩٢٠ حتى نشرت جريدة « الطان » الفرنسية خبراً عن المعاهدة قالت فيه : « وافق الامير فيصل منسجماً مـع فرنسا على انتدابها على سوريا كافة ، ولقاء ذلك فان فرنسا رضيت بقيام منطقة عربية تشمل المدن الاربع ، دمشق وحمص وحماة وحلب ، على ان تكون تحت حكمه بمساعدة المستشارين الفرنسيين والمفتشـــين ••• وكذلك فان الامير وافق على التعاون مع فرنسا دون غيرها في الشؤون الاقتصادية والمالية » • وقد بادرت وزارة الخارجية الفرنسية الى نفـــي

---

(٨٨) اندرياو (تاريخ الدروز وتمرد دمشق) ــ ترجمة حافظ أبو مصلح ــ بيروت ١٩٧١ ــ ص ٢٩ •

الخبر غير أن الجريدة أكدت على صحته مع أضافة تفصيلات أخرى اليه في مقالات تالية[89] .

هنا يحق لنا أن نتساءل : هل كان نشر الخبر من قبيل السبق الصحفي الذي استطاع أحد محرري الجريدة أن يحصل عليه بجهوده أم أن نشره كان مدبراً من قبل بعض الساسة الفرنسيين لغرض معين قصدوا اليه ؟!

أرجح الظن ان نشر الخبر كان مدبراً ومتعمداً ، فان الاوساط المحافظة والساسة التقليديين ، من خصوم كلمنصو في فرنسا ، لم يهن عليهم عقد مثل تلك المعاهدة التي هي في نظرهم مضرة بمصالح فرنسا . انهم كانوا ـ كما رأينا آنفاً ـ يتهمون كلمنصو بأنه متساهل أكثر مما ينبغي تجاه قضية سوريا . وليس من المستبعد أنهم هم الذين تعمدوا نشر الخبر بتلك الصورة لكي يحرضوا السوريين على رفض المعاهدة . وهذا أمر كثيراً ما يقع في عالم السياسة ، وقد جرى مثل ذلك في العراق في عام ١٩٤٨ ـ كما سنأتي اليه في جزء قادم من هذا الكتاب ان شاء الله !

وعلى أي حال فقد كان لنشر خبر المعاهدة في جريدة « الطان » أثر بالغ في الرأي العام السوري . انه كان كالشرارة التي تلهب النار ، فانطلق الجمهور يلعن المعاهدة ويلعن كل من يؤيدها كائناً من كان .

عودة فيصل .

وصل فيصل الى بيروت في ١٤ كانون الثاني ١٩٢٠ ، وكان قبل وصوله قد تلقى برقية من كلمنصو يخبره بأن حكومته قد صادقت على المعاهدة بشرط أن يتخذ الامير الوسائل الفعالة لاحلال السكينة في الشعب السوري ويكسب رضاهم بسياسته . وقد عرض فيصل هذه البرقية على

---

(٨٩) محمد جميل بيهم (المصدر السابق) ـ ١٦٠ ـ ١٦١ .

الجنرال غورو عند اجتماعه به في بيروت • وقيل ان غورو سأله : هـل في مقدورك وقف القلاقل في سوريا ؟ فأجابه فيصل : ان من السهل عليه وقف القلاقل لانه هو نفسه كان يثيرها لخلق المشاكل أمام فرنسا(٩٠) •

غادر فيصل بيروت بعد يومين من وصوله اليها • وحين وصل دمشق كان استقبال الجماهير له فاتراً نسبياً(٩١) • وشعر فيصل ان الجو ملغوم ضده وضد المعاهدة ، واخذ يتحدث الى زواره شارحاً لهم الموقف واوصاهم بكتمانه عن العامة • وفي اليوم التالي من وصوله الى دمشق خرجت فيها مظاهرة كبرى ، وجاءت الى قصره وهي تهتف ، فأطل عليها من الشرفة يحييها • ووقف الشيخ كامل القصاب خطيباً في المتظاهرين وقال موجهاً كلامه الى فيصل : « اني واثق أنك لن ترضى ، وحاشاك ان ترضى ، أن تكون أميراً على بلاد يظللك فيها علم أجنبي(٩٢) » • فتكلم فيصل يشكر المتظاهرين على اخلاصهم وغيرتهم الوطنية وطمأنهم بأن قضية البلاد لـم يبت في أمرها بعد ، ودعاهم الى الهدوء والاعتماد على حق الامة الصريح بعد الاتكال عليه سبحانه وتعالى(٩٣) •

وفي مساء ٢٢ كانون الثاني أقام النادي العربي حفلة كبيرة لتكريم الامير فيصل بمناسبة عودته من أوربا وحضر الحفلة كثير من الاعيـان والمسؤولين وقادة الجماهير • وتوالى على منصة الخطابة عدد من الخطباء وكانوا كلهم يحاولون شجب المعاهدة عن طريق التلميـح والكنايـة ، ويطالبون بالاستقلال التام الذى لاتشوبه حماية او وصاية وبوجوب الدفاع عن هذا الاستقلال بكل غالي ورخيص •

---

(٩٠) المصدر السابق ــ ص ١٦٢ •
(٩١) جورج انطونيوس (المصدر السابق) ــ ص ٤١٧ •
(٩٢) خيرية قاسمية (المصدر السابق) ــ ص ١٥٩ •
(٩٣) يوسف الحكيم (المصدر السابق) ــ ص ١٢٧ •

كان الطبيب عبدالرحمن الشهبندر من جملة الخطباء ومن أشدهم حماساً ، فقد انتقد الحكومة القائمة ووصف نفسه بأنه من الشعب وأنه بحكم مهنته يدخل بيوت الناس ويعرف أفكارهم[٩٤] . ثم أخرج سماعته الطبية وقال انها توصل الى سمعه يومياً دقات قلوب الشعب القلقة على مصيره شاكية ضعف النشاط السياسي[٩٥] .

وعند انتهاء الخطباء من خطبهم وقف فيصل وأخذ يتكلم كلاماً طويلا يدل على ما كان يشعر به من ألم عميق . فقد بدأ خطابه بشكر الشبيبة التى أقامت الحفلة ، وأشار الى انه في العام الماضي كان يلاحظ في النادي قطعة مكتوب عليها « ممنوع التكلم في السياسة » ولكنه الآن لايراها، وعلل ذلك بالاحوال السياسية الحاضرة التى قضت على النشأ الجديد أن يهملوا دروسهم وكتبهم ويهتموا بالسياسة حيث أعتقدوا أن الدفاع عن الوطن فوق كل شيء وان العلم يأتي في الدرجة الثانية . ثم قال : « ربما لاحظتم اني أتلعثم في القول ، فانا لست بخطيب ولم أعتد أن اقول كثيرا لانني ألفت الصمت ، ومن عرفني قديماً يعرف ذلك عني ، ولذلك أرغب ان تكون الامة صامتة مثلي تعمل كثيراً وتقول قليلا ... لنا سنة ونصف ونحن نقول . كفانا خطباً ، كفانا أقوالا ، نحن في أيام العمل لافي أيام القول . ان الاقوال لاتأتي بفائدة ولكن الافعال تفيد كثيراً . اني غبت عن البلاد أربعة أشهر ولا أشك بأن التاريخ يحفظ ما فعلته بالغرب سواء أكان جيداً أو رديئاً ، قليلا او كثيراً ، ولا أنزه نفسي عن الخطيئات لاني كنت أقول ما يلهمني ضميري . ولما عدت الى هنا رأيت الامة بأشد الحماس ، ولكنه حماس لايتعدى القول ، وحبذا لو قرن هذا الحماس بالعمل ، أنا أدعو الامة الى ذلك اذ لاحياة لها الا اذا فعلت كما اقول » .

---

(٩٤) أحمد قدري (المصدر السابق) ــ ص ١٦٧ .

(٩٥) يوسف الحكيم (المصدر السابق) ــ ص ٨٣ .

ثم تطرق فيصل الى خطاب عبدالرحمن الشهبندر فدافع عن الحكومة وقال : انها قائمة برأي من اعتمدته الامة وهو أنا ، فالحكومة هي شخصي ، ولا أسمح لشخص أو جماعة ان يقول ان الحكومة هي كذا وكذا ، أو يطلب ابدال حاكم بحاكم ، لانني أنا المسؤول الى ان ينعقد مجلس الامة وعندئذ أتنصل عن المسؤولية • ثم أشار فيصل الى سماعة الشهبندر وكيف انه يعرف بها دقات قلوب الشعب ، وقال : ان أول عمل يجب أن يعمل له الدكتور الشهبندر هو ترقية الفن المختص به ، فاذا عمل كل فرد منا بما يجب عليه في مجال اختصاصه تنتظم حركة الامة بأجمعها ، « فالجندي يحارب ، والزعيم يقود الجنود ، والسياسي يدير الامور بما تستدعيه الظروف ، والطبيب يداوي المرضى ، فلا يتجاوز أحد حدود اختصاصه الى مهمة غيره ولا يتداخل فيما يخرج عن نطاق اختباراته وعما وقف نفسه عليه » • ثم عاد فيصل الى موضوعه الاساسي فقال : « أعود فأؤكد لكم يا اخواني بانني عامل على ما انتم تطالبون به وهو الاستقلال التام ••• ولكنني في الوقت نفسه أقول أن بينكم وبين الامم الغربية صلات تصلكم ولا تقدرون أن تستغنوا عنها ، لان وسائط النقل الحديثة جعلت أوربا في بطن سوريا ، واذا قلتم انكم تستغنون عنها عرفت انكم لاتريدون الحياة ••• نحن اليوم في موقف حرج يجب أن لانحتقر فيه الامم لاننا باحتقارنا لاحداها نكون قد احتقرنا أنفسنا • أمامنا دول كبار وأمم عظام • يجب علينا أن نحترم كل أمة وكل حكومة متى احترمت بلادنا واستقلالنا ومنافعنا »(٩٦).

عند انتهاء فيصل من كلامه كان يظن ان الحاضرين اقتنعوا بصحة ما قال • وهذا وهم كثيراً ما يسيطر على الساسة الذين لايعرفون طبيعة البشر • ان الادلة التي أوردها فيصل في خطابه كانت قوية مقنعة في نظره،

---

(٩٦) انظر : المصدر السابق ــ ص ٨٧ • وكذلك : أحمد قدري (المصدر السابق) ــ ص ١٦٧ ــ ١٦٨ •

وكان يحسب انها مادامت كذلك فلابد أن تكون قوية ومقنعة في نظـــر الآخرين أيضا . لم يدر أن الحماس المسيطر على الرأي العام جعل الناس في عالم آخر غير العالم الذي هو فيه . انه كان ينظر الى الامور في ضوء المبدأ القائل « السياسة هي فن الممكن » ، بينما هم كانوا ينظرون اليها في ضوء « ارادة الشعب » و « الموت في سبيل الوطن » . وشتان ما بـــين النظرتين !.

محاولة اخرى :

اراد فيصل أن يقوم بمحاولة أخرى لاقناع الشعب بقبول المعاهدة ، فطلب عقد اجتماع سري مع الهيئة الادارية لجمعية « العربية الفتاة » ، وهي الجمعية التى كان لها تأثير كبير في الرأي العام السوري حينذاك . وتم عقد الاجتماع في بيت الدكتور أحمد قدري في ٦ شباط ، وعـــرض فيصل على الحاضرين مشروع المعاهدة التى اتفق عليها مع كلمنصو ، ودافع عنها وقال انها أقصى ما يمكن الحصول عليه ، ورجا منهم أن يكونوا واقعيين في معالجتهم لامور السياسة . غير انهم لم يستجيبوا لرجائـــه ، ورفضوا المعاهدة وأصروا على الرفض . فقال لهم فيصل : ان رفـــض المعاهدة معناه اعلان الحرب على فرنسا . فكان جوابهم : « اننا مستعدون لاعلان الحرب على فرنسا وانكلترا معاً »[٩٧] .

وفي اليوم التالي استدعى فيصل اليه اعضاء الهيئة الادارية واحداً بعد الآخر على انفراد بغية اقناعهم فلم ينجح فأشار عليه رضـــا الركابي باقالة الهيئة وابدالها بهيئة أخرى ، فوافق فيصل على هذا الرأي . واجتمع خمسون من أعضاء الجمعية في بيت الركابي برئاسة الامير زيد . وافتتح الشيخ كامل القصاب الجلسة بخطبة من خطبه النارية حمل فيها على الهيئة

(٩٧) أمين سعيد (المصدر السابق) – ج٢ ص ١٢٥ .

الادارية واتهمها بالتفريط في مصلحة البلاد وطالب باقالتها • ثم تعاقب الخطباء على مثل هذا القول • وقام أحد أعضاء الهيئة يقول : « اننا فعلنا ما استطعنا فعله فجربوا أنتم أنفسكم » • ثم جرى الانتخاب ففاز بها أعضاء جدد كان من بينهم الركابي[٩٨] •

ولم يكتف فيصل بهذا بل أخذ بشجع الناس على تأسيس حزب جديد للوقوف تجاه جمعية « العربية الفتاة » والحد من قوتها • وقد تأسس الحزب فعلا باسم « الحزب الوطني السوري » ، وانضم اليه الاعيان من أصحاب الوجاهات التقليدية ، وكتب بيان الحزب محمد كرد علي فنمقه تنميقاً[٩٩] •

لاحاجة بنا الى القول ان هذه المحاولة لابد أن تبوء بالفشل عاجلا او آجلا • فان أي حزب سياسي انما يكسب قوته من التفاف الجماهير حوله ، والجماهير بطبيعتها لاتحب الاعتدال لان الشيء في نظرها اما أسود أو أبيض ولا يمكن أن يكون هناك وسط بينهما • ومن يريد ان ينال المكانة لدى الجماهير يجب عليه أن يسير معهم ويتحمس بحماسهم ، والا فهم يحتقرونه ويعدونه خائناً للوطن •

أصبحت الجماهير في دمشق ترتاب في وطنية كل رجل يُشاع عنه أنه يؤيد المعاهدة ، ولهذا صار الناس يتهمون نوري السعيد بالخيانة ويهتفون ضده في الشوارع ، كما انتشر بين الناس منشور سري موجه ضد الركابي[١٠٠] •

أدرك فيصل أخيراً أن اقناع الجماهير بالموافقة على المعاهدة أمر في منتهى الصعوبة او هو يكاد يكون مستحيلا • وهو لذلك أصبح في حيرة

(٩٨) المصدر السابق ــ ج٢ ، ص ١٣٦ •
(٩٩) أحمد قدري (المصدر السابق) ــ ص ١٧٢ــ١٧٤ •
(١٠٠) خيرية قاسمية (المصدر السابق) ــ ص ١٦١ •

من أمره لايدري أينسجم مع الجماهير فيخسر السياسة ، أم ينسجم مع السياسة فيخسر الجماهير • ان الجماهير لايمكن أن تكون عاملا ايجابياً في السياسة الا اذا كانت لها قيادة حكيمة تعرف كيف توجهها • يقول أحد المفكرين السياسيين : « ان قادة الجماهير يجب أن يسيروا أمامها لا وراءها » ، ويقصد بذلك ان القادة يجب أن يكونوا هم الموجهين للجماهير لا ان تكون هي الموجهة لهم •

يبدو أن جماهير دمشق في ذلك الحين لم تتوفر لديها مثل هذه القيادة الحكيمة ، اذ كان قادتها من طراز كامل القصاب يسيرون وراء الجماهير ويهتفون بهتافها دون أن يكون لهم رأيهم المستقل الذي يستطيعون به توجيه الجماهير • ولهذا أصبح فيصل في وضع نفسي لايحسد عليه وكأنه بين حجري الرحى •

زار دمشق في تلك الفترة برسيفال فيلبس مراسل جريدة « الديلي اكسبريس » البريطانية ، وقابل فيصل ثم كتب الى جريدته يصف الحالة النفسية التي كان فيها فيصل حيث قال : « ترك الامير فيصل في نفسي عند مقابلتي الاخيرة له أنه رجل على حافة الانهيار التام من جراء اليأس الذي يشعر به ، وذلك لان كل شخص هنا يشك فيه • والفرنسيون لايثقون به •• وملك الحجاز أبوه لايثق به ظناً منه ان فيصل قد أسلم أمره وبلاده للتبعية عن طريق المعاهدة التي لاتعرف مكة عن أمرها شيئاً »(١٠١) •

تتويج فيصل :

في ٢٠ كانون الثاني ١٩٢٠ سقطت وزارة كلمنصو ، وحلت محلها وزارة جديدة برئاسة ميليران • والمعروف عن الرئيس الجديد أنه كان

(101) Daily Express - 24 Feb. 1920.

على النقيض من كلمنصو لايميل الى التساهل في القضية السورية ويبغي حلها عن طريق القوة العسكرية •

أعلن ميليران أمام البرلمان الفرنسي على أثر تسنمه الحكم ان احتلال سوريا يحتاج الى قوة عسكرية كبيرة ، وطالب البرلمان بالموافقة على تخصيص المبالغ اللازمة لذلك وقال : « لكي تجلب فرنسا لاهل سوريا تحت رايتها نعمة الحكم الجيد كما فعلت ذلك في المغرب »(١٠٢) •

ان هذا التبدل في السياسة الفرنسية جعل فيصل يشعر بضرورة مجاراة الحماس الشعبي• ولعله خشي أن يخسر المشيتين ، أي خشي أن يخسر الجماهير والسياسة معاً • ففي أوائل آذار ١٩٢٠ تم الاتفاق بينه وبين زعماء الاحزاب السورية على أن يضعوا فرنسا أمام الامر الواقع وذلك باعلان استقلال سوريا ومبايعة فيصل ملكاً عليها ، وتقرر ان يكون ذلك في ٨ منه •

ويقال ان مشكلة عائلية واجهت فيصل آنذاك اذ هو لايجوز له حسب تقاليد العائلة الهاشمية ان يتقدم على أخيه عبدالله الذى هو أكبر منه سناً • وبعد المداولة مع زعماء الاحزاب تم الوصول الى حل هو ان يعلن العراقيون الموجودون في سوريا استقلال العراق ومبايعة عبدالله ملكاً عليه في نفس اليوم الذى تم فيه بيعة فيصل(١٠٣) •

أُستدعي المؤتمر السوري على عجل ، كما استدعي العراقيون الموجودون في سوريا لانتخاب مؤتمر خاص بهم • وفي عصر ٦ آذار اجتمع المؤتمر السوري فقرر استقلال سوريا استقلالا تاماً بحدودها الطبيعية التي تشمل لبنان وفلسطين وان يكون فيصل ملكاً عليها كلها • وفي

---

(١٠٢) مجلة (آفاق عربية) ــ في عددها الصادر في أيار ١٩٧٧ ــ ص١١٩

(١٠٣) محمد طاهر العمري (المصدر السابق) ــ ج٣ ص ١٨٩ •

الوقت نفسه اجتمع العراقيون في بيت نوري السعيد في حي الشـــهداء وانتخبوا من بينهم الاشخاص التالية اسماؤهم من أجل اعلان استقـلال العراق ، وهم : جعفر العسكري ، سعيد الشيخلي ، علي جودت الايوبي ، عبدالله الدليمي ، جميل المدفعي ، تحسين علي ، اسماعيل نامق ، سامي الاورفلي ، فرج عمارة ، رشيد الهاشمي ، رضا الشبيبي ، صبيح نجيب ، محمود أديب ، ناجي السويدي ، توفيق السويدي ، ابراهيم كمال ، يونس وهبي ، حمدي صدرالدين ، أحمد رفيق ، نوري القاضي ، مكي الشربتي ، ثابت عبدالنور ، ابراهيم توحلة ، عزت الكرخي ، عبداللطيف الفلاحي ، توفيق الهاشمي ، محمد البسام ، أسعد صاحـــب ، محمد خيرو •

وفي اليوم المعين ــ أي ٨ آذار ــ أُعد احتفال فخم في دار البلدية في المرجة حضره رؤساء الطوائف الدينية والاعيان وممثلو الدول • ولوحظ تغيب البريطانيين عن حضور الاحتفال ، بينما حضره الفرنسيون وعلائم الابتهاج بادية على وجوههم الامر الذى لفت اليه الانظار • ومن طريف ما وقع في بداية الاحتفال ان نوري الشعلان رئيس عشيرة الرولة جـاء ومعه عشرة من اتباعه المسلحين فأشغلوا صدر القاعة ، فتقدم نحوه أحـد القائمين بالتشريفات راجياً منه بلطف أن يأمر أتباعه بالوقوف مع الاعيان المدعوين ، ولكن الشيخ رفض ذلك اذ شهر سيفه وصاح بالرجـــل : « ارجع مكانك » • فعاد الرجل خائباً •

وصل فيصل الى محل الاحتفال وهو راكب جوادا فهتفت لــــه الجماهير المحتشدة في ساحة المرجة ، وبعد قليل خرج الى الشرفة المطلة على الجماهير محمد عزة دروزة سكرتير المؤتمر السورى فتلا قـــرار المؤتمر باعلان استقلال سوريا واختيار فيصل ملكاً عليها • وتلاه توفيق السويدي فتلا قرار المؤتمر العراقي باعلان استقلال العراق واختيار عبدالله

ملكاً عليه • ثم تقدم رئيس بلدية دمشق غالب الزالق يحمل علم سوريا الجديد ، وهو نفس العلم الحجازي مع اضافة نجمة واحدة اليـــــه ، فتسلمه المرافق فخري البارودي ورفعه فوق السارية ، فضجت الجماهير بالهتاف • ورُفعت لوحة مكتوب عليها : «ليحيى جلالة الملك فيصل»• وكانت المدافع تطلق آنئذٍ مائة طلقة وطلقة •

ضجة في بيروت :

قوبل اعلان الملكية بالسخط من قبل فرنسا وبريطانيا • ففي ٩ آذار أرسل وزير الخارجية البريطانية اللورد كرزن برقية الى فيصل تتضمن احتجاجاً عنيفاً ، وقال له : ان المؤتمر السوري ليس له صفة شرعية وان بريطانيا لاتعترف بحق أية فئة في دمشق تتكلم نيابة عن فلسطـــين والعراق(١٠٤) • وفي ١ نيسان أبرق اللورد كرزن الى الحسين وابنـــه عبدالله يقول لهما : ان بريطانيا لاتعتبر العراقيين التسعة والعشرين الذين اجتمعوا في دمشق ممثلين للعراق وان مؤتمر الصلح هو وحده الذى سيقرر مستقبل العراق بعد التحقق من رغبات الاهلين • فرد عليه الحسين قائلا : انه لاعلاقة له بمؤتمر الصلح وان علاقته منحصرة ببريطانيا وحدها وهو انما قام بالثورة وجازف بكل شيء وواجه الاخطار والكوارث اعتماداً على تلك العلاقة وثقة منه بشرف بريطانيا العظمى التي اشتهرت بالمحافظة على عهودها(١٠٥) •

وفي بيروت بدأت عرائض الاحتجاج تصل الى مقر البطريركيـة المارونية من كل مكان في لبنان معبرة عن رفض موقعيها لضم لبنـان الى دولة فيصل الجديدة دون استشارة أهله • وفي ١٢ آذار أعد مجلس ادارة

---

(١٠٤) زين نورالدين زين (المصدر السابق) ـ ص ١٥١ •

(١٠٥) سليمان موسى (المصدر السابق) ـ ص ٥٤٤ •

لبنان قراراً رفعه الى مؤتمر الصلح بواسطة الجنرال غورو احتج فيه على قرار المؤتمر السوري وقال ان المؤتمر ليس له حق في التدخل في شؤون لبنان وادارته • وفي ٢٢ آذار عقد اجتماع حاشد في بعبدا حضره أعضاء مجلس الادارة وجمهور من اعيان لبنان وممثلي طوائفه المسيحية وتم فيه اعلان استقلال لبنان ، ثم رُفع العلم اللبناني على سراي بعبدا فمرت به كتائب من الجيش اللبناني تؤدي له التحية[١٠٦] •

وحصل من جراء ذلك شيء من التوتر الطائفي بين المسلمين والمسيحيين في بيروت ، فقد أخذ خطباء المساجد يخطبون باسم الملك فيصل، فصدرت اليهم الاوامر من السلطة الفرنسية بأن يخطبوا باسم الخليفة العثماني محمد وحيد الدين فرفض الخطباء ذلك وانكروا تدخل السلطة في الشؤون الدينية ، وكان أشدهم في ذلك الشيخ محي الدين المكاوي خطيب جامع المجيدية ، فاعتقلته السلطة في ٥ نيسان وأبعدته الى جزيرة أرواد ، فثارت ثائرة المسلمين ، وخرجت مظاهرة في دمشق احتجاجاً على ابعاده • وأرسل الملك فيصل الى الجنرال غورو والجنرال اللنبي والحكومة الفرنسية يحتج فيها على ما أصاب الديانة الاسلامية من اهانة لتدخل السلطة العسكرية في الامور الدينية ومنع الخطب في الجوامع من الدعاء حسب رغبة السكان[١٠٧] •

اضطرت السلطة الفرنسية الى اطلاق سراح الشيخ محي الدين ، وأصدرت بياناً انكرت فيه أنها تتدخل في الامور الدينية ، وذكرت أن فرنسا تحترم جميع الاديان على السواء انما هي لاترضى ان يتخذ الدعاء باسم جلالة الملك فيصل حجة لاثارة الخلافات السياسية[١٠٨] •

---

(١٠٦) زين نور الدين زين (المصدر السابق) ـ ص ١٥٣ ـ ١٥ •
(١٠٧) خيرية قاسمية (المصدر السابق) ـ ص ١٩٠ •
(١٠٨) أمين سعيد (المصدر السابق) ـ ج٢ ص ١٤٢ •

الوزارة الركابية :

في ٩ آذار ـ أي في اليوم التالي لتتويج فيصل ـ صـــــدرت الارادة الملكية بتشكيل الوزارة السورية الاولى ، فكانت مؤلفة من رضا الركابي رئيساً ، وعلاء الدين الدروبي لرئاسة مجلس الشورى ، ورضا الصـــلح للداخلية ، وعبدالحميد القلطقجي للحربية ، وجلال الدين زهدي للحقانية، وسعيد الحسيني للخارجية ، وفارس الخوري للمالية ، وساطع الحصري للمعارف ، ويوسف الحكيم للنافعة .

كان معظم هؤلاء الوزراء من الكهول الميالين للاعتدال في السياسة ، ولهذا صار الوطنيون المتحمسون يتهمونها بالضعف وبقلة الاهتمام بالدفاع عن الوطن. وقد اشتد الانتقاد لها على أثر اعلان مقررات سان ريمو في ٢٥ نيسان ، وهي المقررات التي جعلت سوريا تحت انتداب فرنسا ، والعراق وفلسطين تحت انتداب بريطانيا . فقد ثارت ثائرة الاحزاب والجماهير على تلك المقررات ، واخذوا يتهجمـــون على الوزارة ، ووصفـــوها بأنهـا لاتشاركهم العزم على محاربة فرنسا حتى النهاية(١٠٩) .

كان يتزعم هذه المعارضة ضابط شاب في السادسة والثلاثين من عمره اسمه يوسف العظمة ، وكان يومذاك يتولى منصب مساعد وزير الحربية ، وهو برتبة مقدم ولكن فيصل قد منحه رتبة عقيد فخرية تقديرا له . وكان يؤيد هذا الضابط في المعارضة احسان الجابرى رئيس الديوان الملـــكي ، وساطع الحصري وزير المعارف.

كانت القوات التركية في تلك الايام تكيل الضربات القوية للفرنسيين في كليكيا حتى وصلت في زحفها الى مقربة من الحدود السورية وأخذت تهددها . وكان رأي الركابي أن يتعاون مع الفرنسيين للدفاع عن حدود

---

(١٠٩) خيرية قاسمية (المصدر السابق) ـ ص ١٧٨ .

سوريا الشمالية(١١٠) • ولكن يوسف العظمة كان يخالفه في هذا الرأي اذ كان يميل الى الاتفاق مع الاتراك ضد الفرنسيين • وقد حدثت في أحـد الايام مشادة بين الركابي ويوسف العظمة بحضور الملك ، فقد قال يوسف للملك : « لو سمحت جلالتك لامكننا أن نرمي الفرنسيين الى البحر بقدمي هذه » • فسأله الركابي عن مقدار القوة العسكرية التي يملكها لمحاربـة فرنسا ، فأجابه يوسف العظمة : ٤٠٠٠ جندي و ١٢ مدفعاً و٣٦ قنبلة • فرد عليه الركابي قائلا : « أخشى أن تثقب قدمك قبل أن تلقي الفرنسيين في البحر »(١١١) •

عقد خصوم الوزارة الركابية أخيرا اجتماعات سرية في بيت احسان الجابري قرروا فيها اسقاط الوزارة • وقد انحاز الملك الى جانبهم • وفـي ٢ أيار ١٩٢٠ ضجر الركابي من المؤامرة التي تحاك ضده فغادر مكتبه وذهب الى بيته عازماً على الاستقالة ، فأرسل الملك اليه احسان الجابري يطيـب خاطره ويوصيه بالتريث ، فأجابه الركابي : « لايسعني الصبر على ما أشاهده في العاصمة ، وفي المؤتمر السوري خاصة ، من تهور وافراط في المطاليب مما قد يؤدي الى فقد النظام والى الاضطراب على الحدود وينذر بسـوء المصير »(١١٢) • ثم كتب الركابي استقالته حيث قال فيها انه يستقيل بناءاً على اسباب صحية ، وناولها الى الجابري •

الوزارة الاتاسية :

في اليوم التالي لاستقالة الركابي كلف الملك فيصل هاشم الاتاسـي بتشكيل وزارة جديدة • فشكلها الأتاسي على النحو التالي : رضا الصلح لرئاسة مجلس الشورى ، وعلاء الدين الدروبي للداخلية ، وعبدالرحمن

(١١٠) سليمان موسى (المصدر السابق) ــ ص ٥٥٣ •
(١١١) خيرية قاسمية (المصدر السابق) ــ ص ١٧٨ ــ ١٧٩ •
(١١٢) يوسف الحكيم (المصدر السابق) ــ ص ١٥٧ •

الشهبندر للخارجية ، وبوسف العظمة للحربية ، وفارس الخوري للمالية، وجلال الدين زهدي للحقانية ، وساطع الحصري للمعارف ، ويوسف الحكيم للنافعة •

الملاحظ ان خمسة من اعضاء الوزارة الجديدة كانوا في الوزارة المستقيلة ، ولم تضم الوزارة الجديدة سوى وزيرين جديدين هما : يوسف العظمة وعبدالرحمن الشهبندر ، وكانا يتشابهان بكونهما شابين ومن أشد الناس حماساً واندفاعاً • ومما يجدر ذكره أن الملك كان قبل هذا يكره الشهبندر ويعتبره عدواً له وقال عنه ذات مرة : « انني لما عرفت الشهبندر احتقرت جميع أهل الشام ••• »[١١٣] • والظاهر ان الملك انما أدخله في الوزارة لكي يجتذبه اليه ويخفف من حماسه •

عندما مثلت الوزارة الاتاسية أمام المؤتمر السوري وألقت بيانها أعترض المؤتمر عليها لخلو البيان من التصريح عن الدفاع ووسائله• فاختلت الوزارة في غرفة جانبية ، ثم خرج الشهبندر بعدئذ الى المؤتمر وقال : « تسألوننا ايها السادة عن الدفاع ، ونحن نقول لكم اننا ماخُلقنا الا من الدفاع والى الدفاع » • فصفق اعضاء المؤتمر لهذا التصريح ومنحوا الوزارة ثقتهم[١١٤] •

أخذت الوزارة الاتاسية تعمل بكل جهدها في اعداد وسائل الدفاع عن البلاد ، وكان أول ما قامت به في هذا الشأن انها أعادت النظر في قانون التجنيد الاجباري الذى أهملته الوزارة السابقة ، وجعلت مدة الخدمة سنة واحدة بدلا من ستة أشهر ، وكذلك أصدرت سندات قرض وطني بمبلغ نصف مليون دينار بفائدة ستة بالمائة مقابل رهن مليون دونم من اراضي الدولة • وبدأت مناشير الدعاية لهذا القرض توزع على الناس وهي

---

(١١٣) يوسف ايبش (رحلات الامام محمد رشيد رضا) – بيروت ١٩٧١ – ص ٣٠٠ •

(١١٤) محمد طاهر العمري (المصدر السابق) – ج٣، ص ٢١٥ •

تتضمن العبارات التالية : « هل أنت شرقي ••••؟ هل أنت عربي ••••؟ هل تريد الحياة الحرة ••••؟ هل تريد الاستقلال التام ••••؟ اشترك بالقرض السوري •• لاحياة الا بالاستقلال ولا استقلال الا بالمال »[115] •

وقد بذل يوسف العظمة جهداً كبيراً في اعداد الجيش السوري وتسليحه • ثم ذهب الى حلب بحجة النظر في تعزيز وسائل الدفاع عن الحدود الشمالية ، غير أنه كان في الحقيقة يقصد التفاهم مع مصطفى كمال باشا ، وقد اتصل هناك بمندوبين عنه وباحثهم في انشاء تعاون عسكري بين العرب والاتراك • ويبدو ان الانكليز علموا بهذا الاتصال ، فقد صرح شرشل في مجلس العموم البريطاني قائلا : ان العرب يحاولون الآن لاول مرة التفاهم مع الاتراك لايجاد قضية مشتركة بينهما ، وذلك بعدما كانت سياستنا قد نجحت في التفريق بينهما[116] •

أدرك الفرنسيون انهم في هذه الظروف غير قادرين على الاحتفاظ بسوريا وكليكيا معاً ، ولا بد لهم من أن يتخلو عن احداهما ليحافظوا على الاخرى • وقد صرح أحد مفكريهم السياسيين قائلا : « لو كان يتحتم على فرنسا أن تتخذ قرارها مستندة على المنافع والحسابات وحدها لوجب عليها أن ترجح كليكيا على سوريا ، ولكن لفرنسا تقاليد وروابط معنوية كثيرة تربطها بسوريا منذ قرون عديدة ، فعليها أذن ان تتمسك بتلك الروابط والتقاليد ، وان تتنازل عن كليكيا في سبيل الاحتفاظ بسوريا اذا اقتضى الحال »[117] •

ولهذا عقد الجنرال غورو هدنة مع مصطفى كمال باشا في ٣٠ أيار

---

(١١٥) خيرية قاسمية (المصدر السابق) ــ ص ١٧٩ •

(١١٦) المصدر السابق ــ ص ١٨٦ •

(١١٧) ساطع الحصري (ميسلون) ــ بيروت ــ ص ٨ •

١٩٢٠ ، ثم أخذ يسحب قواته من كليكيا ويحشدها تجاه حكومة دمشق(١١٨) .

مذبحة في جبل عامل :

يقع جبل عامل في جنوب لبنان يحده البحر الابيض غرباً ومرتفعات الجولان شرقاً ، ومعظم سكانه من الشيعة الاثنى عشرية ويطلق عليهم اسم « المتاولة » ومعناه الذين يتولون علياً . وكان الجبل يضم بالاضافة الى الشيعة أقلية مسيحية اكثرها من الموارنة . وقد نشأت بين الفريقين في تلك الفترة احتكاكات طائفية تهدأ تارة وتثور تارة أخرى . يقول محمد عزة دروزة : « لقد كانت الدعايات والتحريضات قد أدت في منطقتي الجولان وجبل عامل المتجاورتين ... الى بعض الاحتكاكات العدائية بين المسلمين والنصارى فيهما ، فلم تلبث بعد اعلان الاستقلال والملكية أن أخذت تتسع ويبدو على مسرحها بعض صور حرب العصابات من الجانبين : نصرانية مسلحة بالسلاح الافرنسي ومدبرة باليد الافرنسية تحت ستار الدفاع عن النفس ورد العدوان ، واسلامية مسلحة بالسلاح العربي ومدبرة باليد العربية بقصد احباط دسائس الفرنسيين وتحريضاتهم وعرقلة أهدافهم ... »(١١٩) .

وفي ٢٤ نيسان ١٩٢٠ عقد الشيعة مؤتمراً لهم في وادي الحجير الواقع على بعد خمسة عشر ميلا من جنوب النبطية ، حضره علماء الشيعة وأعيانها وعلى رأسهم كامل بك الاسعد والمجتهد المعروف السيد عبدالحسين شرف الدين ، وقرروا بالاجماع الانضمام الى حكومة فيصل العربية ورفض الخضوع للحكم الفرنسي(١٢٠) .

(١١٨) سليمان موسى (المصدر السابق) ـ ص ٥٥٥ .
(١١٩) محمد عزة دروزة (الحركة العربية الحديثة) ـ صيدا ١٩٥٠ ـ ج١ ، ص ١٢٤ .
(١٢٠) محمد جابر آل صفا (تاريخ جبل عامل) ـ بيروت ـ ص ٢٢٦ .

أدى هذا المؤتمر الى تفاقم التوتر الطائفي في المنطقة ، وبدأت الاشاعات تنتشر بين السكان تثير كل طائفة منهم على الاخرى • حدثني أحد المسنين من العامليين قائلا : ان اشاعة انتشرت بين الشيعة مفادها أن النصارى أحرقوا القرآن كما افتضوا بكارة سبع فتيات شيعيات • وهو يعزو هذه الاشاعة الى دسائس الفرنسيين ، وكانت نتيجتها أن ثارت ثائرة الشيعة فهاجموا قرية مسيحية قريبة من الحدود الفلسطينية تدعى « عين ابل » ، وقتلوا عدداً كبيراً من سكانها •

يتهم النصارى أحد علماء الشيعة الذين حضروا مؤتمر الحجير بأنه كان السبب في وقوع المذبحة اذ هو ـ على حد قولهم ـ استخار الله بالمسبحة على ذبح النصارى(١٢١) • ولكن الشيعة يعزون السبب الى الفرنسيين ، يقول أحد مؤلفيهم في ذلك : ان الفرنسيين سلحوا النصارى بالبنادق واغروهم بالتحرش بجيرانهم ، وأذكوا فيهم نار التعصب ، وأخذ هؤلاء النصارى يعتدون على ابناء السبيل والفقراء من الشيعة مما جعل الشيعة يردون عليهم بالمثل ، فوقعت الفاجعة التي عكرت صفو الولاء بين الطائفتين وأسف له العقلاء(١٢٢) •

حين بلغ الجنرال غورو خبر المذبحة صمم على الانتقام من الشيعة • وفي ٥ أيار ١٩٢٠ تحركت من بيروت حملة فرنسية مؤلفة من أربعة آلاف جندي بقيادة الكولونيل نياجر • وسارت الحملة في طريق الساحل حتى وصلت الى صور ، وهناك أحرقت بيت المجتهد عبدالحسين شرف‌الدين، وكانت فيه مكتبة نفيسة ، ثم تحولت بعدئذ نحو الداخل ، وشرعت تحرق الكثير من القرى والضياع ، وأعدمت نحو ثلاثين رجلا بتهمة مساهمتهم في مذبحة النصارى •

---

(١٢١) امين الريحاني (المصدر السابق) ـ ص ٥٣ •
(١٢٢) محمد جابر آل صفا (المصدر السابق) ـ ص ٢٢٧ •

ولما تمت السيطرة على جبل عامل كله دعت السلطة الفرنسية عدداً كبيراً من أعيان الشيعة والدروز والمسيحيين الى اجتماع في صيدا • وانعقد الاجتماع في ٥ حزيران ، ووقف الكولونيل نياجر فألقى خطاباً شديد اللهجة موجهاً الى الشيعة وقرأ الاحكام القاسية التي صدرت عليهم حيث حكم بالاعدام على بعضهم وبالنفي المؤبد على آخرين منهم ، وكان من بين المنفيين عبدالحسين شرف‌الدين وكامل الاسعد وراشد عسيران ومحمد سعيد البزي • وقال نياجر في ختام خطابه ان الحكومة الفرنسية يسوءها الحكم على اعيان الشيعة بهذه الاحكام الصارمة ولكنهم هم الجناة على انفسهم •

ثم ذكر نياجر شروطاً قال ان الحملة لن تترك المنطقة الا بعد تنفيذها، وهي : دفع غرامة قدرها مائة ألف جنيه مصري ، واعادة المنهوبات إلى أهلها ، واعطاء تعهد خطي بالمحافظة على المسيحيين ، وتسليم الاسلحة ، وتسليم المجرمين ، وتحمل المسؤولية عن كل حادثة جديدة • فوافق الشيعة على هذه الشروط ما عدا الاخير منها حيث قالوا بأنهم لايستطيعون ان يتحملوا المسؤولية عن كل حادثة جديدة لانهم غير قادرين ان يكونوا في كل مكان في وقت واحد ، غير أنهم تعهدوا أن يبذلوا جهدهم بكل قواهم لمنع الحوادث •

وقد تألفت لجنة لجمع الغرامة المفروضة • واستغل أعضاء اللجنة الفرصة فأخذوا يجمعون لانفسهم أكثر مما جمعوه للمتضررين • يقول أمين الريحاني نقلا عن بعض المطلعين : ان اعضاء اللجنة جبوا بمهارتهم ٤٨٥ ألف ليرة ، فدفعوا للمتضررين ٥٠ ألف ليرة ، ووضعوا الباقي في جيوبهم(١٢٣) •

وعلى أي حال فقد حل البؤس والخراب بجبل عامل على أثر تلك الواقعة • واضطر الكثير من العامليين الى بيع ما يملكون من أجل دفع

---

(١٢٣) أمين الريحاني (المصدر السابق) ـ ص ٢٨ •

الغرامه • وقد حاول الملك فيصل التخفيف عنهم فأرسل احتجاجاً الى الجنرال غورو ، كما أرسل الى لويد جورج يطلب منه التوسط باسم الانسانية ، وأشار الى ان تسليح الفرنسيين للمسيحيين يؤدي الى تعصب ديني ويقضي على جهوده الرامية الى ايجاد قومية اسلامية مسيحية موحدة(١٢٤) •

انذار غورو :

في ١٠ تموز ١٩٢٠ حدثت في بيروت حادثة أدت الى غضب غورو وازدياد حنقه على حكومة دمشق ، خلاصتها أن أشخاصاً جاؤوا من دمشق واتصلوا سراً ببعض أعضاء مجلس ادارة لبنان ، وقدموا لهم رشوة كبيرة قدرتها المصادر الفرنسية باثنين وأربعين ألف جنيه ، وتمكنوا بهذه الرشوة أن يقنعوا سبعة أعضاء منهم بحيث جعلوهم يوقعون على عريضة يطالبون فيها باستقلال لبنان وباقامة تعاون أقتصادي بينه وبين حكومة دمشق • وقد قرر هؤلاء الاعضاء السبعة أن يسافروا الى باريس لتقديم العريضة الى مؤتمر الصلح ، ولكن السلطة الفرنسية كانت على علم مسبق بما قرروه عن طريق جاسوس كان مدسوساً بينهم ، فألقت القبض عليهم عندما كانوا يغادرون بيروت ، ثم حكمت عليهم بالنفي وبغرامة جسيمة •

كان فيصل في ذلك الحين ينوي السفر الى فرنسا لاعادة النظر في المعاهدة ، وقد أرسل نوري السعيد الى بيروت لمفاتحة غورو في أمر هذا السفر • وصادف وصول نوري السعيد الى بيروت في نفس الوقت الذى تم فيه القاء القبض على الاعضاء السبعة • ولما بدأ نوري الكلام مع غورو قال له غورو : ان لديه بعض المطاليب لتقديمها الى فيصل ، وانه لن يوافق على سفر فيصل الا اذا قبل بتلك المطاليب • ثم قدم غورو خلاصة لتلك

---

(١٢٤) خيرية قاسمية (المصدر السابق) ـ ص ١٩٣ •

المطاليب وهي : (١) وضع سكة حديد رياق حلب تحت تصرف الجيش الفرنسي ، (٢) الغاء التجنيد الاجباري وتسريح المجندين ، (٣) قبول الانتداب الفرنسي بلا قيد او شرط ، (٤) معاقبة المتهمين بمعاداة فرنسا ، (٥) قبول أوراق النقد التي أصدرها الفرنسيون .

عاد نوري السعيد الى الملك فيصل يخبره بالامر ، وفي ١٤ تموز وصل الى دمشق الكولونيل نياجر وهو يحمل أنذاراً رسمياً يتضمن تلك المطاليب الخمسة ومعها مهلة أمدها أربعة ايام تنتهي في ليلة ١٨-١٩ تموز ، فاذا لم تُقبل المطاليب خلال تلك المهلة فان الحكومة الفرنسية ستكون مطلقة التصرف في عملها تجاه حكومة فيصل .

كان لانذار غورو وقع شديد على فيصل ووزرائه ، واجتمعوا يتدارسون الموقف للنظر في حل له وكيف الخروج منه ، وكان الوجوم سائداً عليهم جميعاً ماعدا يوسف العظمة اذ كان متفائلا . يقول ساطع الحصري : « كان يوسف العظمة يعمل بنشاط ، ويظهر تفاؤلا كبيراً في جميع الاعمال ، حتى أنه اراد ان يشرع باصدار بلاغات رسمية عن الحركات العسكرية ، غير اننا اعترضنا عليه وأوصيناه بالتريث لكيلا يظهر للعالم بأننا نحن البادئون بالعدوان ... »[١٢٥] .

أستدعي ياسين الهاشمي للاستفادة من خبرته العسكرية وعُين قائداً لجبهة مجدل عنجر التي كانت أهم الجبهات لوقوعها في طريق دمشق بيروت . يقول الحصري انه زار الهاشمي في بيته فقال الهاشمي له بصراحة تامة وبلهجة الحازم المتأكد : « ان الجيش الموجود لايستطيع أن يدافع عن البلاد ... انه لايستطيع أن يصمد أمام العدو أكثر من ساعتين على أعظم تقدير » . وأضاف الهاشمي الى ذلك يقول : « ان المدافع التي مرت

---

(١٢٥) ساطع الحصري (المصدر السابق) ـ ص ١٢١ .

أمامكم في الاستعراضات ليس لها الا عدد قليل جداً من القذائف ، وهي لاتكفي لحرب تستمر أكثر من ساعة واحدة • واستطيع ان اقول انالجيش اذا اشتبك في حرب نظامية يبقى بعد ساعتين بلا عتاد »(١٢٦) •

خرج الحصري من بيت الهاشمي وهو في اضطراب وحيرة شديدة ، وذهب الى الوزراء واخبرهم بما سمع من الهاشمي • وكان الملك قد بلغه رأي الهاشمي فاستدعى اليه الوزراء ، وتم عقد جلسة منهم بحضوره، وبدأوا يتدارسون الوضع العسكري في ضوء ما ابداه الهاشمي • وحين سأل الوزراء يوسف العظمة عن مقدار الاسلحة والاعتدة المتوافرة لدى الجيش أجابهم : « لدى الجيش من العتاد ما يكفي لمقاومة الفرنسيين مدة من الزمن وربما لدحرهم على اعقابهم اذا أداروا ظهورهم في أول ملحمة »• ولما طلب الوزراء منه تقديم بيان خطي بذلك أجابهم غاضبا : « الا تثقون بكلامي وأنا زميلكم المسؤول عن امور الجيش »(١٢٧) •

استدعى الملك فيصل كبار القادة العسكريين لابداء رأيهم في الامر • وفي الساعة الثالثة من عصر ١٦ تموز حضر القادة كما حضر الهاشمي ، وأخذوا يدلون بآرائهم كل باسلوبه وحسب اجتهاده • فالح الملك عليهم أن يقدموا رأياً موحداً حاسماً • فانسحب القادة الى غرفة جانبية واختلوا فيها ، ثم خرجوا بعد قليل وهم يحملون رأياً موحداً خلاصته : أنه اذا كانت الحرب غير جدية فان في مقدور الجيش ان يقاوم بضع ساعات ، اما اذا حمي وطيس القتال فان مقاومة الجيش لاتدوم أكثر من خمس دقائق(١٢٨) •

---

(١٢٦) المصدر السابق ـ ص ١٢٢ •

(١٢٧) يوسف الحكيم (المصدر السابق ـ ص ١٨١ •

(١٢٨) امين سعيد (المصدر السابق) ـ ج٢ ، ص ١٨٠ •

وعند هذا التفت الملك نحو الهاشمي يسأله عن رأيه ، فتكلم الهاشمي موجهاً انتقاده الى يوسف العظمة وأبدى رأيه بأن الحرب لاضرورة لها ، ثم قال : لو كان في الامكان صد الفرنسيين على خط دمشق فما العمل لو انقضت على الجيش العربي الفرقة الفرنسية من حلب • فاعترض عليه بعض القادة بقولهم : « المسألة مسألة شرف يا باشا » • فرد عليهم : «الشرف يعود للوزراء لا للجنود »(١٢٩) •

انتهى الاجتماع بلا نتيجة حاسمة ، واراد الملك أن يقف على رأي الانكليز قبل أن يبت في الامر ، فأرسل نوري السعيد وعادل أرسلان الى حيفا لاستشارة الجنرال اللنبي • فعاد الرجلان من حيفا يقولان بأن اللنبي أشار عليهما بقبول الانذار سريعاً بلا تردد ، وقد كتب اللنبي الى فيصل كتاباً أصر فيه على ضرورة قبول الانذار وذلك تفويتاً للغرض الذى كان غورو يسعى اليه وهو دخول دمشق دخول الغزاة الفاتحين(١٣٠) •

استقر رأي الملك ووزرائه على قبول الانذار ، ولكن مشكلة أخرى كانت تواجههم هي أن الجنرال غورو ألمح في كتابه المرفق بالانذار الى ضرورة تبديل الوزارة اذ وصفها بأنها كانت قد بذلت جهدها في جر البلاد الى الحرب وأن بقاءها في الحكم ينطوي على معنى العداء لفرنسا •

وقد اتجه فكر الملك وبعض وزرائه الى تكليف رضا الركابي بتأليف وزارة جديدة ، ولكن الركابي حين حضر أبدى أعتذاره وقال موجهاً كلامه للملك : « طالما قلت لك يا سيدي أن هؤلاء الاولاد سيهورونا وعليهم أن يتحملوا تبعة ما بدأوه » • وكان الركابي يشير بنظراته الى يوسف العظمة(١٣١) •

---

(١٢٩) جريدة (العراق) ـ في عددها الصادر في ١٩ نيسان ١٩٣٠ •
(١٣٠) احسان الهندي (معركة ميسلون) ـ دمشق ١٩٦٧ ـ ص ٥٥ •
(١٣١) خيرية قاسمية (المصدر السابق) ـ ص ٢٠١ •

وبعد أن يئس الملك من الركابي بتأليف الوزارة اتجه نحو ياسين الهاشمي ، ولكن الهاشمي اعتذر ايضا • وحدثت آنذاك مشادة عنيفة بين يوسف العظمة والهاشمي • فقد كان يوسف العظمة يفسر موقف الهاشمي بالغيرة منه[(١٣٢)] • وأخذ يوجه الى الهاشمي كلاماً قاسياً حيث قال له : « أنت يا باشا بلبلت الافكار وفضحت أسرار الجيش بما نقلته الى بعض الوزراء عن عتاده ، مع أنك أنت المسؤول عن تموينه فلا يليق بك التهرب من الحكم بعد أن أوصلتنا ببياناتك الى الازمة الحاضرة » • فرد عليه الهاشمي قائلا : « اني أوقفت الوزارة على حقيقة ميرة الجيش لكي لاتنخدع بأقوالك وتسوق البلاد الى حرب لا أمل لها في كسبها • أما مسؤولية التقصير فتقع على عاتق الذين خلفوني في رئاسة الميرة وتولوا شؤون الدفاع » • وهنا تدخل الملك وقال موجهاً كلامه الى الهاشمي : « ولكنك يا ياسين كنت رئيساً للميرة مدة عشرة أشهر ، فلماذا لم تعمل على تدارك الاسلحة اللازمة ؟! »[(١٣٣)] •

وهنا تقدم يوسف العظمة بحماسته المعروفة وأدى التحية العسكرية للملك وقال : « اني مستعد ياصاحب الجلالة للدفاع عن الوطن بكل قواي حتى النفس الاخير اذا أوليتموني ثقتكم » • فشكره الملك ودعا له بالتوفيق وعينه نائباً للقائد العام للقوات المسلحة أي نائباً للملك الذي هو القائد العام[(١٣٤)] •

وعاد يوسف العظمة الى الكلام فخاطب الهاشمي قائلا : « يا باشا تريد ان تجعلنا سلماً حتى تصعد علينا ثم تكون رئيس الوزراء » •

---

(١٣٢) أحمد قدري (المصدر السابق ـ ص ٢٤٠ •

(١٣٣) يوسف الحكيم (المصدر السابق) ـ ص ١٩٢ •

(١٣٤) المصدر السابق ـ ص ١٩٣ •

فرد عليه الهاشمي بشدة قائلا : « اذا احتجت الى سلّم فاني أبحث عن سلم متين »[١٣٥] .

عاد الملك ووزراؤه بعد ذلك الى المداولة في أمر الانذار فقر قرارهم بالاجماع على قبوله ، ووقع الملك برقية بهذا المعنى وسلمها الى الكولونيل تولا معاون ضابط الارتباط الفرنسي ، فأبرق تولا بها الى الجنرال غورو .

انتفاضة الجماهير .

في الوقت الذى كان فيه المسؤولون يتدارسون الموقف على النحو الذى ذكرناه آنفاً ، كانت الجماهير ومعها المؤتمر السوري في هياج شديد، وخرجت المظاهرات الى الشارع وهي تنادي : « الى الحرب الى الحرب !» وأصبح الملك فيصل بين هؤلاء واولئك في مأزق عجيب ! .

في ١٥ تموز – أي في اليوم التالي لورود الانذار – عقد المؤتمر السوري جلسة للنظر في الامر ، وكانت جلسة حماسية تعاقب فيها الخطباء واحداً بعد الآخر وكلهم ينادون بالحرب ويوجهون التقريع الى الوزارة الاتاسية متهمين اياها بالضعف والميل الى الاستسلام . وكانت الجماهير في أثناء ذلك قد احاطوا بمقر المؤتمر وهم يهتفون له ، واندفع أفراد منهم فاقتحموا الابواب ودخلوا الى القاعة صارخين يطالبون بالحرب . وعند هذا تقدم خمسة واربعون من أعضاء المؤتمر باقتراح مفاده أن المؤتمر السورى الذي هو ممثل للامة السورية لايعترف بأية معاهدة او اتفاقية تتعلق بمصير البلاد ما لم يصادق عليها المؤتمر . وقد وافق المؤتمر على هذا الاقتراح وقرروا نشره على الجمهور .

استدعى الملك فيصل اعضاء المؤتمر الى اجتماع في حديقة قصره في الساعة الرابعة والنصف من عصر ١٧ تموز ، وقد نصب سرادق في الحديقة

---

(١٣٥) جريدة (العراق) – في عددها الصادر في ١٩ نيسان ١٩٣٠ .

لهذا الغرض ، وحين وصل الاعضاء قابلهم الملك ببشاشـــة وأخذ يحاول اقناعهم حيث شرح لهم كيف أن الجيش السوري لايكفي للدفاع تجـاه القوات الفرنسية المجهزة بأحدث الآلات الحربية ، وذكر أن الواجب يقضي عليهم بمعالجة الامور بالتؤدة والحكمة عن طريق المفاوضات السلمية مع الجنرال غورو • وقد كان بين الحاضرين فريق كبير يميلون الى مثل رأي الملك في المسالة ولكنهم لم يجرأوا على الجهر برأيهم وظلوا ساكتين ، فأخذ المتحمسون زمام الكلام وصاروا يجادلون الملك بقوة ، وخاطبه أحدهم بلهجة شديدة غير أن الملك كتم غيظه ولم يرد عليه •

وفي ختام الاجتماع عندما يئس الملك من اقناعهم قدم لهم اقتراحا ظنه نافعاً هو أن يكتب كل واحد منهم عند عودته الى بيته مكتوباً خاصا يبدي فيه رأيه كما هو معتقد به أمام الله ، ثم يرسله الى الملك • ووعدهم الملك أنه سيعمل حسبما تؤدي اليه اكثرية الآراء التي تصله(١٣٦) • لقد كان الملك يظن ان الآراء التي تُعطى بهذه الصورة سوف تكون واقعية لايؤثر فيها ايحاء او ارهاب(١٣٧) • ولكن اعضاء المؤتمر أدركوا ما ينطوي عليه اقتراح الملك من خطورة ، فتفاهموا فيما بينهم على رفضه •

وفي صباح اليوم التالي ـ أي ١٨ تموز ـ عقد المؤتمر السورى جلسة فوق العادة ، وجاءت المظاهرات اليه ، وكان المتظاهرون يحملون الخناجر والسيوف وينشدون الاناشيد الحماسية ، ثم صاروا يهتفون بسقوط الجبناء ذوي النفوس الضعيفة • وفي عصر ذلك اليوم عقد المؤتمر جلسة أخرى قرر فيها استدعاء الوزارة الاتاسية للاستفسار منها عن الخطة التى قررت السير عليها في مواجهة الانذار الذي كان أمده ينتهي في منتصف تلـك الليلة(١٣٨) •

---

(١٣٦) محمد طاهر العمري (المصدر السابق) ـ ج٣ ص ٢٤٦ •

(١٣٧) أمين سعيد (المصدر السابق) ـ ج٢ ص ١٨٥ •

(١٣٨) رفيق التميمي (الايام السود) ـ بغداد ١٩٣٣ ـ ص ١٣ •

وفي صباح ١٩ تموز انتشر بين الناس خبر قبول الوزارة للانذار ، فانتفضت دمشق لهذا الخبر ، واحتشد الالوف منهـــم في ساحة المرجة يهتفون ، وقام الشيخ كامل القصاب خطيباً فحرضهم على امتشاق الحسام للذود عن الوطن المهدد وندد برجال الحكومة وهددهم • وأخذ الخطباء يتعاقبون واحداً بعد الآخر يحثون الناس على المقاومة مهما كلفهـــم الامـــر (١٣٩) •

وفي الوقت نفسه عقد المؤتمر السورى جلســـة لمواجهة الوزارة والاستفسار منها عن خطتها • ولكن رئيس المؤتمر الشيخ رشيد رضا أعلن أن رئيس الوزارة ابلغه بعدم قدرتها على الحضور امام المؤتمر لانهـــا في انتظار عودة الرسول الذى ذهب الى بيروت للمفاوضة • وهنا قام أحـد الاعضاء وتقدم باقتراح مفاده : أن الحكومة تصبح غير شرعية في حـالة تصديقها على صك يخالف قرار المؤتمر ، وان الوزراء يتحملون تبعة ذلك تجاه الوطن • وقد وافق اعضاء المؤتمر بالاجماع على هذا الاقتراح وأوعزوا بطبعه ونشره في جريدة « العاصمة » ، كما اختاروا من بينهم وفداً برئاسة رشيد رضا لمقابلة الملك وتقديم الاقتراح اليه •

تصاعد الانتفاضة :

بيما كانت الجماهير والمؤتمر السوري في أوج الحماس وصلت برقية من غورو يقول فيها أنه لايكتفي بقبول الانذار بل يريد تنفيذ شروطه حالاً ، وهو يمدد مهلة الانذار يومين آخرين حيث تنتهي في منتصف ليلة ٢٠ـ٢١ تمـــوز •

كانت تلك صدمة حديدة للملك ووزرائه • وفي مساء ذلك اليوم بينما كان الملك غارقاً في حيرته لايدري ماذا يصنع جاءه طلب من وفد المؤتمـر

(١٣٩) المصدر السابق ـ ص ١٤ •

يريدون مقابلته . ولما أذن لهم ودخلوا عليه جرت بينه وبينهم مناقشة حادة ، ولم يملك الملك أعصابه فقال لهم غاضباً : « من أنتم ..؟ أنا خلقت سوريا ...! ».. فرد عليه رشيد رضا قائلا : « أأنت خلقت سوريا ؟! لقد خُلقت سوريا قبل أن تُخلق أنت ! »[١٤٠] .

قرر الملك تعطيل جلسات المؤتمر السوري لمدة شهرين . وفي صباح اليوم التالي ذهب وزير الحربية يوسف العظمة الى المؤتمر وقرأ عليه قرار التعطيل ، فحاول بعض الاعضاء الصعود على منصة الخطابة للاحتجاج على ذلك ، ولكن وزير الحربية صرخ بهم مهدداً وأشار اليهم بالانصراف، فانصرفوا[١٤١] .

وفي عصر ٢٠ تموز اجتمع الوزراء بحضور الملك وقرروا الاستجابة لانذار غورو الاخير اى تنفيذ شروطه حالا بما فيها تسريح الجيش . وتسلم الكولونيل تولا القرار ثم أبرق به الى الجنرال غورو في الساعة السابعة والنصف مساءاً .

لم يكد الخبر ينتشر بين الناس في صباح اليوم التالي حتى انطلقت المظاهرات في الشوارع وهي تنادي بالويل والثبور ، وكان على رأسها الشيخ كامل القصاب . وأخذ فريق من المتظاهرين يهتفون بسقوط الوزارة وباحالتها الى المحكمة العليا بتهمة الخيانة الوطنية[١٤٢] ، كما أخذ فريق آخر يهتف ضد الملك مطالباً بسقوطه مع الوزارة[١٤٣] . وانتشرت في بعض الاوساط فكرة تنحية الملك فيصل ومبايعة الامير زيد مكانه[١٤٤] .

ووقعت آنذاك مذبحة قرب قلعة دمشق كان سببها أن بعض الجنود

---

(١٤٠) خيرية قاسمية (المصدر السابق) ــ ص ٢٠٢ .
(١٤١) احسان الهندي (المصدر السابق) ــ ص ٥٨ ــ ٥٩ .
(١٤٢) المصدر السابق ــ ص ٥٩ .
(١٤٣) ساطع الحصري (المصدر السابق) ــ ص ١٢٧ .
(١٤٤) يوسف الحكيم (المصدر السابق) ــ ص ١٩٣ .

الذين سرحوا من الجيش انطلقوا بتحريض من بعض زعماء الاحـــزاب يريدون الهجوم على القلعة والاستيلاء على السلاح المخزون فيها من أجل الدفاع عن الوطن ، وكان في مقدمتهم عثمان قاسم من أعضاء « العـــربية الفتاة » اذ كان يطلق الرصاص من مسدسه في الهواء تشجيعاً لهم(١٤٥) . وقد انضم اليهم الكثير من الرعاع فكسروا أبواب السجن في القلعة ، وبدأ النهب ينتشر في الاسواق القريبة . وأسرع الامير زيد ومعه مدير الامن طه الهاشمي على رأس قوة مسلحة بالرشاشات ، فأطلقـــوا النار على المتظاهرين ، فسقط منهم عدد كبير من القتلى والجرحى(١٤٦) .

ويحدثنا طه الهاشمي في مذكراته عن تلك الواقعة فيقول ما نصه : « ... خرج عدة جنود من ثكنة البرامكة شاهرين الســـلاح بدعوى ان الحكومة استسلمت للفرنسيين . مرّوا بشارع النصر ومروا بحرس الموقع فبدلا من أن يصدوهم عن عملهم التحقوا بهم . شوّقهم المشاغبون فزاد التجمهر . هجموا على القلعة . دافع الدرك . هجموا على مستـــودع السلاح . صادروه وأخرجوا المساجين . بدأ اطلاق الرصاص في البلدة واستمر الى منتصف الليل . نهبت بعض الدكاكين . قُتل ٢٥ وجُـــرح ٣٥ شخصاً »(١٤٧) .

وبينما كانت هذه المظاهرة الدامية تجري قرب القلعة كانت هنـــاك مظاهرة أخرى تقترب من قصر الملك هاتفة هائجة ، وتقدم وفد منها يمثل الاحزاب الوطنية طالباً مقابلة الملك . وكان الملك في تلك الساعة لايزال مجتمعاً مع وزرائه عقب الانتهاء من قبول انذار غورو الاخير . فاذن الملك

---

(١٤٥) أحمد قدري (المصدر السابق) ــ ص ٢٤٨ .
(١٤٦) سليمان موسى (المصدر السابق) ــ ص ٥٦٣ .
(١٤٧) خلدون ساطع الحصري (مذكرات طه الهاشمي)ــ بيروت ١٩٦٧ــ ج١ ص ٦١ ــ ٦٢ .

للوفد بمقابلته وانسحب الوزراء الى غرفة مجاورة • وكانت مقابلة الوفد للملك لاتخلو من غلظة وجرأة مما أثار غضب الملك بحيث لم يستطع السيطرة على أعصابه •

اختلفت الروايات في وصف تلك المقابلة وما جرى فيها • يقول يوسف الحكيم ـ وهو كان من جملة الوزراء الذين انسحبوا الى الغرفة المجاورة ـ ان أحد أعضاء الوفد دفعته الحماقة الى مخاطبة الملك بقوله : « يا صاحب الجلالة ، ان الامة لن ترضى عن التفاهم مع الفرنسيين وستحاسب المسؤولين عنه حساباً قاسياً » ، فغضب الملك من هذا القول وقال بصوت عالي سمعه الوزراء في الغرفة المجاورة : « أنا لا أُهدَّد ! أنا اقدر منكم على خدمة بلادي التي هي بلادكم ! أتريدون الحرب مع دولة قوية وليس لديكم قوة تقف في وجهها »(١٤٨) •

وهناك رواية أخرى يرويها خيرالدين الزركلي هي ان الوفد ألح للملك بوجوب مغادرة البلاد ، فصرخ الملك في وجوههم قائلا : « لقد دخلت البلاد فاتحاً ولن أخرج منها الا بالقوة • فاذا كانت لديكم القوة الكافية لاخراجي افعلوا ذلك ، ودمي ودماؤكم في الشارع »(١٤٩) •

وعلى أثر مغادرة الوفد للقصر بلغ الملك ان المتظاهرين قادمون نحو القصر وهم يهتفون بسقوطه • فأبدى اشارة خفية الى كبير حجابه ، وهو رجل حجازي أسود اللون ، فأسرعت ثلة من فرسان البدو يبلغ عددهم المائتين بالخروج الى الشارع ، وأخذوا يصنولون ويجولون على طول الشارع الكبير الممتد بين القصر وساحة المرجة وهم يهزجون(١٥٠) •

---

(١٤٨) يوسف الحكيم (المصدر السابق) ـ ص ١٩٣ •

(١٤٩) نقلا عن : أنيس صائغ (الهاشميون والثورة العربية الكبرى) ـ بيروت ١٩٦٦ ـ ص ١٥٣ •

(١٥٠) يوسف الحكيم (المصدر السابق) ـ ص ١٩٣ ـ ١٩٤ •

يقول ساطع الحصري : « بقينا في القصر الى ما بعد منتصف الليل نسعى لتهدئة أعصاب الملك من جهة ، واتخاذ التدابير اللازمة لتسكين هياج الجماهير من جهة أخرى • ولم أعد الى الدار الا قبيل الفجر • واستلقيت على الفراش وأنا في غاية التعب »(١٥١) •

التحول الى الحرب :

أصبحت دمشق في ٢١ تموز هادئة بعد تلك الليلة الليلاء التي قضتها ، ولكن سرعان ما ورد خبر مفاجيء الى الملك هو أن القوات الفرنسية تزحف باتجاه دمشق • فذهل الملك من ذلك واستدعى اليه ضابط الارتباط الفرنسي الكولونيل كوس ليستفسر منه عن جلية الخبر • وأظهر كوس حيرة شديدة ووعد بالسفر حالا للتحقيق في الامر • ثم أنطلق خارجاً • وفي عصر ذلك اليوم عاد كوس ليقول ان سبب زحف القوات الفرنسية هو أن برقية قبول الانذار التي أرسلها الملك بالامس لم تصل الى الجنرال غورو في الوقت المحدد بل تأخرت نصف ساعة من جراء قطع العصابات خطوط التلغراف • واقترح كوس ايفاد أحد الوزراء الى غورو للتفاهم معه •

وقع الاختيار على ساطع الحصري للسفر الى عالية للتفاهم مع غورو• وركب الحصري سيارة مكشوفة يصحبه مرافق الملك جميل الالشي والكولونيل تولا • وكان الطريق مزدحماً بالسيارات وقوافل البغال والاباعر وبقطعات الجنود • ولم يصل الحصري الى عالية الا في صباح اليوم التالي — أي في ٢٢ تموز — وقد جرت بينه وبين غورو محاورة طويلة ، وتبين للحصري أن غورو مصمم على احتلال سوريا بأية حجة وعلى أي حال • فقد قال غورو للحصري : « اننا لم نعد نثق بكم ••• ومن واجبنا أن نطلب

---

(١٥١) ساطع الحصري (المصدر السابق) — ص ١٢٧ •

منكم ضمانات جديدة » ، ثم أخرج من ادراج مكتبه مذكرة تتضمن ضمانات ثمانية وبدأ يقرأها على الحصري • ولم يجد الحصري أمامه سوى أن يطلب من غورو تأجيل الزحف قليلا لكي يتمكن من العودة الى دمشق ومباحثة الملك بشأن الضمانات الجديدة • ولم يوافق غورو على التأجيل الا بعد تمنع وتردد •

وجد الحصري صعوبة في العودة الى دمشق بالسرعة المطلوبة ، ولعل الفرنسيين عرقلوا عودته لغاية في أنفسهم • ولم يصل الحصري الى دمشق الا في ساعة متأخرة من الليل • وفي الصباح التالي عقد الوزراء اجتماعاً بحضور الملك للنظر فيما جاء به الحصري من أخبار • وبينما كان الوزراء مجتمعين وصل الكولونيل كوس ومعه برقية مستعجلة من غورو مؤرخة في الساعة العاشرة من صباح ٢٢ تموز يقول فيها ان القوات الفرنسية مضطرة لاعتبارات عسكرية أن تستمر في زحفها حتى تصل الى خان ميسلون • وهنا ادرك الملك ووزراءه أن ليس أمامهم سوى طريق الحرب •

وانطلقت صيحة الحرب في شوارع دمشق وساحاتها • واستدعى الملك الشيخ كامل القصاب وقال له : لقد قررنا الدفاع كما أردتم فأرنا همتك ونشاطك وجئنا بالقوى الوطنية التي تقول انها مستعدة للقتال • فأجابه القصاب قائلا : ما دمت قد قررت الدفاع فأنا أعدك بتجنيد عشرة آلاف رجل يحمل البندقية حتى المساء • ثم خرج القصاب يجوب محلات دمشق وينادي بالبدار الى الحرب • وبعد فترة قصيرة عاد القصاب وهو يحمل في ذيل جبته كمية من خراطيش البنادق والمسدسات من انواع مختلفة ، وقدمها الى الملك يقول : « اشتريت هذه الرصاصات من أحد الدكاكين في المدينة • من قال لكم انه ليس في البلاد ذخيرة ؟ » • فضحك ياسين الهاشمي الذي كان حاضراً وقال بمرارة : « أبمثل هذا العتاد وهؤلاء المتطوعين الذين يظنون الحرب كالمظاهرات والنزهات يمكننا أن نصد

الجيش الفرنسي سيما وحـــرب العصابات تختلـــف عن الحـــرب النظامية »[١٥٢] .

وذهب الملك الى الجامع الاموي فارتقى المنبر وخطب في الناس قائلا : « اردت أن أرد عنكم زحف جيش الاعداء باجابة مطالبهم فلم يرتدوا . فان كنتم في حاجة الى بلدكم فاخرجوا للدفاع عنه »[١٥٣] .

وأعدت ادارة السكك قطارات يتحرك واحد منها في كل ساعة لحمل المتطوعين الى الجبهة في خان ميسلون . وتهافت المتطوعون الى القطار وهم يحملون ما لديهم من بنادق او سيوف او مسدسات أو عصي ، كما تطوع عدد من النساء لخدمة الجرحى ولبس بعضهن الملابس العسكرية وكانت في طليعتهن الآنسة نازك العابد التي كانت برتبة رئيس فخـري فـي الجيش العربي .

يقول جميل بيهم : ان المتطوعين انضموا الى الجيش بدافع الحماس والواجب الوطني غير أن اكثرهم كانوا لايحسبون حساب الحرب وأهوالها ، فكان يكفي أحدهم ان يتجهز بالبندقية ليشعر اعتماداً على شجاعته بأنـه سيكون من الابطال . فهم كانوا يتصورون كأنهم في نزهة عسكرية ممـــا حمل بعضهم من المولعين بالنارجيـــــلة أن يصحبوها معهـــم الى تلك النزهة[١٥٤] .

قرر يوسف العظمة الخروج بنفسه الى الجبهة . وذهب لتوديـــع الوزراء ، وانتحى بساطع الحصري في زاوية من القاعة وكلمه بالتركيـــة قائلا « أنا ذاهب ! اني اترك ليلى ــ يقصد ابنته ــ أمانة لديكم أرجوكم

---

(١٥٢) أحمد قدري (المصدر السابق) ــ ص ٢٥٢ .

(١٥٣) خيرية قاسمية (المصدر السابق) ــ ص ٢٠٣ ــ ٢٠٤ .

(١٥٤) محمد جميل بيهم (المصدر السابق) ــ ص ١٦٧ .

لاتنسوها » • وتبين من كلامه أنه كان مصمماً على ان لايعود من الجبهة حيــــاً •

وذهب يوسف العظمة لتوديع الملك ، وجرى بينهما حوار له مغزاه البعيد ننقله هنا بنصه عن أحمد قدري الذى كان حاضراً الحوار :

يوسف : أتيت لتلقّي أوامر جلالتكم •

فيصل : بارك الله فيك ، اذن أنت مسافر لميسلون ؟

يوسف : نعم يامولاي اذا كنتم لاتودون قبول الانذار الاخير •

فيصل : ولماذا كنت تصر على الدفاع بشدة ؟

يوسف : لانني لم أكن أعتقد بان الفرنسيين يتمكنون من دوس جميع الحقوق الدولية والانسانية ويقدمون على احتلال دمشق ، وكنت أتظاهر بالمناورة للمقابلة بالمثل •

فيصل : وهل يسلم الشرف الرفيع من الاذى حتى يراق على جوانبه الـــــدم •

يوسف : اذن فهل يأذن لي جلالة الملك بأن أموت ؟

فيصل : بعد أن انتهت الامور الى هذا الحد يجب ان نموت جميعاً شرفاء ، وننقذ البلاد من حرب أهلية أيضاً •

يوسف : اذن فأنا أترك ابنتي الوحيدة ليلى لدى جلالتكم[١٥٥] •

معركة ميسلون :

بدأت المعركة في ميسلون حوالي الساعة الخامسة مـــن صباح ٢٤ تموز واستمرت حتى الظهر ، ويُقدر عدد الذين اشتركوا فيها من العرب بنحو ثلاثة آلاف ، بعضهم من الجنود النظاميين والباقي من المتطوعين • وهي في الواقع لم تكن معركة ، بل كانت بالمذبحة أشبه • فقد كان لدى القوات الفرنسية عشر طائرات والكثير من الدبابات والمدافع[١٥٦] بينما لم يكن

---

(١٥٥) أحمد قدري (المصدر السابق) ـ ص ٢٥٣ •

(١٥٦) احسان الهندي (المصدر السابق) ـ ص ٢٠٠ •

لدى العرب الا القليل من المدافع ولم يكن العتاد الذي وزع عليهم من عيار الاسلحة التي في أيديهم(١٥٧) •

أبدى العرب صموداً في القتال لايستهان به • وقُتل منهم أربعمائة رجل عدا الجرحى وتلك نسبة عالية في جيش مقاتل • وكان من بين القتلى عدد غير قليل من رجال الدين الذين اعتبروا القتال في ميسلون جهاداً في سبيل الله •

كان المفروض في يوسف العظمة بصفته وزيرا للحربية أن يكون بعيدا عن ساحة القتال ، ولكنه آثر المشاركة الفعلية فيه لانه كان يريد أن يموت • وفي الساعة العاشرة والنصف أصابته صلية رشاش من دبابة فرنسية فسقط على الارض يتخبط بدمائه •

أثبت هذا الرجل بموته أنه يختلف عن بعض الناس الذين يتحمسون عند الامان غير أنهم في ساعة الخطر يهربون او يستسلمون • ومن الجدير بالذكر هنا ان فيصل خصص فيما بعد راتباً شهرياً لابنة يوسف العظمة ، وظلت البنت تسلم الراتب باستمرار حتى وفاة فيصل في ١٩٣٣•(١٥٨)•

عندما انتشر خبر مقتل يوسف العظمة بين الجنود انتشرت فيهم روح الهزيمة ، فبدأوا ينسحبون سريعا نحو دمشق • ومما يحز في النفس أن أهل القرى الواقعة بين ميسلون والمزة انثالوا على الجنود المنسحبين ينهبونهم •

دخل الجيش الفرنسي دمشق في الساعة الخامسة من عصر ٢٥ تموز، وكان في مقدمته قائد الجبهة الجنرال غوابيه وهو راكب جواده • وكانت أسواق دمشق حينذاك مقفلة ، وقد وقف الناس على أرصفة الشوارع يرقبون مسيرة الجيش بصمت ووجوم • وفي ١ آب وصل غورو الى

---

(١٥٧) زين نور الدين زين (المصدر السابق) ـ ص ٢٦٦ •

(١٥٨) ساطع الحصري (المصدر السابق) ـ ص ١٥٩ (حاشية) •

دمشق حيث دخلها في موكب عظيم • ويقال انه توجه حالا الى قبر صلاح الدين الايوبي • فوقف على القبر يقول : « ياصلاح الدين انت قلت لنا في ابان حروبك الصليبية انكم خرجتم من الشرق ولن تعودوا اليه وها أننا قد عدنا ، فانهض لترانا هنا في سوريا »(١٥٩) •

أبدى بعض مشايخ البدو شيئاً من الخسة عقب المعركة • فأحدهم كان قد تسلم من خزينة الجيش العربي قبيل معركة ميسلون خمسمائة جنيه لكي يستعين بها على قتال الفرنسيين ، ولكنه لم يكد يلمح الجيش العربي مهزوماً حتى انثال هو وأتباعه على الجنود المنسحبين يسلبونهم سلاحهم ومتاعهم(١٦٠) وقد فعل مثل هذا نوري الشعلان شيخ مشايخ الرولة ، فهو قد تسلم من فيصل في شهر آب ١٩١٨ ثلاثين ألف ليرة ذهب(١٦١) ، ولكنه عند دخول غورو الى دمشق خرج لاستقباله وانضم الى موكبه مع رجاله ، وشوهد في الموكب وهو شاهر سيفه(١٦٢) •

طرد الملك :

كان الملك فيصل أثناء معركة ميسلون في مقر القيادة العسكرية في الهامة ، وحين علم بنتيجة المعركة انسحب هو وحاشيته الى الكسوة وهي محطة للسكة الحديدية تقع على بعد اثني عشر ميلا الى الجنوب الشرقي من دمشق •

أرسل فيصل يستدعي الوزراء اليه في الكسوة ، فوصلوا كلهم ماعدا اثنين هما علاءالدين الدروبي وفارس الخوري ، كما وصل اليها نحو خمسين شخصاً من زعماء المظاهرات كالشيخ كامل القصاب وعثمان قاسم

---

(١٥٩) احسان الهندي (المصدر السابق) ــ ص ٢٠١ •
(١٦٠) المصدر السابق ــ ص ٢٠٩ •
(١٦١) سليمان موسى (مذكرات الامير زيد) ــ ص ٢٠١ •
(١٦٢) سليمان موسى (الحركة العربية) ــ ص ٦٥٨ •

وشكري القوتلي • واتخذ الجميع عربات القطار مسكناً لهم ، ولكن بعضهم لم يتحملوا البقاء في الكسوة فركبوا قطاراً كان على أهبة السفر الى درعا فحيفا ، وكان من بينهم عبدالرحمن الشهبندر وكامل القصاب •

كان المتوقع من فيصل في تلك الظروف ان يخرج من سوريا نهائيا ليعلن للعالم ما حل به من ظلم على يد فرنسا التي تدعي أنها أم الحرية وحقوق الانسان ، ولكن فيصل لم يفعل ذلك بل آثر أن يعود الى دمشق ليتفق مع الفرنسيين ويرضخ لارادتهم • يقول ساطع في وصف حالة الملك النفسية في الكسوة ما نصه :

« وصل الملك فيصل مع حاشيته بالسيارات مساءاً قبل غروب الشمس ، وقد كان في حالة شاذة تختلف عن حالاته المعتادة اختلافاً كبيراً ، فجميع حركاته وسكناته كانت تدل على أنه في حالة تردد شديد وقلق عظيم • ولاح لي من تتبع هذه الحركات أنه كان مشغول اللب بشيء يميل الى اخفائه عنا • فقلت لنفسي : ربما كان لايزال يأمل في التفاهم مع الفرنسيين وينتظر ورود بعض الأخبار التي تساعد على تحقيق هذا التفاهم • وقد تبين لي بعد قليل أن ظني كان مطابقاً للحقيقة والواقع • انه كان قد أوفد نوري السعيد لمقابلة الفرنسيين وأرجأ جميع قراراته الى حين وصول أخبار هذه المقابلة • ولهذا كان ينتظر هذه الاخبار بفارغ الصبر ، ويتجنب التكلم وابداء الرأي في أي موضوع كان »(١٦٣) •

في مساء ٢٥ تموز وصلت الى الملك برقية من نوري السعيد تبشره بحصول اتفاق موقت مع الفرنسيين ، فتفاءل الملك بها واسترسل في تفائله استرسالا غريباً(١٦٤) • وفي اليوم التالي وردت اليه أخبار شفهية تؤيد مضمون البرقية ، فزاد ذلك من تفاؤله وقرر اقالة الوزارة الأتاسية وتشكيل

(١٦٣) ساطع الحصري (المصدر السابق) ـ ص ١٦٤ ـ ١٦٥ •
(١٦٤) المصدر السابق ـ ص ١٦٥ •

وزارة جديدة من وزراء معروفين بتأييدهم للانتداب الفرنسي • وقد اوعز بتشكيل هذه الوزارة فعلا ، فتألفت من علاءالدين الدروبي رئيساً ، وعبد الرحمن اليوسف رئيساً لمجلس الشورى ، وعطاء الايوبي وزيرا للداخلية، وبديع المؤيد للمعارف ، وجميل الالشي للحربية ، وجلال الدين زهدي للعدلية ، وفارس الخوري للمالية ، ويوسف الحكيم للنافعة •

عاد الملك الى دمشق فوصلها قبيل منتصف الليل • وكان لايـــزال متفائلا يظن ان الفرنسيين سيرحبون به ويرضون بالتعاون معه • ولكنـــه فوجيء في الصباح بأنهم لايريدونه وانهم يعتبرونه المسؤول الاول عما جرى من اضطرابات دموية • وقد طلبوا منه بكل صلافة أن يغادر دمشق في خلال يومين ، ووضعوا تحت تصرفه قطاراً خاصاً لنقله الى درعا • احتج الملك على ذلك احتجاجاً شديداً دون أن يجد لاحتجاجه أي صدى • فاضطر الى ركوب القطار ، وقد تحرك القطار به في الساعة الخامسة من صباح ٢٨ تمـــوز •

لم يكن في وداع الملك في محطة دمشق سوى عدد قليل من الناس ، وقد صحبه في القطار ساطع الحصري وعوني عبدالهادي واحسان الجابري وتحسين قدري وأحمد قدري • وحين وصلوا الى درعا اتخذوا عربـــات القطار مسكناً لهم على نحو مافعلوا في الكسوة •

وجاء رؤساء العشائر الحورانية للترحيب بالملك ، وأخذ هو يحرضهم على حرب الفرنسيين فكان جوابهم له : انهم مستعدون لحرب الفرنسيين على شرط الحصول على تأييد من الانكليز(١٦٥) •

وفي اليوم التالي ـ أي في ٢٩ تموز ـ وصلت الى الملك برقية مـــن علاء الدين الدروبي يسترحم منه أن يغادر درعا حفظاً لبلاد حوران مـــن

(١٦٥) أحمد قدري (المصدر السابق) ـ ص ٢٧٤ ـ ٢٧٥ •

المصائب والخراب • وفي الوقت نفسه ألقت طائرة فرنسية منشوراً موجهاً الى عشائر حوران يتضمن انذاراً لهم أمده عشر ساعات بأن يكلفوا فيصل بمغادرة درعا ، واذا امتنع عن ذلك يجب ارجاع القطار به الى دمشق ، والا فان بلادهم ستصبح هدفاً للقنابل • فاضطر الملك الى مغادرة البلاد متوجهاً مع حاشيته الى حيفا •

بعد الطرد :

كان فيصل عند مغادرته سوريا في حالة نفسية وصحية سيئة للغاية • يقول ابراهيم نجار : « كان فيصل ضعيف البنية من صغره حتى أنهم كانوا يقولون عنه بأنه كان مصدوراً ، وكثيراً ماخشوا عليه هذا الداء • فلما صدم هذه الصدمة العنيفة الهائلة في دمشق أثرت في نفسه ورئتيه تأثيرا عظيماً جدا ، حتى أن الذي كان يرى فيصلا بعد مبارحته العاصمة السورية كان يعتقد أنه ينظر الى تمثال من شمع • فلو أن طبيباً فصده في كل عروقه لما نزلت منه نقطة دم ••• »(١٦٦) •

وصل فيصل الى حيفا في ١ آب ١٩٢٠ • يقول المندوب السامي في فلسطين السر هربرت صموئيل في مذكراته : « قررت أن استقبل فيصل على الاراضي الفلسطينية لا كلاجيء مغلوب على أمره بل كصديق محترم• ولذا أمرت فصيلة من الجند لاخذ التحية له في المحطة عند وصوله ثم تقدمت مع السر رونالد ستورز لاستقباله • وقد قيل لي بعد ذلك ان الملك فيصل بعد تلك الايام العصيبة التي مرت به لم يدر هل كان أولئك الجنود قد جاؤوا لالقاء القبض عليه أم لتكريمه • وحين علم بأنهم جاؤوا لاستقباله استقبالا عسكرياً زال القلق عنه »(١٦٧) •

---

(١٦٦) ابراهيم سليم نجار (المصدر السابق) ـ ص ٧٩ •

(167) Samuel (Memoirs) London 1945 – P. 158 – 159.

نزل فيصل في منزل المس نيوتن وهي سيدة بريطانية معروفة بعطفها على العرب • وأبرق الى أبيه في مكة يطلب منه مالا ليتمكن من السفر الى أوربا ، فأرسل اليه الحسين حوالة على المصرف العثماني بخمسة وعشرين ألف جنيه •

وفي ٩ آب كتب فيصل من حيفا الى ابيه رسالة بخط يده يشرح له فيها أسباب الكارثة التى حلت به ويبرر عمله في فصل سوريا عن الحجاز ، حيث قال : اني كنت أعتقد ان الواجب يقضي علينا بالتساهل مع الدول بالنظر الى اطماعها وضعفنا ولكن الذي حال دون ذلك مبدأه ــ يقصد مبدأ والده الحسين ــ القائم على استقلال البلاد العربية من غير قيد أو شرط، ومعارضة شبان العرب لكل تساهل ، وقد كان بالامكان الضرب على أيدي الاحزاب المعارضة ولكنني لم أقدم على ذلك خشية « اللوم التاريخي » ، وزاد الوضع سوءاً ان الاحزاب لم تكن تدرك حقيقة ضعف البلاد وقوة الاعداء ، ثم تأزم الوضع وحشد العدو قواته بينما الامة واقفة تنظر اليه بعينيها وهي جامدة كأنها لاعلاقة لها بما يجري • والذى يوجب الاسف ان الامة قوالة غير فعالة ، فأهل البلاد لم يقفوا موقفاً ايجابياً من التجنيد الاجباري فكان الفارون من التجنيد أكثر من المتطوعين ، ولم يقبل الاهالي على دفع المال لصندوق الحكومة لكي تتمكن من العمل ، فكان الاقبال على دفع المال وعلى التجنيد بحكم العدم • ولهذا قبلنا بشروط غورو ولكن بعض الاحزاب المتهوسة قامت وحرضت الناس على الثورة في حين كان العدو يتربص بنا الدوائر ••(١٦٨) •

زار صموئيل فيصل في منزل المس نيوتن وأبلغه برقية وصلته من وزير الخارجية البريطانية اللورد كرزن يقول فيها : « ان بريطانيا تأمل أن

---

(١٦٨) سليمان موسى (المصدر السابق) ــ ص ٥٦٧ ــ ٥٦٨ •

تلوح الفرصة في المستقبل كي تظهر له أن موقفه الودي تجاهها لن يُقابل بالنسيان » •

كان صموئيل قد اقترح على فيصل العودة الى الحجاز ، ولكن فيصل أصر على السفر الى سويسرا لمراجعة عصبة الامم • وفي صباح ١٨ آب غادر حيفا بالقطار متجهاً الى مصر • وحين وصل الى محطة القنطرة الواقعة على ضفة قناة السويس لم يجد أحداً في استقباله من قبل الجنرال اللنبي أو الحكومة المصرية ، فاضطر ان يجلس على أمتعته في انتظار تحويل القطار على نحو ما يفعل أي مسافر عادي(١٦٩) • وهناك جاء اليه عبدالملك الخطيب معتمد أبيه الحسين في مصر ، فأبلغه تعليمات أبيه ووصاياه ، كما أبلغه لوم أبيه على ما فعل في سوريا من فصلها عن الحجاز • فرد عليه فيصل قائلا : انه مازال يرجو أن يتوصل الى ترتيب مع الفرنسيين(١٧٠) •

غادر فيصل بور سعيد في ٢٠ آب على باخرة تجارية قاصدا ايطاليا ، وكان معه نوري السعيد وساطع الحصري واحسان الجابري وتحسين قدري والامير زيد • فوصل الى نابولي في ٢٥ منه • ومن هناك سافر الى الشمال بغية الذهاب الى سويسرا • وحين وصل الى حدود سويسرا جاء اليه حداد باشا معتمد أبيه في لندن فأبلغه رسالة شفهية من لويد جورج يقول فيها : اني الآن في سويسرا مشغول باجتماعات مهمة ، وحضورك يربكني ، فأرجوك أن تبقى في ايطاليا • فاضطر فيصل الى البقاء في شمال ايطاليا حيث نزل في فندق قريب من بحيرة كومو •

مكث فيصل في ايطاليا زهاء ثلاثة أشهر ، وقد التحق به هناك عادل أرسلان ورياض الصلح ، وأخذ هو وحاشيته يبذل الجهود والاموال في سبيل عرض القضية السورية على الرأي العام الاوربي • ويقال أنهم دفعوا

(169) Storrs (Orientations) — London 1939 — P. 448.

(١٧٠) سليمان موسى (المصدر السابق) ــ ص ٥٧١ •

مائة ليرة ذهب الى موسوليني لكي يساند القضية السورية ، وكان موسوليني يومذاك صحافياً يصدر جريدة اسمها « شعب ايطاليا »[١٧١] •

وأخذ فيصل يسعى للاتصال بالاتراك بغية التعاون معهم ، فأوفد ساطع الحصري الى اسطنبول سراً لهذا الغرض • وقد بذل الحصري جهوداً كثيرة للتفاهم مع الكماليين دون جدوى[١٧٢] •

وبينما كان فيصل وحاشيته يبذلون جهودهم في كل ناحية لعلهم يجدون مخرجاً لوضعهم اليأس ، وصلت اليه في ١١ تشرين الثاني برقية من اللورد كرزن تدعوه الى زيارة لندن ، فكانت تلك الدعوة له بمثابة الفرج بعد الشدة • وقد تم الاتفاق معه في لندن على تنصيبه ملكاً على العراق ـ كما ذكرناه في الجزء السادس من هذا الكتاب • ويدعي فيلبي استناداً على بعض الوثائق أن عرش العراق انما قُدم لفيصل كجزء من المكافأة على موافقته على انشاء وطن قومي لليهود في فلسطين[١٧٣] • ولا ندري مبلغ هذا الادعاء من الصحة ! •

رأي غريب :

للصحافي اللبناني اسكندر الرياشي رأي غريب في احداث سوريا التي سبقت معركة ميسلون ، وهو رأي يصعب علينا تصديقه انما هو على اي حال جدير بأن يطلع القاريء عليه •

كان الرياشي حينذاك يعمل في الاستخبارات الفرنسية ـ كما اعترف هو بذلك • وهو يقول عن تلك الاحداث أنها كانت مؤامرة فرنسية وقد دُبرت بأموال فرنسية من أجل الاطاحة بفيصل • ويذكر الرياشي ان

---

(١٧١) اندرياو (المصدر السابق) ـ ص ٢٠ •
(١٧٢) ساطع الحصري (المصدر السابق) ـ ص ١٧٨ ـ ١٩٤ •
(١٧٣) جريدة (الاهرام) المصرية ـ في عددها الصادر في ١٨ حزيران ١٩٦٨•

الفرنسيين كانوا في بداية الامر قد عرضوا على فيصل رشوة كبيرة مقدارها نصف مليون ليرة ذهب ، كما عرضوا على صاحبه نوري السعيد مائة الف ليرة ، ولكنهما رفضا الرشوة • واضطر الفرنسيون أن يبحثوا في دمشق عن أشخاص مستعدين لقبض الرشوة من بين الرجال الذين كانوا يملكون زعامة الشارع ويحمسون الجماهير ، وأسرع هؤلاء ينادون بالحـــــرب ويثيرون رجل الشارع لوطنيته وكرامته ، فهبّت على سوريا تحت تأثيرهم روح الاستشهاد والفداء ، وأخذت الحماسة تطغى على كل حساب ، حتى صار أكثر الناس تعقلا ينادون بالحرب متجاهلين ما كانوا يعرفونه من أن هذه الحرب ستنتهي بكارثة وان القائلين بها يحققون ما يتمناه الفرنسيون • ويقول الرياشي أيضاً ان فيصل وأعوانه كانوا يسعون حتى آخر ساعـة لتجنب المعركة مع الفرنسيين وهم يعرفون حق المعرفة انها اذا وقعت فسوف يخسرونها لتفاوت القوى بين الجانبين تفاوتاً لايمكن تجاهله ، ولكن المؤامرة الفرنسية غلبتهم •

يقول الرياشي : « كنا في المكتب الثاني للقائد الفرنسي نراقب نجاح هذه المؤامرة على الشريف وعرشه وعلى استقلال سوريا ، ونعرف أنــه سيضطر الى حشد جيوشه ومتطوعيه ، فيكون هو البادىء المعتدي ويكون الفرنسيون في حالة الدفاع عن النفس ، يساعدهم على ذلك اولئك الساسة الذين ملأوا جيوبهم من ذلك الذهب الذى كان الجنرال لاموت قد أعده »•

ويصنّف الرياشي الزعماء الذين أثاروا الجماهير في دمشق الــى فريقين : فريق مخلص كان يدعو الى الحرب عن استشهاد وطني وفدائية مدهشة ، من أمثال يوسف العظمة ، ولكنهم كانوا قليلين بالنسبة الى الفريق الثاني الذى يعمل بالتواطوء مع الفرنسيين(١٧٤) •

---

(١٧٤) اسكندر الرياشي (رؤساء لبنان كما عرفتهم) ـ ص ٢٧٢ ـ ٢٧٦•

فجوة الشعب والحكومة :

كانت الفجوة بين الشعب والحكومة في سوريا في العهد العثماني كبيرة جداً على نحو ما كانت في جميع البلاد الشرقية • ولكن هذه الفجوة اختفت فجأة في بداية العهد الشريفي ، وهو العهد الذى اشتد فيه الحماس الشعبي وأخذ الحكام ـ وفي مقدمتهم فيصل ـ يحاولون التقـــرب من الشعب والاختلاط به والاستماع الى صوته •

يجب أن لاننسى ان تلك فترة لايمكن ان تدوم طويلا ، ولا بد أن تعود الفجوة الى الظهور عاجلا أو آجلا • ان المرحلة الاجتماعية التى كان يعيش فيها الشعب السوري لاتسمح ببقاء تلك الفترة طويلا • فهناك عوامل كثيرة من شأنها بعث التذمر في أوساط الشعب تجاه الحكومة • وفيما يلي نذكر أهم تلك العوامل :

أولا : ان التجنيد الاجباري الذي فرضته الحكومة على المواطنين كان من أهم عوامل التذمر طبعاً • فقدكان الناس في العهد العثماني ينفرون من التجنيد نفرة لا حَدَّ لها ويحاولون الفرار منه بكل وسيلة تتيسر لهـم ، وكان أكبر أسباب فرحهم بزوال الحكم العثماني أنهم تخلصوا من بـــلاء التجنيد ، ولكنهم وجدوا بعد فترة قصيرة ان ذلك البلاء قد عاد اليهم من جديد • ليس من السهل على الناس ان يتحولوا من بغض التجنيد الى حبه بمجرد سماعهم للاناشيد والخطابات الحماسية •

يُروى أن مظاهرة جاءت الى قصر الملك فيصل وهي تنادي : « الى الحرب ، الى الحرب » • فأمر الملك مرافقه بأن يأخذ المتظاهرين الى الثكنة لتجنيدهم وتدريبهم على القتال ، غير أنهم لم يكادوا يسيرون في طريقهم نحو الثكنة حتى صاروا يتسللون الى بيوتهم • ولما وصل المرافق الى الثكنة لم يجد معه منهم سوى نفر محدود •

ثانياً : لم تكد تمر مدة قصيرة على بداية الحكم الشريفي حتى بدأت المحسوبية والشفاعة والوساطة تلعب دورها في اختيار الموظفين على نحــو ما اعتاد الناس عليه في العهد العثماني . وهذا أمر طبيعي في مجتمع تسوده قيم القبلية والقرابة والجيرة والشهامة وما أشبه ، يقول الشيخ رشيد رضا رئيس المؤتمر السوري : « ... وما أبرىء الحكومة من عيب محاباة الكبراء وقبول شفاعتهم في طلاب وظائفها بدءاً وترقية ، وكان أكبر الضعف فــي الوزراء والرؤساء بازاء الملك فيصل وعشيرته والمقربين منه ، فان هؤلاء قد اعتادوا في عهد سلطتهم العسكرية المطلقة أن يتصرفوا في الاعمال والاموال بما شاؤوا وكيف شاؤوا ، فصعب عليهم بعد اعلان الاستقلال ان يتقيــدوا بقانون ونظام ، ولم يكن للوزراء من الشجاعة الادبية والتكافل ما يؤهلهم لتقييدهم وتعويدهم الوقوف عند حدود سلطتهم الرسمية ، اذ كانوا هم قد اعتادوا في عهد الترك أن يميلوا مع أهواء الرؤساء والكبراء ، ومع هــذا أمكن لحكومة الاستقلال ان تقيد الملك براتب محدود لم يكن راضياً به على كثرته ، وكان يستهلك راتب كل شــهر في أوله وقبل بدء هــلاله ، ويطلب من وزارة المالية سلفة بعد سلفة فلا ينال كل ما يطلب ولا أكثره بسهولة . وقد كان نفوذه في بعض الوزارات أقوى منه في غيرها..»[175]

ثالثاً : كان الاعيان والوجهاء قبل تتويج فيصل قد اعتادوا أن يقابلوه ويتحدثوا اليه متى وكيف يشاؤون ، وكان هو يزورهم في بيوتهم ويحادثهم كما يحادث الرجل أصحابه . فلما تم تتويجه عيّن احسان الجابري رئيساً للديوان الملكي باسم « رئيس امناء الملك » ، وكان هذا الرجل موظفا فــي البلاط العثماني سابقاً فشرع يعمل على تطبيق قواعد التشريفات السلطانية على بلاط الملك فيصل ، ووضع القيود على مقابلاته تنفيذا للقاعدة الدستورية التي تجعل السلطة التنفيذية في يد الحكومة ، فاحدث ذلك كثيرا من القيل

---

(١٧٥) يوسف ايبش (المصدر السابق) ــ ص ٢٩٨ .

والقال[١٧٦] • فان من طبيعة البشر آن كل فرد منهم يحسب نفسه أولى بالتشريف من أقرانه ، ورأيه أفضل الآراء ، ولو سمح للناس جميعا بمقابلة الملك بلا قيود لاصيب الملك بالانهيار العصبي لكثرة الزحام عليه والصراخ من حوله • ولكنهم حين يُمنعون من مقابلة الملك يتذمرون • وهذا أمر يصدق على صغار المسؤولين كما يصدق على الملك •

رابعاً : كان تعيين ساطع الحصري وزيراً للمعارف من أسباب التذمر في أوساط العامة ورجال الدين ، فهؤلاء كانوا يكثرون من الطعن على الحصري ويزعمون انه يريد اضعاف الدين في المدارس وتعويد البنات على التهتك • يقول الشيخ رشيد رضا : ان رجال الدين طالما راجعوه قبل اعلان الاستقلال وبعده متوسلين به الى السعي معهم لدى فيصل بعزله ، وكان هو ينصح لهم بالتأني لانه لايحب ان يتعود الاهالي على الافتيات على الحكومة ولا سيما الطامعون في مناصبها[١٧٧] •

خامساً : كان فيصل يعطف على العراقيين عطفا خاصا لان كثيرين منهم قاتلوا تحت رايته في الثورة العربية ، ولهذا عينهم في مختلف وظائف الدولة ومناصبها العالية • قيل ان مجموع العراقيين الذين كانوا في خدمة الحكومة آنذاك بلغ نحو اربعمائة موظف وضابط • وهذا لابد أن يؤدي الى انتشار التذمر بين السوريين ، ولا سيما الذين لم يحصلوا على الوظائف التي يطمحون اليها ، وصاروا ينادون بمبدأ « سوريا للسوريين » • يقول محمد كرد علي في كتابه « خطط الشام » : ان الناس في الشام تأففوا من السياسة التي سار عليها فيصل في الاعتماد على الغرباء – يقصد العراقيين – ونزع ثقته من أعيان البلاد ومفكريها ، وأخذوا ينصحون له سراً بالعدول عن هذه السياسة[١٧٨] •

---

(١٧٦) أحمد قدري (المصدر السابق) – ص ١٨٨ •

(١٧٧) يوسف ايبش (المصدر السابق) – ص ٣٠١ •

(١٧٨) محمد كرد علي (خطط الشام) – دمشق ١٩٢٥ – ج٣ – ص ١٧٠ •

ويذهب الى مثل هذا القول أحد العراقيين الذين كانوا في سوريا حينذاك حيث يقول ما نصه : « ومما هو جدير بالذكر ان البعض من السوريين كانوا قد بثوا في سوريا روح الامتعاض من العراقيين لاشغال بعض رجال العراق مناصب كبيرة في الحكومة السورية ، وكانت قد بلغت الوقاحة بهؤلاء المفسدين الى درجة جعلتهم يصرحون بوجوب تنحي العراقيين عن الوظائف في سوريا الامر الذي أوجب شيئا من التباغض والنفاق بين السوريين والعراقيين »(١٧٩) .

تقييم فيصل :

ان السياسة التي سار عليها فيصل أثناء حكمه في سوريا لقيت انتقادات شديدة من بعض الرجال الذين خالطوه وعرفوه . وفيما يلي نستعرض أقوال أربعة منهم هم : محمد كرد علي وجميل بيهم وعبدالرحمن الشهبندر وابراهيم سليم نجار :

(١) يقول محمد كرد علي عن فيصل : « انه لو أظهر حزماً في معاملة المشاغبين لما وقعت ميسلون »(١٨٠)

(٢) يقول جميل بيهم : انه كان قليل الخبرة بالسياسة مترددا يتأثر بحاشيته ، ويداري الاحزاب ولو تطرفت ، ويتحاشى الرأي العام ، ولذلك فقد مشى مع التيار بدلا من ان يوجهه على ما يريد شأن الحاكم القوي . ثم يقارن جميل بيهم بين سياسة فيصل في سوريا وسياسته في العراق فيقول: « أما في العراق حيث كان الزمان قد علمه ما لم يعلم فانه كان على خلاف ذلك : كان ملكا حازماً موجهاً ، واذا اضطر لمماشاة الرأي العام فقد كان يلتزم السكينة عند اشتداد العاصفة ثم يمضي قدماً بعد سكونها غير مبال ولا

---

(١٧٩) محمد طاهر العمري (المصدر السابق) ــ ج٣ ص ٢٧٤ ــ ٢٧٥ .
(١٨٠) خيرية قاسمية (المصدر السابق) ــ ص ٢٦٤ .

متردد • وكان هناك يتمتع بهيبة قوية وبكلمة نافذة على الرغم من صلابة عود العراقيين وقوة شكيمتهم ، وعلى الرغم من انهم قريبي الانفعال لايرضون بالموجود ، واذا غضبوا انتفضوا ، وجنحوا الى الثورة اذا استطاعوا اليهـا سبيلا »(١٨١) •

(٣) يقول عبدالرحمن الشهبندر : « ولكن دعاية شنيعة بُثّت على فيصل عند عودته من باريس ، فتراجع من غير نظام لانه كان حديث العهد بالشؤون السياسية والحملات المدبرة • ولو أنه وقف موقفاً ثابتاً ودافع عن آرائه بمثل الطريقة المدبرة الحاذقة التي سلكها في العراق فيما بعد لوجد من المعتدلين انصارا يؤيدونه ويقفون في وجه مناوئيه »(١٨٢) •

(٤) يقول ابراهيم سليم النجار : « فلقد ملأ المغرضون البلاد اشاعات قبل وصوله بأن فيصلا طمعاً بالعرش باع سوريا الى الفرنسويين (هكذا) • وكان المتطرفون من السوريين ، وخصوصاً من أهل الشام ، هم الذيـن أشاعوها ، فلم تسهل مهمة الرجل الذى كان رطب العود في السياسـة • والظاهر أنه خشي أن تؤثر هذه الاشاعات فى سمعته ، فبدلا من أن يضرب بها عرض الحائط أو ينفيها بحزم وقوة ، وان يقنع السوريين بأن ما حصل عليه هو أعظم ما كان في الامكان بلوغه وانه ليس في وسع أحد أن ينال أعظم منه ، أخذ في خطبه يجهر بوطنيته ويغالي بالاستقلال الذى (يُؤخذ ولا يُعطى) ، ويجاري المتطرفين ظناً منه أنه يقدر أن يرضيهم بهذه المجاراة فأدخل بعضاً منهم في الحكومة اسكاتاً لهم مرغما على هذا الادخال • ثم فكر هؤلاء أنهم يقدرون ان يضعوا فرنسا والدول أمام الامر الواقع فقـرروا اعلان ملكيته في ٩ آذار من تلك السنة دون أن يكون في الحوادث ما يوجب

---

(١٨١) محمد جميل بيهم (المصدر السابق) ــ ص ١٨١ •

(١٨٢) مجلة (المقتطف) ــ في عددها الصادر في تشرين الاول ١٩٣٣ •

أو يدعو الى اعلان هذه الملكية ، أو تستشار بها دولة من الدولتين الانكليزية أو الفرنسوية »•

ويقول ابراهيم سليم النجار أيضاً : « لقد كان يجب على الامير فيصل في بدء سنة ١٩٢٠ أن يعرف جيداً ما يريده • فاما انه كان يريد حرب الاستقلال فيستعد لها استعداداً حقيقياً ينيله مراده منه ، واما أنه يريد العمل السلمي بالاتفاق مع الحكومة المنتدبة فيلجأ الى الحزم مع المتطرفين ، ويظهر بمظهر الحاكم الذي يعرف ما يريده ويعرف السبيل الذي يسلكه للوصول اليه » •

ويقارن النجار بين ما فعله المتطرفون في سوريا وما أرادوا أن يفعلوه في شرقي الاردن عندما لجأوا اليه عقب معركة ميسلون ، فيقول انهم حاولوا دفع الامير عبدالله الى مثل ما دفعوا اليه أخاه فيصل من قبل ، ولكنه وقف تجاههم موقفاً حازماً ، وكان ذلك اكبر سبب في بقائه في عمان(١٨٣) •

* * *

اننا حين نفحص هذه الاقوال في ضوء ما نعرفه من طبيعة الانسان والمجتمع البشري نجد انهم نظروا الى جانب من الحقيقة وأهملوا الجانب الآخر • ان فيصل لو كان في سوريا صارماً عنيفاً تجاه الجماهير يضربهم بالرصاص ويسلط عليهم سيف الارهاب ، على نحو ما يفعل العتاة من رجال السياسة ، لصار لعنة في الافواه ، ولاتهمه الناس بالعمالة للاستعمار وخيانة الوطن ، ولرأينا هؤلاء الذين انتقدوه على لينه ينتقدونه على شدته ويلعنونه• وقد فطن فيصل الى ذلك حين قال في رسالته الى أبيه : « قد كان بالامكان الضرب على أيدي الاحزاب المعارضة ولكنني لم اقدم على ذلك خشية اللوم التاريخي » •

لقد فشل فيصل في سياسته ولكنه نجح من ناحية أخرى ، حيث صارت

---

(١٨٣) ابراهيم سليم نجار (المصدر السابق) ــ ص ٧٣ ــ ٧٥ •

فترة السنتين التي حكم فيها سوريا فترة مضيئة في تاريخ سوريا الحديثة يلهج السوريون بمناقبها ويتغنون بها • يقول سعيد الافغاني في ذكر تلك الفترة وهو قد ادركها في صباه •

« أما في حساب الزمن فقد كانت كالحلم الخاطف ، لم يعمر سوى سنتين ، نعمت البلاد فيه بالسيادة والسعادة ، وعاشته ساعة ساعة ، بل لحظة لحظة • انه عهد احياء ونشور ، كان فيه الافراد والجماعات تتظافر في بناء حياة وبعث لغة وتأسيس كيان ، وأما في حساب النتائج والثمرات ، فمـــا أُسس حينئذ بقي يعمل بقوة الدفع والاستمرار الى ايامنا هذه ، وما نزال في خير تلك الدفعة من النهضة ، تتقدم على رغم ما عرا السير من توقف حيناً ونكسة حيناً • ولقد كان من قوة هذه الانطلاقة أن تأبّت على الحديد والنار وكل ما تمخض عنه الخبث الاستعماري الفرنسي من خطط ماكرة حلوة المظهر فتاكة المخبر مدة خمسة وعشرين سنة من الاحتـــــلال العسكري ••• »[١٨٤] •

لاننكر ان فيصل أخطأ خطأً فظيعاً حين حاول الرضوخ للفرنسيين عقب معركة ميسلون ، فقد كانت تلك نقطة سوداء في تاريخه ، وكان الاحرى به أن يتجنب الوقوع في ذلك الخطأ لكي يخرج من سوريا مرفوع الجبين كما يفعل الأبطال الاباة • ان يوسف العظمة كان أفضل منه إذ هو آثر أن يموت شهيداً بدلا من تحمل الاهانة ، وضرب بذلك مثلا عالياً تذكره لـه الاجيال القادمة •

ان التاريخ لايحركه العتاة السفاكون وحدهم ، بل يحركه الشهداء أيضاً • كل منهما له دوره في مسيرة التاريخ ! •

---

(١٨٤) سعيد الافغاني (حاضر اللغة العربية في الشام) ـ القاهرة ١٩٦١ ـ ص ٥٧ •

الفصل الرابع

الحســين ملكــاً

تحدثنا في الفصل الثاني عن سيرة الحسين بن علي منذ بداية حياته حتى اعلانه الثورة على الاتراك في ١٩١٦ • وسنتحدث في هذا الفصل عن سيرة الحسين في الفترة الاخيرة من حكمه ، وهي الفترة التى كان فيها ملكاً يحكم الحجاز بأمره لاينازعه السلطة أحد •

شخصية الحسين :

لابد لنا في البداية من اعطاء صورة موجزة عن شخصية الحسين ، اذ هي تلقي ضوءاً على طبيعة الاعمال التي قام بها والاحداث التى ساهم فيهـــــا •

المعروف عن الحسين انه كان متدينا ورعاً بعيداً عن مواطن الشبهات ، يحترم نفسه ويترفع عن الدنايا ، ولم يُعرف عنه انغماسه في الملذات على نحو ما عُرف عن الملوك غالباً • فكان اذا انتابه الغم لجأ الى ضب فوضعه تحت جبته ثم استدعى اليه رجلا من وزرائه معروفاً بشدة الخوف مـــن الضب ، فاذا جاء الرجل وجلس غافله الحسين وألقى الضب في حجره ، فيصرخ الرجل ويقفز مذعوراً جارياً الى الباب ، وعند هذا يقهقه الحسين حتى يكاد يستلقي على قفاه[١] •

كان الحسين يريد من رعاياه أن يقتدوا به في تجنب الملاهي والملذات المحرمة • يُروى أن جدة كانت في العهد العثماني كغيرها من الموانىء تضم

---

(١) أمين الريحاني (ملوك العرب) ـ بيروت ١٩٥١ ـ ج١ ص ٣٥ ـ ٣٧٠

كثيرا من محلات البغاء وشرب الخمر . ولما انفرد الحسين بالحكم عقب زوال ذلك العهد عمد الى تطهير البلدة ، فأمر بالقاء القبض على كل من يتعاطى الدعارة فيها ، كما رمى بالخمر وأوعيته في البحر[٢] . يقول أمين الريحاني الذى زار جدة في ١٩٢٢ : انه وجد بعض سكانها يتعاطون الخمر سراً ، كما يتعاطون الغناء والطرب ولعب القمار ، غير انهم كانوا يتركون ذلك عندما يزور الحسين جدة ، ثم يعودون الى عادتهم عندما يغادرها . وينقل الريحاني في هذا الصدد كلمة قالها له احد سكان جدة ، وهي :

« عجيب يا استاذ أمر الناس في هذا البلد . لاتستغرب قولي ان في جدة خوفاً يستحوذ عليهم من مجرد ذكر صاحب الجلالة المنقذ الاكبر ـ يقصد الحسين ـ عندما يشرّف البلدة كأنهم في مأتم ، وعندما يعود الى مكة يعيّدون ، فيخرجون من الصناديق الكأس والابريق ، وترى حتى الجليل مسترسلا في التهليل ... » .

وينقل الريحاني أيضاً كلمة أخرى قيلت له في جدة هي : ان الحسين في ساعات الغضب مخيف هائل فاذا استدعى أحداً منهم الى مكة ، بريئاً كان أو مذنباً ، كتب الرجل وصيته قبل أن يخرج من بيته[٣] .

من الجدير بالذكر ان لشخصية الحسين جانباً آخر اشتهر به ، هو أنه كان شديد الاعتداد برأيه لا يتنازل عنه بسهولة ، وقد لايتنازل عنه في بعض الاحيان أبداً . انه كان يتصور الدنيا كما يرغب أن تكون لاكما هي في الواقع . يقول فؤاد الخطيب الذى كان وزيرا للخارجية لدى الحسين : انه لم تكن لديه أية سلطة في منصبه كوزير للخارجية ، ولم يباشر أي عمل من الاعمال التي تدخل في دائرة اختصاصه ، بل كان تجاه الحسين كالملائكة

---

(٢) حسين محمد نصيف (تاريخ الحجاز) ـ القاهرة ١٣٤٩ هـ ـ ج١ ص ١١٥ ـ ١١٧ .

(٣) امين الريحاني (المصدر السابق) ـ ج١ ص ٥٥ ، ٥٧ .

تجاه الله يسبح بحمده ويقدس له ، وكثيراً ما تصدر المذكرات بتوقيعه دون أن يطلع عليها أو يعرف عنها شيئاً ، واذا اطلع على مذكرة منها صدفة واجرى عليها بعض التصليحات النحوية واللغوية أمر الحسين باعادة كتابتها لكي ترجع كما كانت سابقاً(٤) .

يقول أمين الريحاني في وصف الحسين من هذه الناحية ما نصه :

« كان الشريف حسين الكل في الكل حتى في تحرير جريدة «القبلة» ، فقد كان يظن ان مقالاته الافتتاحية تترجم الى اللغات الاوربية فيطالعها ويهتم بها الوزراء ، وأن آراءه في سياسة العالم وسياسة الحياة ، من أصغر الجزيئات الى أكبر النظريات ، هي وحي منزل ، وأن تفسيره لبعض آيات القرآن هو أصح من تفسير الائمة الكبار ، وانه في الفصاحة والبيان مثله في العلم أمير أقرانه وفريد زمانه ، وأنه اذا استصرخ العرب يجيئونه من أقصى الجزيرة سامعين لامعين ، وانه يستطيع وهو في « المخلوان » ـ يقصد ديوانه الخاص ـ أن ينقذ البلاد ويؤسس الدولة العربية ، بل كان يظن ان العالم الاسلامي بأجمعه يبتسم لابتسامته ويغضب لغضبه وان الذين يخدمونه يخدمون العرب والاسلام ولا يبغون أجراً غير رضاه »(٥) .

كان الحسين معتقداً بأن العرب كلهم يحبونه ويفدونه بأرواحهم ، والمظنون ان هذا الاعتقاد نما لديه من جراء ما يقوله له المتزلفون من الحجاج في كل عام ، وما ينشده الشعراء بين يديه من القصائد الرنانة . فكان يحسب ان العرب سيثورون جميعاً ثورة واحدة حالما يعلمون انه تنازل عن الملك . ولهذا كان يهدد الانكليز دائماً بانه عازم على التنازل . وقد حدث ذات مرة ان تشرشل حينما كان وزيراً للمستعمرات نفد صبره من تهديد

---

(٤) أمين سعيد (تاريخ الدولة السعودية) ـ بيروت ـ ج٢ ـ ص ١٥١ .
(٥) أمين الريحاني (تاريخ نجد الحديث وملحقاته) ـ بيروت ١٩٥٤ ـ ص ٣٤٤ .

الحسين فأراد أن يكتب اليه رسالة يقول فيها ان الحكومة البريطانية تطلب منه أن يذكر اسم الشخص الذى سيخلفه على العرش في حالة تنازله • وكان رأي تشرشل ان مثل هذه الرسالة قد تجعل الحسين يكف عن التهديد بالتنازل عن الملك(٦) •

من تراث الاسرة :

كان الحسين يحمل في عقله الباطن بقية من تراث اسرته القديم ، وهي التي يسميها الصحافي المصري المعروف محمد حسنين هيكل بـ « عقدة الاضطهاد » • فقد كان الحسين يذكر دائما ما حل بأجداده العلويين من مآسي وآلام ، وكان يردد هذه العبارة : « كذلك نحن آل البيت ، هـذا قدرنا المكتوب » • وكان أبناؤه يرددونها أيضاً ، ولا سيما ابنه عبدالله(٧) •

وكان لهذه العقدة أثرها الفعال في سلوك الحسين وتفكيره ، فكان ينظر في أحوال الحاضر بنفس المنظار الذى ينظر به في احوال الماضي • انه كان مثلا ينظر الى أهل العراق في عصره على نحو ما ينظر اليهم في العصر الذي وقعت فيه فاجعة كربلا •

يروي علي البازركان انه كان في ضيافة الحسين في مكة في عام ١٩٢١ عندما وصلته برقية من بعض رؤساء العراق يطلبون منه ابنه فيصل ليكون ملكاً عليهم ، فقال الحسين : « ولكني أخشى يا شيخ أن يعامل أهل العراق فيصلا كما عاملوا جده الحسين من قبل » • فرد عليه البازركان قائلا : « سيدي لقد تغير الزمن وان أهل العراق اليوم ليسوا كأسلافهم في زمن الحسين بن علي بن أبي طالب عليهما السلام ، فهم الآن يقومون باكرام الضيف وبخدمة ملكهم » • وعند هذا ضرب الحسين كفاً بكف وصاح بلهجته الحجازية : « **ياعيال نادوا فيصل** »(٨) •

---

(٦) سليمان موسى (صفحات مطوية) ـ عمان ١٩٧٧ ـ ص ٩٣ •
(٧) محمد حسنين هيكل (العقد النفسية التي تحكم الشرق الاوسط) ـ القاهرة ١٩٥٨ ـ ص ١٠١ ـ ١٠٥ •
(٨) علي البازركان (الوقائع الحقيقية) ـ بغداد ١٩٥٤ ـ ص ٢٣٠ •

وحدثني أحمد الراوي بقصة تشبه هذه القصة خلاصتها : أنه كان في عام ١٩٢٣ مدير شـرطة المنتفق فأرسـله الملك فيصل الى مكة لـكي يأتي بعائلته وابنه غازي منها ، ولكنه عند وصوله الى مكة لم يسمح لـه الحسين بأخذ العائلة • يقول الراوي : انه كان يكرر الطلب على الحسين مرة بعد أخرى ، وكان الحسين يعده بتلبية الطلب في كل مرة ثم يغير رأيه بعدئذ • وقد نفد صبر الراوي أخيراً واضطر الى مجابهة الحسين بشيء من الصراحة حيث قال ما معناه : ان منع الزوجة من الالتحاق بزوجها يخالف أمر الله ورسوله • فرد الحسين قائلا : « أخاف منكم يا أهـل العراك أن تفعلوا بعائلة الحسين مثلما فعلتم بعائلة الحسين من قبل » • وقد ظل الحسين مصراً على موقفه هذا مما اضطر الراوي الى العودة الى العراق خائباً •

ولما زار الحسين عمان في كانون الثاني ١٩٢٤ قام الملك فيصل بمحاولة أخرى لاستدعاء عائلته من مكة ، فأرسل وفداً الى عمان برئاسة نـوري السعيد • وغادر الوفد بغداد في ٧ شباط ، وقابل الحسين راجياً منه الاذن للعائلة المالكة بالقدوم الى العراق • وقد أبدى الحسين موافقته المبدأية على تلبية الرجاء ، وقال انه سيرسل العائلة عند عودته الى مكة • ولكنه عنـد عودته غير رأيه على نحو ما فعل قبل هذا مع أحمد الراوي •

وفي ٢٠ آب وصلت برقية الى الملك فيصل تخبره بأن أباه قد سمح للامير غازي بمغادرة مكة الى عمان • تقول المس بيل في رسالة لها مؤرخة في ٢٠ آب : « ان الملك متهيّج كثيراً لان الملك حسين قـد أطلق سـراح ابنه الوحيد غازي الذي كان حتى الآن محفوظاً في مكة • ان الصبـي — تقصد الامير غازي — في الثانية عشرة من عمره ، وهو الآن في عمان ، وسيرسل الملك محسن بك للاتيان به »[٩] • وقد وصل الامير أخيراً الى

---

(9) Burgoyne (Gertrude Bell) — London 1961 — vol. 2, P. 351.

بغداد في ٥ تشرين الاول ١٩٢٤[١٠] •

ان الحسين حين أطلق سراح الامير غازي لم يطلق معه سـراح أمه واخواته • والظاهر أنه كان يخشى عليهن من السبي كما جرى على نساء آل البيت في كربلا • وقد ظلت الام والاخوات في مكة حتى تشرين الاول ١٩٢٤ ، حيث غادرن الحجاز الى العقبة مع الحسين على أثر تنازله عن العرش ـ كما سنأتي اليه في الفصل القادم • وقد انتقلن من بعد ذلك الى عمان ومنها الى بغداد ، وكان وصولهن الى بغداد في ١٦ كانون الاول ١٩٢٤[١١] •

تمرد البدو :

مرت على الحسين في السنوات الاخيرة من حكمه أوقات عسيرة جداً من الناحية المالية ، ذلك لان بريطانيا أخذت تخفض معونتها المالية الشهرية له ابتداءاً من انتهاء الحرب ، ثم قطعتها نهائياً في نيسان ١٩٢٠ • فاضطـر الحسين الى الحصول على المال بطرق شتى منها فرض القروض الاجبارية التي لا تُسدد على التجار[١٢] ، ومنها المشاركة في تجارة الغنم واجـور المطوفين والخبازين والجمالة وغيرهم[١٣] ، وكذلك اضطر الحسين الى قطع المعونات التي اعتادت القبائل البدوية أن تأخذها منه • وقد أدى ذلك الى انتشار التذمر العام في الحجاز وفي اوساط الحجاج ، كما ادى الـى تمرد القبائل البدوية فصارت تقطع الطرق على الحجاج ، ولا سيما الطريق الرئيسي الذي يربط المدينة بمكة •

---

(١٠) جريدة (العراق) ـ في عددها الصادر في ٦ تشرين الاول ١٩٢٤ •

(11) Burgoyne (op. cit.) – vol. 2, p. 359.

(١٢) طالب محمد وهيم (مملكة الحجاز) ـ اطروحة ماجستير غير منشورة ـ ص ٢٠١ •

(١٣) أمين الريحاني (تاريخ نجد الحديث وملحقاته) ـ ص ٣٤٧•

اعتاد البدو منذ قديم الزمان على قطع الطرق وفرض الاتاوة على المسافرين ، وهم يعتبرون ذلك حقاً مشروعاً لهم يرتزقون منه ، ولا يتركونه الا اذا أخذوا عوضا عنه مبالغ سنوية من الحكومة ، فاذا امتنعت الحكومة عن الدفع عادوا الى قطع الطريق . وهذا ما وقع في الحجاز على أثر قطع الحسين دفع المعونات الى القبائل البدوية .

يحدثنا السيد محسن أبو طبيخ في مذكراته المخطوطة انه عندما لجأ الي الحجاز هو وزملاؤه من رجال ثورة العشرين ، عقب انهيار الثورة ، خرجت عليهم قبيلة حرب على مقربة من المدينة ، فحصرتهم في وادي ضيق وقطعت عليهم الطريق . ولما أخبروها بأنهم ضيوف الملك حسين كان جوابها : انا نريد قتلكم لانكم ضيوف الملك حسين . ولم يتخلصوا منها الا بعد ان دفعوا لها أتاوة قدرها خمسمائة ليرة ذهب[١٤] .

وفي صيف ١٩٢١ ذهب الشيخ علي الشرقي الى الحج في معية الشيخ خيون العبيد ، وهو يحدثنا في كتابه « الاحلام » حديثاً مستفيضاً عما كابدته قافلته في مسيرتها بين مكة والمدينة من خسائر في الارواح والاموال . ننقل فيما يلي موجزاً له :

كان الحسين قد أرسل مع القافلة حرساً مؤلفاً من خمسمائة رجل مع قائد لهم ، ولكن ذلك لم ينفع القافلة بل أضر بها . ففي الليلة الاولى من مسيرتها فقدت شخصين قُتلا وهما في محملهما . وفي الليلة الثانية فقدت القافلة ستة عشر رجلا أصبحوا قتلى في محاملهم . وعند هذا قررت القافلة العودة الى مكة وترك زيارة المدينة . ولكن القائد طلب من الشيخ علي الشرقي الاجتماع به منفرداً وقال له : اني أودعك سراً في افشائه اراقة دمي ، ان هذه القبائل لاحساب لها معكم ، ان حسابها مع الملك الذى بخسهم

---

(١٤) نقلا عن مذكرات السيد محسن أبو طبيخ المخطوطة .

حقهم وليس له قوة على ردعهم ، وما هذه الفواجع التي نزلت بكم الا من بيرقنا الذى يرافقكم ، فاذا انطوى هذا البيرق أمكنكم التفاهم معهم بسهولة فتسيرون بسلامة واطمئنان . وطلب القائد من الشرقي أن يكتب الى الملك كتاباً يشكره فيه لكي يحمله القائد ويعود الى مكة مع بيرقه .

يقول الشرقي : انهم فعلوا ما اوصاهم به القائد ، وجمعوا مبلغا من المال دفعوه الى قبيلة حرب . ثم ساروا مطمئنين نحو المدينة . غير أنهم لم يكادوا يقتربون منها ويشاهدون أضوية الحرم النبوي حتى فاجأهم بنو سليم ، وهم فخذ من حرب يسكنون بالقرب من المدينة ، فأمطروهم بنيران بنادقهم وقتلوا منهم اربعين شخصاً كان من بينهم أربع نساء عراقيات، وذلك ماعدا الجرحى ، ثم نهبوا القافلة .

وعند وصول القافلة الى المدينة قدم رجالها شكواهم الى الحكومة . وذهب الشرقي باعتباره الناطق بلسان القافلة الى السراي لمقابلة الحاكم السياسي الشريف شحاذ ، وحين قابله حضر عنده رؤساء بني سليم وكان كل رجل منهم يستند على بندقيته والخراطيش مصفوفة على صدره . فأخذ الحاكم يخاطب الرؤساء معاتباً موبخاً لما فعلوه بوفد الله ووفد رسوله – يقصد القافلة – ثم سألهم أن يدلوه على الفاعل ، فانبرى له شاب وسيم اسمه محمد بن نهار وقال « انا الفاعل » . وتبين أنه رئيس بني سليم . فجرت بينه وبين الحاكم محاورة على النمط التالي :

الحاكم : لماذا ؟

الرئيس : حتى أعرّف الشريف حسين أن عند بني سليم بارود ، وليس البارود عند غيرهم فقط .

الحاكم : ذلك أمر بينكم وبين الملك ، وما شأن هؤلاء الضيوف . حسبكم ما وقع ودعوني أخرجهم بسلام يا ابن نهار .

الرئيس : لاتخرجهم ولا هم يخرجون حتى يصفّي الشـــــريف حسابنا •

الحاكم (غاضبا) : يا ابن نهار أخرجهم بهذا (واشار بابهامه الــى خرطوشة من الخراطيش المصفوفة على صدره) •

الرئيس : تخسأ ياحمّار ياخمّار ، وعيش عاش فيه رسول الله لأن أخرجتهم لاذبحنك وأذبحهم معك ، هيا يا معشر حــرب • (وخــرجوا جميعاً) •

قرر رجال القافلة أخيراً أن يجمعوا الاتاوة المعتادة لبني ســليم ، ومقدارها ستة آلاف ليرة ، لكي يتمكنوا من العودة الى مكة سالمين • وقد بلغ الحسين ذلك وقرر ان يشتري سمعة حكمه بأن يدفع المبلغ من ماله ، فأوعز الى وكيله في المدينة السيد عمران الحبوبي بأن يدفع المبلغ الى بني سليم ويسجله على الحساب • وقد فعل السيد عمران ذلك ، وعادت القافلة الى مكة بسلام[١٥] •

اعتاد الحسين ان يذيع بياناً على الحجاج فحواه ان الحكومة مُلزمة بدفع التعويض عن جميع ما تنهبه القبائل منهم ، فعلى من يُنهب منه شيء ان يقدم للحكومة عريضة يذكر فيها مقدار ما نُهب منه ويحلف بالكعبة على ذلك • يروي الشرقي نقلا عن قائمقام جدة الحاج محمد علي نمازي : ان بعض الحجاج يصدقون بهذا البيان فيقدمون عرائضهم الى الحكومــة ويبقون في الحجاز منتظرين دفع التعويض الى أن تتحرك آخر باخرة من بواخر الحجاج فينقطع بهم الطريق ويموتون جوعاً[١٦] •

واقعة تربة :

ان تربة والخرمة واحتان حجازيتان تقعان الى الشرق من الطائف

---

(١٥) علي الشرقي (الاحلام) ــ بغداد ١٩٦٣ ــ ص ١٢٩ ــ ١٣١ •
(١٦) المصدر السابق ــ ص ١٣٢ •

وكان يحكمها الشريف خالد بن لؤي وهو من اقرباء الحسين . وفي عام ١٩١٨ حنق خالد من الحسين ومن ابنه عبدالله ، وقيل ان مشاجرة عنيفة جرت بينه وبين عبدالله فضربه عبدالله على فمه بالنغال ، فذهب خالـــد غاضباً الى ابن سعود في الرياض ، وهناك أعلن « تدينه » ـ أي اعتنق المذهب الوهابي ـ ونال وعداً من ابن سعود بمساعدته ، ثم عاد الى منطقته معلناً عصيانه على الحسين ومتحديا له .

أرسل الحسين قوة لقتال خالد واعادته الى الطاعة ، فردها خالـــد مدحورة ، وأرسل الحسين قوة ثانية وثالثة ، فكان مصيرهما كالاولى . وصمم الحسين أخيراً ان يرسل الى خالد قوة كبرى تنتصر عليه ثم تتوجه بعدئذ الى الرياض لتأديب ابن سعود نفسه .

وجد الحسين فرصته في كانون الثاني ١٩١٩ حين استسلم له فخرى باشا مع قواته في المدينة ، فقد استولى الحسين على ماكان لدى فخري باشا من مدافع ورشاشات واعتدة كثيرة ، وظن انه قادر بهذه المعدات وبما لديه من جيش نظامي ان يضرب خالد بن لؤي ضربة ماحقة .

أوعز الحسين الى ابنه عبدالله أن يتحرك بقواته نحو خالد . يقول عبدالله في مذكراته انه اعترض على ابيه في هذا الامر وشرح له حالة جنوده الذين سئموا من القتال بعد تلك المدة الطويلة التي قضوها في حصارالمدينة ، وذكر له انهم يرغبون في العودة الى أوطانهم بعدما أثروا وامتلأت جيوبهم بالاموال . ولكن الحسين أصر على تنفيذ امره ، واضطر عبدالله الى [illegible] الطاعة[17] .

كانت حملة عبدالله مؤلفة من ٨٥٠ جندياً نظامياً ، ونحـــو ١٥٠٠ محارب غير نظامي ، وكان معها عشرة مدافع ونحو عشرين رشاشا ثقيلا وعشرين رشاشا خفيفا . ومن الجدير بالذكر ان معظم ضباط الحملة كانوا

---

(١٧) عبدالله بن الحسين (مذكراتي) ـ القدس ١٩٤٥ ـ ص [illegible]

من العراقيين كمحمد حلمي الحاج ذياب وصبري العزاوي وابراهيم الراوي وحامد الوادى وعباس العاني وسامي صبرى ورشيد خماس وجمال علي وخضير مخلص •

عندما وصلت الحملة الى موضع يدعى « عشيرة » يقع على بعد ثلاثين كيلومتراً من شرق الطائف ، جاء اليها الحسين بنفسه لاستعراضها • وحين جرى استعراضها ابتهج بها الحسين وخيل له انها قادرة على فتح جزيرة العرب كلها • وقد حاول عبدالله اقناعه بوجوب التريث ، ولكن الحسين كان مصراً على مواصلة الزحف وقال له : « يجب عليك ان تتوجه الى الخرمة للقضاء على هذه الحركة الفسادية ، وان معك من القوة ما لو قاتلت بها كل العرب لتغلبت عليهم »[18] •

وصل الى « عشيرة » لمقابلة الحسين حسين روحي افندي الذى كان يومذاك يعمل سكرتيرا للقنصل البريطاني في جدة • وكان هذا الرجل يحمل للحسين كتاباً من القنصل ينصحه بالاعتدال وبحل النزاع بينه وبين ابن سعود سلماً • فلما قرأ الحسين الكتاب قال بصوت عالي يخاطب حسين روحي على مسمع من الحاضرين : « اذهب وقل لهم انهم لاحق لهم بالتدخل في شؤوننا الداخلية ، فنحن احرار نفعل ما نريد »[19] •

عاد الحسين الى مكة ، وواصلت الحملة سيرها نحو تربة التى كانت تبعد عن الطائف شرقاً بسبعين كيلو متراً ، فاحتلتها بسهولة • وكان ابن سعود قد أرسل الى عبدالله يحذره من مهاجمة تربة والخرمة ، فرد عليه عبدالله ينذره ويتوعده • وقد أمر ابن سعود بالتعبئة العامة في نجد وسار على رأس جيش قُدر عدده باثنى عشر ألف رجل متوجهاً نحو الحجاز ،

---

(١٨) المصدر السابق ـ ص ١٥٦ •

(١٩) أمين سعيد (المصدر السابق) ـ ج٢ ص ٨٤ •

وأرسل أمامه طلائع من رجاله الفدائيين ـ وهم الذين عُرفوا باسم « الاخوان » ـ يقدر عددهم بألف وخمسمائة رجل بقيادة خالد بن لؤي وسلطان بن بجاد .

وصل الاخوان الى الخرمة واجتازوها متوجهين نحو تربة . وفي عصر ٢٤ أيار ١٩١٩ وصل الى تربة رجل بدوي وقال للامير عبدالله : « تحذر ياشريف . المتدينة ـ يقصد الاخوان ـ في الخرمة هاجمون عليكم». فغضب الامير منه وأمر بقطع رقبته . وقيل في رواية أخرى ان الامير أمر كبير عبيده بضرب الرجل ، فضربه العبد حتى مات[٢٠] . وقال الامير أمام الحاضرين لتبرير عمله : « انهم أرادوا من ارساله الينا أن يوهنوا في أعصابنا »[٢١] .

تحرك الاخوان نحو تربة في مساء ٢٤ أيار ، وهم يهتفون : « هبت هبوب الجنة وين أنت يا باغيها ! » . واقتربوا من تربة في فجر اليوم التالي ، ثم هاجموها هجوماً مفاجئاً صاعقا . واستمرت المعركة بين الفريقين نحو ساعتين انتصر فيها الاخوان انتصاراً ساحقاً .

كان ابراهيم الراوى من المشاركين في المعركة وقد أعطانا وصفاً لها في مذكراته حيث قال : « ... هجموا علينا مع أذان الفجر ، ومع أننا كنا على علم بأننا في هذه الليلة سنُهاجم ، وكنا اتخذنا للامر عدته ، ولكن شدة الهجوم النابع من رغبة صادقة وعزيمة لاتقهر ... وكانت تحت امرتي بطرية جبلية سريعة عيار ٥ـ٧سم جرمنية ، وبطرية اخرى سريعة (قدرتلي) شيكوسلوفاكية ، ومدفعان هاون . فعند سماعي خبر الهجوم تهيأت للذهاب للبطرية التى كان آمرها السيد عباس ، وكان بينى وبين موضع البطرية حوالي مائة متر ، وكنت نائما ببزتي العسكرية ، وفيما كنت متوجها بدأت

---

(٢٠) امين الريحاني (المصدر السابق) ـ ص ٢٥٤ .
(٢١) امين سعيد (المصدر السابق) ـ ج٢ ص ٩٠ .

المدافع والرشاشات توجه نيرانها ، والمشاة ترمي ببنادقها وقنابرها اليدوية تسمع في كل الجهات ، ومع كل هذا كان البعض من الاخوان قد تسرب الى داخل المعسكر وتم التلاحم حتى بالمسدسات والخناجر ... وقد من الله علي بلطفه فوصلت المدافع سالما ورأيت آمرها السيد عباس يوجه مدافعه نحو الاخوان ويصليهم ناراً حامية . وبعد مرور بضع دقائق واذا بالملازم خضر .. وهو يبكي ويقول : ان الاخوان استولوا على رشاشاتنا . وبعد بضع دقائق وصل الاخوان الى المدافع التى كنا عندها ، وأخذوا يستولون عليهــــا ، ويقتلون كل مرتبانها ، فابتعدت عنهم لاركب حصاني واذهب الى البطرية الاخرى التى كانت في موضع آخر ، فأتيت الى من كان ممسكاً بحصاني وهممت بالركوب ، ولما ادخلت رجلي بالركاب ... استهدفنا أربعة مـن الاخوان .. لم اتمكن من ركب الحصان فقد قتل الاخوان الجندي وأخذوا الحصان ، فذهبت الى اسطبل بطرية جبلية قريبة مني فأخذت منها بغلا، ثم بعدت ، واذا بحصـــــان آخر هو لي ، فأتيت فامتطيته . وقبل ان أضع الاعنة في يدي وجدت الاخوان بالقرب مني ، فحدجا في ، ورماني أحدهم بطلقة نارية والمسافة بيني وبينه مترا واحدا ، فابتعدت بعدما قضوا على جميع الذين كانوا معي عدا اثنين من الفرسان .. وعند ذاك كانت الشمس توشك ان تشرق وكانت المعركة في نهايتها ، فابتعدت عن القرية والدماء تنزف من ذراعي ... »(٢٢) .

خسرت الحملة كل ما كان لديها من مدافع وسلاح ومتاع ، كمــــا فقدت معظم ضباطها وجنودها ، ولم ينج من قواتها النظامية سوى سبعـــــة ضـــــباط ومـائة وخمســـــين جنديا . يقـــــول ابراهيم الراوي : انه كان في حوزته ألف ليرة ذهب ، وسيف مذهب ثمين ، وحصانان وذلول

(٢٢) ابراهيم الراوي (ذكريات) ـ بيروت ١٩٦٩ ـ ص ١٣٤ ـ ١٣٨ .

وبعض الاثاث ، وقد فقدها كلها في المعركة ، وهو يحمد الله على نجاته على أي حال !(٢٣) .

كانت نجاة عبدالله من المعركة بأعجوبة ، اذ استطاع ابن عمه الشريف شاكر بن زيد أن يردفه على فرسه ويفر به على عجل . وقد تحدث عبدالله فيما بعد عن هذه الواقعة حيث قال : « مازال يرن في سمعي صوت المغيرين ليلة تربة : الجنة ، الجنة ، الجنة ...»(٢٤) .

وصل ابن سعود الى ساحة المعركة بعد انتهائها . وهناك ورد اليه انذار من الحكومة البريطانية يقول : « ترجوكم حكومة صاحب جلالة الملك ان تعودوا الى نجد عند وصول هذا الكتاب الى يدكم ، وتتركوا تربة والخرمة منطقة حرة وغير مملوكة لاحد حتى عقد الصلح وتحديدالحدود . واذا لم تعودوا فان حكومة بريطانيا تعد كل اتفاق بينكم وبينها ملغيا وتتخذ ما يلزم من التدابير ضد حركاتكم العدائية . وهي تأسف كل الاسف لما حصل بين أصدقائها وكانت ترجو الا يقع »(٢٥) .

وفي الوقت الذى وصل هذا الانذار الى ابن سعود كان الاخوان يطالبونه بالزحف على الطائف ، وصاروا يصيحون : « الى الطائف ، رخص لنا بالطائف ! » . فمنعهم ابن سعود من ذلك وقال : « كفى الباغي جزاء بغيه »(٢٦) .

ازمة في لندن :

ان واقعة تربة أدت الى حصول ازمة حادة في وزارة الخارجية

---

(٢٣) المصدر السابق ــ ص ١٤٠ ــ ١٤٣ .
(٢٤) خيرالدين الزركلي (شبه الجزيرة في عهد الملك عبدالعزيز) ــ بيروت ١٩٧٧ ــ ج١ ص ٣٢٢ .
(٢٥) أمين سعيد (المصدر السابق) ــ ج٢ ص ٩٣ .
(٢٦) امين الريحاني (المصدر السابق) ــ ص ٢٥٧ .

البريطانية • فقد كانت بريطانيا حينذاك تقف الى جانب الحسين وتؤيده من كل ناحية ، كما كانت واثقة كل الثقة من قوته ومن انــه قادر على دحــر ابن سعود وتحطيمه • وكان رأي الخبراء البريطانيين أن « تلك الحثالات من الوهابيين المتعصبين » لاتستطيع ان تصمد صمودا جدياً تجاه قـــوات الحجاز النظامية التي تدربها بريطانيا وتجهزها بالاسلحة والمعدات •

كان فيلبي يومذاك في لندن ، فاستُدعي لحضور المؤتمر الذي عقده وزير الخارجية البريطانية اللورد كرزن لدراسة هذا الموضوع • وكان رأي فيلبي على النقيض من رأي الخبراء الذين حضروا المؤتمر ، ولكن الخبراء استهجنوا رأيه واستهزأوا به • ويقول فيلبي في مذكراته : انه عندما وقعت واقعة تربة ، وانتصر فيها ابن سعود ، عقد اللورد كرزن مؤتمرا ثانيا ، وحين حضر الخبراء رآهم فيلبي مطأطيء الرؤوس وقال احدهم : « يبدو اننا راهنا على الجواد الخاسر »[(٢٧)] •

كان اللورد كرزن قد تلقى برقية من القنصل البريطاني في جـــدة يقول فيها ان جدة اكتظت باللاجئين الذين فروا من الطائف ومكة خوفا من الوهابيين ، وفيهم نحو أحد عشر ألف هندي من رعايا بريطانيا ، وأصبح من المتوقع انتشار الاوبئة بينهم • وطلب القنصل في برقيته عددا من البواخر لنقل اللاجئين •

عندما تداول المؤتمر في أمر هذه البرقية تبين أن البحرية البريطانية غير قادرة على توفير أية باخرة لنقل اللاجئين • فالتفت كرزن نحو القادة العسكريين الحاضرين في المؤتمر وقال : « ماذا في وسع وزارة الحرب أن تفعل ؟ فليس في وسعنا ان نترك هؤلاء الناس يُذبحون ذبح النعاج على أيدي الوهابيين » فرد أحد القادة عليه قائلا : « أخشى يا سيدي اننا لانستطيع

---

(٢٧) خيري حماد (عبدالله فيلبي) ــ بيروت ١٩١١ ــ ص ٧٤ ــ ٨١ •

ان نعمل شيئاً • ان وزارة الحرب مصممة على عدم اقحام نفسها في أيـة مغامرة حربية في الصحراء العربية فقد كفانا ما مررنا به حتى الآن »•

أبدى فيلبي رأيه حيث قال : ان بريطانيا لو وافقت على احتفاظ ابن سعود بواحتي تربة والخرمة ، فانه سيرضى بذلك ويتوقف عن الزحف • وتعهد فيلبي أن يذهب بنفسه الى ابن سعود لاقناعه بذلك • فوافق المؤتمر على رايه ، وأعدت له طائرة خاصة لنقله الى الحجاز على عجل • وغادر فيلبي لندن بالطائرة ، ولكنه عند وصوله الى القاهرة علم بأن ابن سعود قد أوقف الزحف وعاد الى الرياض ، ولم يبق هناك من خطر على اللاجئين في جدة •

كانت بريطانيا قد ارسلت الى جدة ست طائرات مشحونة في صناديق بغية الدفاع عن الحجاز تجاه هجوم الوهابيين • وكان المندوب السامي في القاهرة الجنرال اللنبي عازماً على استخدام تلك الطائرات فعلا ، غير ان فيلبي نصحه بأن لايفعل اذ قال له : « ان الطائرات التى أرسلت الى جـدة اذا استخدمت وهبطت احداها في ارض وهابية فسيقطع الوهابيون رقاب طياريها » • فأصدر الجنرال أوامره بان تظل الطائرات في صناديقها[٢٨] •

عقدة الحسين :

كانت واقعة تربة ذات أثر كبير على الحسين نفسياً وصحياً • يقول عبدالله في مذكراته : « فلقد وجدته بعد رجوعي الى المركز ، أي بعد واقعة تربة وفتح المدينة ، على غير علمي بجلالته ، وكان مرضه الذى توفاه الله بـه ـ يقصد مرض تصلب الشرايين ـ ابتدأه منذ ذلك الحين ، فكان كثير الصلف ، كثير النسيان ، كثير التردد ، قليل الاعتماد على من كان يعتمد عليه •• وللمسألة خطورتها »[٢٩] •

---

(٢٨) المصدر السابق ــ ص ٨١ •
(٢٩) عبدالله بن الحسين (المصدر السابق) ــ ص ١٦٣ •

أصبحت واقعة تربة بمثابة العقدة النفسية للحسين فلم يكن يهن عليه أن ينتصر عليه رجل كان يعتبره من أمراء الدرجة الخامسة • وكان يلقي اللوم في هزيمة تربة على ابنه عبدالله اذ اعتبره المسؤول الاول عنها • ومعنى ذلك انه جعل عبدالله كبش الفداء • وظل الحسين دائم التفكير في الانتقام من ابن سعود وفي استعادة تربة والخرمة منه •

اصبح الحسين كغيره من ذوي العقد النفسية يرتاح لمن يدغدغ عقدته ويداريها • ولهذا حف به بعض المتزلفين وصاروا يصورون له الدنيا كما يشتهي • يروي أمين الريحاني قصة رجل من هؤلاء المتزلفين هي أنه كان متفنناً في اختلاق أخبار السوء عن نجد وابن سعود ، وكان الحسين يقرب اليه هذا الرجل ويرتاح لحديثه • جاءه الرجل ذات يوم وجرت بينهما محاورة على النحو التالي :

الرجل : « السنة سنة جدب في نجد • وقد جفت الآبار ، وهلك الالوف من البل » •

الحسين : « صحيح ! سبحان الله • أنت يابني أعلم الناس بأحوال نجد » •

الرجل : « ابن سعود مصخن سيدي ، مضروب بالرئة ، يقولون : السل • وهذا الداء لا يعيش صاحبه » •

الحسين : « صحيح ؟ صحيح ؟ ـ سبحان الله ! لايصدقني الخبر غيرك » •

الرجل : « وقد خرجت عليه قبائل الحسا ، وهم يقولون انهم لايبغون غير الملك حسين » •

الحسين : « هذا الذى أقوله دائما يا ابني • ستخرج عليه القبائل كلها • وكلها تجيئنا ان شاء الله »[٣٠] •

---

(٣٠) امين الريحاني (المصدر السابق) ـ ص ٣٤٦ •

مفاوضات لورنس :

في صيف ١٩٢١ قررت الحكومة البريطانية عقد معاهدة مع الحسين فهي كانت تظن ان الحسين يخدم لها ما فعلت له حيث عينت أحد أولاده ملكاً على العراق ، والثاني أميراً على شرقي الاردن ، وذلك بالاضافة الى كونه هو قد صار ملكاً في الحجاز • فأرسلت اليه صديقه لورنس ليكون ممثلها في التفاوض معه لعقد المعاهدة •

وصل لورنس جدة في ٢٩ تموز وكان معه جبرائيل حداد باشا • وفي اليوم التالي عقد أول اجتماع له مع الحسين ، وكان مع الحسين ابناه علي وزيد ووزير خارجيته فؤاد الخطيب • فافتتح لورنس الحديث قائلا : « ان هناك ديناً يُراد توفيته ولا يتيسر دفعه الآن برمته ، ولكن يُدفع منه قسط قليل على أن ينظر في تسديد الباقي في المستقبل • ثم قدم لورنس مسودة لمعاهدة كانت قد أعدت في لندن سابقاً ، فقال الحسين يخاطب لورنس: « انت شرفت ، ولا بد من البحث والمناقشة واهلا وسهلا »(٣١) •

دامت المفاوضات خمسة اسابيع ، وقد اتبع الحسين فيها طريق المماطلة والمراوغة ، فكان يجامل لورنس في اثناء المفاوضة ويمدح بريطانيا العظمى ولكنه في النهاية لايوافق على شيء • وقد أبرق لورنس في ٢ آب الى وزير الخارجية البريطانية اللورد كرزن يقول له : « اجتمعت بالملك عدة مرات ، وقد أعلن لي عن تخليه عن موقفه المبني على اساس رسائل مكماهون ، ولكنه يثير أفكارا عميقة جديدة كل يوم • انه عجوز أحمق لاحدود لغروره وأطماعه ، ولكنه يبدي الكثير من الود ويؤكد أنه صديق مخلص لنا »(٣٢) •

---

(٣١) أمين سعيد (الثورة العربية الكبرى) ـ القاهرة ـ ج٣ ـ ص ١٥٨ •

(٣٢) نايتلي وسمبسون (المخفي من حياة لورنس العرب) ـ ترجمة لاوند والعابد ـ بيروت ١٩٧١ ـ ص ١٥٣ •

توتر الوضع بين لورنس والحسين على أثر ذلك . فقد طلب لورنس من الحسين أن يتكلم بصراحة ماذا يريد ، فقدم الحسين أربعة مطاليب هي: (١) الاعتراف بأن يكون العراق وفلسطين تابعين له ، (٢) أن تُضـــم عسير والحديدة الى الحجاز ، (٣) أن يكون هو مقدماً على جميع أمراء العرب ، (٤) أن يعود امراء العرب الى حدودهم القديمة ، والمقصود من ذلك انسحاب ابن سعود من تربة والخرمة .

اثارت هذه المطاليب امتعاض لورنس ، فرد على الحسين بشدة واتهمه بالطمع ، وأوضح له مدى امكانياته وأوقفه على واقع الامور قاصداً من ذلك الاشارة الى ضعفه وأن في مقدور ابن سعود الوصول الى مكة في مـــدى ثلاثة أيام . فظهر التأثر الشديد على الحسين من هذا الكلام وغادر الاجتماع غاضبا دون ان يتلفظ بكلمة وداع . وأرسل لورنس الى اللورد كرزن برقية وصف فيها ما جرى وختمها بقوله : « ان الملك أضعف مما كنـــت أظن ، وأرى أنه يمكن الضغط عليه حتى يستسلم استسلاماً نهائياً ، واذا تمكنا من التغلب عليه الآن ، فان التفاوض معه سيكون اكثر سهولة في المرة القادمة »[٣٣] .

حل موسم الحج في منتصف شهر آب ، فاضطر الحسين الى العـــودة الى مكة للمشاركة في الموسم والاشراف عليه ، وذهب لورنس بدوره الى عدن حيث قضى فيها اسبوعين ، ثم عاد الى جدة في ٢٩ آب ، كما عاد اليها الحسين في ٢ ايلول . فاستؤنفت المفاوضات من جديد .

حاول الحسين في هذه المرة التخفيف من مطاليبه الســـابقة ، حيث طلب : أن تعود جميع الامارات العربية الى الحدود التى كانت لها قبـــل انتهاء الحرب ، وأن يكون له حق تعيين جميع رجال القضاء والافتـاء في الجزيرة العربية والعراق وفلسطين ، وان يُعترف له بالسيادة فوق جميع

(٣٣) سليمان موسى (المصدر السابق) ــ ص ٦٩ ــ ٧٠ .

الحكام والأمراء العرب في جميع الاقطار • فرد لورنس على هذه المطاليب رداً أشد مما فعل في المرة الاولى • ويقول لورنس في برقية الى اللورد كرزن : ان الحسين عند سماعه لهذا الرد طلب خنجرا وحلف يميناً انه يتخلى عن العَرش او يقتل نفسه • فقال له لورنس « ان الحكومة البريطانية سوف ستأنف المفاوضات مع الرجل الذى سيخلفه »[٣٤] •

لم ييأس لورنس من النجاح في عقد المعاهدة ، وظل يعيد الكرّة في مفاوضاته كلما أخفق فيها • وفي ٢٢ ايلول أبرق الى حكومته يقول ان الحسين صادق على جميع مواد المعاهدة وأعلن على رؤوس الاشهاد أنه سيوقعها عما قريب ، ولكنه عندما قدم الامير علي اليه نص المعاهدة لكي يصادق عليها صرخ في وجهه ورماها عليه • ويقول لورنس في برقيته : ان الامير عليّ وصف أباه بالجنون ، وأنه اتفق مع أخيه الامير زيد على العمل على اقالته • ويبدي لورنس تفاؤله من تعاون عليّ وزيد معه في المفاوضة ، ويقول عنهما : انهما يتصرفان بطريقة مدهشة وقد يغيران الامور في الاسابيع القليلة القادمة[٣٥] •

وافق لورنس على اضافة مادة على المعاهدة يُنص فيها أن المعاهدة لاتنقض أي عهد او وعد قُطع للعرب في أثناء الحرب • وكان لورنس يتوقع ان هذه المادة سوف ترضي الحسين ، ولكن الحسين لم يرضه شيء • وأخذ أفراد عائلته وحاشيته يلحون عليه لكي يوافق على المعاهدة بلا جدوى • ويقال ان زوجته أم زيد اشتركت في الالحاح عليه • ولما ضايقوه بالحاحهم صعد الى سطح الدار واتجه نحو الكعبة وأقسم بربها على أنه لايوقع أية معاهدة لاتحقق الوعود التي وُعد بها سابقا ، ثم نزل عن السطح وانزوى وحده لايكلم أحداً • ولما رأى أفراد عائلته ذلك منه كفوا عن التكلم حول المعاهدة معه ، ثم اتفقوا مع لورنس على أن يزور الامير عبدالله

---

(٣٤) المصدر السابق — ص ٧٣ •

(٣٥) طالب محمد وهيم (المصدر السابق) — ص ٢٢١ •

في عمان لكي يوقـــع الامير المعاهدة باسم والـــده ، ثم يرسلها اليـــه لاقرارها[٣٦] .

غادر لورنس جدة في ٢٢ ايلول متوجهاً الى عمان ، وحين وصـــل اليها أكب هو والامير عبدالله على تمحيص المعاهدة للتوصل الى صيغـــة تنال موافقة الفريقين . وفي ٢٩ تشرين الثاني أبرق لورنس الى اللورد كرزن يقول انه توصل الى نص معدل للمعاهدة حظي بموافقة الاميـــــر عبدالله ، وان الامير على ثقة من أن أباه سوف يصادق على النص الجديد . وقد تم التوقيع على المعاهدة في عمان في ١٨ كانون الاول من قبل لورنس والامير عبدالله .

وفي ٢٧ منه وصلت صيغة المعاهدة الجديدة الى الحسين ، ولكنه بدلا من المصادقة عليها أبرق الى لويد جورج رئيس الوزارة البريطانية يقترح ارسال ابنه عبدالله الى لندن من أجل اعادة النظر في صيغة المعـــــاهدة وتنقيحها . فعاد الجواب من لويد جورج عن طريق القنصل البريطاني في جدة بالصورة التالية ، حيث يقول القنصل ما نصه : « كلفتني حكومة جلالة الملك البريطانية بمناسبة برقية جلالتكم بتاريخ ٢٨ كانون الاول ١٩٢١ للمستر لويد جورج ، أن أذكر جلالتكم بأن مسألة تنقيح المعاهدة شـــيء خارج عن الموضوع ، وأنه يقتضي اما قبولها او رفضها كما هي . وتضيف على ذلك ان زيارة سمو الامير عبدالله لانجلترا يجب اعتبارها أنها تأجلت في الوقت الحاضر . واذا أردتم جلالتكم بعد التصديق على المعاهدة فتح باب موضوعات أخرى لتبادل الحديث فيها وتفويض الامير عبدالله لهـــذا الغرض فان زيارة سموه لانجـــلترا تكون عندئذ فرصة لتقـــديم تلك المعروضات لحكومة جلالة الملك البريطانية » .

تألم الحسين من هذا الجواب كثيراً ، وكتب الى القنصل البريطاني

(٣٦) أمين سعيد (المصدر السابق) – ج٣ ص ١٥٨ .

في جدة يشرح له الاسباب التي دعته الى اقتراح ايفاد عبدالله الى لندن ، ثم قال انه لايفهم أسباب التحدي والتحامل اللذين ظهرا في الجواب ، وانه لايريد جواباً على مطالعاته الا قول « لا » او « نعم » ، وانه سيجد نفسه مضطراً لاتخاذ موقف ما اذا لم يحصل من بريطانيا على احدى الكلمتين « لا » أو « نعم » .

وفي اليوم التالي كتب الحسين الى القنصل رسالة أخرى بالمعنى ذاته وقال فيها : ان رفض الحكومة البريطانية لزيارة عبدالله الى لندن يؤيد الاشاعة القائلة بان بريطانيا تريد التبرؤ مني ، وان هذا كله يدفعني الى القول بانني اذا لم يأتني الجواب بـ « نعم » أو « لا » حتى نهاية الشهر الجاري - أي في ٢٧ شباط - فانني مضطر الى اعلان تنازلي .

وبعد يومين كتب الحسين الى القنصل رسالة ثالثة ذكر فيها أن مواد المعاهدة التي يُراد منه المصادقة عليها تقوم على « ماليس له أصل ولاوجود» ، يشير بذلك الى ما ورد في المعاهدة في شأن احترام الصلات والحدود المتفق عليها بين أقطار الجزيرة العربية . فهو يعتبر تلك الحدود ولا سيما تلك التي هي بين الحجاز ونجد لم يتم حولها اى اتفاق ، وهو يريد اعادة الحدود الى ما كانت عليه قبل نهاية الحرب .

بلغ التوتر في علاقة الحسين مع بريطانيا أقصاه في ١٤ شباط ١٩٢٢ ، فقد كتب القنصل البريطاني في جدة رسالة الى الحسين لاتخلو من اهانة حيث ذكر له ان الحكومة البريطانية أخذت علماً بعزمه على التنازل عن العرش في ٢٧ شباط ، وانها وهي تذكر تعاونه المخلص وعلاقاته الودية معها سابقاً تتأسف لاضطراره الى التنازل ، ولكنها تدرك أنها لاشأن لها في هذه القضية ، اذ هي قضية تخص أبناء شعبه وهو يجب أن يسويها معهم . فرد الحسين على القنصل برسالة أعرب فيها عن خيبة أمله وقال انه تحمل

المخاطر اعتماداً على عهود بريطانيا دون الرجوع الى الشعب ، ولهذا فان الشعب لاشأن له في قضية تنازله عن العرش[٣٧] .

الدكتور ناجي الاصيل :

ناجي الاصيل شاب بغدادي درس الطب في جامعة بيروت الامريكية، وعند تخرجه منها التحق بالجيش العربي طبيباً برتبة نقيب ، ولما انتهت الحرب حصل على وظيفة في شركة تُدعى « الشركة الانكليزية الفرنسية للاعمار في الشرق الاوسط » ، وقد أرسلته هذه الشركة الى الحجاز في حزيران ١٩٢٢ لانشاء بعض المشاريع فيه . وهناك وجد فرصة للاجتماع بالحسين والتحدث اليه .

تشير بعض القرائن الى ان ناجي الاصيل استطاع أن يؤثر في الحسين نفسياً وينال ثقته ، فقد ذكر له الاصيل أنه يعرف بعض الشخصيات المتنفذة في السياسة البريطانية وانه لذلك قادر على عقد معاهدة ترضي الحسين . وقد بلغ تأثير الاصيل في الحسين الى درجة ان الحسين عينه مندوبا عنه في لندن وخوله التفاوض باسمه مع الحكومة البريطانية .

غادر الاصيل الى لندن وهو يحمل صيغة معدلة للمعاهدة ، كما حمل معه رسالة من الحسين الى لويد جورج يقول فيها ان عدم موافقته على المعاهدة سابقاً ناشيء من عدم وجود من نحسن التفاهم معه . وفي أواخر ايلول ١٩٢٢ وصل الاصيل الى لندن وعرض الصيغة المعدلة على وزارة الخارجية ، وحين درسها خبراء الوزارة وجدوا أن التعديلات التي ادخلها الحسين في المعاهدة مقبولة ماعدا اسقاطه مادة واحدة وهي المادة السابعة عشرة التي تنص على الاعتراف بالمركز الخاص لبريطانيا في فلسطين .

عادت المفاوضات من جديد بين وزارة الخارجية وناجي الاصيل .

---

(٣٧) سليمان موسى (المصدر السابق) ـ ص ٩٦ .

وفي ١٦ نيسان ١٩٢٣ تم وضع صيغة جديدة للمعاهدة حيث وضع اللورد كرزن والدكتور الاصيل عليها الحروف الاولى من اسميهما • وفى اليوم التالي غادر الاصيل لندن متوجهاً الى جدة وهو واثق بأن الحسين سوف يوافق على الصيغة الجديدة •

وصل الاصيل الى جدة في ٣٠ نيسان ، وحين درس الحسين الصيغة الجديدة للمعاهدة أجرى عليها بعض التعديلات ، وأرسل القنصل البريطانى تلك التعديلات الى لندن للموافقة عليها • وفى ١٠ أيار وصل الجواب من وزارة الخارجية البريطانية وفيه بعض التحفظات والاقتراحات• فاتصل القنصل البريطانى بالاصيل يبلغه بالجواب ، فظن الاصيل انالحكومة البريطانية وافقت على التعديلات الجديدة وذهب الى الحسين يبلغه الخبر• وقد ابتهج الحسين بذلك ابتهاجاً لاحد له ، ولم يكن يدري أن الخبر لا أساس له من الصحة وانه من توهمات ناجي الاصيل •

وعندما حل عيد الفطر في ١٧ أيار اعلن الحسين لوفود المهنئين ان بريطانيا وافقت على مطاليب العرب وعلى الاعتراف باستقلالهم ، وقال : « لا ريب في أنه يوم اجتمع فيه عيدان : عيد الفطر السعيد وعيد الاعتراف باستقلال العرب ووحدتهم • واني أعلن ذلك للامة العربية حاضرها وباديها » • ثم القى رئيس الديوان الهاشمي بياناً قال فيه : ان الحكومة البريطانية تعترف باستقلال العرب وتتعهد بالمعاضدة الفعلية لتأسيس الوحدة العامة الشاملة لكل البلاد العربية ما عدا عدن ، ثم ختم البيان قائلا : « فنأمر أن يُعتبر هذا اليوم عيد الاعتراف باستقلال الامة العربية ، والله ولي التوفيق » • وبعد هذا ألقى الاصيل خطبة أشار فيها الى بداية الانقلاب الكبير في حياة الامة العربية الذى قام به الحسين فحطم به سلاسل الاغلال القديمة وجاء اليوم بالاستقلال والاتحاد ، فالامة العربية مدينة لكم يامولاي• ثم أشار الاصيل الى نفسه وكيف أنه قام بواجب الوطن يوم لبى النداء

فترك الجيش التركي والتحق بالجيش العربي للاشتراك في الدفاع عـــن استقلال بلادي العربية في تلك المعركة الكبرى ...

لم تمض على ذلك سوى ايام معدودة حتى تبين للناس ان الفرح كان قائماً على وهم . وفي ٥ حزيران نشرت حكومة فلسطين في صحف القدس ملخصاً للمعاهدة ، واتضح مما نُشر أن بريطانيا لم تتخل عن سياسة انشاء الوطن القومي لليهود في فلسطين . فثارت ثائرة العرب فيها ، وأبرق موسى كاظم الحسيني الى الحسين يلفت نظره الى ذلك . فأجابه الحسين قائلا : « مولانا أؤكد لكم بهذا أيضاً أن عزمنا الاساسي المؤملين تأييده بقدرة الله لايمكن ان نتأخر عن واجباته مقدار شعرة . واعلموا انها حركة عليها نحيا وعليها نموت . والحقائق كما ذكرت تصلكم عقبه . فكونوا واثقين بأنه لايعترينا فتور أو كسل في سبيل تلك الغاية الشريفة التى لانريد بها الا خدمة بلادنا وابنائها اخواننا »(٣٨) .

وفي ٢٧ ايلول نشرت جريدة « القبلة » تقول : ان جلالة الملـــك الحسين رفض التصديق على المعاهدة بالرغم من كل تهديد ، وبالرغم من كل ما أقيم في سبيله من العقبات والعراقيل ، كل ذلك حرصاً من جلالته على حقوق العرب ومحافظة على بلادهم .

عاد ناجي الاصيل الى لندن ، وظل يسعى آملا أن يعقد معاهدة ترضي الحسين وبريطانيا في آن واحد ، وكان في ذلك كمن يطلب المستحيل . كتب القنصل البريطاني في جدة تقريراً سرياً الى حكومته قال فيه : « اني لاأعتقد ان الدكتور ناجي يمكن تبرئته من كونه خادماً سيئاً جداً لحكومة الحجاز . ويبدو انه بذل جهداً كبيرا لتنمية عقدة العظمة لدى الحســين في بادىء الامر ... فقد كان ناجي يحث الحسين على أن لايوقع المعاهدة ، وأن يصمد في موقفه حتى ينال ما يريد ويكون حاكماً على جميع البلاد العربية

---

(٣٨) أمين سعيد (المصدر السابق) ــ ج٣ ص ١٧٠ .

وكل شيء • ان هذه التأكدات من ناجي ربما كانت ناشئة عن غروره ، ولكن المكر وحده هو الذى جعله يخبر الحسين بأن وزارة الخارجية البريطانية قد أكدت له أن وعد بلفور لايعنى شيئاً وانه سيلغى قريباً ، وهذا هو الذى أدى الى الاعلان المشهور في مكة في ربيع ١٩٢٣ • ومنذ ذلك الحين أخذ ناجي يحاول الاحتفاظ بمنصبه عن طريق تمسكه بالآمال بين حين وآخر حول التوقيع على المعاهدة »(٣٩) •

في تلك الآونة وصل من العراق الى لندن جعفر العسكري في مهمة رسمية ومعه توفيق السويدى • فالتقيا بالاصيل ، وجرى بين السويدي والاصيل جدال ومشاجرة شخصية • يقول السويدي في مذكراته : ان الاصيل كان يتمتع في لندن بمركز يؤمن له كل ما ينفقه عن سعة اذ كان يتقاضى مبلغا لايقل عن ستمائة باون فى الشهر ، وكان يبدي نحونا استعلاءاً وتكلفاً في معاملاته وحركاته ، وقد ابدى غطرسة حتى في معاملته مع جعفر العسكري الذى كان آمره في جيش الثورة العربية ، فقد كان يريد أن يُقدم في التشريفات بمنزلة أرفع من جعفر العسكري باعتبار انه يمثل الملك حسين بينما العسكري يمثل ابنه الملك فيصل • ويذكر السويدي ان الاصيل كان مدفوعاً بشعور يجعله يعتقد ان في امكانه تحقيق اهداف القضية العربية ، فكان يمثل تماماً حماسة الملك حسين فيما يبذله من جهود زائدة لحمل الحكومة البريطانية على تنفيذ وعودها المعهودة • ويروي السويدي أنه كان يتحدث ذات مرة على المائدة بحضور الاصيل وجعفر العسكري ، فتطرق في حديثه الى الملك حسين وذكره باسم « الشريف حسين » ، فغضب الاصيل من هذه التسمية وصار يؤنب السويدي على ذلك • فرد عليه السويدي بما فحواه ان لقب « الشريف » أعظم قدراً وأدعى للفخار من لقب « الملك » • ثم انتهز السويدي الفرصة لينتقد الاصيل على غطرسته

---

(٣٩) دائرة الوثائق العامة في لندن ــ رقم (اف• او• ٣٧١ ــ ١٠٨٠٨)•

حيث قال : « انني أخشى على الدكتور الاصيل من الزلل ولست أطمئن على مستقبله لانني أعلم ان الملك حسين طالما بقي متحمساً في مطالبه فانه ينتدبه كممثل له لتسهيل غاياته ، الا ان هذه الغاية ويالاسف من الصعب أن تتحقق وسيمل الملك حسين من المطالبة كما يمل من دفع النفقات المستمرة الباهظة الى الدكتور على المنوال الحاضر ، ويقطعها • وسيبقى الدكتور يبذل مالديه الى أن يصيبه العوز فيضطر الى قطع العلاقة مع الملك حسين والرجوع الى العراق ، وعندما يصل اليه سيطلب وظيفة في الحكومة لايزيد راتبها على ٢٥ ديناراً• وهكذا تنتهي مهمة الدكتور ولا يبقى أثر لهذه العنجهية »•(٤٠)

الحسين وأبناؤه :

كان أبناء الحسين يخالفون أباهم في رأيه ومسلكه السياسي ، ويضيقون به ذرعاً ، ولكنهم كانوا مضطرين الى اظهار الطاعة له مهابة له • وكان هو من جانبه يتذمر منهم ويشكو من مخالفتهم له المرة بعد المرة •

كان فيصل أكثر اخوته اختلافاً مع أبيه • انه كان يؤمن بان السياسة هي فن الممكن ولهذا اتبع تجاه الانكليز في العراق مبدأ « خذ وطالب » ، بينما كان أبوه على العكس من ذلك يتبع مبدأ « الكل واما لاشيء » ، ولهذا كان يطالب الانكليز بتحقيق جميع وعودهم التي قطعوها له ، وأعلن أنه لن يتنازل عنها قيد شعرة •

غضب الحسين على فيصل عندما بويع هذا بالملك في سوريا عام ١٩٢٠، فقد اعتبر الحسين ذلك خيانة من فيصل وعقوقاً ، لان سوريا جزء لايتجزأ من المملكة العربية الكبرى التى يجب أن يكون ملكها الحسين لاغيره • ولما طُرد فيصل من سوريا قال الحسين : هذا جزاء من لايسمع كلامى ، ولو

---

(٤٠) توفيق السويدى (مذكراتى) ــ بيروت ١٩٦٩ ــ ص ٨٧ــ٨٩ •

كانت سوريا قد بقيت تابعة للحجاز لما تجرأ الفرنسيون على احتلالها •
ومن الجدير بالذكر ان الحسين فعل مثل ذلك مع ابنه الآخر عبدالله عندما أصبحت امارة شرقي الاردن خاضعة للانتداب البريطاني وانفصلت ادارياً عن الحجاز •

يروي محمد نصيف كبير أعيان جدة : انه كان في توديع فيصل عند ركوبه الباخرة متوجها الى العراق في عام ١٩٢١ وقال له : « اننا نرجو ان نراك قريباً بيننا في موسم الحج القادم » ، فأجابه فيصل : « كلا لن اعود الى الحجاز مادام والدي فيه » ، ثم استطرد فيصل قائلا : « لقد أساء الينا ، وأحرج مركزنا وعادى أصدقاءنا ولم يبق لنا صديق • حتى أنت نفسك ـ يقصد محمد نصيف ـ وقد كنت أعز صديق لنا وساندتنا ووقفت الى جانبنا في جميع المواقف ، فقد عاداك وحاربك • لا• لا• لن أعود الى الحجاز مادام على قيد الحياة »•

ويروي محمد نصيف أيضاً : ان الامير زيد اتفق مع أخويه فيصل وعبدالله على خلع والدهم واجلاس ابنه الاكبر الامير علي مكانه ، ولكن الامير علي لم يوافقهم على ذلك وقال لهم : « الناس لايعرفون الحقائق ، فاذا ثرنا عليه وأنزلناه عن العرش ، قالوا اننا تآمرنا عليه وأنزلناه عن العرش، لنجلس مكانه قبل الاوان • يجب علينا أن نحترم شيخوخته ومقامه ولا نسيء اليه في أواخر أيامه ، ويجب علينا أن نصبر عليه وان نتحمل النتائج التي تنتج عن اعماله مهما كانت فان ذلك أليق بنا أمام الناس »[٤١] •

ويروي سليمان موسى : انه قابل الامير زيد في لندن عام ١٩٦٨ فجرت بينهما أحاديث شتى كان من بينها حديث أبيه الحسين ، فقال زيد يصف أباه : « كان الحسين شديد التصلب في آرائه • انه لم يكن انساناً

---

(٤١) أمين سعيد (تاريخ الدولة السعودية) ـ ج٢ ص ١٤٩ ـ ١٥٠ •

هيناً ليناً • ولكنه كان دون شك صاحب مبدأ وعقيدة • وغير صحيح أنـي كنت أحث الحسين على القبول بالمعاهدة التى عرضتها بريطانيا على يـد لورنس لان الحسين كان لايصغي لاحد ، ولا يسمع من أحد ، ولم يكن يؤثر أحد عليه »[٤٢] •

الحسين في شرقي الاردن :

في أوائل كانون الاول **١٩٢٣** أعلن الحسين عن عزمه على زيارة شرقي الاردن دون ان يذكر السبب في ذلك • وقد انتشرت الشائعات في شـرقي الاردن أن الحسين يعتزم خلع عبدالله عن الامارة وتعيين ولده الاكبر علي خلفاً له فيها[٤٣] •

في **٩** كانون الثاني **١٩٢٤** وصل الحسين الى العقبة ولم يكن فيها مدافع لاطلاق التحية له ، فأوعز هو الى الباخرة التي حملته باطلاق مدافعهـا تحية له • ويعلق المؤلف البريطاني جارفز على ذلك قائلا : ان الحسين اتبع المبدأ الياباني الذى يجعل الانسان يصافح نفسه بنفسه[٤٤] •

كان في استقبال الحسين في العقبة جمهور غفير من اعيان البلاد • وقد أعدت له ولحاشيته سيارات عديدة لنقلهم الى محطة سكة الحديد في معان ، ولكن الحسين رفض ركوب السيارات ، بل ركب بغلا كان قد جاء بـه معه في الباخرة[٤٥] • فاضطر المستقبلون والحاشية جميعاً الى الاقتداء به ، فأحضرت لهم الدواب من كل صنف مما يمكن العثور عليه في العقبة من الجمال والخيل والبغال • ولوحظ أن بعضهم لم يكن معتادا على ركوب الدواب وصاروا من جراء ذلك في حالة تستدعي الشفقة ، أما الحسين فكان

---

(٤٢) سليمان موسى (مذكرات الامير زيد) ــ عمان ١٩٧٦ ــ ص ٢٠١ •
(٤٣) خيري حماد (المصدر السابق) ــ ص ١٣٩ •
(44) Jarvis (Arab Command) London 1942 – P. 110.
(٤٥) خيري حماد (المصدر السابق) ــ ص ١٤٠ •

على الرغم من عمره الذى تجاوز السبعين متماسكاً قوياً فوق ظهر البغل ، وقد قطع المسافة بين العقبة والقويرة ـ وهي مسافة تزيد على الخمسة والثلاثين ميلا ـ دون ان يلتفت يمنة ويسرة ، أو تظهر عليه أية امارة للتعب(٤٦) .

كان فيلبي حينذاك معتمد بريطانيا في شرقي الاردن ، وكان من جملة المستقبلين للحسين . وهو يقول في مذكراته : انه عندما وصل مع المستقبلين الى القويرة استدعاه الحسين الى خيمته وصار يحدثه حديثاً كله عذوبة ورقة ، ثم قال له : « اسمع ، ليس هناك من خلاف بيني وبين ابن سعود . ألسنا جميعاً من العرب ؟ انني اعتبره واحداً من أولادي ، وأنت صديقه وصديقي ، في وسعك أن تكون رسولي اليه . وانني لأقبل أية تسوية ترضاها أنت » . ويعلق فيلبي على هذا الكلام مبدياً استغرابه من الاتجاه الجديد الذى لاحظه في الحسين بالمقارنة الى ماكان عليه قبلئذ . ويعلل فيلبي هذا التغير بأن الحسين ربما اتجه حقده من ابن سعود الى أولاده الذين خانوه وتنكروا لقضيته ولا سيما فيصل(٤٧) . وفي رأيي ان فيلبي قد أخطأ التعليل ، والمظنون ان الحسين لم يتجه حقده نحو أولاده بمقدار ما اتجه نحو الانكليز الذين نكثوا بوعودهم له في اعتقاده .

كان استقبال الحسين في عمان فخماً رائعاً شارك فيه وفود من سوريا وفلسطين ومن مختلف القبائل البدوية ، كما حضره صحافيون من مصر والقدس وبيروت ودمشق . ولما أطل الحسين عليهم من نافذة القطار ارتفعت الهتافات مدوية : « ليحيى ملك العرب ، ليحيى المنقذ الاعظم ! » . وأخذ فرسان البدو يجولون على خيولهم ويهزجون ، ورفع تلاميذ المدارس أصواتهم بالهتاف والاناشيد . وكانت الطائرات الانكليزية آنذاك تغمغم في الفضاء مشاركة فى الترحيب .

---

(46) Jarvis (op. cit.) — P. 110.

(٤٧) خيري حماد (المصدر السابق) ـ ص ١٤٠ .

أعدت للحسين دار تجاه الملعب الروماني ، فأطل الحسين على جموع المستقبلين من شرفة الدار • وأخذ الخطباء والشعراء يلقون ما جادت بـه « قرائحهم الفياضة » ، فحيوا المنقذ الاعظم والنهضة العربية ، ولعنوا الاستعمار والمستعمرين ، وهددوا بريطانيا وفرنسا • وجاءت الوفود بعد ذلك لمصافحة الحسين فتكلم فيهم قائلا : « انه لايتنازل عن مبدأ واحد من المبادىء التى هي أركان النهضة ، لا أتنازل عن حق واحد من حقوق البلاد • لا أقبل الا ان تكون فلسطين لاهلها العرب ، أقول لاهلها العرب • لا أقبل بالتجزئة ، ولا أقبل بالانتدابات ولا أسكت وفي عروقي دم عربي عن مطالبة الحكومة البريطانية بالوفاء بالعهود التى قطعتها للعرب • اذا رفضت الحكومة البريطانية التعديل الذي أطلبه فأني أرفض المعاهدة كلها • لا أوقع المعاهدة قبل أن آخذ رأي الامة • اني عامل دائما في سبيل الاتفاق مع أمراء العرب • اني عامل دائماً في سبيل الوحدة العربية والاستقلال التام ، أقول الاستقلال التام للاقطار العربية كلها • ولا فرق عندي اذا كان مركز الحكومة العربية في الحجاز ، او في سورية ، او في العراق ، أو في نجد »[٤٨] •

مكث الحسين في شرقي الاردن نحو شهرين ونصف • ولوحظ انه كان طيلة تلك المدة يتصرف كأنه ملك البلاد • يقول جارفز : ان الحسين كان طيلة مكوثه في شرقي الاردن يتصرف كأنه الآمر الناهي في البلاد بينما كان الامير عبدالله يتخذ له مقعداً خلفياً ، وقد سبب ذلك حرجاً للمسؤولين البريطانيين ، اذ هم كانوا يفترضون في الامير عبدالله أن يكون الحاكم الفعلي للبلاد لا أن يكون نائباً عن ابيه في حكمها ، كما كانوا يفترضون أن يكون الحسين ضيفاً مكرماً في البلاد لا آمراً ناهيا فيها • ولم يستطع هؤلاء المسؤولون أن ينبهوا الحسين الى ذلك بل تحملوه على مضض...[٤٩] •

---

(٤٨) أمين الريحاني (المصدر السابق) ـ ص ٣٢٤ـ٣٢٥ •

(49) Jarvis (op. cit.) — P. 111.

جاء لزيارة الحسين في عمان السكرتير العام لحكومة فلسطين السر جلبرت كلايتون ، وبعد عودته الى القدس كتب الى حكومته في لندن تقريرا قال فيه : ان الحسين كرر بياناته المعتادة حول الوضع الصعب الذى يجد نفسه فيه أمام المسلمين عموماً بسبب تحالفه مع بريطانيا اولا ، ولعدم وفاء بريطانيا بالعهود التي قطعتها له ثانيا • ثم يقول كلايتون : انه فهم من محادثاته مع الحسين ان الصعوبة التي يشكو منها تتعلق بفلسطين ، وقد أكد الحسين له أنه على أتم الاستعداد لمساعدة الحكومة البريطانية في أية وسيلة ممكنة غير أنه لايستطيع أن يضع نفسه في وضع يعرضه لنقد المسلمين • واختتم كلايتون تقريره مقترحاً اسقاط مادة واحدة من المعاهدة وهي المادة التي تتعلق بسياسة بريطانيا في فلسطين ، لان موافقة الحسين على هذه السياسة ستعرضه الى نقد شديد وستدمر نفوذه عند عرب فلسطين الدين سيتخلون عنه في الحال ويعلنون انه تخلى عن قضيتهم[٥٠] •

الحسين خليفة :

في ١ آذار ١٩٢٤ أعلن مصطفى كمال باشا الغاء الخلافة في تركيا ، وكان الحسين لايزال مقيماً في عمان ، فأخذ ابنه عبدالله يحثه على انتهاز الفرصة واعلان الخلافة لنفسه • يقول المؤرخ الالماني فون ميكوش : « ولما أُعلن قرار أنقرة بالتخلي عن الخلافة استبدت بالامير عبدالله فكرة استغلال ذلك الحدث لمجد الاسرة الهاشمية واعلاء شأنها ، وهو الذى يذهب بطموحه أبعد كثيراً من حدود امارة شرقي الاردن الصغيرة التي لايملك فيها أمر ، ويهدف الى تسنم قمة المجد درجة بعد أخرى • فمضى يقنع والده باهتبال الفرصة ، ويستعمل لذلك وسائل الترغيب التي استعملها في اقناعه باعلان الثورة ضد العثمانيين ، مهيبا بالحسين أن يعلن نفسه خليفة للمسلمين•••• »

ويقول فون ميكوش : ان الحسين تردد في الاخذ برأي ابنه عبدالله ، ذلك لان الخيبات المتكررة التي مُني بها على أيدي الانكليز جعلته مضطرباً

(٥٠) سليمان موسى (صفحات مطوية) ــ ص ١٧١ ــ ١٧٢ •

ضعيف الثقة بنفسه ، وربما انتابه شعور مبهم بأن خطوة من هذا النوع قد تفضي به الى كارثة . ولكن عبدالله ظل يواصل الالحاح عليه ، وأخذ يذكّره بأن الانكليز خلال مفاوضاته الاولى معهم قبيل اعلان الثورة صدر منهم ما يدل على أنهم يرحبون بخلافته على المسلمين(٥١) .

وافق الحسين أخيراً على رأي عبدالله ، وتقرر أن تكون البيعة بالخلافة في ٥ آذار في قرية « الشونة » التي تقع على مقربة من عمان وهي مشتى للامير عبدالله . وقد جاءت الى تلك القرية وفود للبيعة من سوريا ولبنان وفلسطين بالاضافة الى وفود شرقي الاردن ، كما جاء اليها بعض المصريين . فقام الامير عبدالله يبايع أباه ، ثم بايعه من بعده أمين الحسيني باسم فلسطين ، ثم بقية الوفود . وبعد اتمام البيعة ألقى الحسين خطبة طويلة ذكر فيها أنه قبل البيعة بالخلافة حرصا على أقامة شعائر الدين وصيانة الشرع المبين ، وبناءا على الحاح أهل الرأي والحل والعقد من علماء الدين في الحرمين الشريفين والمسجد الاقصى وما جاورهما من البلدان والامصار(٥٢) .

أخذت البرقيات تتوالى على الحسين من مختلف الاقطار الاسلامية لتهنئته ومبايعته بالخلافة . ولا حاجة بنا الى القول ان العراق كان من اكثر الاقطار ، ان لم يكن اكثرها ، اهتماماً بخلافة الحسين وتقديم البيعة له . فقد أخذت الجرائد العراقية تنشر البرقيات التي تردها من مختلف مدن العراق وعشائره وهي تعلن بيعتها للحسين بالاجماع . واجتمع اعضاء المجلس التأسيسي في القصر الملكي وعرضوا بيعتهم للحسين بن علي أمام الملك فيصل ، ونهض أحمد الشيخ داود فألقى خطبة ضمنها الدعاء « لمولانا الخليفة الاعظم » . وفي يوم الجمعة ١٤ آذار ١٩٢٤ أدى الملك فيصل

---

(٥١) صلاح الدين المختار (تاريخ العربية السعودية) ـ بيروت ـ ج٢ ص ٢٦٨ ـ ٢٦٩ .

(٥٢) أمين سعيد (اسرار الثورة العربية الكبرى) ـ بيروت ـ ص ٣٥٨ ـ ٣٥٩ .

صلاة الجمعه في جامع السراي وتليت الخطبة فيه باسم الخليفة الحسين بن علي • ونشرت جريدة « العراق » خبراً بعنوان « خلافة الملك حسين ومبايعة الجعفرية لجلالته » قالت فيه : انعلماء الجعفرية خفوا لمبايعة الحسين مع العلم أنهم امتنعوا من قبل عن مبايعة سلاطين آل عثمان ، وذلك لانهم وجدوا الشروط المطلوبة للخلافة متوفرة فيه ، فهو عربي قريشي علوي امامي • كما نشرت الجريدة برقية وردتها من عبدالرزاق الوهاب في كربلاء يقول فيها : ان ثلاثمائة ألف زائر في صحن الحسين ، وهم الذين جاؤوا للزيارة بمناسبة منتصف شعبان ، يبايعون الحسين بالخلافة • وكذلك شرت الجريدة برقية كان قد أرسلها الى الحسين السيد هبة الدين الشهرستاني رئس مجلس التمييز الجعفري ، وهذا نصها :

« لأعتاب صاحب الجلالة الهاشمية الملك حسين المنقذ الاعظم أرواحنا فداه • أتشرف بلثم تلك اليد الطاهرة معترفاً بالخلافة الاسلامية الكبرى لذلك الامام الهاشمي الفاطمي معتقداً في عزماته الحسنى على جمع شمل الموحدين وتعظيم شعائر الدين وحماية حوزة المسلمين نصرهم الله تعالى تحت لوائه آمين »(٥٣) •

عاد الحسين الى مكة فوصلها في ٣٠ آذار ، وكانت الزينات قد أقيمت له في كل مكان ، وأخذت جريدة (القبلة) تنشر البرقيات التي وردتها من انحاء العالم لتهنئة الحسين بالخلافة • ويعلق المؤلف البريطاني هوارث على ذلك قائلا : لاندري كم هو الصحيح من تلك البرقيات لان الحسين نفسه كان يحرر الجريدة(٥٤) •

---

(٥٣) انظر جريدة العراق ــ في أعدادها الصادرة في ١٠ ، ١٢ ، ١٥ ، ١٨ ، ٢٠ ، من شهر آذار ١٩٢٤ •

(54) David Howarth (The Desert King) — London 1964— P. 141.

الفصل الخامس

عبدالعزيز بن سعود

من سوء حظ الحسين وأسرته أن يظهر من بين خصومه رجل يُعد من دهاة التاريخ وجبابرته ، هو عبدالعزيز بن سعود • فلولا ظهور هـذا الرجل لكان التاريخ المعاصر للجزيرة العربية غير ما عهدناه ، ولربما بقي الحسين واسرته يحكمون الحجاز حتى يومنا هذا •

سنحاول في هذا الفصل دراسة سيرة هذا الرجل منذ بداية حياته حتى فتحه مكة ، وسوف تتم دراسة سيرته في فصل آخر •

بداية حياته :

هو عبدالعزيز بن عبدالرحمن بن فيصل بن تركي من أسرة آل سعود المشهورة •ولد في الرياض في أوائل عام ١٨٧٧ [(١)] ، وحين كان صبياً لجأ مع أبيه وأخيه الاصغر محمد وابن عمه جلوي الى قبيلة بني مرة وهي قبيلة بدوية موغلة في البداوة تعيش على حافة الربع الخالي • فنشأ ابن سعود في تلك البيئة البدوية الخشنة وتعلم منها قيمها وثقافتها الاجتماعية[(٢)] •

كان عبدالرحمن والد ابن سعود شديد التدين ، ولم تعجبه الحياة في بني مرة لانه وجدهم متساهلين في دينهم غير طاهرين • فتركهم ولجأ الى الكويت مع عائلته ، وكان ذلك في أواخر عام ١٨٩٢ ، وسكن في بيت صغير بجوار الميناء مؤلف من طابق واحد يضم ثلاث غرف •

كانت الحكومة العثمانية قد خصصت لعبدالرحمن راتباً شهرياً قدره

---

(١) خيرالدين الزركلي (شبه الجزيرة في عهد الملك عبدالعزيز) ـ بيروت ١٩٧٧ ـ ص ٥٨ •

(2) Armstrong (Lord of Arabia) – London 1938 – P. 33–32.

ستون ليرة ، اذ كانت تأمل أن تستفيد منه في يوم من الايام • وكان هذا الراتب ذا قوة شرائية لابأس بها يومذاك ، ولكن مشكلته أنه لم يكن يُدفع بانتظام كما جرت عليه العادة في الدولة العثمانية • وقد عانى عبدالرحمن من جراء ذلك كثيرا من الضيق ، واضطر في بعض الاحيان الى الاستدانة من الاصدقاء وأصحاب الدكاكين •

كان الصبي عبدالعزيز بن عبدالرحمن في بداية حياته في الكويت يلعب مع أقرانه في الازقة ، كما هو ديدن الصبيان فى الاحياء الفقيرة • وقد لوحظ عليه في تلك الفترة انه كان يتميز عن اقرانه بقوة الشخصية والميل الى الزعامة • يروي حافظ وهبة عن بعض المسنين من أهل الكويت الذين رافقوا عبدالعزيز في صباه : انه كان يفوق الصبيان من أقرانه نشاطاً وذكاءاً ، وكان يتزعمهم في اللعب • ولوحظ عليه أيضاً انه كان يحب الاستماع الى ما يتحدث به المسنون عن مجد جده فيصل بن تركي وعن مغامراته في سبيل اعادة مجد أسرته[٣] •

ويروي أرمسترونج : أن ابن سعود حين بلغ طور الشباب كان يتفاخر أمام أقرانه بأنه الوارث لدولة الرياض ونجد ، وانه لابد في يوم من الايام أن يطرد ابن رشيد منها ويعيد مجد الاجداد • فكان أقرانه يضحكون عليه ويسخرون منه ، وكان هو يغضب منهم ، غير أنه بالرغم من ذلك لم يكن يفقد ثقته بنفسه[٤] •

في أواخر ١٩٠١ قرر ابن سعود أن يقوم بمغامرة خطرة آملا أن يعيد بها مجد اسرته أو يموت دونه • فقد خرج من الكويت ومعه أربعون فارساً من اقربائه وأعوانه ، ونحو عشرين من اتباعهم ، فتوجه بهم نحو الرياض

---

(٣) حافظ وهبة (خمسون عاما في جزيرة العرب) ـ القاهرة ١٩٦٠ ـ ص ٢٧ •

(4) Armstrong (op. cit.) P. 40

بغية استخلاصها من حكم ابن رشيد أمير حائل • وفي ١٥ كانون الثاني ١٩٠٢ استطاع بضربة بارعة أن يحتل الرياض • فكان ذلك بداية صعود نجم هذا الشاب الطموح •

يقول الباحث البريطاني ترويلر : « ان قصة احتلال ابن سعود للرياض صارت اسطورة في التراث الشعبي البدوي ، فقد أثبت ابن سعود بها أنـــه يملك الصفات التي تؤهله للمشيخة وهي الشجاعة والزعامة والحظ ، ويجب أن نذكر ان الجرأة التي أبداها ابن سعود في تلك المغامرة استهوت خيال سكان المنطقة الوسطى من الجزيرة العربية ••• »[٥] •

توالت انتصارات ابن سعود بعد تلك المغامرة ، كما توالت هزائمـه أيضا • ولكن الهزائم لم تكن لتثنيه عن عزمه ، ولعله كان يزداد مضـــاءاً وعزيمة عندما تحل به الهزيمة ـ وتلك صفة لا يملكها الا القليـــل من البشر ا•

عوامل النجاح :

هناك عدة عوامل ساعدت ابن سعود على النجاح نذكر فيمـــا يلي أهمهـــا :

أولا : انه كان ذا دهاء فطري يدرك أن السياسة هي فن الممكن • ويقال انه تلقى دروساً عملية في السياسة من مبارك الصباح شيخ الكويت المشهور• والمعروف عن مبارك انه كان يحب ابن سعودويشركه فيمجالسه ومؤتمراته• يقول ارمسترونج : ان مبارك علم ابن سعود كثيراً من فن الحكم ، وقد تعلم ابن سعود منه بسرعة واستعداد ، فعندما كان يحضر مجالس مبـــارك ومؤتمراته كان يجلس في الزاوية متربعاً وبيده مسبحة من الكهرب ويصغي الى ما يقال ويتعلم[٦] •

(5) Troeller (The Birth of Saudi Arabia) – London 1976–P.21.

(6) Armstrong (op. cit.) – P. 40–41.

ثانيا : اجتذب ابن سعود اليه بعض المستشارين من البلاد العربية المختلفة ، لكي يطلع عن طريقهم على أحابيل السياسة العالمية • ولكنه لم يكن يقبل كل ما يقوله له المستشارون ، بل كان يستمع الى كل واحد منهم، ويوازن بين اقوالهم ، ثم يصدر حكمه النهائي بعد التروي • ولوحظ انه لم يكن يحب من مستشاريه أن يؤيدوه في كل ما يقول ، بل كان يريد منهم أن يصارحوه الرأي[٧] • ان ابن سعود يختلف في هذا عن بعض رجال الحكم الذين اعتادوا على تقريب المداحين والمتزلفين فضاعت بذلك عليهم حقائق الحياة •

ثالثا : كان ابن سعود كثير السخاء ينفق الاموال التى تتوافر لديه على الأعوان وعلى من يريد اجتذاب قلوبهم • انه كان يسير في ذلك على المبدأ البدوي القائل : « اصرف ما في اليد يأتيك ما في الغد » • وكان في ذلك على النقيض من خصمه الحسين الذى كان يتبع المبدأ الحضري القائل: « القرش الابيض ينفع في اليوم الاسود » • كان شعار الحسين « ان المال يفسد الرجال »[٨] ، بينما كان شعار ابن سعود : « ان المال يجذب الرجال»• والواقع ان الشعار الثاني أدعى للنجاح في هذه الحياة من الشعار الاول •

رابعا : كان ابن سعود يملك موهبة نفسية تجعله قادرا على التأثير في من يقابله وعلى اجتذابه ، وهي الموهبة التى تسمى في علم الاجتماع بـ « الكارسما » • يقول ترويلر في وصف ابن سعود : ان معظم المؤرخين اتفقوا على أنه يملك « الكارسما » ، فهو طويل عريض المنكبين وسيم يمثل الرجولة العربية ، وله جاذبية لاحظها كثيرمن الذين قابلوه ...[٩]

---

(٧) حافظ وهبة (المصدر السابق) ــ ص ٤٨ •

(٨) أمين الريحاني (تاريخ نجد الحديث وملحقاته) ــ بيروت ١٩٥٤ ــ ص ٣٤٧ •

(9) Troeller (op. cit.) – P. 21.

خامسا : من الممكن القول ان ابن سعود كان يملك موهبة التمثيل وهي الموهبة التي يحتاج اليها رجل السياسة في كثير من الاحيان • فابن سعود قد يقابل عدواً له تقضي السياسة أن يبدي له الحب ، وتراه عند ذلك يقوم بدور المحب الذي لا تشك في اخلاصه • وهو قد يتظاهر بالبكاء وتنهمر دموعه فعلا اذا وجد من المصلحة أن يفعل ذلك • ويقال ان الملك فيصل الاول كان يشبه ابن سعود في موهبة التمثيل هذه الى حد غير قليل •

سادسا : المظنون ان سعود كان يملك ما يسميه العوام ب « الحظ » • ومن الجدير بالذكر ان موضوع « الحظ » موضوع شائك معقد لامجال للحديث عنه هنا ، ويكفي أن نقول ان البحوث « البارالوجية » الحديثة بدأت تكتشف وجود قوى خفية في بعض الافراد يستطيعون بها السيطرة على الصدف وتوجيهها نحو مصلحتهم قليلا او كثيرا • ان العلم لايعرف كنه تلك القوى ، ولكنه اكتشف بعض مظاهرها وتأثيراتها • ومن يدري فلعل العلم يكتشف كنهها في المستقبل[10] • ومهما يكن الحال فاننا نستطيع أن نضع ابن سعود في قائمة اولئك الذين يملكون قسطاً غير قليل من تلك القوى • وقد خصص خيرالدين الزركلي في كتابه عن ابن سعود فصلا ذكر فيه الحوادث التي تدل على وجود موهبة « الحظ » لديه ، وهو يسميه بـ « التوفيق » [11] •

نشأة الاخوان :

كان جيش ابن سعود في أول أمره مؤلفاً من البدو في الغالب ، وكان

---

(١٠) انظر في موضوع علم « البارالوجيا » كتاب (لمحات اجتماعية من تاريخ العراق الحديث) للمؤلف ـ ج٥ ق٢ م٤ •

(١١) خيرالدين الزركلي (المصدر السابق) ـ ج٢ ص ٥٨١ ـ ٥٨٥ •

نعلم ان البدو ليس لهم قيمه حربيه كبيرة لانهم يحبون الغزو والنهب ، وهم لذلك ينضمون الى اية حركة جديدة حين يتوقعون الغنيمـــــة فيها ، وسرعان ما يتركونها عندما يلمحون فيها بوادر الانكسار • يقول حافظ وهبة : « ليس للبدوي قيمة حربية تذكر ••• وكثيرا ما كان البدو شــراً على الامير المصاحبين له ، فان ذلك الامير اذا بدت منه الهزيمة كانوا هم البادئين بالنهب والسلب ، ويحتجون بأنهم أولى من الاعداء المحاربين ••• ولكن البادية لاتعرف غير النهب والسلب وعندها الغنيمة مقدمة على كل شيء ••• والبدوي اذا لم يجد سلطة تردعه او تضرب على يده يرى من حقه نهب الغادي والرائح ، فالحق عنده هو القوة يخضع لها ويُخضـــع غيره بها ••• »[١٢] •

فكر ابن سعود وأطال التفكير ، لايجاد حل لهذه المشكلة • انه يريد جنودا يطيعونه في السراء والضراء لكي يبني بهم دولته العتيـــدة ويعيد مجد الآباء • وقد تفتق ذهنه أخيراً عن حل مستمد من تاريخ الاسلام ، وهو ما كان يسمى بـ « الهجرة » • فقد كان المسلمون في عهد الرسول فريقين : اعراب ومهاجرين • وكان المقصود بالاعراب البدو ، وقد ذمهم القرآن ووصفهم بأنهم « أشد كفراً ونفاقاً وأجدر أن لايعلموا حدود ما أنزل الله على رسوله »[١٣] • ولهذا كان المفروض فيمن يريد أن يكون مسلما حقيقيا أن يترك البداوة وينظم الى زمرة المهاجرين في المدينة • وقد اعتاد المسلمون أن ينظروا الى المسلم الذي يعود الى البادية بعد اسلامه نظرة اســتنكار شديد ، ويقولون عنه انه « تعرب » ، أي صار اعــراباً وارتـد الـى عقبيه[١٤] • والواقع ان « الهجرة » كان لها أثرها في تغيير شخصية البدوي

---

(١٢) حافظ وهبة (جزيرة العرب في القرن العشرين) ــ القاهرة ١٩٦٧ ــ ص ١٠ •

(١٣) القرآن ، سورة التوبة ، آية ٩٨ •

(١٤) علي الوردي (منطق بن خلدون في ضوء حضارته وشــخصيته) ــ القاهرة ١٩٦٢ ــ ص ١٠١ ــ ١٠٢ •

قليلا او كثيراً ، فان البدوي حين ينضم الى البيئة الجديدة التى خلقهـا الاسلام في المدينة يجد نفسه مضطراً الى ترك قيمه القديمة والى اتخاذ القيم الجديدة التى جاء بها الاسلام •

شجع ابن سعود قيام قرى ثابتة في نجد لكي يهاجـر اليها البدو ويستقروا فيها • وقد أطلق على تلك القرى اسم « الهجر » ، وكانت أول هجرة ظهرت للوجود في عام ١٩١١ في موضع يدعى « الارطاوية » يقع في منتصف الطريق بين الكويت والقصيم • وتلا ذلك ظهور هجر أخـرى تدريجياً حتى بلغ عددها بعد ثمانية عشر عاماً ١٢٢ هجرة ، وبلغ عدد رجالها ٧٦ر٥٠٠ رجلا •

أرسل ابن سعود الى الهجر « المطوعين » ـ أي الوعاظ ـ كما جهزها بما تحتاج اليه من مواد وأموال لتكون قرى زراعية ناجحة • وقد سادت الهجر حياة جديدة لم يعهدها البدو من قبل ، فهم قد باعوا ابلهم واحترفوا الزراعة والتجارة كما تركوا سكنى الخيام وسكنوا بيوتاً مبنية من اللبن ، ولبسوا العمامة البيضاء بدلا من العقال ، وأطلقوا على انفسهم اسم «الاخوان» باعتبار أن المؤمنين أخوة ، وانصرفوا الى الصلاة والعبادة وتدارس السيرة النبوية • وكانت كل هجرة تضم مسجداً في وسطها ، وكان المسجد يغص بالمصلين والدارسين في معظم الاوقات •

أراد الاخوان أن يتشبهوا بالمسلمين الاولين في كل شيء ، وهذا أمر لابد أن يؤدي بهم الى التطرف لعدم وجود قائد حكيم بينهم من طراز محمد يردهم الى جادة الاعتدال • وقد أعطانا حافظ وهبة صورة لبعض مظاهـر التطرف الذى انتشر بينهم فيقول : « لقد تشرب هؤلاء كثيراً من المبـادىء والتعاليم الناقصة حتى اعتقدوا انها هي الدين وما سواها ضلالة ••• وكان كثير منهم يعتقد ان لا اسلام لمن لم يسكن الهجرة ، مهما كان عليه مـن الاسلام ، وترك شرور البادية وعوائدها ، فلا يبدأون غيرهم من هؤلاء

بسلام ، ولا يردون عليهم السلام ، ولا يأكلون ذبائحهم • وذنب هؤلاء عندهم هو عدم سكنى الهجرة • وكان من عوائد الاخوان اذا قدموا زائرين قاموا في المسجد وقالوا : السلام عليكم يا الاخوان اخوانا يسلمون عليكم • وكانوا يعتقدون ان الحضر ضالون وغزو المجاورين واجب وأنه أُلقي عليهم هذا الواجب من قبل الله ، فلا يسمعون كلام أحد في منع الغزو ••• الى غير ذلك من ضروب الجهالة ، وأصبحوا يحرمون كل مالا يتفق وهواهم • وان سريان هذه الروح المتمردة يرجع الى هؤلاء الجهلة انصاف المتعلمين الذين انتشروا في قرى الاخوان باسم العلم ولقنوهم هذه التعاليم وحببوا اليهم التعصب الذميم »(١٥) •

صار الاخوان يعتبرون حياة البادية هي حياة الجاهلية بعينها ، واعتقدوا ان الاسلام الحقيقي هو في التخلص من كل ما يُشم منه رائحة الجاهلية ، والتمسك بسنة النبي وأصحابه • فالعقال مثلا أصبح في نظرهم من البدع المنكرة ، وغالى بعضهم فجعله من لباس الكفار وأوجب مقاطعة لابسيه • واعتبروا أن السنة في لبس العمامة البيضاء بدلا من العقال • وكانوا يخاطبون الرجل الذى ظل على بداوته : « أنت يابدوي مشرك ••• أنت يا أبو العقال من الكفار ، أنا أخو من طاع الله ، وأنت أخو من طاع الشيطان»(١٦) • واعتبروا الشارب الطويل والثوب الطويل مخالفين للسنة ، وكان بعضهم يحملون المقص معهم فاذا وجدوا رجلا طويل الشارب أو طويل الثوب عمدوا الى قصها بالمقص(١٧) •

يجب أن لاننسى ان هذا التطرف الذى صاحب حركة الاخوان كان على الرغم من جوانبه السلبية له جانب ايجابي هو أنه خلق من الاخوان

---

(١٥) حافظ وهبة (المصدر السابق) — ص ٢٩٠ •
(١٦) أمين الريحانى (المصدر السابق) — ص ٢٦٥ •
(١٧) حافظ وهبة (المصدر السابق) — ص ٢٩٢ — ٢٩٣ •

جنودا فدائيين يرمون بأنفسهم الى الموت وهم واثقون أنهم ذاهبون الى الجنة • يقول حافظ وهبه : « أصبح الاخوان لايهابون الموت بل يندفعون فيه اندفاعاً طلباً للشهادة ولقاء الله ، وأصبحت الام حينما تودع ابنها تودعه بهذه الكلمات : « جمعنا الله واياك في الجنه » ، وأصبحت كلمة التشجيع على الحرب : « هبت هبوب الجنة ويـن انت يا باغيها » ، وكلماتهم عند الهجوم : « اياك نعبد واياك نستعين » • ولقد شاهدت بعض مواقعهم الحربية فوجدتهم يقذفون بأنفسهم الى الموت قذفاً ويتقدمون الى أعدائهم صفاً صفاً ، ولا يفكر أحدهم في شيء الا هزيمة العدو وقتله • والاخوان على العموم لاتعرف قلوبهم الرحمة على الاعداء ، ولا يفلت من تحت يدهم أحد ، فهم رسل الموت اينما رحلوا »(١٨) •

ويروي حافظ وهبة قصة رجل من الاخوان جاء الى أحد شيوخ الدين يسأله عن النفاق وعن الخوف في الحرب ، وأخذ يشكو اليه من أن في قلبه نفاقاً حيث قال له : « انني حينما كنت أهجم وجدت في نفسي شيئاً من التردد بسبب أزيز الرصاص ، ولابد ان يكون النفاق في جنبي • أخـــرج النفاق بعصاك أيها الاخ » • فقال له الشيخ : ان هذا ليس من النفاق او الفرار من الزحف ، وأفهمه : انه اذا لم يعط العدو ظهره فلا يسمى ذلك نفاقاً أو فراراً • فقال الرجل : لا ، ان شاء الله لأعطي العدو ظهري ، ان هذا كفر يا شيخ !

ويروي حافظ وهبة قصة أخرى هو ان رجلا من الاخوان وجد صرة فيها نقود ذهبية عقب احدى المعارك الحربية التى خاضها الاخوان ، فجـاء بها الى أحد شيوخ الدين يسأله : هل هي حلال له ؟ فقال الشيخ له : انها من الغنيمة ولا يحل له من الغنيمة الا ما يصيبه بعد القسمة • فأسرع الرجل

---

(١٨) المصدر السابق ــ ص ٢٩١ •

الى متولي الغنيمة فسلم الصرة اليه قائلا : « لا والله لااستحقها »(١٩) •

ان هذه الروح الفدائية التي سيطرت على الاخوان جعلت منهم قـوة حربية كبرى في يد ابن سعود أخذ يهدد بها الاقطار المجاورة • وقد صار الاخوان ابتداءاً من عام ١٩١٩ يشنون الغارات على الكويت والعـراق والاردن والحجاز ، فأثاروا الرعب في تلك الاقطار • وقد رأينا نموذجاً من أفعالهم في واقعة تربة •

الفرصة المؤاتية :

كان ابن سعود بعد أن تنامت لديه قوة الاخوان يطمح لغزو الحجاز • ان آل سعود قد فتحوا الحجاز في حركتهم الاولى ، وهو يريد ان يسير على أثرهم ، ولكنه كان يخشى أن يمنعه الانكليز من ذلك ، وهو لم يكن يحب أن يصطدم بالانكليز على أي حال •

ظل ابن سعود يترقب الفرصة للقيام بحركته تجاه الحجاز • وقد جاءته الفرصة أخيرا في ٥ آذار ١٩٢٤ عندما أعلن الحسين الخلافة في عمان • فقد أدى هذا الاعلان الى غضب بعض الاوساط الاسلامية في الهند ومصر وغيرها • أضف الى ذلك ان الانكليز قاموا في ٣٠ منه بقطـع المعونة المالية التي كانوا يدفعونها لابن سعود ، فكان ذلك عاملا أضافياً جعل ابن سعود يصمم على غزو الحجاز • يقول الباحث ترويلر : ان حادثـين حدثا في سهر آذار ١٩٢٤ كان لهما بلا شك أثرهما القوي في دفع أبـن سعود الى مهاجمة الحجاز : أولهما انتحال الحسين الخلافة في ٥ منه ، والثاني قطع بريطانيا في ٣٠ منه للمعونة المالية التي كانت تدفعها لابن سعود ، وقد شعر ابن سعود على اثر ذلك انه سوف لايخسر كثيراً لو غضبت عليه

---

(١٩) المصدر السابق ـ ص ٢٩٢ •

بريطانيا ، ولم يبق لديه مانع قوي يمنعه من اطلاق اتباعه المتحمسين على الحجاز[٢٠] .

وقد أشار حافظ وهبة الى مثل ذلك في مذكراته ، فهو يقول : ان الظروف كانت حينذاك ملائمة لاطلاق سيوف الاسلام ـ ويقصد بهم الاخوان ـ على الحجاز ، فان اعلان الحسين الخلافة أغضب عليه اكثرية العالم الاسلامي ، كما أن موقف الحسين من فلسطين أغضب عليه الانكليز ، فلم يبق لدى الحسين من يعتمد عليه سوى أخيلة لم تحققها الايام • ويضيف حافظ وهبة الى ذلك قائلا : ان ابن سعود كان متهيباً من القيام بغزو الحجاز لانه لم ينس انذار بريطانيا له في عام ١٩١٩ عقب واقعة تربة ، ولكنه ـ أي حافظ ـ أوضح له ان الظروف تختلف عنها في أيام تربة ، وذكر له كيف أن الحسين كان في أيام تربة حليفا مطواعا لبريطانيا أما الآن فقداصبح مناوئاً لها • وأخذ يؤكد له أنها فرصة ثمينة يجب انتهازها وقال ان الفرص لايجود بها الزمن الا مرة واحدة[٢١] .

تأجيل الغزو :

في الوقت الذى صمم فيه ابن سعود على غزو الحجاز أصيب بمرض غريب جعله يؤجل الغزو فترة من الزمن •

بدأ المرض بورم في الوجه عقب ليلة قضاها ابن سعود مع احدى زوجاته • وكانت امرأة شمرية من آل الرشيد • وأخذ الورم يشتد عليه ، وتسمم بدنه وارتفعت درجة حرارته ارتفاعاً خطراً[٢٢] • وانتشرت الاشاعات عنه أنه مات ، غير ان المرض خف عنه تدريجياً بمرور الايام •

(20) Troeller (op. cit.) — P. 216.

(٢١) حافظ وهبة (خمسون عاما في جزيرة العرب) ـ ص ٥٥ ـ ٥٦ .

(22) Armstrong (op. cit.) — P. 159.

ومن الجدير بالذكر في هذا الصدد ان عبدالرحمن والد ابن سعود كان معتقداً بان المرض نشأ من البخور الذي تبخر ابنه به في تلك الليلة ، واتهم الزوجة الشمرية بأنها قد وضعت السم في البخور لكي تنتقم لقومها منه • وأمر ابنه بأن يطلقها • فطلقها ابن سعود طاعة لامر أبيه على الرغم من اعتقاده ببراءتها • ويُروى عن ابن سعود انه قال عن تطليقه لتلك الزوجة : « لقد طلقتها وهي تبكي وأنا أبكي ، لاني كنت واثقاً بأن التورم حصل صدفة وانها بريئة من اى سوء نية او سوء قصد ، ولكنني نزولا عند أوامر والدي طلقتها » • وقد ظل ابن سعود بعد ذلك يزور تلك المرأة لانه كان يحترمها ويودها كثيرا(٢٣) •

والغريب أنه بعد مرور أربعة أشهر على هذا المرض ظهرت بوادر الرمد على عينه اليسرى ، والمظنون انه الرمد الصديدي • فجيء له بأطباء شعبيين فلم ينفعوه شيئاً وأخذ الرمد يشتد عليه ، وظهرت على عينه لطخة بيضاء أفقدته البصر فيها • فجيء له بطبيب سوري استطاع أن يخفف من التهاب العين ، ولكن اللطخة البيضاء ظلت باقية • وفي كانون الثاني ١٩٢٦ عندما تم لابن سعود فتح الحجاز استُدعي له من مصر بعض أطباء العيون المعروفين كان من بينهم سالم الهنداوي وجلال أبو السعود ، فأجروا له عملية جراحية تمكنوا بها من اعادة شيء من البصر الى عينه المصابة عن طريق فتحة صغيرة في القرنية ينفذ منها الضوء • أما اللطخة فلم يتمكنوا من ازالتها •

مؤتمر الرياض :

عندما شعر ابن سعود بان صحته تمكنه من القيام بغزو الحجاز أوعز بعقد مؤتمر في الرياض يحضره رجال الدين وزعماء الاخوان للمداوله في

---

(٢٣) أمين المميز (المملكة العربية السعودية كما عرفتها) ــ بيروت ١٩٦٣ ــ ص ٣٣٨ ــ ٣٣٩ •

الامر • وقد انعقد المؤتمر في ٤ حزيران ١٩٢٤ برئاسة عبدالرحمن والد ابن سعود •

افتتح عبدالرحمن المؤتمر فذكر كيف ان الحسين منع الاخوان من الحج ، وقال ان كتبا عديدة وردته من الاخوان وهم يبغون الحج ، وأنه ارسل تلك الكتب الى ولده عبدالعزيز ، وها هو عبدالعزيز أمامكم فاسألوه عما تريدون • وعند هذا قام ابن سعود وقال للحاضرين : ان كتبهم وصلته وان الامور مرهونة بأوقاتها وان لكل شيء نهاية • فقام سلطان بن بجاد أحد زعماء الاخوان الاقوياء وقال بلهجته النجدية : « يا الامام حنا نبغي الحج ولا نريد أن نصبر أكثر مما صبرنا على ترك ركن من اركان الاسلام مع قدرتنا عليه • ليست مكة ملكاً لاحد ، ولا يحق لاحد أن يمنع المسلمين أو يصد المؤمنين عن أداء فريضة الحج • نريد أن نحج يا عبدالعزيز ، فاذا منعنا الشريف حسين دخلنا مكة بالقوة • واذا كنتم ترون من المصلحة تأجيل الحج فى هذا العام فلابد من غزو الحجاز لنخلص البيت الحرام من أيدي الظالمين المفسدين » •

علق ابن سعود على هذا الكلام قائلا بأن مسألة الحج هي من المسائل التى يرجع الفصل فيها الى علماء الدين ، وها هم العلماء حاضرون فليتكلموا فتكلم أحدهم وهو الشيخ سعد بن عتيق ، فذكر ان من أصول الشريعة النظر الى المصالح والمفاسد ، واذا كان الحج يؤدى الى ضرر او مفسدة وجب تأجيله ، وهذا أمر يعود الفصل فيه الى الواقفين على السياسة ، وهو ما نريد أن نسألهم عنه • وعند هذا تكلم ابن سعود فقال ما يلي :

« نحن لانود أن نحارب من يسالمنا ، ولا نمتنع عن موالاة من يوالينا • ولكن شريف مكة كان دائما كما تعلمون يزرع بذور الشقاق بين عشائرنا ، وهو الوارث من أسلافه بغضنا • ومع ذلك فقد بذلت كل مافي وسعي لحل

المشاكل التي بيننا وبين الحجاز بالتي هي أحسن . وكنت كلما دنوت من الحسين تباعد ، وكلما لنت له تجافى ، أي ورب الكعبة ! ولست أرى في تطور الامور ما ينعش الامل ، بل أرى الامور تزداد شدة وارتباكاً . ولا يحسن الاستمرار في خطة لاتعزز حقوقنا ومصالحنا » .

لم يكد ابن سعود يتوقف عن الكلام حتى هتف الجميع توكلنا على الله ! الى الحجاز ! الى الحجاز ![24] .

غارة الاردن :

أعد ابن سعود رتلين : أحدهما وهو الرئيسي وجهه الى الحجاز ، والثاني وجهه الى شرقي الاردن . والظاهر ان الرتل الثاني كان المقصود منه صرف الاذهان عن حركة الرتل الاول .

وصل الرتل الثاني الى مقربة من عمان في ١٤ آب ١٩٢٤ . وفي صباح ذلك اليوم بينما كان الكولونيل بيك قائد القوات الاردنية يتجول على فرسه بالقرب من عمان فوجىء بمجموعة من النساء قادمات نحوه وهن يصرخن : « اخوان .. اخوان ! » ، ولما سألهن بيك عن الخبر قلن له ان الاخوان هاجموا قرية طنب وذبحوا معظم سكانها وهم متوجهون الآن نحو عمان . فأسرع الكولونيل بيك الى ثكنات الجنود وأمرهم بالتحرك بمصفحاتهم لقتال الاخوان ، كما ذهب الى مقر القوة الجوية طالباً اعداد الطائرات لقصفهم . ثم ركب بيك طائرة استكشافية لكي يشرف على المعركة من الجو .

بوغت الاخوان بالنيران تنصب عليهم من المصفحات والطائرات معاً ، فتكبدوا من جراء ذلك خسائر فادحة ، وفروا لايلوون على شيء بعد أن تركوا وراءهم خمسمائة قتيل ونحو ستمائة أسير كان كثير منهم جرحى .

---

(٢٤) امين الريحاني (المصدر السابق) ـ ص ٣٢٦ ـ ٣٢٧ .

انها في الواقع لم تكن معركة بل كانت بالمذبحة أشبه • وقد انتقد بعض الكتاب في بريطانيا هذه القسوة البالغة في مواجهة الاخـــوان ، ووصفوها بأنها كانت أكثر مما ينبغي • فرد عليهم الميجر جارفز قائلا : ان هذه القسوة كانت ضرورية لانقاذ سكان الاردن من الرعب الذى كان مسيطرا عليهم لان الاخوان في غاراتهم لايرحمون حتى النساء والاطفال• ويقول جارفز : ان الانسان حين يواجه عدواً ابتدائياً سفاكاً يجب أن يأخذ بعين الاعتبار كيف سيعامله العدو لو انتصر عليه(٢٥) •

كان الامير عبدالله في تلك الآونة في الحجاز ، وقد عاد الى عمان في ١٩ آب ـ أي بعد وقوع المذبحة بخمسة أيام ـ فقدم له الكولونيل بيك أربع من الرايات الخمس التي كان قد غنمها من الاخوان • فسأله الامير عن مصير الراية الخامسة ، فأجابه بيك أنه أخذها لنفسه اذ هـي حصته من الغنائم • فضحـــك الامير وقال : احتفـــظ بها فأنت تستحقها(٢٦) •

أرسل ابن سعود الى بريطانيا احتجاجاً على ما فعلت قواتها بالاخوان، وكانت حجته ان القبائل الاردنية هي التي بدأت بالعدوان • فردت عليه بريطانيا ببرقية أرسلتها عن طريق قنصلها في بوشــهر ، حيث قالت للقنصل ما يلي :

« يجب أن تخبر ابن سعود بأن الحكومة البريطانية قد تسلمـت احتجاجه بكل دهشة • انها تعتبر نفسها هي صاحبة الحق في الاحتجاج على ما جرى في شهر آب الماضي حين قام جمع من القبائل الوهابية بغارة مسلحة على منطقة تقع تحت الانتداب البريطاني • ان الحكومة البريطانية ملزمة بأن تصد مثل هذه الغارة بكل وسيلة تقع في يدها • ان ابن سعود

---

(25) Jarvis (Arab Command) London 1924 – P. 115–118.

(26) Ibid. P. 118.

يمكن أن يكون واثقا من أن الحكومة البريطانية ستفعل تجاه أية غارة أخرى بمثل ما فعلت تجاه الغارة الاولى ••• انه يجب ان يفهم بوضوح؛ ان الحكومة البريطانية لن تتسامح تجاه أي هجوم على منطقة تقع تحت؛ مسؤوليتها • أما بالنظر الى شكواه حول البادىء بالعدوان فيجب أن تذكره بالرسالة المرسلة ببرقيتنا في الاول من آب الماضي • فالوهابيون بدلا من أن يطالبوا بالتحقيق حول الغارة التي زعموا انها شُنت عليهم من شرقي الاردن اختاروا أن يأخذوا القانون بأيديهم • انهم يجب أن لايلوموا غير أنفسهم لما قاموا به من عمل عدواني سيء التوجيه أدى بهم الى الاصطدام مع القوات البريطانية ••• »[٢٧] •

واقعة الطائف :

حين بلغ الحسين خبر المذبحة التي حلت بالاخوان في شرقي الاردن استبشر بها كثيراً • انه لم يكن يدري ان ابن سعود يعد العدة له وهو على وشك مهاجمته • لقد كان الحسين واثقاً ان الاخوان لو هاجموه سيحل بهم مثلما حل بهم في شرقي الاردن • يقول أمين الريحاني : ان الحسين كان حينذاك في قصره متوسداً وسادة الخلافة مطمئن البال واثقاً بما تضمره الايام وهو يدبج المقالات لجريدة « القبلة » ، حيث يقول : « نحن نشكر كمالات حكومة بريطانيا العظمى على ما أظهرته من الحمية في الشرق العربي ــ يقصد شرقي الاردن ــ ولكننا مع ذلك لانتنازل عن حق من حقوقنا •• ان سوريا جزء من البلاد العربية وان فلسطين للعرب• ولا نوقع معاهدة فيها ما ينفي هذا القول بل هذا الحق ••• ومن أعرف منا بالبدو وبالمتدينة ــ يقصد الاخوان ــ ان قبلة من مدفع تبددهم ، وطيارة واحدة تشتت شملهم • والبرهان في الشرق العربي »[٢٨] •

---

(٢٧) دائرة الوثائق العامة في لندن ــ رقم (أف• او• ٣٧١ ــ ١٠٠١٣) •
(٢٨) أمين الريحاني (المصدر السابق) ــ ص ٣٣٠ •

كان الاخوان يتجمعون في تربة وقد بلغ عددهم نحو ثلاثة آلاف ، وكانوا برئاسة الشريف خالد بن لؤي وسلطان بن بجاد • وفي أواخر شهر آب ١٩٢٤ تحركوا نحو الطائف فاجتازوا حدود الحجاز ، وفي اليوم الاول من ايلول وصلت طلائعهم قرية « الحوية » التي تبعد بضعة أميال عن الطائف • وهناك جوبهوا بقوة نظامية كانت قد أرسلت من الطائف ، فنشبت بين الفريقين معركة دامت بضع ساعات كانت الغلبة فيها للاخوان •

انسحبت القوة النظامية نحو الطائف ، ورابطت في الهضاب الغربية منها ، وقد انضم اليها عدد من البدو • وفي مساء ٥ ايلول وصل الى الطائف الامير علي ومعه سرية من الخيالة وأخرى من الهجانة • ولكنه لم يمكث فيها طويلا ، بل خرج منها في عصر اليوم التالي وعسكر في موضع يدعى « الهدا » قريب منها •

وفي ظهر ٧ ايلول اقترب الاخوان من الطائف وصار رصاصهم يقع داخل السور • فساد الذعر في البلدة ، وأخذ بعض سكانها والمصطافون فيها يفرون منها ، كما انسحب منها وزير الحربية صبري باشا مع جنوده حيث التحقوا بالامير علي في الهدا ، وانسحب كذلك أمير الطائف الشريف شرف مع موظفيه •

وعلى أثر ذلك دخل الاخوان الى البلدة كالسيل الجارف وهم يكبرون ويطلقون بنادقهم في الفضاء ، ثم أخذوا يطوفون في اسواق البلدة وأزقتها وهم يطلقون النيران على كل من يشاهدونه في طريقهم • ثم تطور الحال بعدئذ فصار الاخوان يحطمون أبواب البيوت ويدخلونها قهراً ، فينهبون ويقتلون • انهم يعتبرون جميع الناس غيرهم كفارا حلال دماؤهم وأموالهم • وكان من جملة قتلاهم الشيخ الزواوي مفتي الشافعية وأبناء الشيخ عبدالقادر الشيبي سادن الكعبة • ويروي أمين الريحاني

أنهم ظفروا بالشيبي نفسه وأرادوا قتله ، ولكنه نجا منهم بحيلة ، فهو عندما وقع في أيديهم واستل أحدهم سيفه عليه ليقتله أخذ يبكي ، فسأله الاخواني : « وليش تبكي يا كافر » . فأجابه الشيخ : « أبكي والله من شدة الفرح . أبكي يا أخوان لاني قضيت حياتي كلها في الشرك والكفر، ولم يشأ الله أن أموت الا مؤمناً موحداً . الله اكبر ! لا اله الا الله ! ». وقد أثر هذا الكلام في الاخوان وبكوا لبكاء الشيخ ، ثم صاروا يقبلونه ويهنئونه بالاسلام[29] .

كان الامير علي ومن معه قد انسحبوا الى عرفات ، وحين علم الحسين بذلك غضب على الامير غضباً شديداً ، وأمره بالعودة لاسترجاع الطائف . وفي ٢٦ ايلول التقى الفريقان في الهدا فوقعت معركة عنيفة استمرت بضع ساعات كانت الغلبة فيها للاخوان .

الحسين يتنازل :

عندما وصل الى مكة خبر الهزيمة التى حلت بجيش الحسين في الهدا انتشر الرعب والذعر بين الاهالى اذ كانوا يخشون ان تحل بهم مذبحة كمذبحة الطائف ، وأخذوا يفرون الى جدة ، وسار الكثير منهم على الاقدام لكثرة الفارين وقلة وسائل النقل . فاكتظت بهم جدة .

كان الحسين يظن ان الانكليز سيتدخلون لانقاذه على نحو مافعلوا في شرقي الاردن في الشهر الماضي . فأرسل في ٢٦ ايلول برقية الى المستر بولارد القنصل البريطاني في جدة ذكر فيها : ان الحالة حرجة ، وان علاقته بالحكومة البريطانية تجعله يطلب منها الاهتمام بصد ابن سعود لتجنب ما وقع في الطائف ، وهو يأمل منها النظر في طلبه بأسرع ما يمكن. فأبرق القنصل بهذا الطلب الى حكومته في لندن ، فعاد الجواب منها في

---

(٢٩) المصدر السابق ـ ص ٣٣٣ .

٢٨ مله بمباده : ان الحكومه البريطانيه متمسكه بسياستها التقليدية في عدم التدخل في الامور الدينية ، وهي لذلك لاتريد أن تتدخل في أي نزاع بشأن امتلاك الاماكن المقدسة في الاسلام[٣٠] •

وفي الوقت نفسه كتب الدكتور ناجي الاصيل مندوب الحسين في لندن الى وزارة الخارجية البريطانية يقول لها : ان صاحب الجلالة الهاشمية يناشد الحكومة البريطانية طبقاً لروح المعاهدة التى هي تحت المفاوضة أن تدخل لوضع حد للاعتداء الوحشي الذى يقوم به الوهابيون ضد الاماكن المقدسة واخراجهم من الطائف • فأجابته وزارة الخارجية البريطانية قائلة : ان الحكومة البريطانية لاتريد أن تتورط في النزاع القائم بين أمراء عرب مستقلين حول امتلاك الاماكن المقدسة في الاسلام • وقد ألقى رئيس الوزارة البريطانية بياناً بهذا المعنى في مجلس العموم البريطاني •

رد الاصيل على جواب وزارة الخارجية في ٢ تشرين الاول أشار فيه الى ماقام به شعب الحجاز من مخاطرة كبرى في تأييد بريطانيا في الحرب العامة ، وهو لذلك يتوقع من بريطانيا مساعدته في انقاذ مكة من ويلات الحرب • وذكر الاصيل كذلك ان العالم الاسلامي لا يرضى أن تقع الاماكن المقدسة ، ولو لفترة قصيرة جداً ، في أيدي طائفة كالوهابية ، وهو ينظر بعين الخشية الى احتمال غزو مكة من قبل سلطان نجد واتباعه[٣١] •

والغريب انه بينما كان الحسين يناشد بريطانيا لانقاذه من الوهابيين ، كان بعض الاهالي في جدة يناشدونها لانقاذهم من الحسين نفسه • يقول القنصل البريطاني في جدة في تقريره السري الى حكومته : أن اثنين من

---

(٣٠) دائرة الوثائق العامة في لندن ــ رقم (أف• أو• ٣٧١ ــ ١٠٠١٤)

(٣١) دائرة الوثائق العامة في لندن ــ رقم (أف• أو• ٣٧١ ــ ١٠٠١٤)

كبار تجار جدة جاءا اليه مطالبين بان يكون الحجاز تحت حماية بريطانيا أو انتدابها ، فرفض القنصل تلبية طلبهما • ثم يقول القنصل : أن الرأي السائد بين أهالي جدة هو أنهم كانوا في العهد التركي مرتاحين على الرغم من تعسف الاتراك ، اذ كان لديهم شيء من الحرية في ممارسة حرفتهم لاستغلال الحجاج ، ولم يكن لديهم أي اهتمام فيما يخص شؤون الدفاع عن البلاد ، ثم جاءت بريطانيا أخيراً فطردت الاتراك من البلاد وأقامت فيها حكماً أشد تعسفاً من الاتراك كما وضعت مسؤولية الدفاع عنها على اهلها • ان الاهالي يريدون الآن من بريطانيا أن تدافع عنهم بعد أن تحطمت وسائل دفاعهم ، وأن تنقذهم من حكم الحسين الذى كان السبب المباشر لهجوم الوهابيين(٣٢) •

وفي ٣ تشرين الاول وصل الى جدة الامير علي مرسلا من أبيه فدعا اليه أعيان جدة وأعيان مكة الذين لجأوا اليها • وقال لهم: ان الموقف يدعو الى اليأس وان أباه مستعد للتنازل عن العرش اذا كان ذلك يؤدي الى تحسين الموقف • فطلب الاعيان مهلة ساعة للتداول في الامر ، وبعد المداولة قرروا قبول تنازل الحسين عن العرش وتولية ابنه علي مكانه • وقد رفض الامير علي قبول العرش ، فأصروا عليه ، وأبرقوا حالا الى الحسين يطلبون منه التنازل لابنه علي وذلك لانقاذ الحرمين الشريفين من الكارثة وانقاذ الشعب من الفوضى • فأجابهم الحسين بهذه البرقية : « مع الممنونية والشكر • وهذا اساس رغبتنا التي أصرح بها منذ النهضة والى تاريخه • وقد صرحت قبله بدقائق اني مستعد لذلك بكل ارتياح اذا عينتم غير علي • واني منتظر هذا بكل سرعة وارتياح ـ حسين » •

كان الاعيان لايزالون مجتمعين عندما وصلتهم البرقية • فقرروا الاتصال به مباشرة بالتلفون • فتناول أحدهم التلفون وأخذ يخاطب

---

(٣٢) دائرة الوثائق العامة في لندن ـ رقم (أف• أو• ٣٧١ ـ ١٠٠١٥)

الحسين ، ولكن الحسين رفض التكلم معه قائلا له : « انت من رجـــال حكومتي فليكلمني غيرك » • ولما تناول رجل آخر منهم التلفون رفض الحسين التكلم معه كذلك • وعند هذا تناول التلفون طاهر الدباغ فجرت بينهما المحاورة التالية :

الدباغ : « مولاي بناءاً على المركز الحرج الذى وصلت اليه البلاد قررت الامة تنازل جلالتكم لسمو الامير علي ••• » •

الحسين (مقاطعاً) : « أنا وابني شيء واحد • واذا كنت أنا قـــد صرت عندكم بطّال فلا بأس • ولكن لاأفهم ما القصد من هذا • لايهمني أمر الملك في أي شخص كان • ولكني لا أتنازل لولدي علي أبداً • لاني أذا كنت أنا بطّال فولدي بطال »•

الدباغ : « كلا يامولاي • لاننسب لجلالتكم شيئاً من ذلك • وانما نريد أن نسلك سياسة غير السياسة التى سرتم عليها ، عسى أن نتمكن من تخليص البلاد من مأزقها الحرج • والامة قد أجمعت على طلب ذلك من جلالتكم ، ونرجو اجابة رغبتها » •

الحسين : « يا ابني لكم ان تفعلوا ما تشاؤون • أما أنا فلا اتنـــازل لولدي أبدا • عندكم الشريف علي أمير مكة السابق ، وأخي ناصر ، وعندكم خديوي مصر عباس حلمي ، وعندكم الاشراف كثيرون • اختاروا اى واحد تشاؤون ، وأنا مستعد للتنازل له • أما ولدي فلا يمكن لاني أنا وهو شيء واحد • خيره وشره عائدان لي »•

الدباغ : « قد أجمعت الامة يامـــــولاي على اختيار الامير علي ولا ترغب ••• » •

الحسين (مقاطعاً) : « لا يمكن أن اتنازل لولدي أقـــول لايمكن قطعاً » •

الدباغ : « سأخبر الهيئه ثم نعلم جلالتكم »[٣٣] .

كان الامير علي في اثناء ذلك قد زار القنصل البريطاني وسأله هل في مقدوره الاعتماد على مساعدة الحكومة البريطانية في حالة قبولـه العرش ، فكان جواب القنصل له بالنفي . وعاد الامير علي الى هيئة الاعيان وأعلن لهم انه لن يقبل العرش لان الوضع لا أمل فيه وانه لايرغب أن يكون ملكاً لمدة يومين أو ثلاثة . وعند هذا قرر الاعيان انتداب اربعة منهم لمقابلة القنصل البريطاني ، وكان الوقت آنذاك في ساعة متأخرة من الليل فسار المندوبون الاربعة نحو القنصلية وخلفهم جمهور غفير من الناس . وحين اجتمعوا بالقنصل ذكروا له أن الامير علي رفض قبول العرش ، وأنهم لهذا لايملكون وسيلة سوى طلب الرحمة من بريطانيا ، وعرضوا على القنصل : اما ان تضع بريطانيا الحجاز تحت حمايتها او انتدابها ، أو تتدخل لمنع ابن سعود من احتلال مكة ، أو تؤيد الاعيان في مفاوضاتهم مع الوهابيين لكي يمتنعوا عن المذابح ، أو تقوم بأي عمل ينقذهم « باسم الانسانية » . فأجابهم القنصل انه غير مخول من قبل حكومته أن يفعل أي شيء مما ذكروه[٣٤] .

عاد المندوبون الاربعة من القنصلية خائبين ، واضطروا الى الالحاح من جديد على الامير علي لكي يقبل العرش . فوافق الامير أخيرا على طلبهم . وأرسلوا الى الحسين في مكة برقية تتضمن ما يشبه الانذار له ، وهذا نصها : « الحالة حرجة جداً ، وليس الوقت وقت مفاوضات . فاذا كنتم لاتتنازلون للامير علي فنسترحم بلسان الانسانية أن تتنازلوا جلالتكم لتتمكن الامة من تشكيل حكومة موقتة . واذا تأخرتم عن اجابة هذا الطلب فدماء المسلمين ملقاة على عاتقكم » .

---

(٣٣) أمين الريحاني (المصدر السابق) – ص ٣٣٧ – ٣٣٨ .

(٣٤) دائرة الوثائق العامة في لندن – رقم (أف. أو. ٣٧١ – ١٠٠١٥)

حل الاعيان ساهرين في تلك الليلة ينتظرون الجواب • وفي الساعة الرابعه من صباح ٤ تشرين الاول وصل الجواب وفيه يقول الحسين : انه قبل التنازل بكل ارتياح ، واذا قبل الامر علي فيجب أن تعنوه رأساً ، فالحاله تقتضي السرعة واذا تأخرتم فانتم المسؤولون ![٣٥]

سقوط مكة :

جرى الاحتفال في جدة بمبايعه الامير علي ملكاً للحجاز ، وكان الاحتفال بسيطاً للغاية ، وقد تقرر فيه أن يكون علي ملكاً دستوريا يتزل على رأي الامة في تحقيق آمالها ورغباتها ، وأن يكون للبلاد مجلس نيابي ينتخب أعضاؤه من جميع أنحاء الحجاز بموجب قانون آساسي تضعه جمعية تأسيسية كما هو جاري في البلاد المتمدنة •

وأوعز الملك علي بتأليف وزارة على الطريقة الدستورية ، فجرى تأليفها بالشكل التالي : عبدالله سراج رئيساً • تحسين الفقير وزيـــرا للحربية ، طاهر الدباغ وزيراً للمالية ، خالد الخطيب وزيرا للصحة ، محمد طويل وزيرا للرسوم ، عبدالقادر غزاوي وزيرا للمواصــلات عارف الأدلبي وزيرا للبحرية ، محمد بن منصور وزيرا للداخلية ، فؤاد الخطيب وزيرا للخارجية[٣٦] •

غادر الملك علي الى مكة على أثر تأليف الوزارة ، لاعداد قواتـه للدفاع عنها • أما أبوه الحسين فكان قد قرر مغادرة البلاد ، ولهذا أرسل في مقدمته قافلة من الجمال تحمل أمتعته واموالة بحراسة عدد من عبيده المخلصين ، وقيل انها كانت تحمل مائة وستين ألف ليرة ذهب موضوعة

(٣٥) أمين الريحاني (المصدر لسابق) ـ ص ٣٣٩ •

(٣٦) صلاح الدين المختار (تاريخ المملكة العربية السعودية) ـ بيروت ـ ج٢ ص ٣٠٤ •

في أربعين صفيحة من صفائح النفط[٣٧] • وحين خرجت القافلة من مكة أخذ بعض الغوغاء يودعونها بكلمات نابية[٣٨] •

وفي ٩ تشرين الاول غادر الحسين مع حرمه وعبيده الى جدة ، وتمكث فيها ستة أيام معتزلا الناس لم يقابل أحداً منهم • وعند انتهاء الايام الستة أرسل الى رئيس الوزارة الحديثة بلاغا احتج فيه على الحكومة الدستورية قائلا : « أما الحكومة الدستورية ، سيما في الحرمين الشريفين، فالعمل فيها ينبذ أحكام كتاب الله وسنة رسوله • ان العمل في البلاد المقدسة بالقوانين البشرية لما تتأباه شعائر الاسلام وفرائض الدين والاخلاق الشريفة مادة ومعنى »•

وفي مساء ١٥ منه غادر الحسين جدة على ظهر باخرة له تدعى الرقمتين » ، وهي باخرة صغيرة شبيهة باليخت كان قد أشتراها من اليونان منذ وقت ليس ببعيد • يُروى انه عندما شاهدها لاول مرة عقب شرائها أعجب بها وقال : سوف نسافر بها في يوم من الايام سفرة بعيدة[٣٩] • وقد تحققت نبوءته •

لم يبق الملك علي في مكة سوى اسبوع واحد • انه أدرك ان القوات التى لديه في مكة لاتكفي للدفاع عنها فقرر الانسحاب منها الى جدة • وفي مساء ١٤ تشرين الاول غادر مكة مع قواته التى لم تكن سوى مائتين من من الجنود ومثلهم من الشرطة •

كان قائد الجيش الهاشمي رجل عراقي هو صبرى باشا العزاوي وقد اختلفت الاقوال في مصيره • فمنهم من يقول انه انسحب مع الحسين، ولكن فيلبي يخالف ذلك حيث يقول : « لقد ذاب جيش الملك حسين في

---

(٣٧) أمين الريحاني (المصدر السابق) ـ ص ٣٤٠ •
(٣٨) صلاح الدين المختار (المصدر السابق) ـ ج٢ ص ٣٠٦ •
(٣٩) أمين الريحاني (المصدر السابق) ـ ص ٣٤٠ ـ ٣٤١ •

الهواء منذ المعركة الاولى وكان قائده السابق صبري باشا البغدادي الاصل أول من فر من الميدان »[٤٠] • ويقول القنصل البريطاني في تقريره : ان صبري باشا كان مكلفاً بتعطيل المدافع الموجودة في مكة لكي لا يستفيد منها العدو ، غير أنه تركها من غير تعطيل وهرب ، وقد وقعت المدافع بعدئذ غنيمة باردة في أيدي الاخوان فاستفادوا منها فائدة كبرى[٤١].

حين علم الاخوان بانسحاب الملك علي من مكة ، أرسلو اليها أربعة رجال منهم وهم عزل من السلاح • ولما وصل هؤلاء الاربعة الى مكة وجدوا شوارعها خالية ، وقد سدت مداخلها بالحواجز ، كما وجدوا الحوانيت مقفلة . • فأخذوا يطوفون البلدة على خيولهم وهم ينادون « الامان ـ الامان ! » • وفي ١٦ تشرين الاول دخل الاخوان الى مكة وهم بلباس الاحرام ، فطافوا حول البيت وسعوا بين الصفا والمروة • فاستقبلهم أهل مكة بالحفاوة والترحيب ![٤٢]

عين خالد بن لؤي حاكماً على مكة ، وانطلق الاخوان الى دور الحكومة والأشراف فنهبوها وعرضوها للبيع • وجاء بعض أهل مكة اليهم يدلونهم على دور أخرى كان أصحابها قد فروا من مكة ، فصار الاخوان ينهبونها ويعرضونها للبيع أيضاً[٤٣] •

ثم انطلق الاخوان الى القباب المقدسة فهدموها ، كالقبة المقامة على قبر خديجة ودار النبي • وفرضوا على السكان حضور صلاة الجماعة خمس مرات في اليوم ، كما منعوا التدخين وقراءة المولد النبوي ، وزيارة القبور ، ومن يشاهدونه يفعل ذلك يشتمونه ويضربونه ، وربما ساقوه الى الحبس أو فرضوا عليه الغرامة • وحين نصب الجاويون

---

(٤٠) خيري حماد (عبدالله فيلبي) ـ بيروت ١٩٦١ ـ ص ١٦٠ •
(٤١) دائرة الوثائق العامة في لندن ـ رقم (أف٠ أو٠ ٣٧١ ـ ١٠٨٠٧)
(٤٢) صلاح‌الدين المختار (المصدر السابق) ـ ج٢ ص ٣١٠ •
(٤٣) أمين الريحاني (المصدر السابق) ـ ص ٣٧٠ •

سرادق لتلاوة المولد النبوي كعادتهم في كل عام ، جاء الاخوان اليهم فطردوهم ونعتوهم بـ « المشركين » ، وهدموا السرادق • وحين ذهب اثنان من الهنود لزيارة قبر خديجة ألقي القبض عليهما وأودعا الحبس ، ولم يُطلق سراحهما الا بعد أن جاء المنشي احسان الله كاتب القنصلية البريطانية في جدة فدفع غرامة خمسة دولارات عن كل واحد منهما ، فأطلق سراحهما(٤٤) •

ابن سعود يتردد :

كان ابن سعود في الرياض عندما وصلته اخبار سقوط الطائف في أيدي الاخوان • وفي ١١ تشرين الثاني ١٩٢٤ غادر الرياض متوجهاً الى الحجاز على رأس جيش يبلغ تعداده خمسة آلاف رجل ، ولكنه كان قلقاً متردداً ، اذ كان يخشى أن يأتيه انذار من بريطانيا على نحو ما حدث في عام ١٩١٩ عقب واقعة تربة • انه لم يكن يرغب في محاربة الانكليز على أي حال ، لانهم يملكون الطائرات والمصفحات بينما هو لا يملكها ، وربما جرى عليه في الحجاز مثلما جرى على الاخوان في شرقي الاردن•

وبينما كان ابن سعود في طريقه الى الحجاز وصلته صحف من العراق وفيها خبر بسقوط وزارة العمال في إنكلترا ، وتشكيل وزارة جديدة من المحافظين • فأسرع أحد مستشاريه ـ والمظنون أنه يوسف ياسين ـ فاختلى به وذكر له أن وزارة المحافظين الجديدة سوف تتبع تجاه القضايا العربية سياسة جديدة تختلف عن سياسة الوزارة العمالية السابقة ، وأن أول أعمالها سيكون المحافظة على حكم الاشراف في الحجاز•

اضطرب ابن سعود عند سماعه هذا القول ، وأرسل يستدعي اليه مستشاريه الآخرين اللذين كانا يرافقانه في الحملة وهما : حافظ وهبة

---

(٤٤) دائرة الوثائق العامة في لندن ـ رقم (أف• أو• ٣٧١ ـ ١٠٨٠٨)

المصري وعبدالله الدملوجي العراقي • وحين دخل عليه هذان الرجلان وجداه واجماً مغموماً فسألهما عن الاخبار ثم قال : « هل للمحافظين تأثير في موقفنا ؟ هل يؤيدون الاشراف ؟ » • فأجابه حافظ وهبة : ان السياسة الخارجية الانكليزية ثابتة تقريبا لان الذين يصنعونها موظفون دائميون وان الاحزاب الانكليزية على اختلافها تنفذ ما يصنعه أولئك الموظفون وقلما تغيره تغييراً تاماً • لم يقتنع ابن سعود بصحة هذا القول وبدت عليه امارات الشك والتردد ، وسأل حافظ وهبة : « هل انت متحقق مما تقول ؟ » ، فأجابه حافظ بأنه متحقق كل التحقق •

وأخذ حافظ يحاول اقناع ابن سعود بأن لا يتردد في عزمه وان يواصل الزحف نحو الحجاز ، حيث قال له : « اذا كنت في شك من من أمرك فخير لك أن ترجع الى بلدك ، وان كنت واثقاً بالله الذي وعد المؤمنين بالظفر والتأييد فسر في طريقك ولا تتردد • لا تشغل بالك يا مولاي بهذه الشكوك • ان بريطانيا لا يهمها الا المحافظة على رعاياها ومصالحها ، وسيان عندها الشريف حسين أو ابن سعود • لقد كانت لها آمال كبيرة في الملك حسين ، فأنذرتك في سنة ١٩١٩ ، أما الآن فقد تغيرت الحال ، وخابت جميع آمالها فيه ، فسر على بركة الله ولا تتردد ، ان الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون » • فقال ابن سعود : « توكلنا على الله ، ولعنة الله على فلان ـ يقصد المستشار الاول ـ الذي بلبل أفكاري ، وأسلمني الى الشك والتردد » •

وبعد مرور أربعة ايام من ذلك وصل الى ابن سعود بريد الحجاز وهو يحمل كتباً من جميع قناصل الدول في جدة يعلنون فيها حياد دولهم في الحرب القائمة في الحجاز ويحمّلون الفريقين مسؤولية ما يقع على رعاياهم من ضرر او اعتداء • فكان لهذه الكتب وقع حسن لدى ابن سعود وبشارة خير للمستقبل(٤٥) •

---

(٤٥) حافظ وهبة (المصدر السابق) ـ ص ٦١ ـ ٦٣ •

علماء مكة يوافقون :

وصل ابن سعود مع جيشه الى مكه في ٤ كانون الاول ١٩٢٤ . وفي اليوم التالي استعرض الجيش ، ثم جاء الاخوان لتحيته فقبلوا أنفه وجبينه على عادتهم ، وجاء من بعدهم أعيان مكة وتجارها وأرادوا تقبيل يده على عادتهم فمنعهم من ذلك وقال : « المصافحه من عادات العرب ، أما عادة التقبيل فقد جاءتنا من الاجانب ونحن لا نقبلها »(٤٦) .

وبعد أن انتهى ابن سعود من النظر في مشاكله الآنية ، استدعى اليه الشيخ عبدالقادر الشيبي وطلب منه دعوة علماء مكة للاجتماع به . فاجتمع العلماء به في اليوم التالي وألقى ابن سعود عليهم كلمة قال في ختامها ما يلي :

« والآن أنا بذمتكم وأنتم بذمتي . ان الدين نصيحة . وأنا منكم وأنتم مني . وهذه عقيدتنا في الكتب بين أيديكم . فان كان فيها ما يخالف كتاب الله فردونا عنه ، وسلونا عما يشكل عليكم فيها . والحكم بيننا وبينكم كتاب الله وما جاء في كتب الحديث والسنه ... انا لم نطع ابن عبدالوهاب وغيره الا في ما أيدوه بقول من كتاب الله وسنة رسوله . أما أحكامنا فهي طبق اجتهاد الامام أحمد بن حنبل . اذا كان هذا مقبولاً عندكم تعالوا نتبايع على العمل بكتاب الله وسنة رسوله وسنة الخلفاء الراشدين من بعده » .

حين انتهى ابن سعود من كلامه صاح بعض الحاضرين : « كلنا نبايع » . فرد عليهم ابن سعود : « قولوا لنا بصريح القول ما عندكم » . فقالوا « ما عندنا غير هذا » . فقال ابن سعود : « أعيذكم بالله من التقيّة ، فلا تكتموا علينا شيئاً » . فقال أحد الحاضرين : « اجمعنا بعلماء نجد بحضرة الامام فنتباحث واياهم في الأصول والفروع ونقرر ما نتفق عليه

(٤٦) أمين الريحاني (المصدر السابق) ـ ص ٣٧٣ .

ان شاء الله » • فوافق ابن سعود على هذا الرأي وقال : « زين ، قريباً تجتمعــون » •

وفي ٨ كانون الاول اجتمع خمسة عشر من علماء مكة ، وسبعة من علماء نجد ، وبعد المناقشة والمباحثة فيما بينهم اتفقوا على صحة المذهب الوهابي • ثم أصدر علماء مكة بياناً ورد فيه ما نصه :

« قد حصل الاتفاق بيننا وبين علماء نجد في مسائل أصولية ، منها : من جعل بينه وبين الله وسائط من خلقه يدعوهم ويرجوهم في جلب نفع او دفع ضرّ ، فهذا كافر يستتاب ثلاثاً فان تاب والاّ قُتل • ومنها : من سأل الله بجاه أحد من خلقه فهو مبتدع مرتكب حراماً • في هذه المسائل تباحثنا واتفقنا فاتفقت بذلك العقيدة بيننا معاشر علماء الحرم الشريف وبين اخواننا علماء نجد »[47] •

ان هذا الاتفاق الذي حصل في مكة يشبه من بعض الوجوه ذلك الاتفاق الذي حصل بين علماء الشيعة والسنة في مؤتمر النجف عـــام ١٧٤٣ • فكلاهما قد حصل وفقاً لرغبة سلطان قاهر ، ولولا رغبة السلطان لاختلف العلماء فيما بينهم وتنازعوا وكفّر بعضهم بعضاً • ان الانسان لا يتنازل عن رأي او عقيدة تحت تأثير الجدل والدليل المنطقي وحده • فالدليل المنطقي لا يقنع الاّ صاحبه ، أما في نظر خصمه فهو دليل تافه سخيف[48] •

---

(٤٧) المصدر السابق ـ ص ٣٧٢ ـ ٤٧٤ •

(٤٨) أنظر الجزء الاول من هذا الكتاب ـ بغداد ١٩٦٩ ـ ص ١٣٤ ـ ١٣٧ •

الفصل السادس

أيام الملك عليّ

استغرق حكم الملك عليّ في الحجاز نحو خمسة عشر شهراً ، وهو يمثل فترة عجيبة من الزمن مليئة بالعبر والدروس الاجتماعية وسنحاول في هذا الفصل ذكر بعض هذه الدروس بايجاز .

خط الدفاع :

يذهب الخبراء العسكريون الى القول بأن الاخوان لو كانوا قد زحفوا على جدة عقب احتلالهم مكة لاستولوا عليها بكل سهولة ، ولسقطت حكومة الملك عليّ وتم الأمر لابن سعود في الحجاز كله ، ولكن الاخوان توقفوا عن الزحف بناءاً على الأوامر التي وصلتهم من ابن سعود . فقد كان ابن سعود يخشى أن تقع مذبحة في جدة كالتي وقعت في الطائف وربما أدى ذلك الى تدخل الدول الاجنبية وانتكاس الأمر عليه . يقول حافظ وهبة في مذكراته : « وعندما وصلت الينا الاخبار عن دخول الاخوان مكة ، وقد كان دخول مكة خارجاً عن الخطة المرسومة لهم ، أخبرت الملك عبدالعزيز ان الواجب يقضي عليه أولاً بمنع الاخوان من الهجوم على جدة خشية أن يقع في جدة ما وقع في الطائف فتكون العاقبة وخيمة ، وان الواجب يقضي عليه ثانياً بأن يسافر حالاً الى الحجاز ليشرف بنفسه على الحالة هنالك ، وليعرف الناس بنفسه ، وليطمئن الحجازيين ، ويزيل من نفوسهم الاثر السيء من مأساة الطائف »(١) .

كان توقف الاخوان عن الزحف على جدة فرصة ثمينة للملك عليّ لكي يحصن بها جدة ويقوى وسائل الدفاع فيها . والواقع ان الملك عليّ

---

(١) حافظ وهبة (خمسون عاما في جزيرة العرب) ـ القاهرة ١٩٦٠ ـ ص ٦٠ .

استغل تلك الفرصة بأقصى جهده ، وقد ساعده في ذلك رجلان ، أولهما تحسين باشا الفقير وزير الحربية ، وهو ضابط شامي أرسله الامير عبدالله لمساعدة أخيه ، وكان من ضباط الجيش العثماني وقد قاتل في خط « شطالجة » لحماية اسطنبول في حرب البلقان ، ولما وصل الى جدة أخذ يبذل جهده لانشاء خط دفاعي حولها على شاكلة خط « شطالجة » . أما الرجل الثاني فهو نورس بك ، وهو مهندس عسكري تركي ، وقد أبدى براعة ودأباً في اقامة الخط الدفاعي ، واعتبر في حينه « دماغ الجيش المفكر » .

تم اعداد الخط الدفاعي على شكل قوس يبتديء من ساحل البحر في شمال جدة . وينتهي اليه في جنوبها . وقد بلغ طوله ستة أميال ، يحرسه عشرون مدفعاً وما يزيد على الثلاثين رشاشا . ونصبت الاسلاك الشائكة أمامه على أعمدة قصيرة تحيط بها الالغام المدفونة ، كما وضعت فوقها الانوار الكشافة .

كان الجيش الهاشمي في جدة خليطاً من فئات شتى ، فكان فيه حجازيون من البدو ومن بعض القرى ، كما كان فيه يمانيون وهم من سكنة الحجاز ولكنهم من أصل يماني . وأخذ الامير عبدالله يرسل الى جدة المتطوعين الذين جمعهم في شرقي الاردن . فوصلوا على دفعات ، وكان معظمهم من الفلسطينيين والسوريين والاردنيين ، وقليل منهم مصريون وهم من بقايا فرقة العمل الذين خدموا الجيش البريطاني خلال الحرب وبقوا في فلسطين بعدها . وقد انضم الى هؤلاء بعدئذ عدد من الصعاليك من سكان جدة وهم من السودانيين والصوماليين والزنوج . وقد بلغ مجموع أفراد الجيش الهاشمي في جدة ـ حسب تقدير خير الدين الزركلي ـ نحو ١٦٥٠ رجلا[٢] .

---

(٢) خيرالدين الزركلي (شبه الجزيرة في عهد الملك عبدالعزيز) ـ ـ بيروت ١٩٧٧ ـ ج١ ص ٣٤٥ .

كان الاخوان يحيطون بجدة من جهاتها البرية الثلاث • وكان عددهم بين خمسة وستة آلاف • وجاء ابن سعود لكي يشرف بنفسه على سير القتال ، فخيم في شمال الرغامة التى تبعد عن جدة بخمس وعشرين دقيقة •

لم يجلب ابن سعود معه مدافعه من الرياض ، ولكنه انتفع من المدافع التي استحوذ عليها في مكة ، وكانت عشرين مدفعاً وذات مدى أبعد من مدافع جدة وقد استخدم لتشغيلها الضباط الذين كانوا في خدمة الجيش الهاشمي سابقا[٣] • فوجهها على جدة وصار يقصفها وبقصف الخنادق المحيطة بها • وقد سقطت احدى القنابل على دار القنصل البريطاني فاخترقت جدار غرفة نومه ، ودخلت أخرى الى مكتبه ، وأصابت ثالثة دار القنصل السوفيتي وكسرت العلم المنصوب فوقها[٤] •

اعتاد الاخوان أن يهاجموا الخط الدفاعي في الليالي المظلمة ، وذلك لغرضين : ليلقوا الرعب والذعر في قلوب الاهالي بغية اثارتهم على الحكومة أولا ، وليحملوا الجنود على الاسراف بالذخيرة ثانيا • وكان بعض الاخوان حين يقتربون في هجومهم من الخط ينادون حراسه قائلين : « يا اخوانا يا أهل الشام ، وياشمر ، ويا حرب ، ويا عقيلات ، اخرجوا من الخط وانتم في وجه الله ووجه ابن سعود • لاتخافوا • والله ما نريد لكم الا الخير ، تعالوا الينا ونحن أخوانكم ، والله والله »[٥] •

كان الملك علي في بداية الامر متفائلا وواثقاً من أنه بما لديه من طائرات ومصفحات قادر على قهر الاخوان وطردهم من الحجاز • وكان وزير حربيته تحسين باشا أكثر تفاؤلا وثقة منه • يروي أمين الريحاني قصة شهدها بنفسه في أوائل كانون الثاني ١٩٢٥ حين بدأت طلائع الاخوان

---

(٣) دائرة الوثائق العامة في لندن ـ رقم (أف٠ أو٠ ٣٧١ ـ ١٠٨٠٧) ٠
(٤) أمين الريحاني (تاريخ نجد الحديث وملحقاته) ـ بيروت ١٩٥٤ ـ ص ٤٠٩ ٠
(٥) المصدر السابق ـ ص ٤٠٧ ٠

تقترب من جدة ، فقد دخل تحسين باشا ومعه زميله وزير البحرية عارف باشا الادلبي على الملك علي ، وكانت سيماء الغضب والاضطراب تبدو على وجهيهما ، فقال أحدهما : « علمنا ان الاخوان مشوا من بحرة وقريباً يصلون الى الرغامة » • وقال الآخر : « يجب ان نرسل عليهم الطيارات ، لعنهم الله ولعن أجدادهم »• ثم قالا معاً : « غدا صباحاً نرسل الطيارات كلها عليهم فتمطرهم النار والرصاص وتفنيهم ان شاء الله » • ثم أخذ الوزيران ينتقدان بشدة محاولات الصلح التي كان الريحاني وغيره يقومون بها • فقال تحسين باشا : « هذه المساعي السلمية تحول دون تنفيذ خطتنا العسكرية » • وقال عارف باشا يخاطب الملك : « بل أفسدت علينا خطتنا وأضرت بمصلحة جلالتكم ومصالح البلاد »[٦] •

كان في معية الملك علي ضابط عراقي كبير هو جميل باشا الراوي ، وهو ابن عم ابراهيم الراوي الذي تحدثنا عنه في واقعة تربة • والمعروف عن هذا الضابط انه كان يختلف عن تحسين باشا الفقير بكونه اكثر واقعية منه ، وكان كثيراً ما ينصح الملك علي بخلاف ما ينصحه به تحسين باشا • يقول القنصل البريطاني في تقريره السري الى حكومته حول هذا الموضوع ما يلي : « كانت القيادة الحجازية العسكرية مؤلفة من ثلاثة أشخاص بصورة رئيسية هم : تحسين باشا السوري الذي كان وزيراً للحربية وقائداً للجيش ، وجميل باشا القائد البغدادي الذي كان ملحقاً بالملك علي ، والملك نفسه • والظاهر أنه ليس هناك اي بغدادي يوافق اي سوري • وكان الملك يتمايل من جانب الى آخر بمثل السرعة والانتظام الذي يتحرك به بندول الساعة ، ولهذا كان هناك ضعف في الانسجام والهدف لدى القيادة »[٧] •

صدرت في مكة جريدة باسم « أم القرى » بدلا عن جريدة « القبلة »

---

(٦) المصدر السابق ــ ص ٣٩٣ •

(٧) دائرة الوثائق العامة في لندن ــ رقم (أف• أو• ٣٧١ ــ ١٠٨٠٧)•

التي كانت تصدر في عهد الحسين • وكان يحررها يوسف ياســـين ، والغرض منها الدعاية لابن سعود وتشويه سمعة الاشراف وذكر مثالبهـــم ومثالب الحسين بوجه خاص • وفي كانون الاول ١٩٢٤ أصدرت الحكومة الهاشمية في جدة جريدة باسم « بريد الحجاز » لكي ترد على جريـــدة « أم القرى » وتكيل لها بصاعها • وفي ١٨ كانون الثاني ١٩٢٥ نشـــرت جريدة « بريد الحجاز » بياناً طويلا من الملك علي ذكر فيه أنه موشـك على الزحف على مكة لتحريرها ، وطلب من أهل مكة الصبر قليلا وتحمل مشقة الحصار الذى ستفرضه الحكومة الهاشمية عليهم(٨) •

الاصيل مثابرا :

ان الدكتور ناجي الاصيل ظل يمثل الحجاز في لندن في عهد الملك علي ، كما ظل يواصل السعي لعقد المعاهدة مع بريطانيا ويطلب منها انجاد الحكومة الهاشمية ضد ابن سعود • كتب القنصل البريطاني في جدة الـى حكومته يقول : ان الملك علي لم يكن يحمل انطباعاً حسناً عن ناجي الاصيل، وكان يعتقد أن لا فائدة منه في لندن ولكن لابأس من بقائه فيها الى ان ينفد المال الذى أخذه من الحسين(٩) • ويقول القنصل : ان مجموع ما أخذه الاصيل من الحسين بلغ خمسة عشر ألف باون ، وهو مبلغ ضخم يكفيه نحو ثلاث سنوات(١٠) •

في ١٣ تشرين الاول ١٩٢٤ كتبت وزارة الخارجية البريطانية الى ناجي الاصيل كتاباً تقول فيه : ان الحكومة البريطانية ليست مستعدة للدخول في مفاوضات جديدة مع الحكومة الهاشمية حول تعديل مسودة المعاهدة • فأجابها الاصيل في كتاب قال فيه انه مخول بسلطة تامة للتوقيع على المعاهدة التي أراد الملك السابق ادخال تعديلات عليها ، وذكر الاصيل ان تعديلات

---

(٨) دائرة الوثائق العامة في لندن ــ رقم (أف• أو• ٣٧١ ــ ١٠٨٠٧)•
(٩) دائرة الوثائق العامة في لندن ــ رقم (أف• أو• ٣٧١ ــ ١٠٨٠٨)•
(١٠) دائرة الوثائق العامة في لندن ــ رقم (أف• أو• ٣٧١ ــ ١٠٨٠٧)•

الملك السابق أصبحت الآن لا أهمية لها ، وان الملك علي غير ملزم بها ، ولذلك فهو يرجو من الحكومة البريطانية ان تتدخل لانهاء النزاع القائم الآن بين الحجاز ونجد ، وانه يرجو أن يحصل على الجواب بالسرعة الممكنة[11] .

وبعد خمسة أيام من كتابة هذا الكتاب كتب الاصيل كتاباً آخر أطول منه الى وزارة الخارجية البريطانية ذكر فيه أن الملك علي خوله لكي يرجو من الحكومة البريطانية التدخل لردع الوهابيين حسب روح المعاهدة . واشار الاصيل الى ان المعاهدة التي جرى التفاوض حولها أصبحت ملزمة وان لم يتم التوقيع عليها ، كما أشار الى الحلف الذى قام سابقاً بين بريطانيا ومؤسس البيت الهاشمي ، وكيف تعهدت فيه بريطانيا باحترام استقلال العرب وتأييده . وذكر الاصيل كيف أن بريطانيا أعلنت الحرب على ألمانيا في عام ١٩١٤ لمجرد ان المانيا انتهكت معاهدة كانت بريطانيا قد وقعت عليها ، فهى انما قامت بهذا العمل العظيم في سبيل الشرف والعدالة . ثم تطرق الاصيل الى الحجة التي تذرعت بها بريطانيا لعدم التدخل في النزاع القائم في الحجاز باعتبار أنه نزاع حول قضايا دينية ، فقال ان النزاع في الواقع ليس دينياً ، فليس هناك دين على وجه الارض يسمح بسفك الدماء البريئة وقطع الطرق والقيام بالمذابح الجماعية . ان الوهابية هي حركة سياسية وليست دينية ، انها بلشفية في أبشع صورها ، وغريبة عن الاسلام في كل وجه من الوجوه . ثمذكر الاصيل أن الملك علي انما انسحب من مكة ليس من جراء هزيمة حلت بجيشه بل انه أراد حقن الدماء في تلك البلدة المقدسة ، ولهذا فهو يناشد الحكومة البريطانية بحقوق المعاهدة التى بينه وبينها ، والمواعيد السابقة التي أعطيت لصاحب الجلالة الهاشمية ، أن تتخذ الاجراءات العاجلة لانقاذ أرواح الآلاف من الانفس البريئة ، ولضمان انسحاب الوهابيين من مكة والطائف[12] .

---

(١١) دائرة الوثائق العامة في لندن ـ رقم (أف٠ أو٠ ٣٧١ ـ ١٠٠١٤).

(١٢) دائرة الوثائق العامة في لندن ـ رقم (أف٠ أو٠ ٣٧١ ـ ١٠٠١٥).

لم تثمر هذه الجهود التي بذلها ناجي الاصيل شيئاً ، وظلت الحكومة البريطانية متمسكة بموقفها الحيادي تجاه النزاع القائم في الحجاز لم تتزحزح عنه • وقد أصبح موقف الاصيل حرجاً ، فهو لايستطيع أن يؤثر في الحكومة البريطانية من جهة ، وهو لم يتسلم من الملك علي أي مبلغ من المال من الجهة الاخرى • وفي شهر نيسان ١٩٢٥ أبرق الى الملك علي يقول : « أتوسل الى جلالتكم أن ترسلوا لي من النقود ما تقدرون عليه • ان المصير السياسي للبلاد في يد جلالتكم »(١٣) • فلم يرسل الملك اليه شيئاً ، والواقع أنه لم يكن لديه فضل من المال يرسله اليه • وفي شهر أيار أعلن الاصيل في لندن أنه سوف يحتكم الى عصبة الامم لانهاء النزاع القائم الآن في الحجاز ، كما اعلن انه سيذهب بنفسه الى جدة ليستعمل نفوذه الشخصي في هذا السبيل • وقد فوجئت الحكومة الهاشمية في جدة بهذا الاعلان الذى نشرته وكالة رويتر ، فأذاعت بياناً ذكرت فيه أنها لم توعز الى الاصيل باتخاذ هذه الخطوة وان الاصيل انما قام بها من تلقاء نفسه • وعند هذا أبرق الاصل الى جدة مقدما استقالته ، فقبلت الحكومة الهاشمية استقالته فوراً •

وفي شهر تموز ١٩٢٥ أراد الملك علي تعيين رجل مصري ــ هو المحامي حسن صبري ــ ليكون ممثلا له في لندن بدلا من الاصيل • ولكنه عندما استفسر من الحكومة البريطانية حول هذا الامر أجابته بأنها غير مستعدة في الظروف الحالية لقبول اي ممثل له في لندن رسمي أو غير رسمي(١٤) •

أما ناجي الاصيل فقد بقي في لندن حتى نفد ما لديه من مال ، وصار في حالة يُرثى لها(١٥) • وقد اضطر الى العودة الى بغداد في عام ١٩٢٨ ،

---

(١٣) دائرة الوثائق العامة في لندن ــ رقم (أف• أو• ٣٧١ ــ ١٠٨٠٧) •
(١٤) دائرة الوثائق العامة في لندن ــ رقم (أف• أو• ٣٧١ ــ ١٠٨٠٩) •
(١٥) جريدة (العراق) ــ في عددها الصادر في ١٠ أيار ١٩٢٥ •

وكان توفيق السويدي حينذاك قد تولى وزارة المعارف ، وهو يشير في مذكراته الى أن نبوءته التي كان قد تنبأ بها في عام ١٩٢٢ عن ناجي الاصيل قد تحققت • فقد جاء اليه الاصيل يطلب منه الحصول على وظيفة ، فعينه في وظيفة لايزيد راتبها على خمسة وعشرين دينارا • ويعلق السويدي على ذلك قائلا : « فما أعجب الصدف والاقدار »[١٦] •

فيلبي يتوسط :

جاء الى جدة ثلاثة رجال للتوسط في الصلح باعتبار أنهم اصدقاء للفريقين ، وهم : فيلبي وأمين الريحاني والسيد طالب النقيب • ولكل واحد من هؤلاء في توسطه قصة جديرة بالذكر هنا •

كان فيلبي أول القادمين الى جدة ، وهو قد جاء بصفته الشخصية ولم تكن له أية صفة رسمية ، وقد أعلن الملك علي عن مجيئه قبل وصوله، فأحدث ذلك ابتهاجاً بين أهل جدة ظناً منهم انه مكلف من حكومته للصلح بين الفريقين المتحاربين • ذهب القنصل البريطاني الى الملك علي ليخبره بأن فيلبي ليست له أية صفة رسمية تخوله التوسط او التفاوض باسم الحكومة البريطانية ، ولكن الاهالي ظلوا بالرغم من ذلك يبنون الآمال على وجود فيلبي في جدة وعلى نتائج مسعاه في الصلح •

كان وصول فيلبي الى جدة في ٢٨ تشرين الاول ١٩٢٤ ، وكانت طريقة وصوله غريبة مما قوى الاشاعة المنتشرة حوله بين الاهالي من أنه جاء بمهمة رسمية • فهو عندما كان في السويس فاتته باخرة البريد فاضطر الى ركوب زورق شحن بغية الاسراع • وحين وصل الى مياه جدة أرسل اليه الملك علي زورقاً بخارياً لنقله الى الشاطيء[١٧] • وقد قابله الملك فور وصوله ، وكان استقباله له وديا وحاراً •

---

(١٦) توفيق السويدي (مذكراتي) ـ بيروت ١٩٦٩ ـ ص ٨٩ ـ ٩٠ •

(١٧) دائرة الوثائق العامة في لندن ـ رقم (أف• أو• ٣٧١ ـ ١٠٠١٥)•

يقول فيلبي في مذكراته : « كان من المنتظر أن اقوم بدور رئيسي في المسرحية ، ولكن متاعبي سرعان ما بدأت بعد وصولي بساعات قليلة ، فقد تلقيت من المستر بولارد قنصل حكومة صاحب الجلالة البريطانيـــة ومعتمدها الرسالة التالية : « أرجو ان ابلغك ياسيدي ان حكومة جلالته عندما نما الى علمها خبر مجيئك الى جدة قد أمرتني بابلاغك أنه بالنسبة الـى الاوضاع المضطربة في أواسط الجزيرة العربية فانها لايسعها أن تسمح لك بالدخول الى داخل الجزيرة • أكون ممتناً اذا اشعرتني بوصول هذا الكتاب اليك »[١٨] •

ومن الجدير بالذكر ان الصحف في بعض البلاد الاسلامية أخذت تهاجم فيلبي لذهابه الى جدة وتتهمه بأنه عميل بريطاني متستر • وفـي الوقت نفسه أخذت بعض الصحف البريطانية تصف فيلبي بالانتهازي الذي يحاول الدخول الى المسرح الذي خرجت منه بريطانيا قانطة يائسة[١٩] •

أرسل فيلبي رسالتين احداهما موجهة الى خالد بن لؤي حاكم مكة، والثانية موجهة الى ابن سعود الذي كان حينذاك في الرياض • وقد وصل اليه الجواب من خالد فحواه انه يريد ازاحة علي بن الحسين من جدة • ثم وصل اليه بعدئذ جواب ابن سعود وهو يقول فيه : « ان الموضوع من أوله الى آخره متوقف على رأي العالم الاسلامي الذي يقف كله معارضاً معارضة قوية لابناء الحسين ••• سنصل بمشيئة الله قريباً الى مكة ، وسنجتمع بك بكل تأكيد ان شاء الله لتبادل الرأي • نرجو لك العافيـــة والسلام »[٢٠] •

انتظر فيلبي وصول ابن سعود الى مكة • وقد ابتلي أثناء ذلـــك بالزحار كما ابتلي به فيما بعد زميلاه الآخران • وعندما وصل ابن سعود

---

(١٨) خيري حماد (عبدالله فيلبي) – بيروت ١٩٦١ – ص ١٥٧ •
(١٩) المصدر السابق – ص ١٥٨ •
(٢٠) المصدر السابق – ص ١٧٤ •

الى مكة في ٥ كانون الاول كتب اليه فيلبي وزميلاه يطلبون منه السماح بمقابلتهم • وفي ٢٢ منه وصل الجواب الى كل منهم على حدة • وكان جواب ابن سعود الى فيلبي على النحو التالي :

« الى الصديق العزيز المستر فيلبي • اذا كنتم حضرتم لمقابلتنا ومباحثتنا في بعض الشؤون الخاصة بنا فعلى الرحب والسعة ، وسنسهل الطريق للاجتماع بكم خارج الحرم • أما اذا كنتم تنوون التدخل في مسائل الحجاز فلا أرى في البحث فائدة ••• وانه ليس من مصلحتي الخاصة ومصلحتك يا صديقنا جعلكم وسيطاً في هذه المسألة الاسلامية المحضة »[٢١] •

اتضح لفيلبي خلال مكوثه في جدة ان انتصار ابن سعود محتوم لابد منه • فهو يقول في مذكراته ان موضوع الصلح أو اية تسوية سلمية أصبح أمراً مستحيلا ، فقد تقرر مصير عرش الهاشميين في الحجاز ، ولم يكن في وسع أية قوة بشرية انقاذه ، ولكن وزير الحربية تحسين باشا الفقير كان على الرغم من ذلك يتصور انه قادر على انقاذ عرش مولاه • ويقول فيلبي في وصف تحسين باشا : « كان هذا القائد العسكري مغتراً بالدور الذي لعبه في معركة شطالجة في البلقان ••• وخيل اليه أن في وسعه أن يصمد أمام الجيوش الوهابية البالية السلاح على حد تعبيره ، فطاف بي بالمراكز الدفاعية التي أقامها بالاشتراك مع رئيس مهندسيه التركي الاصل نورس بك حول المدينة »[٢٢] •

كان في نية فيلبي مغادرة جدة في أواخر كانون الاول ١٩٢٤ ولكن الملك علي أصر عليه في البقاء • ويقول القنصل البريطاني في تقرير الى حكومته : ان سبب هذا الاصرار من الملك هو ان القيادة العسكرية كانت

---

(٢١) أمين الريحاني (المصدر السابق) ــ ص ٣٨١ •
(٢٢) خيري حماد (المصدر السابق) ــ ص ١٥٩ •

تخشى أن يذهب فيلبي الى ابن سعود بعد مغادرته جدة ويطلعه على أسرار خط الدفاع عنها ، علماً ان فيلبي كان قد ساعد الضابط التركي في وضع خطة الخنادق(٢٣) •

غادر فيلبي جدة أخيرا في ٣ كانون الثاني ١٩٢٥ متوجها الى عدن• وكان لايزال مريضاً بالزحار ، وكان يأمل أن ينال علاجه على أيدي الاطباء فيها •

وساطة السيد طالب :

كان السيد طالب النقيب في الاسكندرية عندما وصل فيلبي الى جدة، فأبرق اليه الملك علي يخبره بوجود فيلبي في جدة ويدعوه للمجيء اليها• وحين تسلم السيد طالب برقية الملك علي أبرق الى المستر بولارد القنصل البريطاني في جدة يطلب منه الرأي ، فكتب الية القنصل جواباً بالبريد يقول فيه : أن ليس في وسعه ابداء أي رأي وان فيلبي ليس مخولا رسمياً للتوسط في الصلح(٢٤) •

قرر السيد طالب الذهاب الى جدة على اي حال ، وقد وصلها في ٢٥ تشرين الثاني ١٩٢٤ • والظاهر انه لم يكن مهتماً بأمر الوساطة بقدر اهتمامه بنفسه ، فهو ـ كما عرفناه من قبل ـ رجل شديد الطموح يريد الوصول الى العُلا بأية وسيلة وفي أي طريق •

كان ابن سعود يعرف السيد طالب معرفة شخصية جيدة ، ولما كتب اليه السيد طالب يطلب مقابلته للتوسط في الصلح أجابه قائلا : ان التوسط لافائدة فيه ، واذا كان الشريف علي يريد حقن الدماء فعليه أن يتخلى عن جدة ، أما اذا قبله العالم الاسلامي واختاره حاكماً للحجاز فمحله غير مجهول(٢٥) •

---

(٢٣) دائرة الوثائق العامة في لندن ـ رقم (أف• أو• ٣٧١ ـ ١٠٨٠٧)•
(٢٤) دائرة الوثائق العامة في لندن ـ رقم (أف• أو• ٣٧١ ـ ١٠٠١٥)•
(٢٥) أمين الريحاني (المصدر السابق) ـ ص ٣٨١ ـ ٣٨٢ •

أمضى السيد طالب في جدة سبعة وثلاثين يوماً كان يلتقي فيها بزميليه فيلبي وأمين الريحاني ، وكان كثيراً ما يقضي المساء مع فيلبي تارة ، ومع الريحاني تارة أخرى • والمعروف انه كان مولعاً بشرب الويسكي ، فاذا تناول منه كثيراً انطلق يكشف عن خفايا نفسه • يصف الريحاني اجتماعه بالسيد طالب في جدة ، ويشير الى شيء من ملامح شخصيته ، حيث يقول ما نصـــه :

« الا في سبيل المجد ما أنا فاعل ـ وفي سبيل الوطن • فقد كان السيد طالب مغواراً في وطنيته ، جباراً في أعماله ، طيارا في آرائه ، وكان شديد الايمان حتى في ساعات شربه بما حواه ذلك الرأس القائم بين كتفيـــه كبرج العاج • اني لاذكر اجتماعنا في جدة في خريف ١٩٢٤ ، وأذكر من الاحاديث حديثاً عن العراق • فقد قص علينا بعض وقائع أيامه تلك ، ونحن نشرب الويسكي والصودا ، ثم وضع الكأس على المائدة ورفع يده الى ذلك الرأس اللامع الشريف يمسحه ويربته : « ان ها هنا شيئاً لايغلب ـ لايغلب » • وكان يفكر بالعودة الى العراق والى السياسة • كان لايزال يحلم الاحلام الذهبية • فقال يستأنف الحديث : « الامور مرهونة بأوقاتها، وستسمعون عندما أعود ما يدهش ويسر ان شاء الله • وسأطلبك يومئذ يا استاذ وأعينك وزير المعارف ••• »[٢٦] •

وقد تطرق فيلبي في مذكراته الى السيد طالب كذلك • فهو يقول : ان السيد طالب صارحه عن سبب قدومه الى جدة ، فهو لم يأت في الواقع من أجل التوسط في الصلح ، بل من أجل الاتصال بابن سعود لكي يساعده هذا في نيل امارة شرقي الاردن • ان السيد طالب كان قد علم قبل قدومه الى جدة بأن الانكليز غير راضين عن الامير عبدالله ويريدون استبداله بغيره • وذكر السيد طالب لفيلبي ان ابن سعود لايستطيع التسامح بوجود عدوه عبدالله في شرقي الاردن ، وطلب من فيلبي أن يقابل ابن سعود

---

(٢٦) أمين الريحاني (فيصل الاول) ـ بيروت ١٩٥٨ ـ ص ٨٤ •

لكي يقنعه بجدارته لامارة شرقي الاردن • وتعهد السيد طالب انه اذا تولى تلك الامارة فسوف يتخلى لابن سعود عن وادي السرحان وقريات الملح • ثم قال لفيلبي انه في حالة توليه الامارة سيطلبه ليكون المعتمد البريطاني فيها ... (٢٧) •

في ٣١ كانون الاول ١٩٢٤ غادر السيد طالب جدة الى مصر وهو خالي الوفاض من نيل العُلا – مع الاسف الشديد !•

وساطة الريحاني :

وصل امين الريحاني الى جدة في ٥ تشرين الثاني ١٩٢٤ بناءاً على دعوة تلقاها من وزير الخارجية فؤاد الخطيب • ولما كتب الى ابن سعود يطلب منه مقابلته من أجل الصلح كان جواب ابن سعود له يختلف عن جوابه لزميليه اذ هو لم يقطع في وجهه الامل بل ترك له باباً مفتوحة يمكن الولوج منها الى المفاوضة • وقد استند الريحاني على هذا الجواب فأرسل الى ابن سعود رسولا يحمل رسالة منه • فغادر الرسول جدة في مساء ٢٢ كانون الاول ، وفي ٢٥ منه عاد الرسول وهو يحمل جواب ابن سعود •

كان الريحاني في مجلس الملك علي عند عودة الرسول حاملا جواب ابن سعود • ولما قرأ الملك الجواب بدت على وجهه علامات الفرح ، وقال: « قضي الامر • وما تبقى غير الجزئيات • بارك الله فيك ياحسين – يقصد الرسول – وبارك الله فيك يا أمين » • وقبّل الملك أمين الريحاني كما قبّل الرسول لشدة فرحه • ثم نزع العقال والكوفية عن رأسه ونادى : « هاتوا شاي ... يشهد الله أني لا أحب أن تهرق نقطة دم واحدة من دم العرب » ...(٢٨) •

---

(٢٧) خيري حماد (المصدر السابق) – ص ١٧٣ •

(٢٨) أمين الريحاني (تاريخ نجد الحديث وملحقاته) – ص ٣٨٧ •

لم تدم هذه الفرحة طويلا ، ذلك ان طائرة هاشمية حلقت فوق مكة في نفس الوقت الذى كان الرسول فيه يغادرها حاملا جواب ابن سعود ، فألقت منشورات تؤكد لاهل مكة ان الاستعداد قد تم لضرب العدو المغتصب وتطهير البلاد منه ، وتتعهد لهم بأن الطائرات سوف تبدأ بقصف العدو ، وتطلب منهم منع العدو من الفرار • ومن الجدير بالذكر ان هذه المنشورات كانت قد أعدت من قبل ، وكان الملك قد أوعز بتأجيل القائها فوق مكة الى حين ظهور نتيجة التوسط • ولكن بعض العسكريين الذين لم يكونوا راغبين في التوسط أرسلوا الطائرة بغير علم الملك •

انزعج الريحاني مما وقع ، وذهب الى الملك ليستوضح الامر منه ، وقد دهش حين وجد الملك ووزراءه لايعلمون عن الامر شيئاً • ولما أخبر الريحاني الملك بما وقع ، قرع الملك الجرس الموضوع امامه على المنضدة وطلب حضور تحسين باشا وزير الحربية حالا • ولما حضر وزير الحربية وواجهه الملك بالخبر أخذ يعتذر ببعض المعاذير ، فقال له الريحاني وفي صدره غضب مكموم : « لا أظن ياباشا ان هذا السبب كاف لتبرير التجاوز ، وأنت أدرى بنتيجة المخالفة للاوامر العالية في أيام الحرب »• فقال وزير الحربية : « ما هو بالامر المهم » • فرد عليه الريحاني قائلا : « كل أمر ملكي مهم ياباشا » • وعند هذا أخذ الملك يتكلم مع وزير الحربية بالتركية ، ثم نهض مسلـّماً وخرج • وفي اليوم التالي عندما قابل الريحاني الملك وشرح له تأثير المنشورات على ابن سعود ، قال له الملك: « اني اميل الى حسن الظن بالناس ، ولا أسيء الظن الا بعد التثبت والتحقيق • وقد تحققت أشياء ، تحققتها يا أمين ، وسيسافر فلان وفلان وفلان في الباخرة القادمة • وسأوبخ تحسين باشا ، ولكني أفضل أن يكون ذلك في مجلس خاص له »[٢٩] •

(٢٩) المصدر السابق ـ ص ٣٩٠ •

نشاط القنصل السوفياتي :

ان العلاقات الدبلوماسية بين الاتحاد السوفياتي والحكومة الهاشمية بدأت منذ أواخر عهد الحسين ، فقد تم الاتفاق بينهما في نيسان ١٩٢٤ على أن يكون للاتحاد السوفياتي في الحجاز ممثلية وقنصلية عامة ، وان يكون للحجاز بالمقابل بعثة رسمية في الاتحاد السوفياتي .

عين الحسين حبيب لطف الله مبعوثاً له في موسكو ، وقد وصل هذا الرجل اليها في بداية تشرين الاول . أما الاتحاد السوفياتي فقد عين لتمثيله في الحجاز رجلا مسلماً اسمه « كريم عبدالغفور حكيموف » ، وقد وصل هذا الرجل الى جدة في شهر آب ١٩٢٤ ، وكان معه نحو أربعة عشر رجلا كلهم مسلمون ماعدا واحدا . واستأجر دارا له في جدة لتكون مقراً له ولموظفيه . ويقال انه أخذ منذ بداية وصوله الى جدة يبدي نشاطاً ملحوظاً في الدعاية للشيوعية ، وكان الحسين يغض النظر عن نشاطه نكاية بالانكليز .

ولما تولى الملك علي الحكم بعد تنازل أبيه اتخذ تجاه الشيوعية موقفاً مغايراً لموقف أبيه ، ولعله فعل ذلك تقرباً للانكليز . وقد نشرت جريدة « المفيد » البغدادية في عددها الصادر في ١٧ حزيران ١٩٢٥ صورة الملك علي وكتبت تحتها العبارة التالية : « صاحب الجلالة الملك علي المعظم ننشر رسمه لمناسبة تصريحه ضد الشيوعية التي قيل انها انتشرت في الحجاز ».

عندما حل شهر رمضان في ٢٦ آذار ١٩٢٥ عزم القنصل السوفياتي كريم حكيموف على الذهاب الى مكة للقيام بشعائر العمرة . وقد رافقه في ذلك القنصل الايراني بالوكالة أحمد لاري ، ونائب القنصل الهولندي الشيخ برافيره الجاوي . ومن الجدير بالذكر ان هؤلاء القناصل الثلاثة كانوا أول جماعة من الاجانب يدخلون مكة بعد احتلال الاخوان لها . فصار الاخوان ينظرون اليهم بعين الريبة ويحسبونهم كفاراً جاؤوا يدنسون البلد المقدس . يقول حافظ وهبة : ان الاخوان حاولوا قتلهم على

الرغم من أنهم كانوا يحملون الاذن من ابن سعود ، ولكن عناية الله هي التي أنقذتهم من موت محقق[٣٠] .

كان ذهاب القنصل السوفياتي الى مكة قد أثار اهتمام القنصل البريطاني ، ولهذا نجده يكتب في تقريره السري الى حكومته قائلا : « ان حكيموف الوكيل السوفياتي في جدة يقوم بزيارة الى مكة بصفته مسلماً يرغب في أداء الحج الصغير . انه يسخر علانية من الدين الاسلامي ، ولهذا نفترض ان زيارته لمكة لم تكن بدافع التقوى . انه أخذ معه شاباً ايرانياً هو ابن تاجر يقوم حاليا بادارة المصالح الايرانية . وهذا الشاب هو في جيب حكيموف ويردد العبارات البلشفية في أن ايران قد انقذتها الحكومة السوفياتية النبيلة من مخالب الامبريالية البريطانية »[٣١] .

ويقول القنصل البريطاني في تقرير آخر له : « ان حكيموف استُقبل من ابن سعود بصفته الشخصية ، وكان ابن سعود يسميه « الشيخ كريم » ، ولم ينل هناك احتراماً كبيراً . فان عبدالله الدملوجي ، وهو من رجال ابن سعود الرئيسيين ، سأل الشيخ برافيره على مسمع من الناس : كيف يسمح لنفسه بمرافقة شخص قاصر يدعي انه قنصل عام . وكان الدملوجي يتكلم بصوت عالي بحيث كان في مقدور حكيموف أن يسمعه . أما من الناحية السياسية فقد أقام ابن سعود وليمة للقناصل الثلاثة وتطرق فى كلامه اثناء الوليمة بطريقة تأكيدية الى الكلام عن نفسه وقال انه ليست له أية خصومة مع الدول الاوربية وهي الدول التى يفكر هو ان يتعلم منها كثيراً » .

ويقول القنصل البريطاني في هذا التقرير أيضاً : ان هناك دليلا قوياً على أن حكيموف كان في مكة مشغولا بالدعاية العلنية العنيفة ضـــــد

---

(٣٠) حافظ وهبة (جزيرة العرب في القرن العشرين) ــ القاهرة ١٩٦٧ ــ ص ٢٨٣ .

(٣١) دائرة الوثائق العامة في لندن ــ رقم (أف. أو. ٣٧١ ــ ١٠٨٠٧) .

الحكومات الامبريالية ، ولا سيما الحكومة البريطانية . ويذكر القنصل : ان حكيموف قضى في مكة خمسة او ستة ايام ، ولما عاد الى جدة انهمك في تعاطي الخمرة لمدة اربع وعشرين ساعة ، وذلك بمثابة رد فعل شديد للتقوى المصطنعة التي أظهرها في مكة ، وظل ثماني واربعين ساعة بعد ذلك غير واعي قليلا او كثيراً[٣٢] .

لم يكن القنصل البريطاني قادراً أن يذهب الى مكة لكونه غير مسلم ، ولعله شعر ان من الضروري له أن يرسل من ينوب عنه الى مكة لازالة الاثر الذي ربما احدثه حكيموف فيها . وقد اختار القنصل البريطاني للقيام بهذه المهمة كاتبه الهندي المنشي احسان الله . ويصف القنصل هذا الكاتب بأنه كان تاجراً في المدينة قبل الحرب العامة ، وكانت له فيها سمعة عالية ، ولكن الحرب حطمت تجارته وأصبح منذ ذلك الحين موظفا في القنصلية البريطانية . ويقول القنصل عنه : أنه خبير بشعائر الحج كما أنه موثوق كمصدر للاستخبارات ، فهو متصل بمختلف الطبقات ويعرف الاشخاص المهمين في مكة ، يضاف الى ذلك انه يجمع بين عقيدته الاسلامية القوية واخلاصه للحكومة البريطانية اذ هو يعتبرها أفضل حارسة لحقوق ومصالح المسلمين في الهند .

سافر المنشي الى مكة وقام بالمهمة التي كلفه القنصل بها . ويقول القنصل في تقريره الى حكومته : ان المنشي قابل ابن سعود ، وأخذ ابن سعود يتحدث اليه عن علاقته بالحكومة البريطانية ، وتطرق الى موضوع العلاقة التي قامت بين بريطانيا والحسين أثناء الحرب العامة ، وصار يشكو من الاعتماد الذي وضعته بريطانيا على الحسين ، وهو الاعتماد الذي لامبرر له في نظره ، ثم قال ابن سعود : انه كان قادرا ان يفعل أكثر جداً مما فعله الحسين لقاء نصف المبالغ التي دفعتها بريطانيا للحسين[٣٣] .

---

(٣٢) دائرة الوثائق العامة في لندن ـ رقم (أف٠ أو٠ ٣٧١ ـ ١٠٨٠٧) .

(٣٣) دائرة الوثائق العامة في لندن ـ رقم (أف٠ أو٠ ٣٧١ ـ ١٠٨٠٧) .

قصة الطائرات :

ذكرنا من قبل ان الحكومة الهاشمية في جدة كانت معتزة بما لديها من طائرات ومصفحات ، وكانت واثقة من قهر الاخوان بها وطردهم من البلاد • والواقع ان هذه الطائرات والمصفحات لم تكن في حالة يمكن الاعتماد عليها في قتال جدي • ومن الممكن القول ان الحكومة الهاشمية وقعت من هذه الناحية في مثل الورطة التي تقع فيها الشعوب النامية عادة حين تشتري الآلات التكنولوجية الحديثة اعتقاداً منها انها تستطيع أن ترتفع فوراً الى مستوى الشعوب المتقدمة • انها تنسى ان تلك الآلات لا أهمية لها في ذاتها بل في الايدي الفنية التي تحركها وتشرف عليها •

كان لدى الحسين قبل بدء القتال في الحجاز ست طائرات ايطالية لم يكن يصلح للطيران منها سوى اثنتين ، وكان لديه طياران روسيان من بقايا العهد القيصري • وقد سقطت احدى الطائرتين الصالحتين بين الاخوان اثناء معركة الطائف فذبح الاخوان طيارها • ولم يبق لدى الحسين سوى طيار واحد اسمه شيركوف • وقد ترك هذا الطيار الحجاز على أثر تنازل الحسين عن الملك ، وذهب الى مصر •

وفي تشرين الثاني ١٩٢٤ استطاع مندوب الملك علي في مصر اقناع شيركوف بالعودة الى الحجاز ، فعاد ومعه أربعة ميكانيكيين روس • وقد اشترط شيركوف لقاء عودته أن يُعطى قنينة ويسكي في كل يوم مع راتب شهري قدره ستون ليرة ذهب • فوافقوا على شرطه هذا •

وفي ٢٢ منه وصلت الى جدة الباخرة « نور » وهي تحمل على ظهرها ثلاث طائرات اشتريت من انكلترا ، وكانت طائرات قديمة من بقايا الحرب • وفي ٢ كانون الاول قام شيركوف بتجربة احداها ، وعند هبوطه بها ارتطم جناحها بشجرة فتعطلت عن العمل وظهر فيما بعد ان طائرة أخرى من الطائرات الثلاث لاتصلح للطيران • أما الثالثة فكانت صالحة الى حد ما •

أخذ شيركوف يقوم بتحليقات استطلاعية على مواقع العدو في كل يوم صباحاً ومساءاً • ويقول القنصل البريطاني في تقريره الى حكومته : ان نتائج استطلاعات شيركوف لم تكن ذات قيمة كبيرة لانه كان يرفض التحليق على ارتفاع يقل عن تسعة آلاف قدم ، كما ان المراقب الـذى يصحبه في الطائرة كان أعور وكان يلبس النظارات الداكنة دائماً (٣٤) •

كان وزير الحربية تحسين باشا يصر على شيركوف أن يقـذف بالقنابل على تجمعات العدو ، ولكن شيركوف كان يرفض ذلك لسبب وجيه هو عدم وجود قنابل جوية لديهم • فطلب تحسين باشا منـه أن يستعمل القنابل اليدوية في القصف ، فأوضح له شيركوف ان هذه القنابل قد تنفجر قبل وصولها الى الارض وربما نسفت الطائرة بمن فيها • اقترح تحسين باشا استعمال قنابل المدافع ، وجربها بنفسه مرتين فلم ينجح فى التجربة(٣٥) •

كانت قد اقيمت في جدة ورشة عسكرية لتصليح الاسلحة • واخذت هذه الورشة بايعاز من تحسين باشا تعمل على تحويل قنابل المدافع الى قنابل جوية ، فصنعت نوعاً من القنابل توقد بعود الثقاب • وارتأى تحسين باشا قصف تجمعات العدو قرب مكة بتلك القنابل • ولكن شيركوف أظهر للملك علي خطأ هذا الرأي ، لان قصف مكة بالقنابل على يد طيار «كافر» سيتخذه ابن سعود دعاية قوية له في العالم الاسلامي ضد العائلة الهاشمية• والظاهر ان الملك علي كان مترددا لايدري الى أي جانب يميل ، جانب تحسين باشا او جانب شيركوف •

في أوائل كانون الاول ١٩٢٤ وصل الى جدة طياران جديدان ، وميكانيكيان ، وكلهم روس • فأصبح لدى الحكومة الهاشمية ثلاثة طيارين وستة ميكانيكيين ، مع طائرتين صالحتين•وأخذت الطائرتان تطيران بين آونة

---

(٣٤) دائرة الوثائق العامة في لندن ــ رقم (أف• أو• ٣٧١ ــ ١٠٨٠٧) •
(٣٥) دائرة الوثائق العامة في لندن ــ رقم (أف• أو• ٣٧١ ــ ١٠٨٠٧) •

وأخرى فتسقط بعض القنابل على تجمعات العدو بالقرب من جدة وفى منتصف الطريق بين جدة ومكة •

في ١٨ كانون الثاني ١٩٢٥ حدثت خادثة مؤسفة انفجرت فيها احدى الطائرتين وقُتل شيركوف • وخلاصة الحادثة : أن شابا سوريا اسمه عمر شاكر كان لاجئا في الحجاز منذ عهد الحسين ، وحين اشتدت الحرب حول جدة أصبح هذا الشاب متحمساً في بغضه لابن سعود والاخوان وكان يتمنى أن يرميهم من الجو ولو بقنبلة واحدة • وفى ذلك اليوم صدر الامر الى شيركوف بالتحليق لقصف تجمعات الاخوان في الرغامة • فانتهز عمر الفرصة وحشر نفسه في الطائرة مع المراقب ، وكان يحمل معه قنبلتين من تلك القنابل التى توقد بعود الثقاب ، وسمعه أحد الحاضرين يقول : « سألقيها على رأس عبدالعزيز » • ولما وصلت الطائرة فوق الرغامة ، وكانت على ارتفاع ألفي قدم ، شاهد من فيها معسكر الاخوان وهو يضم الخيمة التى كان ابن سعود يجلس فيها • وكان من السهل القاء القنبلتين على ابن سعود وقتله ، ولكن عمر لم يكد يوقد عود الثقاب لتفجير احدى القنبلتين حتى انفجرت القنبلة في يده ، وانفجرت الطائرة في الجو ، ثم هوت الى الارض مشتعلة أمام خيمة ابن سعود • ويعد خيرالدين الزركلي هذه الحادثة من جملة الحوادث التى تدل على وجود موهبة « الحظ » لدى ابن سعود[٣٦] •

في شهر تموز ١٩٢٥ وصل الى جدة من مصر أربع طيارين ألمان[٣٧] • ثم وصلت بعد ذلك ستة طائرات ألمانية وكانت طائرات جديدة مجهزة بالرشاشات ومعها قنابلها الخاصة بها • وكان من الممكن ان يكون لهذه الطائرات أثرها الحاسم في الحرب ، غير أنها جوبهت بمشكلتين ، احداهما ان الحكومة الهاشمية لم يكن لديها مايكفيها من البنزين[٣٨] ،

(٣٦) خير الدين الزركلي (المصدر السابق) — ج ٢ص ٥٨٤ — ٥٨٥ •
(٣٧) دائرة الوثائق العامة في لندن — رقم (أف• أو• ٣٧١ — ١٠٨٠٩) •
(٣٨) أمين الريحاني (المصدر السابق) — ص ٤٠١ — ٤٠٢ •

والثانية ان الطيارين امتنعوا عن التحليق بها لانقطاع الراتب عنهم ، وغادروا جدة . وبقيت الطائرات عاطلة عن العمل الى أن سقطت جدة في كانون الاول ١٩٢٥ ، فاستحوذ عليها ابن سعود غنيمة باردة[٣٩] .

قصة المصفحات :

لم تكن حالة المصفحات بأفضل من حالة الطائرات . ففي ٣١ كانون الثاني ١٩٢٥ وصلت من المانيا خمس سيارات لوري ، ولكنها كانت قديمة وفي حالة سيئة ، وقد وصفها أحد الميكانيكيين الروس بأنها ربما كانت من مخلفات الجيش الامريكي بيعت في المانيا على شكل خردة بسعر خمسة باونات لكل واحدة منها[٤٠]

وصلت مع السيارات أربعة عشر صندوقاً تضم صفائح من الحديد . وصار عمال الورشة يعملون في تصفيح السيارات بها ، واستمروا على ذلك شهرا . وعندما تم تصفيح السيارات تبين أنها تحتاج الى الماء كثيراً ، اذ هي تكاد لاتسير ساعتين حتى يظهر عليها العطش[٤١] . أضف الى ذلك ان محركات السيارات لم تكن قادرة على السير كثيراً لثقل الصفائح عليها . وقد جُربت واحدة منها على طرق جدة فكانت تسير بسرعة ثمانية الى عشرة اميال في الساعة[٤٢] . وشوهدت احدى السيارات وقد تعطلت عن السير ، فاضطروا الى سحبها بواسطة الاباعر[٤٣] .

في ٢٥ كانون الاول وصل الى جدة ستة ألمان مختصين بسياقة السيارات المصفحة ، وكانوا مرسلين من الامير عبدالله . ولكنهم لم يبقوا في جدة طويلا ، والظاهر ان عبدالله كان قد وعدهم برواتب ضخمة أكثر

---

(٣٩) حسين محمد نصيف (تاريخ الحجاز) ــ القاهرة ١٣٤٩ ــ ج١ ص ١٩٨ .

(٤٠) دائرة الوثائق العامة في لندن ــ رقم (أف٠ أو٠ ٣٧١ ــ ١٠٨٠٧) .

(٤١) أمين الريحاني (المصدر السابق) ــ ص ٤٠٢ .

(٤٢) دائرة الوثائق العامة في لندن ــ رقم (أف٠ أو٠ ٣٧١ ــ ١٠٨٠٧) .

(٤٣) حسين محمد نصيف (المصدر السابق) ــ ج١ ص ١٩٨ (حاشية).

مما تستطيع حكومة جدة توفيرها لهم • ولهذا تركوا جدة في ٩ كانـون الثاني ١٩٢٥(٤٤) •

في ٨ آذار ١٩٢٥ عم الابتهاج والتفاؤل جدة حين وصلت اليها باخرة ايطالية وهي تحمل سيارتين مصفحتين وألف بندقية ونحو سبعمائة صندوق من العتاد • يقول القنصل البريطاني في تقريره الى حكومته : ان هذه الشحنة قد أضافت قوة كبيرة الى الجيش الهاشمي ، وكانـت للسيارتين المصفحتين أهمية خاصة فهما لم تكونا زائفتين كالسيارات الخمس التي وصلت من المانيا قبل ذلك ، انهما كانتا صغيرتان ولكنهما سريعتان وخفيفتان وكل منهما مجهزة بثلاثة رشاشات ، اثنان في المؤخرة وواحـد في المقدمة • وقد وصل من مصر ثلاثة سواق لسياقة هاتين السيارتين والمظنون أنهم سوريون(٤٥) •

كان لهاتين المصفحتين دور لايستهان به في المعركة التى نشبت حول جدة في ١٤ آذار ، ولكنهما مع ذلك لم يكن لهما أثر حاسم فيها •

معركة ١٤ آذار :

كانت معركة ١٤ آذار ١٩٢٥ اكبر معركة خاضها الجيش الهاشمي حول جدة • وكانت الحكومة الهاشمية قد استعدت لها كثيراً ، وكانـت متفائلة من نتائجها ، اذ كانت تظن أنها ستنزل بالاخوان ضربة ساحقة ، وستعيد احتلال مكة والطائف قريباً •

وصلت الى جدة من المدينة عن طريق معان والعقبة أربعة مدافـع كبيرة • وأخذت هذه المدافع تقصف مواقع الاخوان طيلة اليوم السابق للمعركة • وفي الساعة العاشرة من صباح يوم المعركة خرجت من جدة أربعة أرتال من الجنود في جبهة عرضها ميلان ، وكان في صحبتها خمس

---

(٤٤) دائرة الوثائق العامة في لندن ــ رقم (أف• أو• ٣٧١ ــ ١٠٨٠٧) •

(٤٥) دائرة الوثائق العامة في لندن ــ رقم (أف• أو• ٣٧١ ــ ١٠٨٠٧) •

مصفحات من ضمنها المصفحتان الجديدتان[٤٦] ، فنشب بينها وبين قوات الاخوان قتال استمر نحو خمس ساعات ٠

كان الاخوان يقاتلون بالروح الفدائية التي عرفوا بها ، وصار بعضهم يدورون حول المصفحات وهم يطلقون نيران بنادقهم غير مبالين برصاص الرشاشات الذى كان ينهال عليهم كالمطر ٠ وشوهد أحدهم ، وهو زنجي من العبيد ، يصعد على احدى المصفحات وهو يطلق النار من مسدسه ، فأصابته رصاصة اسقطته على الارض[٤٧] ٠

كانت المعركة تُشاهد من فوق سطوح الدور فى جدة ، وكان من بين الذين شاهدوها القنصل البريطانى وأمين الريحاني ، وكذلك كان الملك علي يراقبها بناظوره ٠ وقد انتهت المعركة في الثالثة بعد الظهر ، بعد أن سقط من الفريقين نحو ثلاثمائة قتيل ٠ وتراجعت المصفحات الى داخل الاسلاك الشائكة وقد تمزقت وتكسرت جوانب بعضها ، واصيب اثنان من سواقها بجروح بليغة[٤٨] ٠

كتب القنصل البريطاني الى حكومته في وصف المعركة يقول : ان الوهابيين حاربوا بكل ضراوة ، أما جنود الحكومة الهاشمية فلم يكونوا مقبلين على المعركة بكل قلوبهم ، وقد دل على ذلك ان نسبة عالية من جروحهم كانت في ظهورهم وأردافهم ٠ وكانت اكثر الخسائر في الجنود الحجازيين واليمانيين وهم من بقايا جيش الحسين القديم ٠ أما الفلسطينيون وهم من المتطوعين الجدد وكانوا مدعومين بالمصفحات فكانوا يقاتلون بحذر شديد ٠ ويقول القنصل عن نتيجة المعركة بوجه عام : انها أوهنت عزيمة القيادة الهاشمية وقوت عزيمة القيادة السعودية ، فهي كانت ضربة قوية على القيادة الهاشمية ، والظاهر ان هذه القيادة أدركت أنها بحاجة الى

---

(٤٦) دائرة الوثائق العامة في لندن ــ رقم (أف٠ أو٠ ٣٧١ ــ ١٠٨٠٧) ٠

(٤٧) امين الريحاني (المصدر السابق) ــ ص ٤١١ ٠

(٤٨) المصدر السابق ــ ص ٤١١ ٠

ءوات أكبر وأفضل لكي تتمكن من طرد الوهابيين من البلاد[٤٩] .

خمدت حدة القتال بعد معركة ١٤ آذار . وعندما حل شهر رمضان في ٢٦ منه حصل فيه ما يشبه الهدنة . وقد أشيع في جدة ان المعركة الفاصلة ستكون في شوال ، ولكن شوال جاء ولم يقع فيه شيء[٥٠] . وحين اقترب موسم الحج في أواخر حزيران أخذ الاخوان الذين كانوا يحاصرون جدة يغادرون مواضعهم بغية الذهاب الى الحج ، فظنت الحكومة الهاشمية ان الاخوان انسحبوا من القتال نهائياً . وأرسل الملك علي الى اخيه فيصل في بغداد برقية مؤرخة في ٢١ حزيران يقول فيها : ان ابن سعود اضطر الى اخلاء مواقعه من حول جدة وانه انسحب الى أطراف مكة . فكان لهذه البرقية تأثير سار على الملك فيصل ، وأصدرت الحكومة العراقية بياناً رسمياً تبشر الامة بهذا النصر . وعلقت جريدة « العراق » على هذا البيان قائلة : « فالعراق ترفع التهاني للامة العربية بهذا الفوز المبين وتبتهل الى الله أن يكلل هذا الفوز باخراج العدو من جميع البلاد الحجازية وينصر الجيش الهاشمي على خصوم الوحدة العربية واعدائها »[٥١] .

تبين أخيراً أن بشارة النصر كانت قائمة على اساس من الوهم ، فقد عاد الاخوان الى مواضعهم السابقة بعد انتهاء موسم الحج .

حالة السكان :

عانى سكان جدة كثيراً من المشقة والضيق والاذى خلال أشهر الحرب . وكان نصيب الفقراء من ذلك أكبر جداً من نصيب غيرهم ـ كما هو حظ الفقراء دائما . فقد ارتفعت أسعار الاغذية في البلدة ، ولاسيما أسعار الخضروات والفواكه ، وانتشرت بين السكان الملاريا والزحار

---

(٤٩) دائرة الوثائق العامة في لندن ـ رقم (أف. أو. ٣٧١ ـ ١٠٨٠٧) .
(٥٠) أمين الريحاني (المصدر السابق) ـ ص ٤١٠ ـ ٤١٢ .
(٥١) جريدة (العراق) ـ في عددها الصادر في ٢٣ حزيران ١٩٢٥ .

وأمراض نقص الفيتامين كالاسقربوط والبريبري • وصار عدد الوفيات في البلدة يزداد يوما بعد يوم •

تعتمد جدة في ماء شربها على ماكنة لتقطير الماء تسمى عندهم بـ « الكونداسة » • وصارت هذه الماكنة تعمل خلال الحرب فوق طاقتها ، وكان معظم انتاجها يخصص لحاجات الجيش ، وبدأ العطل يتنابها بين فترة واخرى • وأخذ الناس يعانون من العطش مثلما عانوا من الجوع • وبيعت صفيحة الماء بعشرة قروش ، وهذا سعر يصعب على الفقير تحمله[٥٢] • يقول فيلبي في التعليق على ذلك : « ان سياسة الحيادالمطلق التي اتبعتها بريطانيا قد كلفت مدينة جدة غاليا اذ فُقد فيها ما يربو على الخمسة والعشرين ألفا ، ذهبوا ضحية المرض والجوع والشقاء في سنة كاملة من الحصار ، انتهت وقد ركع أهل المدينة يتوسلون طالبين الماء وباحثين عن الشعير والعلف ليأكلوه بدلا من طعام الانسان »[٥٣] •

وظهرت في جدة مشكلة اخرى بالاضافة الى مشاكل الجوع والعطش ، هي مشكلة العبيد • فقد كان في جدة كما في غيرها من مدن الجزيرة العربية كثير من العبيد ، وكان بعض هؤلاء العبيد في الايام الماضية يهربون من اسيادهم ويلجأون الى القنصلية البريطانية لتسفرهم الى مواطنهم في أفريقيا • وعندما اشتدت المجاعة في جدة ازداد عدد اللاجئين الى القنصلية ، ففي شهر تموز سفرت القنصلية ستة وعشرين عبداً كان معظمهم سودانيين ، وفيهم بعض الاحباش • وقد غضب اهالي جدة من ذلك وذهب وفد منهم الى وزير الخارجية الهاشمية فؤاد الخطيب يحتجون على مافعلته القنصلية ، وكانت حجتهم أن العبيد الهاربين سارقون ويجب أن ينفذ حكم الشرع فيهم • واضطر الملك علي أن يتدخل في الامر فطلب من القنصلية أن تكف عن تسفير العبيد متذرعاً بحالة التذمر

(٥٢) دائرة الوثائق العامة في لندن ــ رقم (أف• أو• ٣٧١ ــ ١٠٨٠٩) •
(٥٣) خيري حماد (المصدر السابق) ــ ص ١٥٨ •

العام الموجود في جدة ، فان هذا العمل قد يزيد من تذمر الاهالي وربما أدى الى ثورتهم • فاستجاب القنصل لرجاء الملك موقتا[٥٤] •

أعيان جـدة :

كان اعيان جدة خلال أشهر الحرب فريقين ، أحدهما هاشمي الهوى والاخر سعودي الهوى • وكان بينهما صراع مكتوم •

كان على رأس الفريق الهاشمي رجل اسمه محمد طويل ، وكان في الواقع شديد الولاء للملك علي وللبيت الهاشمي ، وقد انفق معظم ثروته في مساعدة الملك علي في اثناء الحرب • ويفسر خصومه هـذا الولاء منه بأن البيت الهاشمي كان سبب ثروته[٥٥]• ومهما كان السبب فأن ثبات هذا الرجل في ولائه يدل على وفائه ، ومن النـادر أن يكون الانسان وفياً في مثل تلك الظروف •

أما الفريق ذو الهوى السعودي فكان على رأسه قاسم زينل ، وكان هذا الرجل يعلن مرارا ان مصلحة جدة تقضي بأن تستسلم لابن سعود وان يغادرها الملك علي • وقد وصل الى علم الملك علي ان هذا الرجل مع أعوان له أربعة على اتصال بابن سعود وانهم يمدونه بالاسرار ، فأوعز الملك الى وزير الحربية باحالتهم الى محكمة عسكرية ، فحكمت عليهم المحكمة بالسجن • وفي ٧ تشرين الثاني ١٩٢٤ أعادت المحكمة محاكمتهم وحكمت عليهم بالاعدام • وقد أصر وزير الحربية على تنفيذ الحكم فيهم، غير أن الملك دعاهم الى قصره في ١٤ منه وأعلن عفوه عنهم بعد أن نصحهم بعدم التعرض للحكومة أو التكلم في السياسة[٥٦] • ويقول فيلبي : ان المتهمين دفعوا للملك علي ثمناً للعفو عنهم ، حيث تبرع كل واحد منهم بألفي جنيه لمشروع الدفاع عن جدة[٥٧] •

---

(٥٤) دائرة الوثائق العامة في لندن ــ رقم (أف• أو• ٣٧١ ــ ١٠٨٠٩) •
(٥٥) حسين محمد نصيف (المصدر السابق) ــ ج١ ص ١٦٣ •
(٥٦) المصدر السابق ــ ص ١٦٧ •
(٥٧) خيري حماد (المصدر السابق) ــ ص ١٦٣ •

لم يمض على ذلك سوى شهر ، أو اقل منه ، حتى بدأ قاسم زينل يجهر برأيه المعارض للحكومة الهاشمية مرة اخرى ، واخذ يدعو الى وجوب اخراج الملك علي من جدة . والظاهر ان هذا الرجل كان واثقا من طيبة قلب الملك علي وتسامحه ، فصار يتجرأ عليه . يقول فيلبي في وصف الملك علي : انه كان سليم الطوية الى الحد الذى يصل الى درجة السذاجة(٥٨) .

مشكلة البشر أنهم يكونون اجرياء في مجابهة الطيب المتسامح ، ولا يكادون يلقون القوي الصارم حتى يستخذوا له . وهذا أمر لاحظناه واضحاً في التلاميذ تجاه معلميهم ، وهو أوضح في عامة الناس تجاه حكامهم .

قصة الجنود :

حين نقارن بين جنود ابن سعود وجنود الملك علي نجد فرقاً واضحاً . فأولئك كانوا مستميتين في القتال – كما ذكرناه من قبل – يعتقدون أنهم اذا قُتلوا دخلوا الجنة ، بينما هؤلاء كانوا مرتزقة متنابذين . وقد وصفهم القنصل البريطاني في تقريره السرى الى حكومته بقوله : انهم باستثناء عدد قليل منهم ليسوا سوى زمرة من المرتزقة السفاكين ، كل فئة منهم ترتاب من الفئة الاخرى ، وهم بوجه عام يتحدون في الشغب ولكنهم في النفع متفرقون(٥٩) .

كان أكثر فئات الجنود شغباً واثارة للمشاكل هم الفلسطينيون، ويليهم السوريون وهم من الدروز في الغالب . وقد بدأ الفلسطينيون يعلنون تذمرهم بعد فترة قصيرة من وصولهم الى جدة ، وصاروا يذهبون الى القنصل البريطاني يشكون اليه من سوء حالهم ورداءة لباسهم وطعامهم ،

(٥٨) المصدر السابق – ص ١٦٢ .

(٥٩) دائرة الوثائق العامة في لندن – رقم (أف . أو . ٣٧١ – ١١٤٣٢) .

وادعوا انهم لم يتطوعوا للقتال بل للعمل في سكة حديد معان غير انهم نُقلوا الى حدة رغم ارادتهم • وقد بدأ تذمرهم يزداد عندما عجزت الحكومة الهاشمية عن دفع رواتبهم منذ أواخر عام ١٩٢٤ • وفي ١٥ شباط أضربت جماعة من الفلسطينين بلغ عددهم مائة وخمسين ، وأعلنوا رفضهم طاعة الاوامر الى ان تدفع لهم الحكومة رواتبهم المتأخرة • فجاء اليهم بعض ضباطهم ليتكلموا معهم ، فرفضوا الكلام معهم وأخذوا يوجهون نيران بنادقهم فوق رؤوس الضباط • ثم جاء الملك علي اليهم ووعدهم بدفع رواتبهم خلال خمسة او ستة ايام • فعادوا الى الطاعة ، وتم دفع الرواتب لهم في الوقت المحدد(٦٠) •

تفاقمت المشكلة من جديد في شهر نيسان ١٩٢٥ حين أعلن الفلسطينيون والمصريون تذمرهم لتأخر دفع رواتبهم ، وطالبوا بتسفيرهم الى بلادهم • وقد اضطرت الحكومة الى تسفير خمسة وثلاثين رجلا منهم • وأدى هذا التسفير الى تشجيع آخرين لاعلان التذمر والمطالبة بالتسفير ، وذهب بعضهم الى القنصلية البريطانية طالبين تدخلها • وذُعرت الحكومة ، وخشيت أن ينهار نظام جيشها ، فاعتقلت عدة جنود من الذين ذهبوا الى القنصلية ، وجلدتهم وابعدتهم الى ينبع والوجه • وقد احتج القنصل لدى الملك على ذلك ، فأكد له الملك ان الجلد لم يكن بعلمه وانه أصدر أوامر مشددة بعدم جلد الجنود في المستقبل(٦١) •

تحسنت الحاله في شهر آيار ، وذلك على أثر وصول عشرين ألف ليرة من الحسين في العقبة • وقد وصل من العراق أيضا مبلغ خمسة عشر ألف روبيه ، وهو المبلغ الذي أرسله الملك فيصل من واردات الاوقاف النبوية • فتمكن الملك علي بهذين المبلغين من دفع رواتب شهر واحد للجنود ، فهدأوا أملاً بالحصول على جميع رواتبهم المتأخرة بعدئذ •

---

(٦٠) دائرة الوثائق العامة في لندن ــ رقم (أف• أو• ٣٧١ ــ ١٠٨٠٧) •

(٦١) دائرة الوثائق العامة في لندن ــ رقم (أف• أو• ٣٧١ ــ ١٠٨٠٨) •

في أواخر تموز استدعى قائمقام جدة كبار التجار الى اجتماع ، وطلب منهم قرضاً للحكومة قدره عشرون ألف ليرة ، فرفضوا طلبه . وبعد مجادلات معهم أُنزل المبلغ الى أربعة آلاف ليرة ، فدفعوه . وفي شهر آب باع الملك علي عدداً من الدكاكين العائدة له في جدة بمبلغ خمسة آلاف ليرة ، وقد اشتراها منه سليمان قابيل أحد تجار جدة الاغنياء(٦٢) . واضطر الملك أخيراً الى رهن أطيانه الخاصة في مصر لقاء قرض قدره خمسة عشر ألف جنيه(٦٣) . وقيل انه اضطر أيضا الى بيع بعض مقتنيات عائلته الشخصية حتى حلي زوجته وجواهرها(٦٤) .

ان هذه المبالغ التي حصلت عليها الحكومة لم تكن تكفي لسد طلبات الجنود المتزايدة . فاضطرت الحكومة في ١٢ آب الى تسفير ٤٧٥ جندي من الفلسطينيين حيث أرسلتهم الى العقبة على الباخرة « طويل »(٦٥) . وأخذ الجنود الباقون يتخذون شتى الوسائل للحصول على المال . يقول حسين محمد نصيف وهو من أهل جدة : ان بعض الجنود أخذوا ينهبون ما يجدونه أمامهم ، وعمد فريق آخر منهم الى اقتحام بعض الدور الخالية فهدموها وانتزعوا أخشابها وباعوها ، وقد بلغ قيمة ما خربوه بهذه الطريقة عشرين ألف جنيه . ولجأ بعض الجنود الى الاستجداء في الشوارع(٦٦) .

اشتدت الازمة في عصر ٢٨ تشرين الثاني ، وذلك حين اجتمع الجنود وقرروا نهب البلدة في اليوم التالي . فعلم الملك بالخبر في منتصف الليل ، وأرسل يستدعي اليه شيوخ القبائل الحجازية واليمانية التي ينتمي اليها فريق من الجنود ، ورجا منهم أن يمنعوا أتباعهم من الاشتراك في التمرد . فاستجاب الشيوخ له ومنعوا أتباعهم . أما الفلسطينيون والسوريون فظلوا

(٦٢) دائرة الوثائق العامة في لندن ــ رقم (أف٠ أو٠ ٣٧١ ــ ١٠٩٠٩) .
(٦٣) أمين الريحاني (المصدر السابق) ــ ص ٤٠١ .
(٦٤) أمين سعيد (تاريخ الدولة السعودية) ــ بيروت ــ ج٢ ص ١٧٧ .
(٦٥) دائرة الوثائق العامة في لندن ــ رقم (أف٠ أو٠ ٣٧١ ــ ١٠٨٠٩) .
(٦٦) حسين محمد نصيف (المصدر السابق) ــ ج١ ص ١٩٩ .

مصرين على موقفهم(٦٧) • وفي صباح اليوم التالي تظاهر نحو ٢٢٠ رجل منهم ، فخرجوا يسيرون في الاسواق وهم يطلقون الرصاص ، حتى انتهوا الى المسجد الكبير ، فدخلوه وتحصنوا فيه ، وأخرجوا فوهات بنادقهم من منافذه ، مهددين كل من يقترب منهم بالقتل • وجاء اليهم وزير الحربية فهددوه بالقتل فعاد من حيث أتى(٦٨) •

أحاط بالمسجد حرس الملك وعبيده المسلحون وتدخل القنصل البريطاني في الأمر ، يؤيده القنصل الايطالي الذي كان في ذلك الحين نائباً عن القنصل الفرنسي ، وطلبا الكف عن الفلسطينيين والسوريين بحجة أنهم رعايا بلاد واقعة تحت انتداب حكومتيهما • فانسحب الحرس والعبيد من حول المسجد •

تم الاتفاق مع الجنود المتمردين على تسفيرهم بعد عشرة أيام ودفع ليرة واحدة لكل واحد منهم مع تموين يكفيهم خمسة عشر يوماً • وفي ١٢ كانون الاول جرى تسفيرهم على الباخرة الصغيرة « رشدي » الى العقبة(٦٩) • ولكن المشكلة لم تقف عند هذا الحد ، لأن الجنود الباقين شعروا بأنهم حرموا من العطاء لسكوتهم وطاعتهم ، وبدأ التذمر ينتشر بينهم، وخيف على البلدة من النهب(٧٠) •

اصبح الوضع في جدة خطراً ، وأدرك الملك علي أنه في موقف يائس لا أمل فيه • ومما زاد في يأسه وصول الخبر اليه بسقوط المدينة المنورة في أيدي القوات السعودية منذ ٦ كانون الاول • واتضح لديه ان ابن سعود ربما تمكن من نقل مدافعه من المدينة الى ما حول جدة في وقت قريب • وعند هذا قرر الملك علي التسليم لابن سعود ومغادرة البلاد ــ لكي يريح ويستريح !

---

(٦٧) دائرة الوثائق العامة في لندن ــ رقم (أف٠ أو٠ ٣٧١ ــ ١١٤٤٢) •
(٦٨) حسين محمد نصيف (المصدر السابق) ــ ج١ ص ١٩٩ •
(٦٩) دائرة الوثائق العامة في لندن ــ رقم (أف٠ أو٠ ٣٧١ ــ ١١٤٤٣) •
(٧٠) دائرة الوثائق العامة في لندن ــ رقم (أف٠ أو٠ ٣٧١ ــ ١١٤٤٢) •

كيف جرى التسليم :

يقول القنصل البريطاني في تقريره السري الى حكومته : « زارني الملك علي برفقة وزير خارجيته فؤاد في مساء ٩ كانون الاول ، وذلك بعد أيام من وصول الخبر اليه بسقوط المدينة ، وأخذ يتحدث في شؤون شتى . ولكنه قبل مغادرته القنصلية طلب مني النصيحة حول ما ينبغي أن يفعل في الأيام القادمة . فأخبرته اني غير قادر على اعطائه أية نصيحة بالنظر للموقف الحيادي الشديد الذي اتخذته حكومة صاحب الجلالة . فغادر الملك القنصلية ، وفي صباح اليوم التالي طلب مني مقابلته ، فذهبت اليه ، وسألني نفس السؤال وأعدت عليه نفس الجواب . وفي مساء ١٣ منه ، عندما ازداد الوضع تأزماً ، طلب مني الملك عليّ شفهياً أن أتوسط لتسليم البلدة . فأخبرته اني سوف اتصل بحكومتي في هذا الشأن وأبلغه بالنتيجة حال وصول جوابها . انه طلب مني أيضاً السماح بالاقامة في فلسطين أو شرقي الاردن أو العراق ، وقال انه عربي ويرغب أن يعيش في بلاد عربية ان امكن وبالقرب من أحد اخويه فيصل أو عبدالله . وفي صباح اليوم التالي أكد الملك عليّ طلبه الشفهي السابق بطلب تحريري ، وقدم لي قائمة بالشروط التي يمكن أن تكون أساساً للتوسط ... »(٧١)

أبرق القنصل البريطاني الى حكومته يطلب منها الاذن بالتوسط ، فوصل الجواب منها في صباح الاربعاء ١٦ منه تسمح له بذلك . فأسرع القنصل فكتب كتاباً الى ابن سعود يطلب منه التفضل بمقابلته في الرغامة في ضحى اليوم التالي ، وأرسل الكتاب مع كاتبه الهندي المنشي احسان‌الله . وغادرت سيارة القنصلية جدة تحمل الكاتب الهندي ويرفرف فوقها علم أبيض . والتقت السيارة بموكب ابن سعود بالقرب من بحرة ، وقدم الكاتب له كتاب القنصل . فلما قرأ ابن سعود الكتاب قال للكاتب : انك جئت في اللحظة المناسبة لانك لو كنت قد تأخرت يوماً واحداً لكان الوقت قد فات .

---

(٧١) دائرة الوثائق العامة في لندن ـ رقم (أف ٠ أو ٠ ٣٧١ ـ ١١٤٣٢) .

وأخبره ابن سعود بأنه كان متوجهاً الى الرغامة لتوجيه الهجوم على جدة بناء على طلب أهالي جدة الذين وعدوه بالمساعدة عند الهجوم .

يروي خيرالدين الزركلي : أن ابن سعود كان في ذلك الوقت الذي جاء فيه كاتب القنصل في ساعة من أحرج ساعات حياته ، ذلك ان رؤساء الاخوان كانوا آنذاك قد سئموا المقام في حصار جدة وصاروا يجادلون ابن سعود جدالاً عنيفاً حيث خيّروه بين أمرين : اما ان يأذن لهم في فتح جدة عنوة ، أو يرحلوا عنها الى ديارهم في نجد . فأجابهم ابن سعود قائلا : « لن أدخل جدة في قتال ، وسأبقى على أبوابها ، ولكم أن تقيموا أو ترحلوا » . وبينما كان الاخوان يتهيأون للرحيل وصل الخبر الى ابن سعود بعزم الملك علي على التسليم . وفي رأي الزركلي ان هذا الحادث هو دليل آخر على وجود موهبة « الحظ » لدى ابن سعود(٧٢) .

وافق ابن سعود على مقابلة القنصل البريطاني في اليوم التالي الخميس . وفي الساعة العاشرة من صباح الخميس التقى القنصل بابن سعود في الرغامة ، وكانت تلك أول مقابلة له معه . وكتب القنصل في تقريره الى حكومته يبدي اعجابه بما شاهد في ابن سعود من جاذبية في الخلق وتسامح كريم في ساعة النصر . وذكر القنصل ان ابن سعود وافق على معظم الشروط التي طلبها الملك عليّ ، وكان ذلك عملاً كريماً منه(٧٣) .

كانت الشروط مؤلفة من سبعة عشر مادة ملخصها أن ابن سعود يجب أن يعفو عن جميع من عاون الملك علي من الموظفين والضباط والأعيان ، ويضمن سلامتهم وسلامة عائلاتهم وأموالهم ، وأن يوزع على الضباط والجنود مبلغ خمسة آلاف جنيه ، ويتعهد بترحيل من يرغب منهم الى أوطانهم مع ابقاء من يجد الكفاءة فيهم من الموظفين ، ويمنح عائلة

---

(٧٢) خير الدين الزركلي (المصدر السابق) ــ ج٢ ص ٥٨٥ .
(٧٣) دائرة الوثائق العامة في لندن ــ رقم (أف. أو. ٣٧١ ــ ١١٤٣٢) .

آل الحسين جميع ممتلكاتهم الشخصية التي ورثوها من آبائهم ، ويمنح الملك علي الحق في أن يأخذ معه عند خروجه جميع أمتعته الشخصية بما فيها سيارته الخاصة وسجاداته وخيوله . ويتعهد الملك علي من جانبه بتسليم جميع الاسلحة والرشاشات والطائرات والمدافع والمصفحات سالمة من غير تخريب ، وكذلك تسليم البواخر الحجازية الاربعة وهي «طويل» و «رشدي» و «الرقمتين» و «رضوى» ، مع السماح للملك علي باستعمال الباخرة «الرقمتين» لنقل أمتعته الشخصية ثم تعود بعد ذلك[٧٤] .

عاد القنصل الى جدة بعد الغروب في اليوم نفسه ، وقابل الملك عليّ بعد العشاء . وقد اعترض الملك بمرارة على التعديلات التي أجراها ابن سعود على شروطه . ولكنه وافق عليها أخيراً ووقّعها . وأخذ الملك عليّ بعدئذٍ يستعد لمغادرة جدة في أقرب وقت ممكن .

وفي صباح ٢٢ منه غادر الملك عليّ جدة على ظهر البارجة البريطانية « كورن فلاور » . وقد اعتق قبل مغادرته واحداً وعشرين عبداً من عبيده ، وسلمهم الى القنصلية البريطانية لكي تسفرهم الى مواطنهم في أفريقيا[٧٥] . ويقال انه أخذ معه عند مغادرته جدة جميع ما كان في دوائرها من طوابع البريد[٧٦] .

أبحرت البارجة بالملك عليّ وحاشيته متجهة بهم نحو عدن ، وعند وصولهم اليها نزلوا فيها . وقد حاول المقيم البريطاني في عدن الحصول على باخرة تنقلهم الى البصرة ، فلم يجد . فاضطر الى حجز أماكن لهم في باخرة تحملهم الى بومبي . وقد غادروا عدن في ٢٧ منه . وحين وصلوا الى بومبي لم يتمكنوا من النزول فيها لعدم وجود جوازات سفر لديهم ،

---

(٧٤) أمين سعيد (الثورة العربية الكبرى) ـ القاهرة ـ ج٣ ص ٢١٨ ـ ٢١٩ .

(٧٥) دائرة الوثائق العامة في لندن ـ رقم (أف٠ أو٠ ٣٧١ ـ ١١٤٤٢) .

(٧٦) أنيس صائغ (الهاشميون والثورة العربية الكبرى) ـ بيروت ١٩٦٦ ـ ص ٢٤٦ .

فنُقلوا الى باخرة أخرى حملتهم الى البصرة[٧٧] • ومن هناك ركبوا القطار الى بغداد فوصلوها في ٨ كانون الثاني ١٩٢٦ ، وكان في استقبالهم في المحطة الملك فيصل وابنه غازي[٧٨] •

دخول ابن سعود جدة :

كانت قد تشكلت في جدة حكومة موقتة للمحافظة على الأمن خلال الفترة بين الحكمين • وعلى أثر مغادرة الملك عليّ جدة توجه القنصل البريطاني الى الرغامة ومعه رئيس الحكومة الموقتة ، فقدمه الى ابن سعود • ثم أخذ القنصل يشكر ابن سعود على قبوله وساطته في الصلح ، وذكر له أن حكومته انما سمحت له بالتوسط من أجل حقن الدماء في البلاد المقدسة، وجلب السلام والرخاء لها ، وتأمين سلامة ملايين الحجاج الذين هم من رعايا صاحب الجلالة البريطانية المفخمة • فأجابه ابن سعود قائلاً أمام الحاضرين : انه يشكر الحكومة البريطانية بحرارة على ذلك بالأصالة عن نفسه وبالنيابة عن قومه وجميع العالم الاسلامي • وذكر أنه يعتبر بريطانيا الصديقة الوحيدة المخلصة له في العالم ، وأنه ليس له أية علاقة صغيرة أو كبيرة مع غيرها من الدول • ويقول القنصل البريطاني في تقريره السري الى حكومته : ان ابن سعود أعاد هذا الكلام عدة مرات وبكل حماس واخلاص ، وكان يدعم كلامه باشارة من يده اذ كان يحرك قبضة يده مع كل كلمة يفوه بها • وقد واصل ابن سعود كلامه مع القنصل فقال : انه بناءاً على قدسية الكلمة وما يأمر به دينه وعقيدته ملتزم ومنفذ للمعاهدة المعقودة بينه وبين بريطانيا العظمى ، وانه على تمام الوفاق مع صديقته وحليفته الامة البريطانية ، فسياستها هي سياسته ما دامت لا تعرض لأمرين هما أعز عليه من حياته وهو مستعد أن يريق آخر قطرة من دمه في سبيلهما

---

(٧٧) دائرة الوثائق العامة في لندن ــ رقم (أف• أو• ٣٧١ ــ ٣٣ ــ ١١٤٣٣) •

(٧٨) جريدة (العراق) ــ في عددها الصادر في ٩ كانون الثاني ١٩٢٦ •

هما : دينه وشرفه • ان اوثـق روابط الصداقة موجودة دائما بـين شعبه وبريطانيا العظمى « ان شاء الله ! »(٧٩) .

تحرك ابن سعود في صباح اليوم التالي من الرغامة في موكب كبير متوجهاً الى جدة • ولما وصل الى الكندرة نزل في دار الضيافة فيهـا • وكان قد رفع العلم النجدي فوق الدار كما أطلقت المدافع مائة طلقة وطلقة. وجاء القناصل والاعيان والضباط يسلمون على ابن سعود ، وتقدم القنصل الايطالي نحوه فتكلم باللغة العربية قائلاً : « نظراً لكوني كبير القناصل سناً أتقـدم بالنيابـة عـن نفسي وبالوكالـة عن رفاقـي بتقديم تهنئتنـا لعظمتكم بدخولكم جدة في هذه الطريقة السلمية التي حقنت بها الدماء ، ونتمنى لعظمتكم التوفيق الدائم والسعادة » • فأجابه ابن سعود قائلاً : انه لم يتباطأ في الأعمال الحربية الا لهذه النتائج السليمة • ثم أبدى ابن سعود شكره للمعتمد البريطاني على مسعاه ، كما شكر جميع القناصل(٨٠) .

أقام ابن سعود يوماً واحداً في الكندرة ، وفي صباح اليوم التالـي انتقل الى داخل جدة ، فنزل في دار الشيخ محمد أفندي نصيف ، وجاء الاهالي بمختلف طبقاتهم يسلمون عليه ، كما ألقى الشعراء بـين يديـه القصائد الرنانة ــ كما هو ديدنهم في هذه المناسبات !

---

(٧٩) دائرة الوثائق العامة في لندن ــ رقم (أف٠ أو٠ ٣٧١ ــ ١١٤٣٢) .
(٨٠) أمين الريحاني (المصدر السابق) ــ ص ٤٢٥ ــ ٤٢٦ .

الفصل السابع

الحسين في سنواته الاخيرة

ان الحسين بعد مغادرته جدة في ١٥ تشرين الاول ١٩٢٤ ذهب الى العقبة ، فأمضى فيها ثمانية أشهر ، ثم أجبره الانكليز على مغادرتها الى قبرص • وقد ظل الحسين في قبرص حتى تشرين الثاني ١٩٣٠ عندما أصيب بشلل نصفي ، فنقل الى عمان حيث مات في ٤ حزيران ١٩٣١ • وسنحاول في هذا الفصل ذكر ما جرى له خلال تلك الفترة بمقدار ما حصلنا عليه من معلومات •

ايـن يقيـم :

لم يكد الحسين يغادر جدة متوجهاً الى العقبة حتى صارت البرقيات تتوالى بين لندن وبغداد والقدس للبحث عن المكان المناسب الذي يجب أن يقيم فيه الحسين • تقول المس بيل في رسالة لها في ١٥ تشرين الاول : « هناك تنافس شديد بيننا وبين حكومة فلسطين كل يحاول أن يبعد عنه الحسين • لاشك ان الحسين سيكون ثقيل الظل في فلسطين غير أنه لايقدر أن يسيء كثيرا في البلد الذي ليس ابنه حاكماً فيه • اني أسلي نفسي في أنه مهما فعل من استفزازاته المعهودة في هذا الكون فهو لن يفعل ذلك بصفته ملك الحجاز وخليفة المسلمين »[1] •

وصل الحسين الى العقبة في ١٨ منه ، وقبل وصوله بيوم واحد ذهب المعتمد البريطاني في عمان المستر كركبرايد لمقابلة الامير عبدالله ، وأخبره بأن الحكومة البريطانية قررت السماح لابيه الحسين بالبقاء في العقبة موقتاً الى أن تجد له مقراً آخر • وحين وصل الحسين الى العقبة ذهب اليه

(1) Burgoyne (Gertrude Bell) - London 1961 - vol. 2, p. 356.

المستر كر كبرايد وأخبره بقرار الحكومة البريطانية على نحو ما أخبر به ابنه عبدالله بالأمس • ثم كتب كركبرايد بعدئذ تقريراً سرياً الى حكومته في لندن حول مقابلته للحسين وابنه ، ننقل فيما يلي أهم ما ورد فيه :

« تحدثت مع سمو الامير عبدالله في الساعة الثانية بعد الظهر في ١٧ تشرين الاول ، وأخبرته بقرار الحكومة البريطانية ، فتأثر الامير من هذا القرار تأثراً شديداً ، ومن الواضح أنه كان راغباً في مجيء أبيه الى عمان قبل أن تتخذ الحكومة البريطانية قرارها • وأخذ الامير يتكلم بمرارة حول الحكومة البريطانية وكيف خذلت أصدقاءها العرب ، وأبدى ندمه (ربما بصورة غير رسمية) لانهم لم يبقوا على ولائهم للاتراك • فطلبت من الامير أن يبلغ أباه الحسين في العقبة بقرار الحكومة البريطانية على وجه السرعة • فأرسل الامير برقية في مساء ذلك اليوم يخبره بالقرار ويخبره أيضا أنه قادم الى العقبة •••

« توجهت الى العقبة في الساعة العاشرة والدقيقة الخامسة والعشرين من صباح ١٨ منه ، فوصلت اليها في اليوم التالي في الساعة الثانية والدقيقة الخامسة والخمسين بعد الظهر ••• فنزل الحسين من الباخرة في الساعة الثالثة والنصف ، وأخبرته حالا بقرار الحكومة البريطانية ••• فقال الحسين ان ابنه عبدالله قد أخبره به بالأمس ، وأنه يأسف لان الحكومة البريطانية لم يبق لديها سوى ثقة قليلة به ، وهي لذلك تخشى أن يبقى في بلد أراق العرب دماءهم من أجله في سبيل القضية المشتركة بينهم وبين بريطانيا • أوضحت له أن مصلحة الجميع تقتضي بأن لا يتسرع في أفعاله ، وأن الحكومة البريطانية مشغولة للعثور على مقر له في المستقبل ، وأنها بالتأكيد سوف تعمل جهدها لحل القضية بأسرع ما يمكن •

« تكلم الملك السابق الحسين باسهاب في موضوع علاقته ببريطانيا منذ بداية الثورة العربية ضد الاتراك ، وأشار الى الاتفاق القديم والوعود ، والى الدواعي التي جعلته يرفض المعاهدة التي قدمتها بريطانيا ، كما أشار بشيء كثير من التأكيد الى المؤامرات التي قام بها ضده القنصل البريطاني

الخالي في جدة واتهمه بأنه كان يسعى متعمداً لاسقاطه • وذكر الحسين بشكل محدد أن السبب الوحيد الذي جعله يترك مملكته هو ادراكه ان الحكومة البريطانية غير راضية عنه ، وقد تأكد لديه أنها ستكون مسرورة للتخلص منه • انه يعتقد بان الحكومة البريطانية انما انقلبت عليه سعياً لترضية الاتراك والهنود والمصريين • ولما كانت عواطف الصداقة منه لبريطانيا لم تتغير ، فانه ارتأى ان من الأصلح له أن ينسحب •

« وصل الامير عبدالله الى العقبة في صباح اليوم التالي مبكراً • أخبرته بان الملك السابق وافق على رغبة الحكومة البريطانية ، وأعربت له عن أملي بأن لا يقول له شيئاً يغير من رأيه • أظهر الامير بروداً حول هذه القضية كلها ، وأظن أنه يشعر بأن كرامته قد جرحت لعدم تمكنه من دعوة أبيه للاقامة في بلاده •

« في الساعة السابعة والنصف من ذلك الصباح رافقت الامير في الصعود الى الباخرة « الرقمتين » فقابلنا الملك السابق فيها ، وأخذ الملك يتحدث مرة أخرى بتفصيل عن ماضيه ، وكان يؤيد حديثه بوثائق موقعة من مكماهون وآخرين • والظاهر أنه يحمل معه كثيراً من الوثائق الرسمية • ولعل من الممل أن أكتب في تقريري جميع ما قاله الملك السابق بالتفصيل • فان معظم حججه قديمة ، وهي لابد معروفة لحكومة صاحب الجلالة ، ولكن في مقدوري تقديم تقرير منفصل عنها عند الحاجه • وقد قال الملك السابق في ختام حديثه انه راغب كل الرغبة في مقابلة السر جلبرت كلايتون وبحث الامور معه ••• »[٢]

تم الاتفاق بين العراق وبريطانيا أخيراً على أن يكون مقر الحسين في البصرة ، واشترطت بريطانيا أن لا يتدخل اثناء اقامته فيها في الامور السياسية • كتبت المس بيل في رسالة لها في ٢٢ تشرين الاول تقول : « ••• اننا مقبلون على تحمل مسؤولية الملك الحسين • انه سيقيم في

(٢) دائرة الوثائق العامة في لندن ــ رقم (أف• أو• ٣٧١ ــ ١٠٠١٦) •

البصرة ويبقى ساكناً لا يتدخل في السياسة • وهل في مقدور البرغوث أن يبقى ساكناً ... »[3]

أبرق الملك فيصل الى أبيه يدعوه للاقامة في العراق باسم الشعب والحكومة • وفي ١٠ تشرين الثاني وصل الى العقبة المستر كركبرايد وقابل الحسين ، ثم كتب الى حكومته التقرير التالي :

« في العاشر من الشهر الجاري قابلت الملك السابق الحسين في العقبة وأخبرته ان الحكومة البريطانية ليس لديها مانع لقبوله دعوة العراق بشرط أن يوافق على الشروط التي وضعتها الحكومة العراقية من حيث محل اقامته وأن لا يتدخل في السياسة • وأخبرته أيضا ان الحكومة البريطانية ترغب في أن يذهب عن طريق البحر الى البصرة • ثم سألته هل تسلم الدعوة مع تفاصيل الشروط التي وضعتها الحكومة العراقية •

« أجاب الملك السابق أنه تسلم رسالة من الملك فيصل يخبره بأن العراق حكومة وشعباً سيكون مسروراً باقامته فيه ، ولكن الرسالة لم تتضمن أية شروط من هذه التي ذكرتها ، غير أنه سمع من مصادر أخرى بأن الحكومة العراقية تخشى من تدخله في الامور السياسية والدينية ، وهي لذلك ترغب منه أن يعطي تعهداً محدداً في أنه لن يتدخل في هذه الامور • انه أكد لي أنه سوف لا يقبل الدعوة على أي حال في الوقت الحاضر • لانه مرتاح في العقبة وليس لديه رغبة في القيام برحلة غير ضرورية قد تؤدي الى اتعاب عائلته ، وانه حتى لو كان قد قبل الدعوة فان عدم ثقة الحكومة العراقية به قد مس كرامته مما يجعله يرفض الذهاب الى هناك • انه يدرك أن ليس من اللائق به أن يتدخل في السياسة عندما يقيم في العراق ضيفاً على حكومته ، واذا كانوا لا يستطيعون الوثوق به من غير تعهد مسبق فانه يفضل أن لا يذهب •••

« دعاني الحسين لمقابلته في صباح اليوم التالي ، ولكنه لم يكن لديه

(3) Burgoyne (op. cit.) - vol. 2, pi 357.

ما يقوله سوى تكرار ما كان قد قاله من قبل ، وأعرب عن رأيه في أن الوقت قد حان لكي تتدخل الحكومة البريطانية من أجل وقف اراقة الدماء في البلاد العربية ... »[٤]

ارسال المساعدات :

كانت الحرب حول جدة في بدايتها عند وصول الحسين الى العقبة ، فأرسل الى ابنه علي في جدة يحثه على الصمود ويتعهد له بارسال المعونة له نقداً ومعدات حربية . وقد حقق الحسين لابنه ما تعهد به . ففتح صفائح النقود التي حملها معه من مكة ، وأخذ يرسل مبالغ منها الى جدة على دفعات ، كما أرسل مبالغ منها الى عبدالله لكي يشتري بها الطائرات والمصفحات ويستأجر المتطوعين .

بذل عبد الله جهوداً كثيرة في جمع المتطوعين وشراء المعدات والاسلحة . ولكن الذي يؤسف له ان كثيراً من الذين كلفوا بالقيام بذلك كانوا ممن نشأوا في العهد العثماني وتشبعوا بقيمه وعاداته ، ولهذا رأيناهم ينتهزون الفرصة للاثراء السريع ، وضاعت من جراء ذلك معظم أموال الحسين عبثاً . يقول صلاح الدين المختار الذي كان شاهد عيان لما جرى :

« لقد تلقى الامير عبدالله بن الحسين من والده في العقبة أربعين ألف ليرة ذهباً لقاء ارسال المتطوعين وشراء بعض الاسلحة الآلية والطيارات في طرد ابن سعود من الحجاز ... ولكني أقرر هنا ... أن جل هذا المبلغ قد تسرب الى جيوب المنافقين والمستغلين واللصوص ومدخولي الضمير . ولن أقرر هذه الحقيقة اعتباطا ، فلقد تحركت من عمان الى معان على رأس ١٤٥ جندياً دون أن نستلم قرشاً واحداً باستثناء كمية من الخبز والمواد الغذائية الاخرى التي لابد منها فلا نهلك جوعاً بين عمان ومعان ! »[٥] .

---

(٤) دائرة الوثائق العامة في لندن ـ رقم (أف٠أو٠ ٣٧١ ـ ١٠٨٠٧) .

(٥) صلاح الدين المختار (تاريخ المملكة العربية السعودية) ـ بيروت ـ ج٢ ص ٣١٣ .

ويقول صلاح الدين المختار أيضاً : ان المستودعات العسكرية في معان كانت مليئة بالسلاح والعتاد ، كما كان فيها ثلاثة مدافع . فجاء الامير عبدالله بنفسه الى معان وأمر بنقل المدافع والاسلحة الى جدة ، وتقرر دفع عشرة ريالات مجيدية أجرة لكل جمل يعمل في نقل الاسلحة الى العقبة . وقد اتضح فيما بعد أن قسماً كبيراً من الاسلحة بيع للعشائر القريبة . وشاهد المختار بنفسه أحد المدافع الثلاثة ، وكان أضخمها ، ملقى في قعر أحد الوديان بين معان والعقبة[٦] .

ومن الجدير بالذكر في هذا الصدد ان الحسين لم يترك عادته القديمة في تقريب المتزلفين والمداحين ، وفي تصديق أقوالهم . وقد حف به في العقبة نفر منهم[٧] يشبهون أولئك الذين كانوا يحفون به في مكة ، وصاروا يختلقون له الاخبار التي يرغب فيها ، وكان هو من جانبه يقدم لهم المبالغ الكبيرة لجمع المتطوعين وشراء السلاح ، فيضعون معظمها أو كلها في جيوبهم .

يروي أمين الريحاني : ان الحسين أعطى قبل خروجه من مكة لرجل من هؤلاء المتزلفين عشرة آلاف ليرة لكي يشتري بها الطائرات والمصفحات من أوربا ، ولكن الرجل ذهب الى مصر واشترى بالمبلغ عقارات لنفسه . ويروي الريحاني أيضاً : ان ثلاث طائرات قديمة اشتريت من انكلترا بسبعة آلاف باون ، وأرسلت الى جدة ، فتبين أنها لا تسوى غير ألف وخمسمائة باون ، أما الباقي فقد ذهب الى جيوب السماسرة والوكلاء[٨] .

مشكلة العقبة :

كانت منطقة العقبة ومعان قبل الحرب ضمن حدود ولاية الشام ، ولكن الحسين ضمها الى الحجاز بعد الحرب . ولما نشبت الحرب في

---

(٦) المصدر السابق ـ ج٢ ص ٣١٨ .
(7) Storrs (Orientations) - London 1939 - p. 518.

(٨) أمين الريحاني (تاريخ نجد الحديث وملحقاته) ـ بيروت ١٩٥٤ ـ ص ٢٤٦ ، ٤٠١ .

الحجاز شعر الانكليز بوجوب اخراج هذه المنطقة من حدود الحجاز وضمها الى شرقي الاردن • فقد كان الانكليز يعتبرونها ذات موقع استراتيجي مهم ، ولهذا أرادوا الحاقها بشرقي الاردن لكي تكون تحت انتدابهم فلا تقع في يد ابن سعود[٩] •

وفي منتصف شهر أيار ١٩٢٥ أرسل ابن سعود كتابا الى الحكومة البريطانية يخبرها بأنه مرسل قوة لمهاجمة العقبة ليقينه بان اقامة الحسين فيها هو السبب الرئيسي لاطالة الحرب في الحجاز ، لان الحسين يمد جدة بالمال والسلاح والجنود[١٠] • وقد أثار هذا الكتاب عند وصوله ازمة في الوزارة البريطانية ، فقد ارتأى وزير المستعمرات المستر ايمري وجوب توجيه انذار الى ابن سعود بعدم مهاجمة العقبه ، ولكن وزير الخارجية المستر تشامبرلن خالفه في الرأي ودافع عن ابن سعود قائلاً ان هجومه على العقبة له ما يبرره لوجود الحسين فيها ولهذا يجب اخراج الحسين منها باللطف أو بالقوة وبأقصى سرعه ممكنة • وكان من رأي تشامبرلن ان الحسين لا يستحق أن تدخل بريطانيا في حرب مع ابن سعود من أجله[١١] •

قررت الحكومة البريطانية أخيراً بأن تحسم المشكلة بضم العقبة ومعان الى شرقي الاردن وبنقل الحسين الى قبرص • وأخبرت ابن سعود بذلك عن طريق قنصلها في جدة • وأنذرته بأن العقبة أصبحت تحت مسؤوليتها • وفي ٢٨ أيار وصلت الى مياه العقبة البارجة البريطانية « كورن فلاور » ، وقدم ربانها الى الحسين انذاراً من الحكومة البريطانية تطلب منه مغادرة العقبة في خلال ثلاثة أسابيع • ولما تسلم الحسين الانذار خاطب الربان قائلاً : « أنا لا أذهب من هنا ولو هلكت أنا وعائلتي بقنابل

---

(9) Jarvis (Arab Command) - London 1942 - p. 119.

(١٠) دائرة الوثائق العامة في لندن ـ رقم (أف• أو• ٣٧١ ـ ١٠٨٠٩) •

(11) Troeller (The Birth of Saudi Arabia) - London 1976 - p. 225.

حليفتي بالأمس » • فرد عليه الربان قائلاً ما معناه أنه رسول مكلـــف بالتبليغ فقط وأنه سيعود في صباح الغد لتسلم الجواب • ثم خرج دون أن يجلس • وعندما عاد الربان في الموعد المعين سلمه الحسين كتاباً طويـلاً يتضمن رفضه للانذار • وفيما يلي ننقل جزءاً كبيراً منه :

« انني منذ ابتداء النهضة العربية حتى هذه الساعة وأنا مخلص في ولائي لحكومة جلالة ملك بريطانيا ، ثابت على مبدأي اعتماداً على شرفها وبناءاً على عهودها ومواثيقها الرسميه ••• واني ضحيت بكل شيء وتخليت عن الملك وغادرت وطني حباً بالسلم وحقن الدماء ، وأتيت العقبة لابرهن للعالم أجمع بأن لا مطمح لي سوى اسعاد أقوامي وتحرير بلادي بعد أن قمت بواجباتي ••• وها اني اليوم مقيم في احدى قرى الحجاز معتزلاً عن العالم ومبتعداً عن كل ما من شأنه أن يوجب الشغب وسوء التفاهم • ولما كان هذا الاعتزال والابتعاد لم يخلصني من أمثال هذه الشوائب فلا شك بأنني أينما ذهبت لا يخلو الامر من حدوث شيء كما في التبليغات الاخيرة • وربما كانت أسد هولاً من موقفي الحالي اذ لا أضمن هياج الشعب العربي وقتئذ وحدوث ما لا تحمد عقباه نحو الحليفة وغيرها • ولهذا فانى لا أرى مندوحة عن بقائي في مكاني ، وان شاءت حكومة جلالة الملك فلتبعث بـي الى عالم المريخ فاني مستعد لانفاذ رأيها في هذه البعثة في أول دقيقـــة التبليغ ، أو أنها اذا نسبت ورأت عظمتها أن تبعث احدى وسائطها الحربية لتهلكني وعائلتي وخلاص الجميع من هذه الغوائل فلتفعل لاني آليت على نفسي بأن لا أحجم عن مساعدة أبناء وطني وقومي • واني أفتخر أمامكم بكوني ما زلت ولن أزال أساعد الحكومة الحجازية بمالي الخاص الذي ادخرته لمستقبلي المجهول ، لأن من لا خير فيه لوطنه لا يرجى منه خير لحلفائه واصدقائه • ولي الشرف أيضا بكوني ثبت على مبدأي وأخلصت في عملي وقمت بواجباتي ، فما عليّ من غيري فيما اذا لم يف بوعـــده ولم يقم بانجاز عهده ، ونفذ مطامعه بقوة مدرعاته وبرؤوس حرابه ، فهناك يكون الحكم لمن غلب ••• وفضلاً عن ذلك فاني لم أعترف بالانتداب على البلاد العربية من أساسه ، وما زلت احتج على الحكومة البريطانية التـي

جعلت فلسطين وطناً قومياً لليهود ، وشمالي سوريا تحت الانتداب ومأوى للأرمن • واني لأعجب من تغافل الحكومة البريطانية عما حل بالحجاز بل بمكة المكرمة من السحق والمحق في الاموال والانفس ، والدمار الـذي لا يمكن تلافيه الا بعد عشرات من السنين ، ثم اهتمامهـا بمحافظة معان والعقبة الامر الذي لا يبقي محل لا طالة البحث فيه ، لان ذلك كاف لاقل تأمل ••• اني لا أبرح العقبة مهما كانت النتيجة ولو أدى الامر لهلاكي ومحو عائلتي من الوجود • واني لا أقصد بهذا معاداة بريطانيا وسواها ، وانما هو في سبيل انقاذ وطني وبني قومي • وكلما تفعله بي الحكومـة البريطانية لمما يزيدني شرفاً وفخراً بين شعبي وأقوامي، حيث يسجل التاريخ لكل منا عمله • وفي هذا بلاغ »[١٢] •

يبدو ان هذا الرد الشديد من الحسين وضع الحكومة البريطانيـة في موقف دقيق ، فقد كان مـن الصعب عليها تنفيذ انذارها الى الحسـين بالقوة لان ذلك سيكون سبباً في تشويه سمعتها امام الرأي العام العالمي ، فماذا تفعل ؟

لجأت الحكومة البريطانية الى الامير عبدالله طالبة منه أن يقنع أباه بمعادرة العقبة الى قبرص • وذهب الامير الى العقبة ، فدخل على أبيـه مقبلاً يديه وقال : « يا ولي النعم ، ان سياسة العنف والشدة لا تفيد تجاه القوة • الآن وقد قمتم بواجباتكم تجاه أمتكم وأديتم رسالتكم فعلى الامـة العربية أن تقوم بواجباتها »[١٣] • ويقال ان عبدالله ذكر لابيه أن عرشه في شرقي الاردن وعرش فيصل في العراق مهددان بالزوال اذا ظل هـو مصراً على الرفض[١٤] • فاضطر الحسين تجاه توسلات عبدالله الـى الاستجابة للانذار البريطاني •

---

(١٢) أمين سعيد (الثورة العربية الكبرى) ـ القاهرة ـ ج٣ ص ٢٠٩ ـ ٢١١ •

(١٣) سليمان موسى (صفحات مطوية) ـ عمان ١٩٧٧ ـ ص ١٩٣ •

(١٤) صلاح الدين المختار (المصدر السابق) ـ ج٢ ص ٣١٥ •

وصلت الى مياه العقبة بارجة ثانية تدعى « دلهي » وانضمت الى البارجة الاولى • وفي الساعة الخامسة من عصر الخميس ١٨ حزيران نزل الحسين مع حاشيته وحرمه وعبيده الى زورق البارجة « دلهي » • ويروي أحد الذين شاهدوه عند ركوبه أنه أخذ يتمتم قائلاً : « لا وفقك الله يا عبدالله »[١٥] • ويروى أيضا أنه كان طيلة المدة التي قضاها في البارجة بين العقبة وقبرص يردد مع نفسه البيت التالي :

مشيناها خطى كتبت علينا ومن كتبت عليه خطى مشاها[١٦]

وفي ٢٤ حزيران ـ أي بعد أسبوع واحد من مغادرة الحسين العقبة ـ أصدر الامير عبدالله بيانا رسميا أعلن فيه انضمام العقبة ومعان الى شرقي الاردن وانفصالها عن الحجاز ، وذكر البيان ان ذلك جرى « نظراً لتنسيب صاحب الجلالة الهاشمية علي المعظم ملك البلاد الحجازية أيده الله وأدام نصره »[١٧] • وفي اليوم التالي جرى في معان احتفال رسمي فخم لرفع علم الامارة فيها حضره الامير عبدالله ومعه رئيس وزرائه رضا باشا الركابي[١٨] •

كان لانضمام العقبة ومعان الى شرقي الاردن وقع سيء على حكومة جدة ، لانه يؤدي الى قطع الامداد عن المدينة المنورة ، وقد يؤدي بالتالي الى سقوطها في ايدي القوات السعودية • أما الملك علي فكان تأثير الخبر عليه مزدوجاً • يقول القنصل البريطاني في جدة في تقريره الى حكومته : « ان الملك علي أعرب عن سروره لابتعاد أبيه عن طريقه ، ولكن سروره كان مختلطاً لان ابتعاد أبيه يؤدي الى توقف المعونة المالية عن جدة • فهو يحب مال أبيه دون أبيه طبعاً ، ولكنه بالتأكيد يفضل بقاء أبيه مع المال على خسارته للمال »[١٩] •

---

(١٥) المصدر السابق ـ ج٢ ص ٣١٥ •
(١٦) أمين سعيد (أسرار الثورة العربية الكبرى) ـ بيروت ـ ص ٣٨٥ •
(١٧) عبدالله بن الحسين (مذكراتي) ـ القدس ١٩٤٥ ـ ص ٢٠٥ •
(١٨) حسين محمد نصيف (تاريخ الحجاز) ـ القاهرة ١٣٤٩هـ ـ ص١٨٥ •
(١٩) دائرة الوثائق العامة في لندن ـ رقم (أف• أو• ٣٧١ ـ ١٠٨٠٩) •

الحسين في قبرص :

في الساعة السابعة من صباح الاثنين ٢٢ حزيران ١٩٢٥ وصلت البارجه « دلهي » الى ميناء « لارناكا » في قبرص ، وهي تحمل الحسين ومن معه ، وكان في استقباله هناك مدير الشرطة الميجر نورنكوت • وقد نزل الحسين الى رصيف الميناء في الساعة الحاديه عشرة ، وكان معه ١٩٢ بالة كبيرة مع سيارات نيات ليموزين كبيرة ، كما كانت ترافقه زوجته الملكة عادلة هانم وابنتاه ، وسكرتيره الخاص صالح ، ومرافقه العسكري كامل باشا ، ونحو ٢٥ عبداً وعبدة[٢٠] •

أقام الحسين في أول الامر في فندق في نيقوسيا يدعى «بلاس هوتيل» ، ثم استأجر له بعدئذ دارا في نيقوسيا سكن فيها • وكانت الدار مؤلفة من بنايتين بينهما حديقة ، فخصص احداهما للحرم والاخرى لاعماله وزواره • وفي ١٩٢٨ التحق به ولده الاصغر الامير زيد للعناية به في شيخوخته ، وقد بذل زيد في الواقع جهداً مشكوراً في خدمة أبيه ، وظل معه حتى آخر أيامه في قبرص • وقد ماتت أمه عادلة هانم في قبرص ، ودفنت فيها •

عندما كان الحسين في العقبة ـ قبل نقله الى قبرص ـ كان لديه بقية من الامل في أن تأتي بريطانيا لنجدته وطرد ابن سعود من الحجاز • فهو لم يكن يتصور أن بريطانيا تتنكر لصداقتها معه بمثل هذه السهولة • ولم يكتشف خطأه الا عندما حملته بريطانيا قسراً على مغادرة العقبة والانتقال الى قبرص • يروى عنه أنه صرح لاحد الذين رافقوه في البارجة بعد مغادرته العقبة قائلاً : انه كان مخطئا وانه لم يكن يعرف أخلاق الاوربيين وما ينطوون عليه[٢١] ••••

حدثت للحسين في قبرص حادثتان جعلته يفقد أمله من بريطانيا

---

(٢٠) دائرة الوثائق العامة في لندن ـ رقم (أف• أو• ٣٧١ ـ ١٠٨٠٩) •

(٢١) أمين سعيد (الثورة العربية الكبرى) ـ ج٣ ص ٢١١ •

نهائياً ويحقد عليها حقداً شديداً ، أولاهما أن الصحف البريطانية دأبت على الاستهانة به ووصفه بالاوصاف المستهجنة • وقد غضب الحسين حين وجد جريدة « التايمس » المعروفة باتزانها تسلك مسلك الصحف الاخرى فتنتقده انتقاداً لاذعاً وتتهكم عليه • وفي ٢٤ آب ١٩٢٦ كتب رسالة الى وزير الخارجية البريطانية يشكو اليه من نقدات الصحف ويقول انها أهانت شرفه وعزته واحترامه الذاتي ، وذكر الحسين في رسالته كيف انه اعتمد على بريطانيا وسعى للحفاظ على شرفها وتقدمها ، وخاطر بنفسه حين دخل الحرب العظمى من أجلها في الوقت الذي كانت فيه بريطانيا مهددة بالاخطار في الكوت والدردنيل وباريس • ثم قال ان هذا الهجوم من الصحف البريطانية عليه سيعتبره الجميع دليلاً على أن بريطانيا أصبحت ضده وأنها تساعد خصومه عليه • وأشار الحسين في ختام رسالته الى ما ورد في أحد المراجع البريطانية التاريخية حول الحركة الصهيونية من أن وعد مكماهون للحسين جرى تفسيره خطأ ، وقد رد الحسين على ذلك طالباً من وزير الخارجية الرجوع الى رسالة مكماهون المؤرخة في ١٥ آب ١٩١٥[٢٢] •

أما الحادثة الثانية التي أثارت حقد الحسين على بريطانيا فهي حادثة الدار التي سكن فيها في نيقوسيا ، فهو بعد ان أقام فيها ثمانية أشهر أراد الانتقال منها الى دار أخرى ، ولكن صاحب الدار حاول ابتزازه وأقام عليه الدعوى في المحكمة وأظهر عقداً كتبه الحسين له يتعهد فيه بدفع تسعة آلاف باون في حالة تركه للدار • ولما عرضت القضية في المحكمة طلبت المحكمة حضور زوجة الحسين أمامها للشهادة • فغضب الحسين من ذلك غضباً شديداً ولم يسمح لزوجته بحضور المحكمة •

وكتب الحسين في ٢٧ ايلول ١٩٢٦ رسالة الى رئيس الوزراء البريطانية يشكو اليه من معاملة المحكمة له ، وذكر أنه يعتبر نفسه ضيفاً على الملك جورج الخامس وهو يتوقع معاملة تتناسب مع شرف جلالته وعزته •

---

(٢٢) دائرة الوثائق العامة في لندن ــ رقم (أف• أو• ٣٧١ ــ ١١٤٥٠) •

فلم يجب عليه رئيس الوزراء بشيء • وفي أواخر تشرين الاول وصل كتاب الى حاكم قبرص من وزير الخارجية البريطانية فحواه أن الحسين ليست له أية حقوق وامتيازات قانونية تميزه عن غيره من الاجانب في قبرص ، وهو انما أعطي حق اللجوء في قبرص لحمايته من أعدائه ، ولكن وزير الخارجية مع ذلك يوصي الحاكم قائلاً بأنه بالاتفاق مع وزير المستعمرات يرى أن مقتضيات المجاملة والانسانية تفرض عليه أن يعامل الحسين بشيء من المرونة على قدر الامكان من حيث وساوسه الدينية أو غيرها في حضور المحكمة(٢٣) •

الشكوى الى عصبة الامم :

بلغ حقد الحسين على بريطانيا أوجه في تشرين الثاني **١٩٢٦** ، مما دفعه الى أن يكتب الى رئيس عصبة الأمم في جنيف كتاباً يستغيث به ويشكو اليه من بريطانيا • وهو كتاب طويل ننقل صورة مختزلة عنه فيما يلي :

يا صاحب الرئاسة

انني أنا الموقع بذيله أدناه الملك حسين بن علي ملك الحجاز وعضو مؤسس في جميعة الامم وحليف الحلفاء في الحرب الكبرى أبين لجنابكم ما يأتي :

اولا — ان جمعية الامم لم تخلق الا لامر واحد وهو منع تعدي أية دولة مستقلة على أخرى • ومن الغريب المدهش ان هذا القانون الاساسي لم يطبق في مسألتي مع الوهابيين الذين اجتاحوا بلادي وبلاد آبائي وأجدادي حتى محمد بن عبدالله النبي العربي الهاشمي صلى عليه وعلى آله وسلم • ولذلك فاني احتج أشد الاحتجاج أولاً على هذا العمل من قبل قائد الوهابيين ، وثانياً على الجمعية لعدم معاملتي بموجب قانونها الاساسي • واني اطلب بالحاح من الجمعية الموقرة اخراج الوهابين من بلادي بقوة الدول أعضاء جمعية الامم •

---

(٢٣) دائرة الوثائق العامة في لندن — رقم (أف٠٠ أو٠ ٣٧١ — ١١٤٥٠) •

ثانياً ـ تتذكر جمعية الامم ان قادة الوهابيين كانوا قبل ذلك قد دخلوا امارة الكويت مما حمل الدولة البريطانية على ارسال الجنود الانكليزية المقيمة في العراق مع طياراتها ودباباتها وسياراتها المسلحة الى الكويت وارجاع الوهابيين بالفشل عن مقاصدهم •

ثالثاً ـ اقتحمت عصابات الوهابيين بعدئذ مملكة شرق الاردن فوقف في وجههم ولدي الامير عبدالله بكل ما عنده من القوات الحربية والرجال الاشداء ، وانضمت اليه فرق من الجنود الانكليزية بطياراتها ودباباتها وسياراتها المسلحة ، فتغلب على هذه العصابات وردها • وقد رأى وشاهد بالعين بعض كبار القوم ، وهم شهود عدول ، أن الوهابيين بعد فرارهم كانوا اذا وجدوا جريحاً ترجلوا عن خيولهم وأغمدوا خناجرهم في قلبه •

رابعاً ـ أما أنا الموقع بذيله ملك الحجاز وعضو جمعية الامم وحليف المنتصرين في الحرب الكبرى فلم أعن بشأن هذه العصابات عناية الخائف من تعديها على ملكي لاني كنت أدري بأننا لسنا اليوم في العصور الوسطى ، ولانني كنت على أكثر من اليقين بأنها لا تتجاسر أن تهاجم بلاداً يقدسها ثلاثمائة مليون من المسلمين الموحدين ، وتضمن استقلالها جمعية الامم ، وتحمي وتحترم استقلالها جميع دول الحلفاء • وما كنت لأظن أن واحدة من هذه الدول العظمى ـ يقصد بريطانيا ـ توعز الى رجال هذه العصابات بواسطة بعض ساستها الاغبياء ، فيدخلون الاراضي المقدسة ويدمرون الاضرحة والمعابد والمشاعر الدينية • أجل ما كنت لأتصور ان الحليفة الكبرى تأتي من وراء اكبر حليف لها في الشرق ، وأعظم ساعد لها في الحرب الكبرى ، فتطعنه في ظهره دون أن يكون لها ضمير يوبخها أو مروءة ووفاء يمنعانها عن هذا العمل الفظيع الظالم • أما الحليفة الكبرى فانها شعرت بفظاعة عملها هذا على الأخص عندما رأت اشمئزاز الشعب البريطاني النبيل من سياستها المتخبطة المضطربة بل السقيمة الخرقاء ، ومن حرمان الانكليز من حليف شريف ، وملك عريق في الحسب والنسب ، ومسالم لم بفكر قط في الاضرار بالآخرين • أجل ان رجال الحكومة

الانكليزية الذين أتوا بهذا الغلط الفاضح وهـذا الخطأ الفادح يقفـون مطأطيء الرؤوس خافضي العيون أمام الرأي العام الانكليزي النبيل الذي سيحاسبهم أشد الحساب عند عودة افتتاح البرلمان الانكليزي •••

خامساً ــ اني أطلب من جمعية الامم الموقرة اخلاء البلاد المقدسة من الوهابيين واستفتاء اهاليها ، لكي ترى ان ما فوق التسعين في المائة من هؤلاء الاهالي يصوتون ضدهم • انني أطلب اطلاق يدي في العمل لاعادة ملكي وملك آبائي واجدادي المغتصب ، ورفع حكم رجال الحكومة الانكليزية الجائر عني • انني أطلب ابلاغ صوتي الشاكي من منفاي في جزيرة قبرص الى جميع رجال الدول ، وعلى الاخص كافـة الشعب الانكليزي النبيل لافهمهم الحقيقة بكل صدق وصراحة بأن سياسة حكومتهم غير الشريفة لا تمر غير الضغائن والبغضاء بين الانكليز والمسلمين الأصحاء ــ أقـول المسلمين الأصحاء أي عامة المسلمين الذين يغارون على دينهم وعلى نبيهم وآله ، ولا عبرة بأفراد لا يعدون الا القليل من المسلمين الذين هم جهلـة أغبياء يضللهم المضاللون وعمال السوء فلا يعلمون من دينهم شيئاً ولايسيرون على النهج الذي أوصاهم به الكتاب العظيم ، فهم مسلمون بالاسم فقط ، ولو كانوا أصحاء الاسلام لاحترموا آل نبيهم صلى الله عليه وعلى آلـــه وسلم ، وقد أوصاهم بهم خيراً ، ولوقفوا جميعا وقفة واحدة كوقفة البطل المغوار والمسلم الصحيح المغفور له ساكن الجنان كبير العائلة العلويـــــة الكريمة في مصر وباقي أركان الدولة المصرية عندما بعث بأولاده ثم ذهب بالذات الى الحجاز لقتال الوهابيين واخراجهم من الاراضي المقدســـة الحجازية من بدعهم في الدين •

انني اكتب هذا الاحتجاج الشديد لرئاسة جمعيتكم لكي تعلم الدول كافة ، ويعلم الشعب الانكليزي النبيل خاصة ، ان أعمال رجال حكومتـه في الحجاز غير العادلة وغير الحقة تحط من مقامها ومن مقامه السامي في أعين عامة المسلمين الأصحاء ، خصوصاً في الهند وفي جميع المستعمرات البريطانية والدولية أيضا ، لان هؤلاء يريدون بكل قواهم المحافظة علـى

شعائرهم الدينية في أراضيهم المقدسة • نعم فليعلم الشعب الانكليزي النبيل هذه الحقائق وليتحرك من جموده وليقف موقف المنقذ العادل الشريف ، ليضع حداً بين الظالم والمظلوم ، فيرفع الظلامة التي سببتها حكومته عن المظلوم • وعندئذ فقط يجوز أن نقول بأن الشعب الانكليزي هو نبيل عادل ويحب العدالة والحق ، وان الدول العظمى تحترم رعاياها المسلمين وتحترم شعائرهم الدينية •

مغتنماً هذه المناسبة يا جناب الرئيس لتقديم احتراماتي الفائقة الحد لشخصكم المحترم ودمتم •

الحسين بن علي(٢٤)

أقوال ستورز :

لم تمض سوى أيام معدودة على كتابة الحسين كتابه الآنف الذكر الى عصبة الامم حتى عينت الحكومة البريطانية السر رونالد ستورز حاكماً على قبرص • ولا ندري هل كان ذلك مجرد مصادفة أم كان أمراً مبيتاً • ومهما يكن الحال فقد لوحظ ان ستورز أخذ يعامل الحسين معاملة لا تخلو من لؤم • يقول الامير زيد : « ••• وفي قبرص أظهر ستورس الكثير من قلة الوفاء بعد أن كنا نعتقد أنه صديق لنا ولسيدي عبدالله خاصة »(٢٥) •

تطرق ستورز في مذكراته الى ذكر حياة الحسين في قبرص ، وحاول أن يكون موضوعياً في كتابته عنه ، ولكننا نحس مما كتب أنه كان لا يميل اليه قلبياً • انه يقول عنه ما نصه : « لم يكن ـ في قبرص ـ معروفاً من أحد أو يعرفه أحد • وكان بالنسبة للموظفين الكبار في الجزيرة بمثابة سجين ، وللموظفين الصغار نكرة • وجدته يسكن في دارة صغيرة يحيطه ابنه الاصغر زيد باخلاص بنوي • وكان منظراً مؤثرا أن أشاهد هذا الامير الشاب ، وهو الذي قاد الكتائب في الحرب وأمضى سنة في

(٢٤) أمين سعيد (المصدر السابق) ـ ج٣ ص ٢١٣ ـ ٢١٧ •
(٢٥) سليمان موسى (مذكرات الامير زيد) ـ عمان ١٩٧٦ ـ ص ٢٠١ •

كلية باليول ، يقرأ لابيه بصوت مرتفع التعليقات المملة لصالح البخاري على القرآن ـ يقصد صحيح البخاري ـ ويخدمه ليلاً نهاراً » •

ويقول ستورز : ان المسرة الوحيدة التي بقيت لدى الحسين ! قبرص انحصرت في ثلاث من المهرات العربية الاصيلة ، وكانت أجملها وألطفها تدعى « زهرة » ، فهي تصعد برشاقة الدرجات الموصلة بين الحديقة وقاعة الضيوف ، وكان الحسين يهتف لها قائلاً : « أهلاً » ، « ماشاء الله » ، « الله اكبر » ، « قربي يا بنت العم » • وكان الحسين يدعو هذه المهرة « قرة العين » ، وكان يقدم لها التمر فتأكله ببطء ثم تلفظ النوى في الصحن • ولكن مسرة الحسين هذه انتهت بخاتمة محزنة ، فان سائس هذه المهرات طرده الحسين من خدمته ، فانتقم السائس منه بأن بقر بطونها • ويقول ستورز : بينما كنت في صباح أحد الايام في مقري الرسمي جاء الحسين طالباً الاذن بالدخول عليّ حالاً ، ولما دخل رمى بنفسه بين ذراعي ودموعه تنهمر •

ويذكر ستورز ان الحكومة البريطانية كانت قد منحت الحسين عندما كان حليفاً لها في الحرب وسام الصليب الاكبر مع وشاح ، ولكن الوسام وصل متأخراً حينما كان الحسين مبعدا في قبرص ، وقد قدمه ستورز اليه عند افتتاح مكتبة قبرص العامة • ويعلق ستورز على ذلك قائلاً : اني رأيت وعرفت كثيراً من تقلبات الزمان ولكنني لم أعرف مثل هذا الحدث المليء بسخرية القدر ، وذلك حين قدمت اليه الوسام الذي يتمناه السفراء والقواد العظام وملوك أوربا • لقد كان الحسين حينئذٍ عجوزا مطرودا غير أنه مازال مهيبا !

ويشير ستورز الى الاشاعات التي راجت بين الناس حول ما لدى الحسين من مئات الالوف من جينهات الذهب موضوعة في صفائح النفط ، وهي الجنيهات التي أعطتها بريطانيا له عند قيامه بالثورة على الاتراك ، فيقول ان الباقي منها الآن أقل مما ذكرته الاشاعات التي هي من شأنها المبالغة في مثل هذه الامور • ويذكر ستورز ان الفلسطينيين الذين

أحاطوا بالحسين في العقبة استطاعوا أن يستخلصوا منه قسطاً كبيرا مـــن تلك الجنيهات لانهم في ذلك خبراء حاذقون • وكذلك فعل معه بعض التجار الماكرين في قبرص ، ولهذا كان الحسين يأتي اليـه ـ أي الى ستورز ـ يريد منه أن يتدخل في المحاكم لمصلحته على طريقة مكة • ويذكـــر ستورز : ان أبناء الحسين كانـوا يأتون الى الحسين يطلبـون منه بعض المبالغ ولكنه كان يخيب ظنهم قبل أن يفاتحوه وذلك بأن يطالبهم بتقديـم قرض له • ويقول ستورز : ان الملك فيصل اشتكى اليه من ذلك عندمـا كان يلعب معه « الروكيت » في جبل « ترودوس »(٢٦) •

ومن الجدير بالذكر ان هذا الذي ذكره ستورز عن أموال الحسين لا يؤيده فيه الأمير زيد • يقول زيد : « عندما وصل الحسين الى قبرص كنا نعتقد أنه يملك مالاً كثيراً ، ولكنه تبين أنه لم يكن يملك سوى أربعة آلاف ليرة • وبعد ذلك أخـذ سيدي عبدالله وسيدي فيصل يرسلان لـه مبالغ محدودة ، ولكن حتى هذه لم تكن تصل بانتظام ••• »(٢٧) •

أيامه الاخيرة :

كان الحسين مصاباً بمرض تصلب الشرايين ، وقد بدأ به المرض في عام ١٩١٩ على أثر واقعة تربة ـ كما أشرنا اليه في حينه • وفي تشرين الثاني ١٩٣٠ حدث له نزيف خفيف في المخ أدى الى اصابته بشلل نصفي ، وقد حصل له هذا النزيف عقب اهانة وجهها اليه ستورز • وفيما يلي أذكر ملخصاً للحادثة كما رواها لي رجل أثق به نقلاً عن الأمير زيد :

كان الحسين قد نفد ما لديه من مال في أيامه الاخيرة ، ولهذا كان ابنه الملك فيصل يرسل اليه من العراق في كل شهر حوالة بمبلغ مائة باون • ولسبب غير معروف تأخرت هذه الحوالة في شهر آب ١٩٣٠ ، واستمر التأخر اكثر من شهرين ، فأبرقوا الى بغداد يستوضحون عن سبب التأخر ،

---

(26) Storrs (op. cit.) — p. 518 — 519 .

(٢٧) سليمان موسى (المصدر السابق) ـ ص ٢٠١ •

فلم يصلهم من بغداد أي جواب • ويعزو الأمير زيد ذلك الى كيد الانكليز ورغبتهم في ايذاء ابيه • وقد أدى تأخر الحوالة الى امتناع البقال المجاور لهم عن تزويدهم بمواد المعيشة التي اعتاد أن يزودهم بها من قبل • واضطر الحسين أن يذهب بصحبة ابنه زيد الى ستورز آملاً أن يجد له حلاً للمشكلة •

يقول زيد : انهما حين دخلا على ستورز في مكتبه لم يقم لهما بما ينبغي من مقتضيات المجاملة ، ولم يطلب منهما الجلوس • فجلس الحسين على أحد المقاعد من غير اذن ، وتابعه في ذلك زيد • وأخذ الحسين يحدث ستورز عن مشكلته ثم طلب منه قرضاً الى أن تأتي الحوالة اليه من بغداد • فجابهه ستورز بوقاحة قائلاً : « ما هو الضمان لهذا القرض ؟ » • فقدّم الحسين خنجره المحلّى بالذهب الى ستورز وقال له : « هذا هو الضمان »• وكان ستورز ممسكاً في يده بقلم رصاص ، فحرك الخنجر بقلمه مع شيء من الاستهانة كأنه يقول ان هذا لاينفع • ثم استدعى كاتبه وأمره أن يقدم للحسين القرض الذي طلبه • ولكن الحسين لم يتحمل تلك الاهانة ، وصارت يده ترتجف من شدة التأثر ، ثم غادر مكتب ستورز حالاً • ولم يكد يصل الى البيت حتى أصيب بالنزيف في المخ •

في ٢١ تشرين الثاني ١٩٣٠ غادر الملك فيصل بغداد الى قبرص بالطائرة • وتمكن فيصل من الحصول على موافقة الحكومة البريطانية على نقل أبيه الى عمان ، وبعد نقله عاد الى بغداد • وتألفت في عمان لجنة طبية لفحص الحسين من خمسة أطباء هم : جميل التوتونجي وحسام‌الدين أبو السعود وتوفيق كنعان وعزت طنوس وولخ • وبعد الفحص كتبوا التقرير التالي :

« لقد تشرفنا باجراء الكشف الطبي على حضرة صاحب الجلالة الهاشمية الملك حسين بن علي في قصر رغدان بعمان ، فوجدنا ان جلالته نظراً لتقدم سنه مصاب بتصلب الشرايين ، ومن ذلك حصل له قبل شهر تقريباً نزيف خفيف في الدماغ ، الا ان صحته العمومية تحسنت بواسطة

التدابير الصحية التي اتخذت له ولا يزال التحسن مستمراً ، والذي يزيد في اطمئناننا اننا وجدنا جميع أجهزة الجسم بحالة حسنة »[٢٨] .

وفي ١٥ كانون الاول وافق مجلس النواب العراقي على ارسال وفد الى عمان باسم الحكومة العراقية لتحية الحسين ودعوته للاقامة في بغداد . وكان الوفد مألفاً من السيد محمد الصدر رئيساً ومن علي الامام ورؤوف اللوس عضوين . وسافر الوفد الى عمان في ٢٩ منه . وقد شكرهم الحسين على الدعوة ووعد بتلبيتها عند تحسن صحته . ولكن صحته لم تحسن . وفي ٤ حزيران لفظ أنفاسه الاخيرة . فنُقل جثمانه الى القدس ودفن في ساحة الحرم الشريف بالقرب من المسجد الأقصى .

الواقع أن الحسين أخفق في أمور كثيرة ، ولكنه نجح في أمر واحد هو أنه جعل من حياته دعاية صارخة ضد بريطانيا . فلقد كان في مقدور بريطانيا أن تداري الحسين في سنواته الاخيرة ، وتراعي شيخوخته ـ لغرض الدعاية على الاقل . ولكنها لم تفعل . ودلت بذلك على أنها لا تعرف مصلحتها أحياناً !

الشعراء يهيمون :

أقيمت لتأبين الحسين حفلتان كبيرتان ، احداهما في القدس في ١٢ تموز ١٩٣١ ، والاخرى في الاعظمية في ١٤ آب . وقد ساهم في هاتين الحفلتين كثير من الشعراء والخطباء ، ففي الاولى ساهم أحمد شوقي وخليل مطران وشبلي ملاط وعبدالحميد الرافعي وشفيق جبري وفؤاد الخطيب ومحمد علي الحوماني ومصطفى الغلاييني وسليمان الظاهر وغيرهم . وفي الثانية ساهم معروف الرصافي ورضا الشبيبي وحبيب العبيدي وعبدالحسين الازري وكاظم الدجيلي وغيرهم . ولا حاجة بنا الى القول ان هؤلاء الشعراء لم يخرجوا في قصائدهم عن القوالب التقليدية في الرثاء حيث أصبحت الدنيا ـ حسب قولهم ـ في ظلام دامس ، وضاع العرب ،

---

(٢٨) نقلاً عن الكتاب المخطوط للسيد هبةالدين الشهرستاني .

وابهد ركن الاسلام ، وما شاكل ذلك • ولم يكن من فرق بينهم الا في صياغة الالفاظ والتفنن في الأخيلة •

كانت قصيدة الرصافي في حفله الاعظمية ملفتة للنظر لأنها جاءت على النقيض من قصيدته المشهورة التي نظمها في هجاء الحسين في عام ١٩١٦ على أثر اعلان الحسين ثورته على الاتـراك • نعرض فيما يلـي أبياتـاً نموذجية من كلتا القصيدتين لكي يقارن القارىء بينهما • فقد ورد في قصيدة الرثاء الأبيات التالية :

بـدا وجـه العروبة في حـلوك	غداة قضى الحسين أبو الملوك
قضـى متـنازلاً بعـد اعتـلاء	كذاك الشمس تجنـح للدلوك
قضى في المجد ليس بذي نظير	وفي العزمات ليس بذي شريك
وقد سلك الطريق الى المعالي	الى أن مـات محمود السلوك
وجـدد للعروبة عرس مجـد	قديـم كان كالعـذق التريـك
وأحدث نهضة في العرب هزت	جنوب الأرض كالريح السهوك
وأثبـت بالسيوف لهـم حقوقـاً	مؤيـدة بـكل دم سـفيك
قرين القبلتـين عليـك نبكـي	وما بالدمع من طرف مسـيك
فقدنا منك خـير زعيم قـوم	وخـير نضيج تجربـة حنيـك
فقد نـاح العراق عليك حزنـاً	وضج من الخليج الى دهـوك
ونـاح المسجد الأقصى جميعـاً	الى أرض الشـآم الى تبـوك
لقـد نُزِّهتَ من غمز ولـمز	كما نُزِّهتُ من شعر ركيك(٢٩)

أما قصيدة الهجاء التي نظمها الرصافي في عام ١٩١٦ فقد وردت فيها الأبيات التالية :

قد كنت أحسب أن اللؤم أجمعه

على الحسينين في مصر قد انقسما

(٢٩) مصطفى علي (ديوان الرصافي) ـ بغداد ـ ج١ ص ٢٢١ ـ ٢٢٤ •

حتى بدت مخزيات اللوم مشركة

من الحجاز حسيناً ثالثاً بهما

لكنما ذاك قد أربت جريمته

عليهما فهو أخزى جارم جرما

فذاك قد أخجل الاهرام بغيها

وبغي هذاك أبكى البيت والحرما

هذا الذي منه تنشق السماء أسى

والارض ترتج حتى تقذف الحمما

فانت يا قدرة الله التي عظمت

خذي حسيناً بذنب منه قد عظما

وانت يا أرض مجّي نحوه ضرماً

ويا سماء عليه امطري نقما

بغى ففرق شملاً كان مجتمعاً

للمسلمين وشعباً كان ملتئما

قالوا الشريف ولو صحت شرافته

لم ينقض العهد أو لم يخفر الذمما

وكيف لا وهو الذي بانت خيانته

فصرحت عن طباع تخجل الكرما

لم تكفه في مجال البغي فتنته

حتى غدا بعدو الله معتصما

اذ راح بالانكليز اليوم ممتنعاً

فضاعف الشر فيما جر واجترما[٣٠]

---

(٣٠) مصطفى علي (المصدر السابق) ـ بغداد ١٩٧٥ ـ ج٣ ص ٦٠ـ٦٢ ٠

الفصل الثامن

ابن سعود يعاني المشاكل

في الوقت الذي كان فيه الحسين يجتر همومه في قبرص كان خصمه ابن سعود يعاني مشاكل الحكم ، وهي المشاكل التي أقضّت مضجعه وأشقته كثيراً ٠

من طبيعة الانسان أنه يفضل أن يعاني المشاكل وهو في صعود على ان يكون خالياً منها وهو في توقف أو نزول ٠ وهذا دليل على أن طبيعة الانسان حركية تميل الى الارتفاع ، وان السكون المريح لا يلائمها ٠

سنحاول في هذا الفصل استعراض بعض المشاكل التي واجهها ابن سعود في وضعه الجديد عقب احتلاله الحجاز ، وهي مشاكل قد يجد القارىء فيها دروساً اجتماعية غير قليلة ٠

مبايعة ابن سعود :

كان ابن سعود منذ بداية الحرب في الحجاز قد أعلن مراراً بأنه لا يطمع في ملك الحجاز بل سيجعل أمره شورى بين المسلمين ، وأنه سينزل على ما يقرره ذلك المؤتمر[1] ٠

وحين تم لابن سعود احتلال الحجاز كله وجد نفسه ملزماً بانجاز ما وعد به ، وكانت بعض الوفود الاسلامية قد بدأت تصل الى الحجاز تلبية للدعوة التي أرسلت اليها من قبل ، كان من بينها وفد يمثل جمعية الخلافة الاسلامية في الهند ، ووفود تمثل سوريا ولبنان وشمالي أفريقيا وجاوة وسومطرة ٠ ولوحظ أن وفد الخلافة الاسلامية كان متحمساً لانشاء حكم جمهوري في الحجاز يشارك فيه المسلمون جميعا على أساس ان الحجاز

(١) حافظ وهبة (جزيرة العرب في القرن العشرين) ـ القاهرة ١٩٦٧ ـ ص ٢٦٨ ـ ٢٧٥ ٠

بلد يهم المسلمين كلهم ولا يجوز أن ينفرد بالحكم فيه فريق دون فريق •
وصار هذا الوفد يدعو لهذا الرأي ويسعى لتحقيقه •

شعر ابن سعود بأنه أصبح في ورطة لا يدري كيف يخرج منها •
وأخذ رجاله ينشطون لايجاد حل لها • وقد وجدوا الحل أخيراً ، حيث تألفت لجنة من أعيان مكة وجدة ، وقررت هذه اللجنة مبايعة ابن سعود ملكاً على الحجاز • وعرضوا الأمر على ابن سعود فوافق عليه ، ونشر هو بياناً أعلن فيه الغاء المؤتمر الاسلامي الذي وعد به ، وذكر انه استجاب لطلب أهل الحجاز في منح الحرية التي وعدهم بها لتقرير مصيرهم •

جرى الاحتفال بالبيعة عند باب الصفا في المسجد الحرام عقب صلاة الجمعة في ٧ كانون الثاني ١٩٢٦ ، وتقدم عبدالله الدملوجي فتلا صيغة البيعة وفحواها انهم يبايعون عظمة السلطان عبدالعزيز آل سعود ملكاً للحجاز على كتاب الله وسنة رسوله وما كان عليه الصحابة والسلف الصالح والأئمة الأربعة ، وأن أهله هم الذين يقومون بادارة شؤونه • فتقدم الحاضرون يبايعون ابن سعود طبقة بعد طبقة ، وكانت المدافع تطلق طلقات التحية المعتادة •

وبعد انتهاء البيعة سار ابن سعود نحو الكعبة ، فطاف حولها سبعاً ، وصلى في المقام ، ثم انتقل الى سرادق كبير لاستقبال المهنئين • وقام الخطباء يمجدون ابن سعود ، فقال أحدهم : « ما أعطاك الله هذا العطاء يا عبدالعزيز الا لأنك سائر في مرضاته » • وقال آخر كلمة أخرى • فتكلم ابن سعود وقال : « اسمع خطباءكم يقولون : هذا امام عادل ، وهذا كذا وكذا • فاعلموا ان ما من رجل ، مهما بلغ من المنازل العالية ، يستطيع أن يكون له أثر وأن يقوم بعمل جيد اذا كان لا يخشى الله • واني أحذركم من اتباع الشهوات التي فيها خراب الدين والدنيا ، واحثكم على الصراحة والصدق في القول ، وعلى ترك الرياء والملق في الحديث • لم يفسد المُلك الا الملوك وأحفادهم وخدامهم والعلماء المملقون وأعوانهم •••

اني أنصح لكم كما أنصح لنفسي وأولادي » • فهتف الحاضرون : « جزاك الله خيراً •• جزاك الله خيراً ! »[٢]

أثارت بيعة ابن سعود استياءاً في مصر والهند وبعض الاقطار الاسلامية الاخرى ، حيث عدوا ذلك نكثاً من ابن سعود بوعوده الكثيرة التي أعلنها من قبل في شأن المؤتمر الاسلامي والانصياع لقراراته • يقول حافظ وهبة في مذكراته : انه كان في مصر عند مبايعة ابن سعود وقد شعر بحرج عظيم حين بلغه الخبر ، فأبرق الى ابن سعود يطلب منه التفاصيل ، كما كتب اليه كتاباً قال فيه ما نصه : « ••• ان روتر اليوم نشر بأنكم ناديتم بأنفسكم ملكاً على الحجاز ، فان كان هذا الأمر صحيحاً فقد غشكم من أشار عليكم بذلك لأن هذه المسألة أثارت الرأي العام في الخارج ضدكم • هذا من جهة، ومن الجهةالاخرى أنه لاينطبق معالعهود التي قطعتموها على أنفسكم أمام العالم الاسلامي وملوك المسلمين في تشكيل حكومة الحجاز ، ولو تريثتم قليلاً لحين انعقاد المؤتمر الاسلامي وتقريره مصير البلاد لكان خيراً وأبقى ، والنتيجة كانت لكم على كل حال • ويظهر ان هناك ايدياً أثيمة حسنت في نظركم هذا الأمر حتى تقضي على فكرة المؤتمر الاسلامي وتقضي في الوقت نفسه على سمعتكم في الخارج ••• » • فكتب ابن سعود الى حافظ وهبة جواباً قال فيه ما معناه : انه انما قبل البيعة بهذه السرعة اضطراراً لأن أهل الحجاز قاموا قومة رجل واحد ليلزموه بذلك ، كما قامت قيامة أهل نجد ، وكلما طلب منهم التريث أبوا • وختم ابن سعود جوابه قائلاً : « فازاء هذا الموقف الحرج الذي يتوقف عليه أمن الحجاز الحاضر واستقرار الأمر فيه لم أجد بداً من تلبية البيعة متوكلاً على الله • واني لا أزال على عهدي من رعاية ما للمسلمين من الحقوق المشروعة في هذه الديار المقدسة »[٣] •

(٢) أمين الريحاني (تاريخ نجد الحديث وملحقاته) ـ بيروت ١٩٥٤ ـ ص ٤٢٧ ـ ٤٣٠ •

(٣) حافظ وهبة (خمسون عاما في جزيرة العرب) ـ القاهرة ١٩٦٠ ـ ص ١٣٤ ـ ١٣٥ •

أما في الهند فقد أعلنت بعض الجمعيات الاسلامية استنكارها لبيعة ابن سعود • وكان أشد تلك الجمعيات استنكاراً جمعية خدام الحرمين ، ويليها في ذلك جمعية الخلافة الاسلامية • وأعلن شوكت علي رئيس جمعية الخلافة استنكاره للبيعة وقال : لا يجوز لبضعة عشر حجازياً من أعداء الشريف حسين أن يقرروا مصير الحجاز الذي يجب أن يقرره العالم الاسلامي كله(٤) •

قررت كل من جمعية الخلافة وجمعية خدام الحرمين ارسال وفد منها الى الحجاز للتحقيق حول ما أشيع من هدم القبور المقدسة فيه • وقد وصل الوفدان الى جدة في ٢٢ كانون الثاني ١٩٢٦ • فقوبلا فيها ببرود • واتخذ وفد جمعية خدام الحرمين موقفاً انتقادياً صلباً تجاه ابن سعود والاخوان ، وحاول ابن سعود مجاملتهم والتلطف معهم دون جدوى • انهم قدموا لابن سعود أسئلة في بعض الامور الدينية ، وكانت أجوبته غير مرضية أو مقنعة لهم • وطلبوا منه رجلاً للمناظرة معه ، كما طلبوا منه شخصياً أن يصلي أمامهم خلف امام من أحد المذاهب الأربعة لكي تزول شكوكهم حوله • فلم يلب ابن سعود طلبهم(٥) •

نفد صبر ابن سعود أخيراً من هذا الموقف الانتقادي الشديد الذي اتخذه الوفد ، فأمر باخراجه من الحجاز بدعوى أنه من دعاة الفتنة • وفي ٣ آذار ١٩٢٦ ، غادر الوفد جدة متوجهاً الى مصر(٦) •

وفي شهر تشرين الثاني ١٩٢٦ عُقد مؤتمر اسلامي في لكنو في الهند تحت اشراف جمعية خدام الحرمين ، واتخذ قرارات مضادة لابن سعود كما أوصى بعدم تشجيع الحج ما دام الحكم الوهابي قائماً في الحجاز • وقد هاجمت جريدة « أم القرى » هذا المؤتمر وانتقدت قراراته ، ووصفت

---

(٤) جريدة (العراق) ــ في عددها الصادر في ١٧ شباط ١٩٢٦ •
(٥) جريدة (العراق) ــ في عددها الصادر في ٢٢ آذار ١٩٢٦ •
(٦) جريدة (العراق) ــ في عددها الصادر في ٢٢ آذار ١٩٢٦ •

جمعية خدام الحرمين بأنها جمعية أعداء الحرمين(٧) .

المجتمع الجديد :

يتميز العهد الجديد في الحجاز عن العهد الهاشمي البائد بأمور كثيرة نذكر أهمها فيما يلي :

اولاً : هبوط مكانة الاشـراف بحيث صاروا لا يتميزون عن غيرهم بشيء ، وربما عمد بعض العامة الى اهانتهم انتقاماً لما سلف منهم . يروي حافظ وهبة قصة لها دلالتها في هذا الشأن خلاصتها : أن أحد الاشـراف أعطى ناظوراً له الى رجل ساعاتي في مكة لاصلاحه ، ثم ادعى بعدئذ ان الساعاتي لم يصلح الناظور طبق الشرط ، وأقام عليه الدعوى لدى قاضي مكة . ولما جرت المحاكمة كان حاكم مكة خالد بن لؤي حاضراً فيها ، وأراد الشريف ان يجلس الى جانبه فانتهره القاضي وأمره أن يقف أمامه مـع خصمه . وقال الساعاتي يخاطب خصمه : « ان وقوفي معك جنباً الى جنب أمام القاضي يساوي عندي الدنيا وما فيها . لقد مضى وقت الظلم ، فلقد كانوا يكلفوننا بعمل الأشياء ولا يعطوننا أجرة ، بل لايتنازلون أن يكلمونا ، بل كانوا يضربوننا في بعض الأحيان ، الحمد لله » . فعلق القاضي على هذا الكلام قائلاً : « ان الناس جميعاً أمام الشرع سواء ، وان الأشراف أولى الناس باتباع جدهم سيد الرسل محمد صلى الله عليه وسلم الذي يقول : يافاطمة بنت محمد اني لا أملك لك من الله شيئاً . والله يقول : ان أكرمكم عند الله أتقاكم . ويقول : فاذا نفـخ في الصور فلا أنساب بينهم يومئـذ ولا يتساءلون » . وحين كان القاضي يتكلم كان الاخوان الواقفون قريباً منه يؤمنون على كلامه ويسمعون الشريف همساً ما يكره من قوارص الـكلم ...(٨) .

---

(٧) دائرة الوثائق العامة في لندن ــ رقم (أف٠أو٠ ٣٧١ ــ ١١٤٤٢) .

(٨) حافظ وهبة (جزيرة العرب في القرن العشرين) ــ ص ١٠٥ــ١٠٦ .

ثانياً : زوال عادة السرقة وقطع الطريق التي كانت شائعة في العهد البائد • ففي أواخر نيسان ١٩٢٦ ألقي القبض في جدة على لص فقطعت احدى يديه طبقاً لحكم الشرع ، ثم غمست في الدهن المغلى ، وطيف بـه بعدئذ في الاسواق ليكون عبرة لغيره[٩] • وفي أحد الايام اعترضت احدى القبائل البدوية قافلة للحجاج فنهبتها وقتلت بعض أفرادها ، فأرسل اليها ابن سعود قوة أحاطت بمقر القبيلة وقتلت كل رجل فيها • وقد استغرب أحد القناصل من هذه القسوة وأبدى استغرابه لابن سعود ، فقال لـه ابن سعود : ان هذه ليست قسوة بل هي رحمة ، فهي الطريقة الوحيدة لمعاملة البدو ، اذ هي ستشيع أخبارها بين القبائل البدوية وسوف يمتنعون عن نهب القوافل بعدئذ[١٠] •

ثالثاً : تشدد الاخوان تجـاه من يخالف السنة في نظرهم كالتدخين أو زيارة القبور والاماكن المقدسة • ففي شهر شباط ١٩٢٦ ذهب أربعـة افغانيين لزيارة غار حراء ، وبينما كانوا يصلون عنده لمحهم بعض الاخوان ورموهم بالرصاص ، فاصيب اثنان منهم بجروح بسيطة • وفي شهر شباط نفسه حدث حادث آخر كان مثيراً خلاصته : ان سائقاً مصرياً كان جالساً في مقهى بالقرب من الكعبة وهو يدخن ، فاقترب منه رجل من الاخوان واختطف السيكارة من فمه وضربه بالعصا • فغضب السائق ونهض واقفاً وانهال على الرجل بلكمات أصابت احداها عينه • وتبين بعدئذ ان هذا الرجل من آل الشيخ أي من سلالة مؤسس المذهب الوهابي ، فسيق السائق الى القاضي فأمر القاضي بجلده ، وقد مات السائق تحت الجلد[١١] •

وفي شهر نيسان ١٩٢٦ عندما اشتط الاخوان في نشاطهم ضـد مـن يخالف السنة في نظرهم اضطر ابن سعود الى اصدار تعليمات لتحديـد

---

(٩) دائرة الوثائق العامة في لندن – رقم (أف٠أو٠ ٣٧١–١١٤٤٢) •

(10) David Hawarth (The Desert King) - London 1964 - P. 148.

(١١) دائرة الوثائق العامة في لندن – رقم (أف٠أو٠ ٣٧١–١١٤٤٢) •

المخالفات وتعيين عقوبة لكل منها • وقد نشرت جريدة « أم القرى » تلك التعليمات ، وهي كما يلي :

(١) كل من لا يحضر صلاة الجماعة عن قصد يُعاقب بالسجن من يوم واحد الى عشرة أيام مع الغرامة •

(٢) كل من يشرب الخمرة يُعاقب طبقاً لحكم الشرع ، ثم يُسجن من شهر الى ستة أشهر مع الغرامة ، واذا عاد الى ذلك مرة أخرى يُنفى من البلد الحرام سنتين •

(٣) كل من يصنع الخمر أو يبيعه أو يهيىء محلاً لشربه يُسجن من ستة أشهر الى سنتين ، كما يُصادر محله • واذا عاد الى ذلك مرة أخرى يُنفى من البلد الحرام من سنتين الى ثلاث سنين •

(٤) ان التدخين أمر سيء ومضر للبدن والمال والعقل ، وقد حرمه بعض العلماء ، ولهذا وجب تطهير الاماكن المقدسة من هذا الشر • فكل من يدخن علانية يُسجن من يوم واحد الى ثلاثة أيام مع الغرامة •

(٥) كل من يشارك في اجتماع لغرض ترويج الاشاعات الكاذبة ، أو التآمر ضد سياسة الحكومة ، يُسجن من سنتين الى خمس سنين ، أو يُنفى من الحجاز •

(٦) كل من يساعد على اخفاء المجرمين المذكورين في المادة السابقة يُعتبر مثلهم ويعاقب مثل عقوبتهم •

(٧) كل من يشارك في اجتماع مخالف للشرع يُسجن من ثلاثة الى ستة أشهر مع الغرامة •

(٨) كل اجتماع مقصود به الفائدة يجب أن تُخبر به الحكومة وبموضعه للحصول على الاذن منها •

(٩) ان الموظفين المعنيين يجب أن ينفذوا هذه المواد باهتمام بالغ ، ومن يهمل منهم يُعاقب بشدة[١٢] •

---

(١٢) دائرة الوثائق العامة في لندن ــ رقم (أف٠أو٠ ٣٧١ـ١١٤٤٢) •

هدم قبور البقيع :

كان البقيع مقبرة المدينة في عهد النبي وما بعده ، ولهذا دُفن فيه العباس عم النبي ، والخليفة عثمان ، وزوجات النبي ، والكثير من الصحابة والتابعين ، كما دُفن فيه أربعة من أئمة أهل البيت هم : الحسن بن علي ، وعلي بن الحسين ، ومحمد بن علي ، وجعفر بن محمد ، وقد صنع الشيعة لقبور هؤلاء الاربعة ضريحاً باهراً يشبه الاضرحة المعروفة في العراق وايران ، لكن على نطاق أصغر • واعتاد الشيعة أن يزوروا هذا الضريح فيقبلونه ويتبركون به ويصلون عنده على نحو ما يفعلون في أضرحة العراق وايران •

ظلت هذه القبور سليمة في العهد السعودي اكثر من أربعة أشهر دون أن يمسها أحد بسوء ، وقد بدأ التذمر ينتشر بين الاخوان من جراء ذلك ، وصاروا ينتقدون ابن سعود ويتهمونه بالتساهل في تنفيذ أوامر الله(١٣) • فاضطر ابن سعود في أواسط نيسان ١٩٢٦ الى ارسال كبير علماء نجد الشيخ عبدالله بن بليهد الى المدينة للعمل على هدم القبور • وعندما وصل ابن بليهد الى المدينة اجتمع بعلمائها ووجه اليهم الاستفتاء التالي :

« ما قول علماء المدينة زادهم الله فهماً وعلماً في البناء على القبور واتخاذها مساجد ، هل هو جائز أم لا ؟ واذا كان غير جائز بل ممنوع منهي عنه نهياً شديداً ، فهل يجب هدمها ومنع الصلاة عندها أم لا ؟ واذا كان البناء في مسبلة كالبقيع وهو مانع من الانتفاع بالمقدار المبني عليها ، فهل هو غصب يجب رفعه لما فيه من ظلم المستحقين ومنعهم استحقاقهم أم لا ؟ وما يفعله الجهال عند هذه الضرائح من التمسح بها ودعائها مع الله والتقرب بالذبح والنذر لها وايقاد السرج عليها ، هل هو جائز أم لا ؟ وما يُفعل عند حجرة النبي (ص) من التوجه اليها عند الدعاء وغيره والطواف بها وتقبيلها والتمسح بها ، وكذلك ما يُفعل في المسجد من الترحيم والتذكير بين

---

(١٣) دائرة الوثائق العامة في لندن ــ رقم (أف٠أو٠ ٣٧١ــ١١٤٤٢) •

الأذان والاقامة وقبل الفجر ويوم الجمعة ، هل هو مشروع أم لا ؟ أفتونا مأجورين وبينوا لنا الادلة المستند اليها لا زلتم ملجأً للمستفيدين » .

وافق سبعة عشر رجلاً من الحاضرين على وجوب هدم القبور ، وكتبوا في ذلك فتواهم ووقعوا عليها . وهذا هو نص الفتوى :

« أما البناء على القبور فهو ممنوع اجماعاً لصحة الاحاديث الواردة في منعه ، ولهذا أفتى كثير من العلماء بوجوب هدمه مستندين على ذلك بحديث عليّ انه قال لأبي الهياج : « ألا أبعثك على ما بعثني عليه رسول الله (ص) أن لا تدع تمثالاً الاّ طمسته ولا قبراً مشرفاً الاّ سويته » ، رواه مسلم . وأما اتخاذ القبور مساجد والصلاة فيها وايقاد السرج عليها فممنوع لحديث ابن عباس : « لعن الله زائرات القبور والمتخذين عليها المساجد والسرج » ، رواه أهل السنن . وأما ما يفعله الجهال عند الضرائح من التمسح بها والتقرب اليها بالذبائح والنذور ودعاء أهلها مع الله فهو حرام ممنوع شرعاً لا يجوز فعله أصلاً . وأما التوجه الى حجرة النبي (ص) عند الدعاء فالأولى منعه كما هو معروف من معتبرات كتب المذهب ولأن أفضل الجهات جهة القبلة . واما الطواف والتمسح بها وتقبيلها فهو ممنوع مطلقاً . وأما ما يُفعل من التذكير والترحيم والتسليم في الاوقات المذكورة فهو محدث . هذا ما وصل اليه علمنا »(14) .

وعلى أثر صدور هذه الفتوى شُرع بهدم قبور البقيع . فأحدث هدمها ضجة في أقطار العالم الاسلامي . وكانت الضجة في الاقطار الشيعية أشد مما في غيرها طبعاً .

صدى الحادث في العراق :

وصلت الى أحد علماء الشيعة في العراق رسالة من رجل شيعي كان في المدينة عند هدم القبور ، وهي مؤرخة في ٨ شوال ١٣٤٤ هـ ، الموافق ليوم ٢١ نيسان ١٩٢٦ ، كان هذا نصها :

---

(١٤) محسن الأمين (كشف الارتياب) ـ ط ٣ ـ ص ٣٥٩ ـ ٣٦٠ .

« أعرض لكم انّ جميع البلاد الحجازيه مقهورة تحت سيطرة ابن سعود وحكمه المطلق فيها ، ولا يوجد في هذه البلاد من أقصاها الى أدناها فرد واحد سواء من سكان المدن او البوادي بسعه أن يقف دون أوامره وارادته النافذة • ومنذ أيام ورد المدينة قاضي قضاة الوهابيين ــ يقصد الشيخ عبدالله بن بليهد ــ وبينما كان مجلسه غاصاً بعلمائها صرح أمامهم بتحريم زيارة القبور وانها بدعة في الدين وشرك بالله وأنه يلزم تحصيل الاتفاق من جميع علماء المذاهب الاربعة على تخريبها تماماً ومحو آخر أثر من آثارها على وجه الارض • ونظراً لذلك فقد منعت زيارة جميع المراقد المطهرة وأُغلقت أبوابها • ومنذ عشرين يوماً لم نجرأ على قصد هذه المشاهد المشرفة وزيارتها ، اذ أن جنود الوهابيين (الاخوان) قد رصدوا الحرم المطهر النبوي ومنعوا أي زائر من التشرف بزيارة سيدة نساء العالمين عليها السلام ومن التقرب الى ضريح رسول الله (صلعم) • ثم ان قاضي قضاة الوهابيين لم يتمكن من تحصيل الاتفاق المطلوب من علماء المدينة الاّ بعد أيام اذ استعمل معهم الوسائل الاخرى المخوفة من القوة ، والبعض الآخر وافق ابتداءاً ، فحكموا جميعا طبق رغبته بتحريم زيارة القبور مطلقاً والتمسح بها الى الله والاستشفاع بها اليه وتلاوة الزيارة فيها • ثم صدر الأمر بهدم وتخريب المراقد الشريفة ، فشرع الجند أولاً بنهب جميع ما تحتويه تلك البنايات المقدسة في البقيع من الفرش والستائر والمعلقات والسرج وغير ذلك • ثم بدأوا يخربون تلك المشاهد المقدسة وفرضوا على جميع بنائي المدينة الاشتراك في التخريب والتهديم • والغرض الآن أن يقف على خبر هذه الفاجعة جميع المؤمنين الذين يأملون بواسطة هؤلاء الائمة الطاهرين الشفاعة والزلفى من الله تعالى ، ويشتركوا جميعاً سواء العربي والفارسي والهندي والتركي ، فيضج كل منهم الى حكومته للتدخل في رفع هذه الغائلة العظمى وتدارك ما وقع • اليوم وهو ثامن شوال وقع التخريب والهدم في القبة المقدسة في البقيع ، ولا حول ولا قوة

الا بالله العلي العظيم • يلزم عليكم أن تبادروا الى اخبار علماء العراق جميعاً بهذه الحادثة الفجيعة »[١٥] •

وفي الوقت نفسه بدأت البرقيات ترد تباعاً الى علماء الشيعة في العراق، ننقل فيما يلي البرقية التي وصلت الى السيد حسن الصدر في الكاظمية وهي : « عظم الله أجوركم في مصيبة الرسول وأهل بيته • الوهابيون خربوا القبور المقدسة » •

قرر علماء الشيعة على أثر تلقيهم هذه الاخبار اعلان الحزن واظهار الحداد وترك التدريس واقامة صلاة الجماعة • وعُقد في صحن الكاظمية اجتماع حضره جمهور كبير من الناس ، وتُليت فيه البرقيات والرسائل الواردة في هذا الشأن ، كما نظمت البرقيات التي تقرر ارسالها الى ملوك وعلماء العالم الاسلامي في أقطارهم المختلفة • وجرى مثل ذلك في كربلا والنجف • ننقل فيما يلي نص البرقية التي أبرقها علماء النجف الى رضا شاه في طهران :

« حسب الأنباء الموثوقة ان الوهابية بعد نهبهم حرم أئمة البقيع حكم قاضي القضاة بهدم وتخريب البقيع الشريف بما فيه من القباب والضرائح المقدسة • وقد بوشر بالعمل في الثامن من شوال • ومن المتيقن ان حفظ نواميس الدين الاسلامي بوجه عام والمذهب الجعفري على الاخص في ذمة الملك الجعفري • وآمال العموم معقودة ومقصورة على غيرة وحمية جلالتكم • ونحن منتظرون بفارغ الصبر قيامكم باكبر الواجبات في أسرع وقت ان شاء الله »[١٦] •

وأخذت الجرائد العراقية تنشر المقالات في التنديد بابن سعود وشجب أعماله • فقد كتبت جريدة « العراق » في مقالة افتتاحية لها تقول : « قضي الأمر وأصدر ابن بليهد الفتوى المعلومة فقام باكبر خدمة لسيده ابن سعود ولم يعلم بأن مسعاه كان سهماً أصاب كبد العالم الاسلامي فآلمه أيما

(١٥) جريدة (العراق) — في عددها الصادر في ٢٥ أيار ١٩٢٦ •
(١٦) مجلة (المرشد) — في عددها الصادر في حزيران ١٩٢٦ •

ألـم »[17] . كما نشرت مقالـة أخرى بقلم اسماعيل آل ياسـين مـن الكاظمية عنوانها « الطاغية الكبرى والاماكن المقدسة في الحجاز » ورد فيها ما نصه : « ايها المسلمون ما هذا السبات وما هذا الجمود الذي أدى بكم الى السكون والى عدمالاكتراث بهذه القضايا المؤلمة والادوار المخزية التي يمثلها ذلك الطاغية في البلاد المقدسة ... »[18] .

وفي ٤ حزيران ١٩٢٦ نشرت جريدة «العراق» حديثاً جرى بين أحد محرريها والسيد محمود الكيلاني نقيب أشراف بغداد أعلن فيه السيد محمود انتقاده لمـا قام به الوهابيون من هدم قبور البقيع ، وذكر أن بنـاء القبب على القبور ليس مخالفاً للسنة النبوية لأن النبي نفسه دُفن في حجرة عائشة وهي حجرة ذات جدران وسقف كالقبة . وذكر أيضاً أن تقبيل الاضرحة هو من باب تقبيل المحبوب وهو أمر غير ممنوع في الاسلام .

ونشرت «العراق» بعدئذٍ ثلاثة أبيات من الشعر طالبة من الشعراء تشطيرها وتخميسها ، وهي :

لعمـري ان فاجعـة البقيـع
يشـيب لهولهـا فـود الرضـيع
وسوف تكـون فاتحة الرزايـا
اذا لم نصـح من هذا الهجوع
فهـل مـن مسـلم لله يرعـى
حقـوق نبيـه الهادي الشـفيع

وقد شارك في تشطير هذه الابيات وتخميسها عدد من الشعراء كان من بينهم مصطفى جواد واسماعيل آل ياسين وكمال نصرت وعبدالمهدي الازري ومسلم متفجع من الكاظمية[19] .

---

(١٧) جريدة (العراق) ـ في عددها الصادر في ٢٧ أيار ١٩٢٦ .
(١٨) جريدة (العراق) ـ في عددها الصادر في ٢٩ أيار ١٩٢٦ .
(١٩) جريدة (العراق) ـ في عددها الصادر في ٢ ايلول ١٩٢٦ ، وعددها الصادر في ١٦ ايلول ١٩٢٦ .

حل شهر محرم عامذاك في ١٢ تموز ، فكانت خطب مجالس التعزية ونوحيات المواكب الحسينية تـدور في معظمها حول « فاجعه » البقيـع ، وتناشد الامام الغائب للظهور للانتقام من ابن سعود •

ومن الجدير بالذكر أن يوم ٨ شوال ـ وهو اليوم الذي هُدمت فيه قبور البقيع ـ أصبح يوم حداد في السنوات التالية في النجف وكربلا ، حيث تُغلق فيه الاسواق وتخرج مواكب اللطم ، على نحو ما اعتادوا عليه في وفيات الائمة • ويقال ان أهل كربلا ظلوا مستمرين على ذلك بضع سنوات ، وقد أطلقوا على الثامن من شوال اسم « وفاة البقيع » •

ما زال الشيعة حتى الآن يأملون أن تسنح لهم الفرصة لكي يعيدوا بناء قبور البقيع • ولو أتيحت لهم الفرصة لبنوها خيراً مما كانت أضعافاً • حدثني أحد الثقات ان شيعة البهرة في الهند جمعوا الاموال الوفيرة ووضعوا التصاميم لاعادة بناء القبور • وأذكر أني عند زيارتي لجامع الشيعة الاثنى عشرية في كراجي عام ١٩٥٨ شاهدت فيه ضريحاً ذهبياً ثميناً • وحـين سألت عنه قيل لي انه ضريح قبور البقيع ، وقد صُنع من تبرعات الشيعة في باكستان والهند بانتظار السماح له بنقله الى المدينة عندما تتاح الفرصة • ولست أدري متى سوف تُتاح هذه الفرصة ؟

في موسم الحج :

في شهر حزيران ١٩٢٦ حل أول موسم للحج في العهد السعودي ، وقد جاء الى الحجاز فيه حجاج كثيرون يقرب عددهم من عدد الذيـن حجوا في الموسم الأسبق • وقد أدى ذلك الى اصطدامات ومشاحنات كثيرة بين الحجاج والاخوان • فالحجاج كانوا يريدون القيام بشعائرهم حسب عاداتهم القديمة بينما كان الاخوان يعدّون ذلك مخالفاً للسنة ويقاومونه •

كان ابن سعود قد عين حافظ وهبة نائباً عنه في ادارة شؤون مكـة للحد من غلواء الاخوان • ويقول حافظ وهبة في كتابه : ان الاخـوان كانوا قساة في معاملتهم لمن يرتكب في نظرهم معصية أو يخالف أمـراً من

أوامر الله ، اذ كان كل واحد منهم يعتبر نفسه حاكماً تجاه ذلك ، وكانت العصا تعمل عملها باسم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر . ويروي حافظ وهبة : انه في يوم من أواخر شهر ذي القعدة في عام ١٩٢٦ بينما كان في دار الحكومة في مكة حضر الى الدار قنصل مصر ونائب قنصل الهند ونائب قنصل هولندا ومعهم نحو عشرة من الحجاج والدماء تسيل منهم بسبب اعتداء الاخوان عليهم ، فوعدهم حافظ بمعالجة الموضوع واكد لهم أن مثل هذه الأمور لا يخلو منها بلد في العالم ، ولكنهم احتجوا بأن هذا التعدي كان باسم الدين وبتأييد الحكومة وأنه حدث على مرأى من رجال الشرطة ، فأكد لهم حافظ أن الحكومة لا علم لها بأمثال هذه الحوادث وأنها لا تقر هذا التعدي . ويقول حافظ وهبة : انه ذهب الى ابن سعود ليشرح له خطورة الأمر وما سوف تؤدي اليه أعمال الاخوان من الفوضى. فلم يهتم ابن سعود بكلامه مما اضطره الى الاستقالة من منصبه . وقد أدرك ابن سعود فيما بعد مبلغ تطرف الأخوان فكلف رجال حرسه لتأديب الاخوان ، وعين قاضياً للنظر في المشاكل التي تنتج عنهم[٢٠] .

كانت حادثة المحمل المصري أهم ما حدث في ذلك الموسم من نزاع بين الاخوان والحجاج ، وهي كادت تؤدي الى مذبحة عامة . وخلاصة الحادثة : أن الحكومة المصرية اعتادت منذ زمن بعيد أن ترسل في كل موسم محملاً يدعى « المحمل النبوي » ومعه جنود ومدافع وموسيقى عسكرية وقائد يدعى « أمير الحج » . وتلك أمور يستنكرها الاخوان استنكاراً شديداً ، اذ هم يعتبرون المحمل وثنا يُعبد من دون الله ، كما يسمون البوق الذي يتقدمه بـ « صوت الشيطان » .

ولما اقترب موسم الحج في عام ١٩٢٦ كتبت الحكومة السعودية الى الحكومة المصرية تطلب منها الالتزام بثلاثة شروط عند مجيء المحمل والحجاج الى الحجاز ، وهي : (١) عدم مصاحبة الموسيقى للمحمل بعد

(٢٠) حافظ وهبة (المصدر السابق) ـ ص ٣٠٦ ـ ٣٠٨ .

جدة ، (٢) عدم التدخين ، (٣) عدم زيارة القبور والطواف حولها • فكتبت الحكومة المصرية الى شيخ الازهر ومفتي الديار المصريه تستفتيهما في ذلك ، فأفتى هذان الرجلان بأن الامور الثلاثة التي ذكرتها الحكومة السعودية ليست مخالفة للكتاب والسنة ، وذكرا الادلة الشرعية التي تؤيد فتواهما[٢١] •

ظهرت أولى بوادر الأزمه عند وصول المحمل الى ساحة الحرم في مكة • فقد أُنزل المحمل في الساحة وجاء اليه بعض الحجاج يتبركون به • فثارت ثائرة الاخوان • فأرسل ابن سعود الى أمير الحج محمود عزمي باشا يرجوه أن يُدخل المحمل في موضع محجوب تجنباً للفتنة ، فلبى الباشا الرجاء بعد الالحاح الشديد من قبل بعض الوسطاء •

وفي عصر ٨ ذي الحجة ١٣٤٤ هـ ، الموافق ليوم ١٩ حزيران ١٩٢٦م ، خرج المحمل من مكة متوجهاً الى جبل عرفات ، وفي الساعة السابعةوالنصف من مساء ذلك اليوم حين توقف المحمل بالقرب من منى اقترب منه جمع من الاخوان وأخذوا يسبونه صارخين : « هبل ، هبل » ، وقذفوه بالحصى والاحجار • فأمر محمود عزمي باشا جنوده بالاصطفاف العسكري ، وطلب من الاخوان التفرق ، فلم يأبهوا له • فأمر الباشا جنوده باطلاق القنابل والرصاص في الهواء ارهاباً للاخوان ، فلم يؤثر ذلك فيهم • وقيل ان الاخوان أطلقوا الرصاص على جنوده[٢٢] • وعند هذا أمر الباشا باطلاق القنابل والرصاص على الاخوان مباشرة ، فسقط منهم خمسة وعشرون قتيلاً وعدداً أكبر من الجرحى[٢٣] •

كان قد حج في ذلك العام نحو ستين ألف شخص من نجد ، وكانوا قد خيموا في منى • وحين بلغ هؤلاء ما حل باخوانهم هرعوا الى موضع

(٢١) دائرة الوثائق العامة في لندن ـ رقم (أف٠أو٠ ٣٧١ـ١١٤٤٢) •
(٢٢) دائرة الوثائق العامة في لندن ـ رقم (أف٠أو٠ ٣٧١ ـ ١١٤٤٢) •
(23) Armstrong (Lord of Arabia) - London 1938 - P. 193.

الحادثة وهم يحملون بنادقهم • وبلغ ذلك ابن سعود ، وكان مخيماً بالقرب من الموضع ، فجاء يعدو ، ثم وقف بين الفريقين وهو ينادي فيهم : « أنا عبدالعزيز ! أنا عبدالعزيز ! » • فتوقف اطلاق النار • وأمر ابن سعود جنوده باخفاء المحمل وحمايته ، ثم أرسله بعدئذ الى جدة بحراسة جنود سعوديين تحت قيادة الأمير مشاري بن سعود بن جلوي(٢٤) •

ويروي أرمسترونج : ان ابن سعود اقترب عقب الحادثة من أمير الحج المصري محمود عزمي باشا ، وأخذ يعنّفه على ما فعل ، فرد عليه الباشا قائلاً مع شيء من الزهو والعجرفة : « احتراماً لجلالتكم توقفت عن الضرب ، ولولا ذلك لأفنيت هؤلاء الغوغاء كلهم » • فسيطر ابن سعود على أعصابه وقال له : « ليس هذا وقت التفاخر ، فهنا مكان مقدس أمر الله أن لا يُقتل فيه أحد ، وأنتم ضيوفنا وتحت حمايتنا ، ولولا ذلك لعاقبتك »(٢٥) •

حين وصل الخبر الى الملك فؤاد ، ملك مصر ، اشتد غضبه ، وأمر بالانقطاع عن ارسال كسوة الكعبة التي اعتادت مصر ارسالها في كل عام ، كما أمر بالانقطاع عن ارسال المال الى الحجاز من ريع اوقاف الحرمين في مصر • وفي ١٣ أيار ١٩٢٧ ـ عندما اقترب موسم الحج التالي ـ نشرت جريدة « الاهرام » المصرية بلاغاً رسمياً ورد فيه : ان الحكومة المصرية قررت العدول عن ارسال المحمل في هذا العام وهي تعلن للحجاج المصريين بأنهم قد يستهدفون لبعض المخاطر عند سفرهم الى الحجاز ، وانها غير مسؤولة عن حمايتهم ، فاذا أرادوا السفر كان ذلك على مسؤوليتهم •

ظلت الحكومة المصرية تتبع هذه السياسة تجاه الحج حتى آخر أيام الملك فؤاد • ويُروى أن الملك فؤاد عندما كان على فراش الموت في عام ١٩٣٦ دخل عليه رئيس ديوانه علي ماهر باشا وقال له : « ألا تجعل في

---

(٢٤) خيرالدين الزركلي (شبه الجزيرة في عهد الملك عبدالعزيز) ـ بيروت ١٩٧٧ ـ ج ٢ ص ٦٦٣ ـ ٦٦٤ •

(25) Armstrong (op. cit.) - P. 193

صحيفة عمالك الدخول في مفاوضة مع بلاد الحرمين الشريفين ؟ » • فأشار الملك بما معناه : « لا بأس » •

عادت العلاقات الودية بين مصر والمملكة السعودية بعد موت الملك فؤاد ، وسُمح للمصريين بالحج ، كما عاد ارسال الكسوة الى الكعبة في كل عام • غير أن المحمل ظل ممنوعاً من الدخول الى الحجاز • وصار المصريون يحتفاون بالمحمل في كل سنة لكنهم لا يتجاوزون به مدينة السويس[٢٦] •

عقد المؤتمر الاسلامي :

كانت الرسائل والبرقيات ترد الى ابن سعود من الهند وغيرها تطالبه بعقد المؤتمر الاسلامي الذي وعد به من قبل • وكان حافظ وهبة من جانبه يكرر الحاحه على ابن سعود في سبيل ذلك • وقد وافق ابن سعود أخيراً على عقد المؤتمر بشرط أن لا يتعرض المؤتمر لموضوع نظام الحكم في الحجاز • وفي ٢٦ اذار ١٩٢٦ وجهت الدعوة الى جميع الهيئات والحكومات الاسلامية لحضور المؤتمر الذي سيعقد في ٢٠ ذي القعدة ١٣٤٤ هـ الموافق ليوم ٢ حزيران ١٩٢٦ •

استجاب للدعوة ممثلون من مختلف الاقطار الاسلامية ما عدا ايران والعراق • ووصل الأخوان محمد علي وشوكت علي لتمثيل جمعية الخلافة الاسلامية ، كما وصل ضياءالدين بن فريدالدين لتمثيل مسلمي الاتحاد السوفياتي • وكان يمثل الجانب السعودي فيه أربعة هم : حافظ وهبة ويوسف ياسين وعبدالعزيز العتيقي وعبدالله بن بليهد كبير علماء نجد •

جرى افتتاح المؤتمر في مكة في ٧ حزيران • وألقى حافظ وهبة خطبة الافتتاح بالنيابة عن ابن سعود • وقد تضمنت الخطبة الاسباب التي حدت بابن سعود لقبول البيعة بملك الحجاز ، وخلاصتها : ان أهل الحل والعقد في الحجاز ونجد اضطروه الى ذلك ، وهو قد رفض طلبهم في أول الأمر

(٢٦) خيرالدين الزركلي (المصدر السابق) ـ ج ٢ ص ٦٦٩ •

ثم وافق استجابة لحكم الشرع « لأننا آل سعود لسنا ملوكاً مستبدين ، ولا حكاماً شخصيين ، بل نحن في بلادنا مقيدون بأحكام الشرع ورأي أهل الحل والعقد ... واذا أنا خالفتهم بغير حجه شرعية يقبلونها فانهم لا يطيعونني ، وفي ذلك من الفساد ما لا يخفى . وقد بايعني جمهور الحضر ورؤساء قبائل البادية وهؤلاء يُعدّون من أهل الحل والعقد لأن قبائلهم تتبعهم سلماً وحرباً . » . ثم طلب ابن سعود من الحاضرين في المؤتمر أن يتشاوروا في مصالح الحجاز الدينية والعمرانية ، وفي تطهيره من البدع والخرافات والفواحش والمنكرات التي كانت فاشية فيه بدون نكير ، ثم قال لهم : ان لهم الحرية المطلقة فيما يتناقشون فيه الا في أمرين يجب أن يبتعدوا عنهما أحدهما : الخوض في السياسة الدولية ، والثاني : ما بين بعض الشعوب الاسلامية وحكوماتها من خلاف ، فان هذا من المصالح الموضعية الخاصة بتلك الشعوب . وختم ابن سعود الخطبة قائلاً : « ان المسلمين قد أهلكهم التفرق في المذاهب والمشارب ، فائتمروا في التأليف بينهم والتعاون على مصالحهم ومنافعهم العامة المشتركة ، وعدم جعل اختلاف المذاهب والاجناس سبباً للعداوة بينهم ... »[٢٧] .

استمرت جلسات المؤتمر عشرة أيام . وفي ١٧ حزيران تأجلت جلساته لاتاحة الفرصة للوفود للقيام بشعائر الحج . وفي أثناء ذلك وصل الى مكة وفدا مصر وتركيا ، فاستؤنفت جلسات المؤتمر من جديد في ٢٢ منه ، وقد شهدت الجلسات الاخيرة مجادلات حادة ومشاجرات قام الوفد المصري بالدور الاول فيها .

نشاط الوفد المصري في المؤتمر :

كانت الحكومة المصرية قد تجاهلت دعوة المؤتمر في بداية الأمر ، وذلك حينما كانت وزارة زيور باشا في الحكم ، فلما سقطت تلك الوزارة وتشكلت وزارة جديدة برئاسة عدلي باشا تقرر ارسال وفد يمثل مصر في المؤتمر . فتألف الوفد من الشيخ محمد الظواهري رئيساً ومن محمد

---

(٢٧) حافظ وهبة (خمسون عاما في جزيرة العرب) ـ ص ١٤٠ـ١٤٤ .

المسيري بك ومحمد توفيق بك عضوين • وقد وجد الوفد مشكلة في الوصول الى مكة لتأخر الوقت وسفر جميع بواخر الحجاج ، فأوعز عدلي باشا باعداد باخرة الحكومة المصرية « عائدة » لنقل الوفد الى الحجاز بالسرعة الممكنة • وقد تمكن الوفد من الوصول الى مكة والاشتراك في الجلسات الاخيرة للمؤتمر ـ كما ذكرناه آنفاً •

يبدو ان الشيخ محمد الظواهري رئيس الوفد المصري انما أرسل الى المؤتمر لغرض معين هو انتقاد تطرف الوهابيين وشجب أعمالهم ، ولذا رأيناه يأتي الى المؤتمر وهو مشحون بالادلة النقلية والعقلية التي تناقض أدلة الوهابيين • فكان أول عمل قام به في المؤتمر هو انه قدم اقتراحاً مكتوباً وطلب من الوفود تأييده ، وهذا نصه :

« نظراً الى أن الحجاز الشريف مركز ديني عام لأهل القبلة جميعاً يفد عليه المسلمون من كل فج على اختلاف مذاهبهم الفقهية والكلامية ليعبدوا ربهم وليقضوا مناسكهم ، يقرر المؤتمر أن يُمكّنوا جميعاً من أن يؤدوا عباداتهم ومناسكهم وفق مذاهبهم المذكورة وأن لا يُمنعوا الا ما يمس كرامة أحد من الأحياء او الأموات او يخالف الاجماع المعتبر عند علماء أصول الفقه ، ويقرر أن الحكم بأن ما يأتي به الحاج موافق للمذهب الذي ينتسب اليه أو غير موافق انما يكون لعلماء ذلك المذهب لا لغيرهم »•

وقد ألقى الشيخ الظواهري كلمة ارتجالية حث بها الوفود على قبول قراره ، حيث قال : « ••• سأقول بصراحة وأرجو أن لا يتألم أحد • كم قال القائلون ان النجديين يكفرونكم في كذا وكذا ، وقد جئنا لنتبين الأمور ولنتآلف ولنتصافى ••• لقد رأيت بعيني هنا أمراً آلم نفسي • فقد كنت بالحرم أمرّ خلف المقام بعد الطواف فشاهدت جماعة يلتفون حول شخص مصري ويقولون له بعنف شديد وقسوة : « أأنت قلت يا رسول الله » • هنا خاف الشخص في نفسه وأنكر وانكمش وذعر الى درجة أفاضت عيني • وقد جاءني بعد ذلك ومعه كثيرون من المصريين يقولون لي : « أرأيت كيف ينكرون علينا » ، فهدأت روع من جاءني وقلت لهم :

« اطمئنوا ولا تفزعوا واصبروا حتى يتبين الحق انما الهدى هدى الله » .
هذا ايها السادة بعض ما يدعونني الى اقرار هذا الاقتراح الذي أطلب الموافقة عليه . أناشدكم الله ورسوله . واذا قلت « رسوله » فأرجو أن لا يعترض عليّ معترض ، فان هذا اعتقادي الذي أدين الله عليه . أناشدكم الله ورسوله أن تعملوا بالتسامح وسعة الصدر وعسانا نقضي على أسباب هذه الخلافات التي أضرت بالمسلمين ضرراً بليغاً » .

ناقش المؤتمر اقتراح الظواهري ، وبعد مجادلات حوله وافق عليه مما أدى الى امتعاض ابن سعود وحاشيته ، وقد حدا ذلك بابن سعود الى القاء خطاب أوضح فيه موقفه حيث قال : « ... لا أريد أن أتدخل في أعمالكم ولا أقيد حرية المؤتمر في البحث كما وعدت بذلك في خطبة الافتتاح ، ولكني أريد أن ألفت نظركم الى بعض الأمور بصفتي زعيماً من زعماء الاسلام الذين أُلقيت اليهم مقاليد أمور هذه البلاد ... اني لا أريد علواً في الأرض ولا فساداً ، ولكن أريد الرجوع بالمسلمين الى عهدهم الاول عهد السعادة والقوة ، عهد الصحابة ومن تبعهم باحسان ... اننا لا نكره أحداً على اعتناق مذهب معين او السير في طريق معين في الدين ، فذلك موكول أمره لعلماء الدين وحملة الشريعة . ولكني لا أقبل بحال من الاحوال التظاهر بالبدع والخرافات التي لا يعتبرها الشرع وتأباها الفطرة السليمة . لا يُسأل أحد عن مذهبه وعقيدته ، ولكن لا يصح أن يتظاهر أحد بما يخالف اجماع المسلمين أو يثير فتنة عمياء بين المسلمين ، وخير لنا أن ننظر الى صالح المسلمين ونترك هذه الامور الجزئية للعلماء فهم أحرص منا على ذلك ... » .

كتب الشيخ الظواهري مذكرة في الرد على خطاب ابن سعود ، وهي مذكرة طويلة ، ننقل فيما يلي بعض المقتطفات منها :

(١) أعرب جلالة الملك عن رغبته في ترك المسائل الدينية للعلماء ، ولكن هذا غير ممكن لانّ العلماء مختلفون فاذا اجتمعوا تجادلوا وأيقظوا بذلك التعصب المذهبي .

(٢) قال جلالته أنه لا يقبل التظاهر بالبدع والخرافات ، وهـذا قول حق اذا كان المراد به ما يقرره جميع علماء المذاهب الاسلامية ، لا ما يقرره فريق منهم دون فريق .

(٣) قال جلالته انه لا يصح أن يتظاهر أحد بما يخالف اجماع المسلمين أو يثير فتنة عمياء ، ولكن هذا التعبير واسع النطاق غير محدد المعنى وقد يفهم قوم منه أن منع الناس من أمور جائزة في مذهبهم هو الذي يؤدي الى اثارة فتنة عمياء . خذ مثلا منع التدخين ، فان الشيخ ابن بليهد يقول : « نحن لا نمنعه لانه حرام ... وانما نمنعه لان النجديين اذا رأوا من يشربه ذبحوه » . فمن هم الذين يثيرون الفتنة العمياء ؟ هل هم الذين يفعلون ما يبيحه مذهبهم ، أم الذين يذبحونهم ؟ ! .

(٤) قال جلالته : خير لنا أن ننظر الى مصالح المسلمين وترك هذه الامور الجزئية للعلماء ، وقد كنا نود ان يُراعى هذا المبدأ من أول الأمر فلا تُهدم المآثر وغيرها حتى يرى علماء المذاهب الاسلامية رأيهم فيها ...

شاع أمر هذه المذكرة بين الوفود قبل عرضها على المؤتمر ، واستحسنوها كلهم ما عدا الوفد السعودي . وجاء أعضاء هذا الوفد الى الشيخ الظواهري يرجونه عدم تقديم المذكرة الى المؤتمر ، فقال لهم الظواهري انه يفعل ذلك بشرط أن يسحب الملك خطابه . وقد تم الاتفاق على ذلك ، وسحب الملك خطابه من المؤتمر فعلاً .

كان اليوم الأخير من المؤتمر حافلاً بالمناقشات الحادة . ففي ذلك اليوم طلب شوكت علي المداولة في اقتراح كان قد قدمه سابقاً وهو يتضمن أموراً ثلاثة : (١) اعادة بناء القباب والمآثر المهدومة في أقرب وقت ممكن ، (٢) حفظ وصيانة القبور التي لم تُهدم ، (٣) اناطة أمر بناء القبور التي هدمت الى لجنة علماء المذاهب السنية والشيعية ، ويكون رأي هذه اللجنة نهائياً .

تكلم الشيخ محمد الظواهري حول هذا الاقتراح قائلاً : « اليوم آخر يوم من أيام المؤتمر ونريد أن ننصرف على سلام وصفاء ، وأرى

حركة من جانب اخواننا الهنود تدل على شيء من الامتعاض ، كما أرى حركة تقابلها من الجانب الحكومي تدل على شيء من الشدة ، فأرجو ان لا يكون ذلك . فلينظر الاقتراح الخاص بالقبور والمآثر » . فانبرى للرد عليه يوسف ياسين حيث قال : « اذا كنتم لا تريدون خلافاً وتودون أن ينتهي الأمر بسلام فارجو أن لا يُنظر في هذا الاقتراح لانه هو نفسه يفتح باباً للشقاق والخلاف » . فقال الظواهري رداً عليه : « اننا نريد ازالة سوء التفاهم ، أما السكوت على ما نحن عليه فضارّ ونريد أن يصل الصفاء الى قرارات القلوب . والحق حق مشاع بين الجميع . ومن الحق ما هو حق مرّ ويجب تلطيفه . وأنتم أدرى وأبصر بعواقب اغضاء القلوب . فاطلب عرض الاقتراح وقراءته » . وهنا قام سكرتير المؤتمر فتلا نص الاقتراح ، وتكلم شوكت علي في شرحه ، ثم وافق المؤتمر على أن يحال الاقتراح على هيئة من العلماء ليروا رأيهم فيه . فقام الشيخ عبدالعزيز العتيقي وقال : « أريد التنبيه الى أننا لا نوافق على اتخاذ القبور أوثاناً ، وان الذي جرى ما مسّ رفاتاً وانما كان المساس بالاحجار » . فرد عليه الظواهري قائلاً : « معاذ الله أن يقول أحد أن المسلمين اتخذوا القبور أوثاناً ، ونريد أن لا يتشدد قوماً منا ويتغالون فيما لا فائدة فيه » .

انتهى المؤتمر دون أن يتوصل المشاركون فيه الى نتيجة حاسمة . وفي مساء اليوم الاخير من المؤتمر أقام ابن سعود وليمة للوفود ، وقد انتهز الظواهري الفرصة فألقى فيها كلمة طالب فيها باعادة بناء المآثر التي هُدمت باعتبار انها كانت مساجد بينما هي الآن تبول فيها الكلاب . وحين سمع ابن سعود هذا الكلام نهض وغادر المكان ...(٢٨)

يقول القنصل البريطاني في تقريره السري الى حكومته : المظنون ان المؤتمر كلف ابن سعود ما لا يقل عن العشرين ألف جنيه كان بعضها نفقات للوفود والبعض الآخر رشوات لهم . وذكر القنصل أن أعضاء

---

(٢٨) فخرالدين الظواهري (السياسة والازهر) ـ القاهرة ١٩٤٥ ـ ص ٢٤٠ ـ ٢٥٠ .

الوفود باستثناء القليل منهم قبضوا الرشوات من ابن سعود كل حسب أهميته . فالشيخ رشيد رضا مثلاً قبض ألفي جنيه ، وأمين الحسيني قبض ألفاً ، وأبو العزائم قبض ثلاثمائة . وكان قصد ابن سعود من ذلك أن يجتذب قلوبهم ويضمن دعاية حسنة له في بلادهم(٢٩) .

مأزق ابن سعود :

رأينا ابن سعود في المؤتمر يدافع عن الاخوان ويبرر أعمالهم ، ولكنه في أعماق نفسه لم يكن راضياً عنهم . ومن الممكن القول ان ابن سعود كان تجاه الاخوان في مأزق ذي حدين ، وهو ما يسمى في الاصطلاح العلمي بالـ (Dilemma) ، أي الوقوف بين خيارين كلاهما سيء . انه كان من جهة مديناً للاخوان بما قدموه له من تضحيات وما خاضوا في سبيله من حروب ، ولكنه كان من الجهة الاخرى رجل سياسة يسير وفق ما يمليه عليه فن الممكن ، وهو لذلك كان يرى في الاخوان حركة تعصبية تثير المشاكل وتعرقل نمو الدولة . وقد يصح أن نقول بعبارة أخرى : ان ابن سعود كان يعاني صراعاً نفسياً تجاه الاخوان ، فهو لا يستطيع أن يتحمل تعصبهم من جهة ، ولا يستطيع أن يستغني عنهم من الجهة الاخرى .

قلنا ان ابن سعود لم يكن في أعماق نفسه راضياً عن الاخوان . والواقع أنهم هم أيضاً لم يكونوا راضين عنه . انهم كانوا منذ بداية حركتهم ينتقدون ابن سعود لكونه يلبس العقال بدلاً من العمامة ويطيل شاربه وملابسه . وكانوا كذلك ينتقدون المشايخ ـ أي علماء الدين النجديين ـ حيث يتهمونهم بأنهم مقصرون في دينهم يداهنون ابن سعود ويكتمون الحق عنه .

اتبع ابن سعود مع الاخوان في البداية مبدأ التسامح والتساهل ، فكان يقول دائماً : « ان الاخوان يجب احتمالهم . ومهما فعلوا فحالتهم الآن

---

(٢٩) دائرة الوثائق العامة في لندن ـ رقم (أف٠أو٠ ٣٧١ ـ ١١٤٤٢) .

خير من حالتهم الاولى • وأما العصبية والشدة فالزمن كفيل بتخفيف حدتها » • وحين نصحه بعض أصحابه بوجوب الحد من غلو الاخوان قال لهم : « هؤلاء أولادي وواجبي احتمالهم والتجاوز عن سيئاتهم وخطئهم، وبذل النصح لهم ، واني لا أنسى أعمالهم وأعتقد أنهم حسنو النية وسينكشف الحق لهم »(٣٠) •

كان ابن سعود يظن ان الاخوان سيخف تطرفهم بمرور الزمن ، ولكنه وجد أخيراً ان تطرفهم قد اشتد بدلاً من أن يخف • وفي عام ١٩١٤ اضطر ابن سعود الى عقد اجتماع لعلماء نجد للبحث في هذا الأمر • وقد اجتمع العلماء في ٣٠ ايلول ، وبعد المناقشة أصدروا منشوراً ينصحون الاخوان فيه بالاعتدال • وقد تضمن المنشور الأمور التي جرت المناقشة حولها ، والتي اعتاد الاخوان تكفير الناس بها ، وهي خمسة نذكرها فيما يلي :

الاول : هل يطلق الكفر على بدو المسلمين الثابتين على دينهم القائمين بأوامر الله ونواهيه ؟ أم لا ؟

الثاني : هل من فرق بين لابس العقال ولابس العمامة اذا كان معتقدهما واحداً ؟ أم لا ؟

الثالث : هل في الحضر الأولين وفي المهاجرين الآخرين فرق ؟ أم لا ؟

الرابع : هل في ذبيحة البدوي الذي هو في ولاية المسلمين ، ودربه دربهم ، ومعتقده معتقدهم ، وفي ذبيحة الحضر الأولين أو المهاجرين فرق حلال أو حرام ؟ أم لا ؟

الخامس : هل للمهاجرين أمر أو رخصة في اعتدائهم على الذين لم يهاجروا ، فيضربونهم أو يؤدبونهم أو يهددونهم أو يلزمونهم بالهجرة ؟ أم لا ؟ وهل لأحد أن يهجر أحداً ، بدوياً كان أو حضرياً ، بغير أمر

(٣٠) حافظ وهبة (جزيرة العرب في القرن العشرين) ـ ص ٢٩٣ـ٢٩٤ •

واضح أو كفر صريح أو شيء من الأعمال التي يجب هجره عليها بغير اذن من ولي الأمر أو الحاكم الشرعي ؟

وجاء في ختام المنشور ان العلماء أفتوا بما نصه : « ان كل هذه الأمور مخالفة للشرع وما أمرت به الشريعة ، وان الذي يفعلها يُنهى عنها وينزجر ، فان تاب وأقر بخطأه فيُعفى عنه ، وان استمر على أمره وعاند فيجب عليه تأديب ظاهر بين المسلمين ، وان لا يعادي ولا يصادق الا على ما أمرت به الولاية أو حكم به حاكم الشرع . والذي يفعل ما يخالف ذلك فطريقته غير طريق المسلمين . وهذا الذي ندين به ونشهد الله عليه ، ونرجو أن يوفقنا واياكم للخير ، وصلى الله على محمد وآله وصحبه وسلم ـ سنة ١٣٣٧ ـ الامضاءات والاختام »[٣١] .

وزع هذا المنشور في قرى الاخوان ، كما وزع معه منشور آخر موقع من ابن سعود ينصحهم باتباع ما افتى به علماء الدين باعتبارهم أعلم بالشريعة منهم . والظاهر ان هذين المنشورين لم يكن لهما أي تأثير جدي في الاخوان . وعلى أي حال فان الاخوان قد ازداد تطرفهم عند فتح الحجاز . يقول حافظ وهبة : ان تطرف الاخوان قد ازداد بعد فتح جدة واستسلام الحجاز كله ، وكثيراً ما كان ابن سعود يشتد عليهم ويتبرأ من غلوائهم ولكن تعديهم لم ينقطع وقسوتهم كانت مستمرة[٣٢] .

والواقع ان الاخوان لم يقفوا عند حد التدخل في شؤون الناس ، بل صاروا يتدخلون في شؤون ابن سعود نفسه . ففي شهر تشرين الاول ١٩٢٥ عندما كان السر جلبرت كلايتون يفاوض ابن سعود في بحرة بالقرب من جدة خرج مساعدوه يتمشون خارج المخيم ، وكان هناك جماعة من الاخوان يصلون ، فانبرى لهم رئيسهم وأخذ يهددهم ، وقال لهم انهم قد نجسوا الارض المقدسة التي كانوا يصلون عليها . ولما بلغ ابن سعود ذلك استدعى اليه رئيس الجماعة وأخذ يعنفه قائلا : « بأي حق تكلم ضيوفي بهذه

---

(٣١) أمين الريحاني (المصدر السابق) ـ ص ٤٣٣ ـ ٤٣٤ .
(٣٢) حافظ وهبة (المصدر السابق) ـ ص ٣٢٧ ـ ٣٠٨ .

الطريقة ، وبأي حق تحتكر الارض المقدسة لك ولاصحابك • أيها الكلب ، ان الارض كلها لله ، وكلها للصلاة » • ثم أمر بجلد الرجل ليكون عبرة لغيره (٣٣) •

وعندما بدأ ابن سعود يستعمل بعض المخترعات الحديثة في مكة ، كالتلفون والدراجة الهوائية استنكر الاخوان منه ذلك • فالدراجة في نظرهم تسير بقوة السحر وعمل الشيطان ، بدليل أن الراكب اذا نزل عنها لا تقف ، وهم يسمونها بـ « عربة الشيطان » أو « عربة ابليس » • وحدث مرة ان خادماً لابن سعود كان راكباً دراجة في حاجة له فأعترضه أحد الاخوان وضربه •

وحين أمر ابن سعود بمد أسلاك التلفون بين مكة ومعسكره خارجها أخذ الاخوان يقطعون الاسلاك بحجة أنها منكر يجب ازالته(٣٤) • وقد اضطر ابن سعود الى تأجيل مد الاسلاك بضعة أسابيع ، وظل يعمل في اقناعهم بأن التلفون ليس من عمل الشيطان بدليل انه ينقل آيات القرآن حين تتلى فيه مع العلم أن الشيطان يفر من تلاوة القرآن حسب معتقدهم • وقد اقتنعوا أخيرا بصحة ما قال ، وتم مد الاسلاك (٣٥) •

فيصل الدويش :

ان فيصل الدويش رئيس قبيلة المطير كان من أكثر الاخوان تطرفاً وتعصباً ، وكان أول من أعلن التذمر من ابن سعود حيث اعتبره متساهلا في دينه ليناً مع الكفار • وقد ظهرت أولى بوادر تذمره في عيد الفطر من عام ١٣٤٣ هـ ، ويوافق ٢٥ نيسان ١٩٢٥ م • يقول حافظ وهبة : انه ذهب في ذلك اليوم هو وعبدالله الدملوجي لمعايدة حاكم مكة خالد بن لؤي ، فوجد عنده فيصل الدويش وجماعة من الاخوان ، وأخذ فيصل يتكلم كلاماً فيه معنى الانذار حيث قال : « نحمد الله يا خالد ويا الاخوان

(33) Armstrong (op. cit.) - P. 199 - 200.

(٣٤) حافظ وهبة (المصدر السابق) ـ ص ٢٩٣ •
(٣٥) خيرالدين الزركلي (المصدر السابق) ـ ج ٢ ص ٧٤٢ •

على نعمته ، فقد دخلنا بلد الله الحرام وطردنا الشريف من هـذا البيت • اننا جند الله وخدام لدينه ، لا نريد الا أن تكون كلمة الله هي العليـا ودينه هو الظاهر ، ولا نريد الا رفع المظالم وازالة البدع والمنكرات • وان هذا السيف وهذا الجند سيعمل هذا العمل في كل من يسير في طريـق الشريف ويعمل عمله » • فأمّن الاخوان على كلامه[٣٦] •••

كان فيصل الدويش قد نيط به أمر حصار المدينة • فهاجم قريـة « العوالي » القريبة من المدينة ، وأخذ يقتل سكانها وينهبهم على عادته في كل بلدة يفتحها • ويقال انه كان عازماً على هدم قبة النبي في المدينة حيث وجه عليها مدافعه ، فقد كان يعتقد بأن هذه القبة لا تختلف عن غيرهـا من القباب المقدسة ويجب هدمها • وهو كاد يفعل ذلك لو لم يتدارك أمره ابن سعود ، فأوعز اليه بترك المدينة والعودة الى قريته « الارطاويـة » • ثم ناط أمر حصار المدينة بابنه محمد •

عاد فيصل الى الارطاوية وهو حانق حاقد على ابن سعود ، وصار يبث الاشاعات في قرى الاخوان متهماً ابن سعود بأنـه باع نفسه الى الانكليـز الكفار • وأخذ يلتف حوله الكثير من الاخوان المتذمرين مثله • وفـي خريف ١٩٢٦ عقد الاخوان المتذمرون في الارطاوية مؤتمراً لهـم تعهدوا فيه بنصرة دين الله والجهاد في سبيله ، وأعلنوا استنكارهم للأعمال التي قام بها ابن سعود والتي هي في نظرهم مناقضة لدين الله ، وكانت سـبعة هي : (١) ارسال ولده سعود الى مصر • (٢) ارسال ولده الثاني فيصل الى لندن بلد الشرك • (٣) استخدام السيارات والتلغرافات والتليفونات • (٤) فرض الضرائب في نجد والحجاز • (٥) اذنه لعشائر العراق وشرقي الأردن بالرعي في أراضي المسلمين • (٦) منع المتاجرة مع الكويت ، فاذا كان أهل الكويت كفاراً حوربوا واذا كانوا مسلمين فلماذا مقاطعتهـم • (٧) التساهل مع روافض الاحساء والقطيف وعدم اجبارهم على الدخول في دين أهل السنة والجماعة •

---

(٣٦) حافظ وهبة (المصدر السابق) ـ ص ٢٩٤ ـ ٢٩٥ •

كان ابن سعود في مكة حين وصلته أخبار مؤتمر الارطاوية ،فأسرع عائداً الى الرياض ، واستدعى اليه رؤساء الاخوان لعقد مؤتمر يجتمعون فيه مع علماء الدين • وقد انعقد المؤتمر في ٧ كانون الثاني ١٩٢٧ وحضره فيصل الدويش وجميع المتذمرين ما عدا واحداً منهم هو سلطان بن بجاد رئيس قبيلة عتيبة • وتكلم ابن سعود فقال عن نفسه انه مازال خادماً للشريعة يحافظ عليها كل المحافظة ، وأنه لم يتغير عما كان عليه من قبل كما يتوهم بعض الناس • وانتهى المؤتمر بفتوى أصدرها العلماء يجيبون فيها على المسائل التي أثارها الاخوان • ننقل فيما يلي أهم جزء من الفتوى :

« أما مسألة البرقي ـ يقصدون التلغراف ـ فهو أمر حادث في آخر الزمان ، ولا نعلم حقيقته ، ولا رأينا فيه كلاماً لأحد من أهل العلم ، فتوقفنا في مسألته ، ولا نقول على الله ورسوله بغير علم ، والجزم بالاباحة والتحريم يحتاج الى الوقوف على حقيقته • وأما مسجد حمزة وأبي رشيد فأفتينا الامام ، وفقه لله ، بهدمهما على الفور • وأما القوانين فان كان موجوداً منها شيء في الحجاز فيزال فوراً ولا يحكم الا بالشرع المطهر ••• وأما الرافضة فافتينا الامام ان يلزمهم البيعة على الاسلام ويمنعهم من اظهار شعائر دينهم الباطل ، وعلى الامام أيضاً أن يلزم نائبه على الاحساء ان يحضرهم عند الشيخ ابن بشر ويبايعوه على دين الله ورسوله وترك دعاء الصالحين من أهل البيت وغيرهم ، وعلى ترك سائر البدع من اجتماعهم على مآتمهم وغيرها مما يقيمون به مذهبهم الباطل ، ويمنعون من زيارة المشاهد ، وكذلك يلزمون بالاجتماع على الصلوات الخمس هم وغيرهم في المساجد، ويرتب فيهم أئمة ومؤذنون من أهل السنة، ويلزمون بتعليم ثلاثة الاصول ، وكذلك ان كان لهم محال مبنية لاقامة البدع تهدم ، ويمنعون من اقامة البدع في المساجد وغيرها • ومن أبى قبول ما ذكر ينفى من بلاد المسلمين ••• وأما رافضة العراق الذين انتشروا وخالطوا بادية المسلمين فافتينا الامام بكفهم عن الدخول في مراعي المسلمين وأرضهم • وأما المكوس فأفتينا أنها من المحرمات الظاهرة فان تركها فهو الواجب عليه وان امتنع فلا يجوز شق عصا طاعة المسلمين والخروج

عن طاعته من أجلها • وأما الجهاد فهو محول الى نظر الامام وعليه أن يراعي ما هو الأصلح للاسلام والمسلمين على حسب ما تقتضيه الشريعة الغراء • ونسأل الله لنا وله ولهم ولكافة المسلمين التوفيق والهداية ، وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم • حرر في ٨ شعبان سنة ١٣٤٥ هـ » (٣٧) •

حاول ابن سعود تنفيذ هذه الفتوى ترضية للاخوان ، وكان من جملة ما فعله من أجل ذلك انه أمر بهدم مسجد حمزة الواقع عند جبل أحد بالقرب من المدينة وهو مشيد على قبر حمزة عم النبي • وكذلك أمر بالتضييق على شيعة الاحساء والقطيف ، فهم كانوا قبلئذ يقومون بشعائرهم الحسينية في داخل دورهم وحسينياتهم ، فمنعوا من ذلك منعاً باتاً وأغلقت حسينياتهم • وقد شمل هذا المنع أيضاً الشيعة الذين يسكنون في حارة النخاولة في المدينة •

الاخوان يهاجمون العراق :

في عام ١٩٢٧ قررت الحكومة العراقية بالتفاهم مع الحكومة البريطانية اقامة مخافر للشرطة مجهزة باللاسلكي والسيارات المصفحة بالقرب من الحدود النجدية للاشراف على تنقلات البدو ومنع الغزو • وفي تشرين الاول بدأ ببناء أول مخفر في موضع يدعى « البصية » يقع على بعد ١٢٥ كيلو متراً من حدود نجد • وحين بلغ ابن سعود ذلك تخوف منه ، وظن أن الملك فيصل انما يبني تلك المخافر بالتفاهم مع الانكليز ليجعلها حصوناً أمامية في الصحراء تمهيداً لغزو بلاده في المستقبل •

وفي مساء ٥ تشرين الثاني هاجمت جماعة من الاخوان مخفر « البصية » وكان لا يزال قيد الانشاء ، فقتلوا عدداً من العمال والشرطة الذين كانوا فيه ، ثم عادوا من حيث أتوا • وتقدر المصادر البريطانية عدد القتلى بعشرين كان من بينهم امرأة واحدة (٣٨) •

---

(٣٧) المصدر السابق ــ ص ٢٩٦ ــ ٢٩٧ •

(38) Report on Iraq Administration, 1927, London 1928, P. 57.

ضج الرأي العام العراقي لهذا الاعتداء ، واضطربت الحكومة العراقية • وأرسل المندوب السامي السر هنري دوبس احتجاجاً الى ابن سعود ، فأجاب ابن سعود يقول بأن غزو الإخوان سببه « القصر المشؤوم » ـ يقصد به مخفر البصية ـ فهو لم يشيد الا لايقاد الفتنة وايجاد الشرور ، وقد أدى تشييده الى اثارة الاخوان بحيث أصبح من الصعب السيطرة عليهم وكبح جماحهم • وأبدى ابن سعود أسفه لما وقع ووعد بمنع الغزو بكل الوسائل المتيسرة لديه ، ولكنه طالب بهدم المخفر وقال : ان أهل نجد يفضلون أن يغزوهم أهل العراق كل صباح ومساء ولا يرضون ببناء « قصر » واحد (٣٩) •••

صار الاخوان يشنون غاراتهم على العشائر العراقية ، ويعيثون فيها نهباً وتقتيلاً • وغضب السر هنري دوبس ، وهو المعروف بسرعة الغضب، فأبرق الى حكومته في لندن يطلب منها فرض الحصار على ابن سعود لكي يقوم بتأديب المعتدين ودفع التعويضات عن القتلى • ولكن الحكومة البريطانية لم توافق على هذا الاقتراح • فقدم اليها دوبس اقتراحاً آخراً هو أن تقوم الطائرات بالقاء المنشورات على البادية تنذر الاخوان بالابتعاد عن الحدود العراقية بمسافة اربعمائة ميل ، فاذا رفضوا الانصياع لهذا الطلب فان الطائرات تقصفهم بالقنابل • وقد وافقت الحكومة البريطانية على هذا الاقتراح •

وفي منتصف كانون الثاني ١٩٢٨ بدأت الطائرات الانكليزية تلقي المنشورات على البادية ، فلم يعرها الاخوان أي اهتمام ، أو لعلهم لم يفهموها • وفي شهر شباط بدأت الطائرات بقصف تجمعات الاخوان وقراهم • وقد أحدث هذا القصف جدالا في مجلس العموم البريطاني حيث وجهت الاسئلة الى وزير المستعمرات عن الاسباب التي دعت الى قصف الطائرات للاراضي السعودية ، فرد الوزير قائلا ان ابن سعود قد

---

(٣٩) صادق حسن السوداني (العلاقات العراقية السعودية) ـ بغداد ١٩٧٥ ـ ص ٢٧١ •

أعلن بأنه لم يعد يسيطر على رعاياه (٤٠) ...

يقول حافظ وهبه : انه كان حينداك في مصر فأبرق اليه ابن سعود في ٢٤ شباط ١٩٢٨ قائلا : « الحالة في نجد مضطربة لأن العهود نقضت من قبل العراق . الطائرات ضربت الحدود في الشرق والغرب ، الانسانية لم تحترم ، الحالة خطرة جداً ، والهمة مبذولة لتسكين الاحوال ، والنتيجة مجهولة (٤١) » .

نلاحظ هنا ان ابن سعود يقول : « الانسانية لم تحترم » ، فهو ينسى ما فعل الاخوان من تقتيل ونهب بينما هو يذكر ما فعلت الطائرات بهم من قصف . وهذا هو ديدن البشر دائماً حين يتخاصمون ، اذ هم ينسون الاعتداء الذي وقع منهم بينما هم يبالغون في ذكر الاعتداء الذي وقع عليهم .

مؤتمر الرياض :

ان قصف الطائرات وضع ابن سعود بين نارين : نار الانكليز ونار الاخوان . أولئك يطلبون منه ردع الاخوان ومنعهم من الغزو ، وهؤلاء يطلبون منه اعلان الجهاد على الكفار . وقد وجد ابن سعود أخيراً أن من الافضل له أن يتفاوض مع الانكليز بدلا من محاربتهم . وبعد مخابرات معهم تم الاتفاق على التفاوض معهم في جدة في أيار ١٩٢٨ .

ارتأى ابن سعود أن يجتمع برؤساء الاخوان قبل التفاوض مع بريطانيا لطمأنتهم وتهدئتهم . فاجتمع بهم في شهر نيسان في بلدة بريدة وأفهمهم أنه يشاركهم في السخط على بناء المخافر على الحدود ولكنه يفضل حل المشكلة عن طريق المفاوضات . وأخبرهم أنه مسافر الى جدة للالتقاء بالمفاوض البريطاني ، ووعدهم بالاجتماع بهم مرة أخرى في الرياض بعد عودته من جدة لاطلاعهم على نتيجة المفاوضات (٤٢) .

---

(٤٠) عبدالله فيلبي (تاريخ نجد) ـ ترجمة عمر الديراوي ـ بيروت ـ ص ٣٥٩ .

(٤١) حافظ وهبة (خمسون عاما في جزيرة العرب) ـ ص ٩١ .

(٤٢) حافظ وهبة (جزيرة العرب في القرن العشرين) ـ ص ٢٩٧ .

جرت المفاوضات في جدة مرتين ، أولاهما في أيار والثانية في آب • وكان يمثل الجانب البريطاني فيها السر جلبرت كلايتون • وقد شارك فيها في المرة الثانية توفيق السويدي وبهاء الدين نوري ومعهما أحمد حامد الصراف بصفته كاتباً • وكان مصير المفاوضات في المرتين فاشلا •

غادر ابن سعود جدة بعد هذا الى الرياض لكي يجتمع بالاخوان حسب وعده لهم • وحين وصلها دعى الاخوان الى مؤتمر يحضرونه مع المشايخ أي علماء الدين • وقد انعقد المؤتمر في ٢٥ تشرين الاول ١٩٢٨ ، وحضره نحو ثمانمائة شخص ، ولكن ثلاثة من رؤساء الاخوان لم يحضروه هم فيصل الدويش وسلطان بن بجاد وضيدان بن حثلين ، غير أنهم أرسلوا بعض أبناءهم وأقرباءهم ليحضروه بالنيابة عنهم •

افتتح ابن سعود المؤتمر قائلاً : « لا يخطرن ببال أحد منكم أن الخوف منكم هو الذي حملني على عقد هذا الاجتماع • اسمعوا ، لقد بنيت ملكي بعون الله وقوة ساعدي ، وهو جلت قدرته قد منحني النصر ، وان خوفي منه وحده هو الذي حملني على جمعكم هنا لاستنير بآرائكم ونقضي أمره بيننا بالشورى ، فلا يتملكني ما يتملك بني البشر من غرور وصلف » • ثم أخذ ابن سعود يتحدث عن فضله عليهم اذ هم كانوا متفرقين يقتل بعضهم بعضاً ، وينهب بعضهم من بعض ، فوحّدهم وجعل منهم أمة عظيمة قوية • ثم قال : ان الكثيرين منهم غير راضين عنه ، وأنه قد بلغه عنهم شكاوي كثيرة ، ولكنه ليس من الذين يتنازلون عن ملكهم تحت الضغط والاكراه وهو كذلك لا يرغب في حكم رعية غير راضية عنه • وهو لذلك يعرض عليهم ان يختاروا أي واحد من أفراد أسرته ليكون ملكاً عليهم ، وهو يتعهد أمام الله أن يحمل هذا الرجل الى العرش، ويخدمه بأمانة واخلاص• وعند هذا ارتفعت الاصوات من الحاضرين : « لا •• لا •• لا نريد ملكاً سواك يا عبدالعزيز ! »[٤٣] •

---

(٤٣) صلاح الدين المختار (تاريخ المملكة العربية السعودية) ـ بيروت ـ ج ٢ ص ٤٤٢ •

وبعد هذا عرض عليهم أن يتكلموا بصراحة عن كل ما يشكون منه ، وتعهد لهم بأنه سوف لا يلوم أو يعاقب أحداً على ما يقول • فبدأوا يعرضون شكاويهم ، وذكروا منها علاقته بالكفار وصداقته مع الانكليز واستعمال مخترعاتهم الشيطانية كالسيارات و « الأتيال » ــ أي التلفون والتلغراف ــ وتساهله تجاه المخافر التي بنيها الكفار على الحدود ومنع المسلمين من الجهاد لاعلاء كلمة الله ونصر دينه •

رد ابن سعود على شكاويهم بالتروي وعلى قدر عقولهم ، وذكر لهم أنه لا يحب الكفار أو النصارى أو الانكليز ولكنه وجد في صداقتهم مصلحة للمسلمين ، وكانت سياسته معهم أن يستحصل منهم كل ما هو ممكن من فائدة للمسلمين الحقيقيين ، فهو يستعمل معهم سياسة « خذ واعط » ولكن فيصل الدويش هو الذي أربك الوضع عليه[٤٤] •

ثم تطرق ابن سعود الى « الأتيال » فقال : ان الشريعة الاسلامية ليس فيها ما يمنع استعمالها ، وانها ليست من السحر أو عمل الشيطان • والتفت الى المشايخ الحاضرين سائلاً لهم : هل تجدون في أقوال النبي ما يعارض الانتفاع بهذه المخترعات الحديثة ؟ فأجاب المشايخ : كلا[٤٥] •

وحين جرى النقاش حول المخافر قال ابن سعود انها انما بُنيت لمنع التعديات التي قام بها فيصل الدويش على العراق فان فيصل هو السبب وعليه تقع التبعة • فأعلن الحاضرون براءتهم من فيصل الدويش ، وذكروا أنهم قطعوا علاقتهم به ، ولكنهم ظلوا مصرين على وجوب هدم المخافر • وقد أيدهم المشايخ في ذلك وأفتوا أن المخافر مضرة بالمسلمين والعرب وخاصة بسكان نجد ، وأن هدمها هو من باب دفاع المسلم عن ماله ودينه • فقال ابن سعود : ان ما أفتى به المشايخ هو حق ، وأنه هو نفسه يعتقد بأن المخافر خطر على المسلمين ، ولكنه يرغب في أن تكون المناقشة حول

---

(٤٤) دائرة الوثائق العامة في لندن ــ رقم (أف٠أو٠ ٣٧١ــ١٣٧١٣) •
(٤٥) عمر ابو النصر (ابن سعود) ــ بيروت ١٩٣٥ ــ ص ١٠٥ •

هذا الموضوع وحول موضوع الجهاد في اجتماع خاص ، وطلب منهم ان يختاروا خمسين رجلاً منهم لكي يوضح لهم الأمور كلها فوافق الحاضرون على ذلك ، وجددوا البيعة لـه(٤٦) .

وعلى أثر انفضاض المؤتمر عُقد اجتماع خاص مساءاً بعد صلاة العشاء ، حضره الخمسون الذين اختيروا للمداولة مع ابن سعود . واستمرت المداولة من الساعة الثانية بعد الغروب حتى السادسة. ولا نعرف ما جرى فيها ، والمظنون ان ابن سعود استطاع أن يقنعهم بأن جهاد الكفار لا يجوز ان يكون مطلقاً بل يجب ان يكون ضمن حدود الطاقة والمقدرة لدى المسلمين والاّ حلت بهم الكارثة . فخرجوا من عنده راضين .

ثورة الاخوان :

ان النتيجة التي انتهى اليها مؤتمر الرياض لم يرض عنها رؤساء الاخوان الثلاثة فيصل الدويش وسلطان بن بجاد وضيدان بن حثيلين ، فصاروا ينشرون الاشاعات السيئة في قرى الاخوان ضد ابن سعود متهمين اياه بهدم الدين وموالاة الكفار وطلب الملك ، وأخذوا يقطعون الطرق على القوافل ويفرضون الاتاوة على القرى ويهاجمون عشائر العراق ونجد .

كان عدد الاخوان الثائرين نحو خمسة آلاف رجل ، فأعد ابن سعود جيشاً كبيراً لقتالهم بلغ عدد رجاله خمسة عشر ألف . وتقابل الفريقان في موضع يدعى « السبلة » يقع قريباً من الزلفي الى الشرق من بريدة . وقبل أن يبدأ القتال بينهما أرسل الاخوان الى ابن سعود رسولاً اسمه ماجد بن خثيلة ومعه كتاب . وحين دخل الرسول على ابن سعود لم يسلم عليه ، فغضب ابن سعود من هذه الاهانة ، وقال للرسول مؤنباً : « من أنت ؟ ألست ماجد بن خثيلة ... » ، ثم أخذ يسرد عليه تاريخه مع التقريع ،ثم قال لـه : « أتدخل عليّ ولا تسلم ؟ ! اذهب من فورك الى

(٤٦) دائرة الوثائق العامة في لندن ـ رقم (أف٠أو٠ ٣٧١ـ١٣٧١٣) .

من أرسلك وأخبره أننا قادمون للهجوم عليهم غداً ، فاذا أرادوا أن يحقنوا دماءهم فليستسلموا بلا قيد ولا شرط ، والشريعة هي الحكم بيني وبينهم ، وهؤلاء العلماء حاضرون • قم واذهب الى رفيقك » •

عاد الرسول الى الاخوان ينصحهم بتقديم خضوعهم الى ابن سعود قبل فوات الاوان • فارتأى فيصل الدويش أن يذهب بنفسه الى ابن سعود ليرى مبلغ قوته • وحين دخل فيصل على ابن سعود أخذ يتملقه وأظهر استعداده للتسليم وانه سيقضي الليلة عنده ، ولكن ابن سعود قال له : « قم فنم عند قومك وموعدكم غداً بعد شروق الشمس ••• » • وعاد فيصل الى أصحابه ، فلما سأله بعضهم عما رأى من قوة ابن سعود أجابهم قائلاً : « ماذا رأيت ! رأيت حضرياً ترتعد فرائصه من الخوف ، وليس حوله الا طبابيخ لا يعرفون الا النوم على الدواشج • ابشروا يا اخوان ، لقد وجدت لديهم حلالاً كبيراً وأموالاً عظيمة • فابشروا بالكسب والغنيمة • وسنقهر هذا الطاغوت غداً ونستولي على ماله »(٤٧) •

وقعت المعركة بين الفريقين في صباح اليوم التالي — ٣٠ آذار ١٩٢٩ — واستمرت بضع ساعات ، وانتهت بهزيمة الاخوان • ويبدو أن من عوامل هزيمتهم هو وجود علماء الدين الى جانب ابن سعود ، فهذا لابد أن يؤدي الى الوهن في عزيمة الاخوان ويقلل من فدائيتهم وحماسهم الديني •

كان فيصل الدويش قد أصيب بجروح شديدة في المعركة ، فجيء بـه الى ابن سعود محمولاً على نقالة من سعف النخيل وكانت تحيط بـه زوجته وبناته وهن يبكين ويستشفعن فيه • فتأثر ابن سعود من هذا المنظر وعفا عنه ، وأوعز بنقله الى بيته في الأرطاوية ، كما بعث طبيبه الخاص مدحت شيخ الأرض لمعالجته •

وبعد ثلاثة أيام استسلم سلطان بن بجاد الى ابن سعود ، فأمر ابن

---

(٤٧) حافظ وهبة (المصدر السابق) — ص ٢٩٩ — ٣٠٠ •

سعود بتقديمه الى محكمة مؤلفة من قضاة الشرع ، فحكمت عليه بالسجن المؤبد في قلعة الرياض • أما ضيدان بن حثيلين فقد تمكن من الفرار الى الكـويت •

القضاء على الاخوان :

سافر ابن سعود الى الحجاز لحضور موسم الحج الذي حل في شهر أيار ولكن اقامته في الحجاز لم تطل كثيراً ، فقد بلغه ان فيصل الدويش شفي من جراحه وأعلن الثورة من جديد • فعاد ابن سعود مسرعاً الـى الرياض في شهر تموز وهناك أعـد قواتـه وكان فيهـا سيارات مجهـزة بالرشاشات • وتوجه بها نحو فيصل الدويش •

ومن الجدير بالذكر في هذا الصدد ان فيصل الدويش كتب في ١٥ كانون الاول ١٩٢٩ الى الملك فيصل في بغـداد يخاطبه بلقـب « سلطان المسلمين » ويدعوه للتعاون معه في محاربة ابن سعود • وكذلك كتب الى الكابتن كلوب مفتش البادية الجنوبية في العراق مبدياً رغبته في أن يكون من رعايا الحكومة العراقية وتحت تصرفها[٤٨] •

في أوائل كانون الثاني ١٩٣٠ وقعت المعركة الفاصلة بين ابن سعود وفيصل الدويش في موقع قريب من الحدود الكويتية العراقية • وحلت الهزيمـة بفيصل ففـر مع بعض أصحابـه الى داخل حـدود العـراق ، واستسلموا للانكليز • فنقلهم الانكليز الى الشعيبة • وبعد مفاوضات جرت بين ابن سعود والانكليز قرر الانكليز تسليم فيصل الدويش وأصحابه الى ابن سعود على شرط أن يبقي على حياتهم وأن يتعهد بتسليم المنهوبات التي نهبوها من أهل الكويت والعراق[٤٩] •

وفي ٢٨ كانون الثاني نُقل فيصل الدويش وأصحابه بطائرة الى ابن سعود الذي كان مخيماً في موضع يدعى « خباري وضحة » على بعد مائة

(٤٨) صادق حسن السوداني (المصدر السابق) ـ ص ٣٠٨ ـ ٣٠٩ •
(٤٩) حافظ وهبة (المصدر السابق) ـ ص ٣٠٣ •

ميل من جنوب الكويت • وجيء بفيصل في سيارة الى خيمة ابن سعود ، وكانت اللعنات تنصب عليه من الجانبين أثناء نقله • فشكر ابن سعود الضباط البريطانيين الذين جاؤا معه ، كما شكر الحكومة البريطانية على صداقتها ومودتها ، وقال : « انها في كل يوم تقيم له برهانا جديداً على مودتها الوطيدة » •

وبعد أن انصرف الضباط تقدم فيصل الدويش نحو ابن سعود وهو ذليل ، فخاطبه ابن سعود قائلاً : « أنت تعلم يا فيصل ما عملت معك في الماضي ، ما قصرت في شيء نحوكم ، لقد كنت في حرب دائمة مع أهل نجد من أجلكم ، فهل هذا جزائي منكم ؟ هل كنتم تريدون الملك ؟ لقد كنتم ملوكاً في الجهات التي كنتم فيها • من منكم له الفضل علي ؟ الفضل لله وحده • من منكم لم آخذه بسيفي ؟ ليس منكم الا من قتلت أباه أو أخاه ، ولم أخضعكم الا بالله ثم بالسيف • قد كنت أنفذ رغائبكم ، فكنت أشقى لأجلكم ، وأواصل الليل والنهار لراحتكم وسعادتكم • ألا تخاف الله حينما تكتب لجلوب ـ يقصد الكابتن كلوب ـ أنك تريد الهجرة للعراق وأنك تحب أن تكون تابعاً له ؟ فهل تظن أنك كنت ستكون في منزلة أعلى من منزلتك التي كنت عندي فيها ؟ » •

أجابه فيصل : « يعلم الله يا عبدالعزيز أنك لم تقصر معنا وقد فعلت كل ما يبيض وجهك ، وقد قابلنا معروفك بالاساءة ، لقد فررنا من وجهك الى الكفار ، فحملونا اليك في طيارة من طياراتهم • ويكفي ما أشعر به من الهوان والصغار أمام الاخوان بعد ما كنت عزيزاً محترماً • قاتل الله الشيطان ، لقد أغرانا وزين لنا سوء أعمالنا فأوصلنا الى ما أصبحنا فيه الآن »(٥٠) •

نُقل فيصل الى الرياض في سيارة ، وقدم الى محكمة شرعية كصاحبه سلطان بن بجاد ، فحكمت عليه المحكمة بالسجن المؤبد في قلعة

(٥٠) المصدر السابق ـ ص ٣٠٣ ـ ٣٠٤ •

الرياض • وبعد بضعه أشهر مات فيصل في سجنه ، كما مات صاحبه ابن بجـاد •

كان ذلك ايذاناً بانتهاء حركة الاخوان ، تلك الحركة التي أثارت دهشة الناس بأمرين : بفدائيتها في الحرب وتعصبها الشديد في السلم • يقول فيلبي « لقد كان خلق ابن سعود لحركة الاخوان في سـنة ١٩١٢ ضربة معلم عبقري لا يوازيها غير تصفيته لهذه الحركة بعد ثمانية عشر عاماً حينما ثبت لديه أنها لم تعد الا عقبة كأداء في سبيل استقرار الاوضاع التي بناها بطول صبره وجهده • فلقد كان يمكن لهذه الحركة التي أوجدها ابن سعود من العدم أن تدمره وتنهكـه لو لـم يبـادر هو الى تدميرهـا بنفسـه »[٥١] •

دل التاريخ على أن معظم بناة الدول يقتلون من ساعدهم على بنائها ، وسبب ذلك أن أولئك المساعدين يريدون أن يشاركوا الباني في ثمـرة بنائه ، بينما هو لا يريد أن يتنازل لهم عن تلك الثمرة ، فينشب النزاع بينهم ، وقد ينتهي النزاع الى القضاء على اولئك المساعدين • وقد صدق من قال : « السياسة لا قلب لها » •

مشكلة المشايخ :

بعد الانتهاء من القضاء على حركة الاخوان قال ابن سعود معبراً عن ابتهاجه : « من اليوم سنحيا حيـاة جديدة » • انـه في الواقع بـدأ حيـاة جديدة ، حيث صار يفتح المدارس الحديثة في بلاده ، وأنشأ جيشاً نظامياً من الحضر تحت اشراف بعض الضباط العرب من بقايا الجيش العثماني ، كما استورد السيارات وأجهزة اللاسلكي لربط أنحاء مملكته الواسعة • وقد عاونه في ذلك فيلبي معاونة كبيرة •

ان هذه الحركة التجديدية التي قام بها ابن سعود جوبهت بمعارضة

---

(٥١) عبدالله فيلبي (المصدر السابق) ــ ص ٣٦٧ ــ ٣٦٨ •

من المشايخ أي علماء الدين النجديين • فهو قد تخلص من معارضةالاخوان ليبتلي من جديد بمعارضة المشايخ • ولكن معارضة المشايخ تختلف عن معارضة الاخوان بكونها هادئـة تخلو من العنـف أو التدخل في شؤون النـاس •

أول بادرة من معارضة المشايخ ظهرت في حزيران ١٩٢٨ ، وذلك عندما فتح ابن سعود بعض المدارس الابتدائية في الحجاز • فقد قامت ضجة بين المشايخ من جراء ذلك ، وعقدوا اجتماعاً لهم في مكة وضعوا فيه قراراً يحتجون فيه على فتح تلك المدارس لما يجري فيها من تعليم الرسم أولاً ، وتعليم اللغات الاجنبية ثانياً ، وتعليم الجغرافيا ثالثاً •

أرسل ابن سعود اليهم حافظ وهبـة لكي يباحثهم في الموضوع • وحين اجتمع بهم حافظ أخذوا يذكرون له الاسباب التي دعتهم الى تحريم الرسم واللغات الاجنبية والجغرافيا ، حيث قالوا : « ••• لقد بيّنا للامام عبدالعزيز الأدلة والمفاسد التي تترتب على هذه العلوم • أما الرسم فهو التصوير وهو محرم قطعاً • وأما اللغات فانها ذريعة للوقوف على عقائـد الكفار وعلومهم الفاسدة ، وفي ذلك ما فيه الخطر على عقائدنا وعلى اخلاق أبنائنـا • وأما الجغرافية ففيها كروية الارض ودورانها والكلام على النجوم والكواكب مما أخذ به علماء اليونان وأنكره علماء السلف » •

أخذ حافظ وهبة يجادلهم في هذا الموضوع ويذكر لهم الأدلة التي تجيز تعليم الرسم واللغات والجغرافيا • ولمـا رأى المشايخ أن الجدال قد طال قالوا : « لقد قررنا ما نعتقد ورفعناه الى الامام ، ولسنا في حاجة الى الجدل المنهي عنه شرعاً • فان قبل الامام ما رأينا فالحمد لله ، وان خالفنا فليست هذه أول مرة يخالفنا فيها »[٥٢] •

وبعد أن انتهت مشكلة المدارس بدأت مشكلة اللاسلكي • فقد اعترض

---

(٥٢) حافظ وهبة (المصدر السابق) ـ ١٢٦ ـ ١٢٧ •

المشايخ على هذا الاختراع اعتقاداً منهم أنه لابد أن يكون من السحر وعمل الشيطان ، ودليلهم في ذلك ان اللاسلكي ينقل الخبر بين مكة والرياض في لحظة واحدة مع العلم أن الابل تقطع المسافة بينهما في عشرين يوماً . وهذا عمل لا يمكن أن يقوم به البشر الاّ بمعونة الشيطان ، وهم لابد أن يقدموا للشيطان قرباناً لقاء خدمته لهم .

عندما أُنشأت أول محطة للاسلكي في الرياض ، أخذ بعض المشايخ يذهبون الى المحطة ويسألون العامل فيها عن موعد زيارة الشياطين ، وهل الشيطان الكبير في مكة أو الرياض ، وكم عدد أولاده الذين يساعدونه في مهمة نقل الاخبار ؟ وكان بعض المشايخ يغرون العامل بالنقود ويتعهدون له بكتمان السر اذا أفشاه لهم .

ويحدثنا حافظ وهبة عن محاورة جرت بينه وبين أحد المشايخ حول اللاسلكي في المدينة ، فقال الشيخ : « لا شك ان هذه الاشياء ناشئة عن استخدام الجن ، وقد أخبرني ثقة ان التلغراف اللاسلكي لا يتحرك الاّ بعد أن تذبح عنده ذبيحة ويذكر عليها اسم الشيطان ». ثم أخذ الشيخ يذكر بعض القصص عن استخدام بني آدم للشيطان . وقد حاول حافظ وهبة اقناعه بان اللاسلكي اختراع فيزيائي لا صلة له بالجن والشيطان ، ولكنه لم ينجح في اقناع الشيخ ، بل سكت الشيخ على مضض ...(٥٣) .

ظل المشايخ يستنكرون المخترعات الحديثة التي ترد الى البلاد ، فاستنكروا الحاكي والسينما والانوار الكشافة والطائرات . فهم يعتقدون في الطائرات مثلا ان ركابها يتحدون ربهم بها (٥٤) . وحين بدأ الامريكيون ينقبون عن النفط في منطقة الظهران قال المشايخ لابن سعود . « لا يجوز دخول الكفار الى داخل البلاد لانهم يفسدون الرجال والنساء ويدخلون

---

(٥٣) المصدر السابق ــ ص ٢٨٦ ــ ٢٨٧ .

(٥٤) عبدالله فيلبي (المصدر السابق) ــ ص ٣٥٦ .

الخمر والفونوغراف وما شاكل ذلك من الامور الشيطانية الى داخل البلاد[٥٥] » •

كان ابن سعود يداريهم أحيانا ويتغافل عنهم أحيانا أخرى • اعترضوا عليه في ١٩٣٠ لانه أذن باقامة الاحتفالات بمناسبة عيد جلوسه على عرش الحجاز اذ اعتبروها مخالفة للسنة ، فنزل ابن سعود عند رأيهم وألغى الاحتفالات[٥٦] • وحدث مثل هذا في عام ١٩٥٠ عندما قررت الحكومة السعودية الاحتفال بمناسبة مرور خمسين سنة على فتح الرياض ، فقد صدر بيان من وزارة الخارجية السعودية هذا نصه : « كانت الحكومة قد قررت الاحتفال بالذكرى الذهبية لدخول جلالة الملك الى الرياض منذ ٥٠ سنة ، وقد استفتي علماء الدين مؤخرا في ذلك ، فافتوا بأنه ليس من سنن المسلمين ولا يجوز أن يتخذ المسلمون عيداً الا في عيدي الفطر والاضحى • ونزولا من جلالته على حكم الشريعة أمر بالغاء المراسيم والترتيبات[٥٧] » •

ويروى أن أحد المشايخ دخل على ابن سعود في قصره في الرياض ، وهو يتمشى وعليه ثوب طويل يمس الارض ، فقال له : « الله الله ياعبد العزيز ! لقد دخلك الكبر ، وصرت تجر ذيلك وراءك ! » • فالتفت ابن سعود نحو الخدم وقال : « هاتوا المقص ! » • فلما جاؤوا به أعطاه الى الشيخ وقال له : « قص ما تراه مخالفا للدين[٥٨] » • ويروي أرمسترونج قصة مشابهة مفادها ان أحد المشايخ جابه ابن سعود ذات يوم على مشهد من الناس قائلا له : ان شواربك طويلة أكثر مما تجيزها السنة • فتقبل ابن

---

(٥٥) أمين المميز (المملكة العربية السعودية كما عرفتها) ــ بيروت ١٩٦٣ ــ ص ٢٢٩ •

(٥٦) حافظ وهبة (المصدر السابق) ــ ص ٢٨٤ •

(٥٧) خيرالدين الزركلي (المصدر السابق) ــ ج ٢ ص ٧٤٢ ــ ٧٤٤ •

(٥٨) المصدر السابق ــ ج ٢ ص ٧٤٤ •

سعود ذلك برحابة صدر ، وطلب مقصا ثم قص شواربه في الحال(٥٩) .

يبدو أن ابن سعود كان يصبر على انتقادات المشايخ له حين تكون تلك الانتقادات شخصية بسيطة حيث يجد من اللباقة السياسية أن يستجيب لها لتحسين سمعته بين الناس . انما هو لا يصبر عليها حين يراها تضر بمصلحة الدولة ومستقبلها . يروي حافظ وهبة : أن بعض كبار المشايخ اجتمعوا ذات يوم في عام ١٩٣١ بابن سعود وأخذوا يلومونه على ادخاله اللاسلكي في بلاده حيث قالوا له : « يا طويل العمر ، لقد غشك من أشار عليك باستعمال التلغراف وادخاله الى بلادنا ، وان فيلبي سيجر علينا المصائب ونخشى أن يسلم بلادنا للانجليز » . فرد عليهم ابن سعود قائلا : « لقد أخطأتم ، فلم يغشنا أحد ، ولست ـ ولله الحمد ـ بضعيف العقل ، أو قصير النظر ، لاخدع بخداع المخادعين ، وما فيلبي الا تاجر وكان وسيطا في هذه الصفقة ، وان بلادنا عزيزة علينا لا نسلمها لاحد الا بالثمن الذي استلمناها به . اخواني المشايخ ، انتم الآن فوق رأسي ، تماسكوا بعضكم ببعض لا تدعوني أهز رأسي فيقع بعضكم أو اكثركم ، وأنتم تعلمون أن من وقع على الارض لا يمكن أن يوضع فوق رأسي مرة ثانية . مسألتان لا أسمع فيها كلام أحد لظهور فائدتها لي ولبلادي ، وليس هناك من دليل من كتاب الله أو سنة رسول الله صلى الله وسلم يمنع من احداث اللاسلكي والسيارات(٦٠) » .

ومن الطرائف التي تروى في هذا الصدد ان جماعة من البريطانيين زاروا ابن سعود في قصره في الرياض ، وبينما هم في القصر حل وقت الصلاة ، فقام ابن سعود وحاشيته يصلون خلف امام لهم . فقرأ الامام في الركعة الاولى هذه الآية : « ولا تركنوا الى الذين كفروا فتمسكم النار » . ثم أعاد قراءة الآية في الركعة الثانية ، ولما انتهت الصلاة زحف ابن سعود

(59) Armstrong (op. cit.) - P. 203.

(٦٠) حافظ وهبة (المصدر السابق) ـ ص ٢٨٧ .

من مكانه نحو الامام وأشبعه وخزا وركلا وهو يؤنبه قائلا : « مالك بالسياسة يا خبيث ، وما الذي تقصده من ترديد هذه الآية في كل ركعة ؟ أفلا توجد آيات غيرها ؟ »(٦١) •

اجتماع لوبن :

على أثر القضاء على حركة الاخوان أخذ المندوب السامي الجديد في بغداد السر فرنسيس همفريز يبذل جهده للجمع بين فيصل بن الحسين وابن سعود واحلال الصفاء بينهما بدلا من الخصام • وبعد مخابرات كثيرة تم الاتفاق على أن يجتمع الملكان على ظهر بارجة بريطانية في مياه الخليج العربـي •

غادر الملك فيصل بغداد بقطار خاص في ٢٠ شباط ١٩٣٠ تصحبه حاشية مؤلفة من ناجي السويدي وكورنواليس ورستم حيدر وعبدالله المضايفي وخليل اسماعيل والكابتن كلوب والدكتور سندرسن مع مرافقين وكاتب ومصور • وكان في صحبته أيضا أربعة صحفيين هم : رفائيل بطي عن جريدة «البلاد» ، والمستر كرمي عن جريدة « الاوقات العراقيـة » ، وسليم حسون عن جريدة « العالم العربي » ، وعبدالرزاق الحسني عن جريدة « الاهرام » المصرية •

كانت البارجة البريطانية « لوبن » راسية في مياه الخليج على بعد خمسة عشر ميلا من الفاو ، وفيها السر فرنسيس همفريز مع حاشيته • وبعد قليل اقتربت منها باخرتان احداهما تحمل فيصل ، والاخرى تحمل ابن سعود • وكانت حاشية ابن سعود مؤلفة من حافظ وهبة ويوسف ياسين وعبدالعزيز القصيبي والدكتور مدحت شيخ الارض والكاتبين محمد المانع وابراهيم المعمر • ولوحظ وجود مائة وخمسين رجلا مسلحا مع ابن سعود لحمايته(٦٢) •

---

(٦١) أمين المميز (المصدر السابق) ـ ص ٦٠٩ •

(٦٢) صادق حسن السوداني (المصدر السابق) ـ ص ٣٣٥ ـ ٣٣٦ •

كان ابن سعود قد اشترط لاجتماعه بفيصل شرطين ، أولهما : ان يكون الحديث بينهما قاصرا على تصفية الجو ، وابداء المودة والصداقة ، دون التطرق الى مسائل الخلاف بين الحكومتين • والثاني : أن يكـــون الاجتماع خاليا من الموسيقى ومن التدخين • وكانت الحكومة السعوديـة قد أبلغت هذين الشرطين الى المندوب السامي في بغـداد السر فرنسيس همفريز ، والى رئيس الوزارة العراقية ناجي السويدي • ولكن ابن سعود حين اجتمع بفيصل على البارجة « لوبن » وجده يتطرق في حديثه الـى مسائل الخلاف بين الحكومتين • فصبر ابن سعود حتى انتهى فيصل مـــن حديثه ، وعند هذا أشار ابن سعود الى ما كان له من شرط مسبق في عدم التطرق الى مثل تلك المسائل • نتكلم المندوب السامي قائلا بأنه يأسف لانه لم يخبر الملك فيصل بهذا الشرط • وكذلك تكلم ناجي السويدي فقال انه رأى المصلحة تقضي باجتماع الملكين وان لا مانع من التطرق الى مسائل الخلاف بين الحكومتين • فالتفت الملك فيصل نحو ناجي السويدي وأخذ يؤنبه على ما فعل • واستدرك ابن سعود الامر حيث قال : ان الامر متروك لجلالة الملك فيصل ان شاء بحث مسائل الخلاف وان شاء تركهـا • فكان جواب فيصل انه يرى احالة تلك المسائل الى مندوبي الحكومتين للتداول فيها • وعند هذا انسحب المندوبون الى جانب من الباخرة وصاروا يتداولون في الموضوع(٦٣) •••

عاد الملكان بعد هذا الى الحديث الخاص بينهما ، وكان حديثاً مليئاً بالمجاملة ، فكان يخاطب أحدهما الآخر بـ «أخي» أو «خوي»(٦٤) • وقد اوضح ابن سعود كيف بدأت العداوة بينه وبين الحسين ، وذكر أن السبب فيها لم يكن منه • وهنا لم يتردد فيصل في توجيه بعض اللوم الـى أبيه ، كما أشار الى أن المحرض الاول له كان خالد بن لؤي(٦٥) •••

(٦٣) خيرالدين الزركلي (المصدر السابق) ـ ج ٢ ص ٥١٠ ـ ٥١٢ •
(٦٤) صادق حسن السوداني (المصدر السابق) ـ ص ٣٣٦ •
(٦٥) خيرالدين الزركلي (المصدر السابق) ـ ج ٢ ص ٥١٣ •

والواقع أن هذا الاجتماع بين الملكين كان فاتحة عهد جديد في العلاقات بين الدولتين ، فلم يقع بعده ما يعكر صفو العلاقات بينهما • ويجب أن لا ننسى في هذا الصدد ان كلا الرجلين كانا من أولي السياسة الواقعية ، وقد رأيا أن من المصلحة أن يتناسيا الاحقاد ، فمن شأن الحقد انه لا يؤذي الا صاحبه •

حرب اليمن :

كان هناك خلاف بين ابن سعود وامام اليمن يحيى حميد الدين حول منطقة نجران التي تقع بين اليمن ونجد ، كل منهما يدعي أنه أحق بها من الآخر • وقد جرت مفاوضات بين الفريقين مدة طويلة دون جدوى • وفي شهر آذار ١٩٣٤ نفد صبر ابن سعود ، فأنذر الامام يحيى • وفي ٢١ منه أعلن ابن سعود الحرب على اليمن ، وزحفت قواته عبر الحدود اليمانية •

كانت القوات السعودية تعتمد على السيارات في تنقلها ، وكانت مؤلفة من رتلين : أحدهما زحف بمحاذاة الساحل تحمله نحو ثمانمائة سيارة بقيادة الامير فيصل بن عبدالعزيز ، والثاني زحف باتجاه العاصمة صنعاء عن طريق صعدة بقيادة الامير سعود بن عبدالعزيز • ولم يلق الرتل الاول أية مقاومة في زحفه ، فقد كانت خطة الامام يحيى أن تنسحب قواته من الساحل وتتحصن في الجبال • وفي ٦ أيار تمكن الرتل من احتلال ميناء الحديدة من غير مقاومة • أما الرتل الثاني فكان زحفه بطيئاً جداً ولم يستطع ان يحقق أهدافه لوعورة الطريق وكثرة الجبال والوديان فيه •

أثارت هذه الحرب اهتماما كبيرا في البلاد العربية واوربا ، وألف المجلس الاسلامي الاعلى في فلسطين وفداً للتوسط في الصلح بين الفريقين من الحاج أمين الحسيني رئيسا ، والامير شكيب أرسلان ومحمد علي علوبة باشا وهاشم بك الاتاسي أعضاء ، وعلي افندي رشدي سكرتيرا • وكان المتوقع أن ينضم الى الوفد ياسين الهاشمي ونوري

السعيد ، ولكن موانع حالت دون ذلك • وفي ١٣ نيسان غادر الوفد السويس متوجهاً الى مكة ، وحين وصلها قابل ابن سعود ، ثم سافروا جميعاً الى الطائف •

وصلت الى ابن سعود البرقية التالية من الامام يحيى : « يكفي ما قد كان ، ونعوذ بالله من شرور المتربصين بالاسلام الدوائر لتحقيق مطامعهم •

بلاد يام تحت حكمكم وقد أمرنا برفع جندنا من بلاد نجران • وتفضلوا بطلب السيد عبدالله بن الوزير الى حضرتكم لاستكمال المعاهدة الاخوية ، عافاكم الله • وقد كان سحب هذه البرقية بواسطة أسمرة لاختلاط طائر الهواء لدينا ـ يقصد جهاز اللاسلكي ـ ويجري العمل على اصلاحه • فتفضلوا بالجواب عن طريق أسمرة »[٦٦] •

رد ابن سعود على برقية الامام يحيى مبدياً استعداده للصلح على شروط معينة • فأبرق الامام قبوله للشروط • وفي ١ أيار وصل الى الطائف عبدالله بن الوزير مندوب الامام يحيى • وقد بذل أعضاء وفد المجلس الاسلامي جهوداً لايستهان بها في التوفيق بين الفريقين • وفي ٢١ أيار تم التوقيع على معاهدة الصلح ، وانتهت الحرب •

أثار هذا الصلح السريع انتباه الرأي العام العالمي واستغرابه ، لان ابن سعود وافق بهذا الصلح على انسحاب قواته من الاراضي اليمانية لقاء شروط اعتبرت بسيطة جداً هي : (١) جلاء القوات اليمانية عن نجران ، (٢) تسليم الادارسة اللاجئين في اليمن الى ابن سعود ، (٣) اطلاق سراح الرهائن المعتقلين عند الامام يحيى •

المظنون أن هناك سببين رئيسيين دفعا ابن سعود الى الصلح هما :

أولاً : كان ابن سعود يخشى من تدخل الدول الأجنبية في اليمن ، والظاهر أنه كان يخشى بوجه خاص من ايطاليا ، اذ المعروف عن هذه

(٦٦) أمين سعيد (تاريخ الدولة السعودية) ـ بيروت ـ ج ٢ ص ٣٧٦ ـ ٣٧٧ •

الدولة انها كانت ترنو بعين الطمع الى اليمن • ولما احتلت القوات السعودية ميناء الحديدة في ٦ أيار وصلت ثلاث سفن حربية ايطالية الى الميناء بحجة المحافظة على الرعايا الايطاليين ، وحاول القائد الايطالي انزال بعض جنوده الى البر ولكن القوات السعودية منعته من ذلك • ويقال ان وزارة الخارجية الايطالية أعلنت في ذلك الحين ان ايطاليا لن توافق على انتقال اليمن الى حكومة غير يمانية(٦٧) •

ثانياً : كانت القوات السعودية ليس لها تمرس في حرب الجبال ، بينما كانت القوات اليمانية على النقيض منها قد اعتادت على حروب الجبال زماناً طويلاً • وقد أذاعت بعض وكالات الانباء من القاهرة ان رتل الامير سعود تكبد في بعض معاركه الجبليه خسائر فادحة(٦٨) • ومن الممكن القول ان ابن سعود كان يخشى أن تحل بقواته في الجبال هزيمة ساحقة لا يعلم مغبتها الا الله •

يروى أن ابن سعود صرح لاحد الاشخاص الذين يثق بهم عن السبب الذي حدا به الى الصلح قائلاً : « كثيرون في بلدي وفي غيرها من بلاد العرب والمسلمين هم الذين أشاروا علي بحماس وايمان بمتابعة العمل العسكري في اليمن وضمه الى المملكة لاقامة الدولة العربية الموحدة في شبه الجزيرة العربية ، ولكني لم أصغ لكل هذه المشورات والنصائح ، لانني عندما كنت أجيل النظر في شواطيء شبه الجزيرة في الجنوب العربي كنت أرى ان بريطانيا قد احتلت كل هذه المناطق عسكريا وفرضت حمايتها عليها ، في حين أنها لم تجرب احتلال اليمن عسكريا لتفرض حمايتها عليه • ومن الواضح ان الحكومة البريطانية لم تعف عن اليمن زهداً فيه ، وانما فعلت ذلك لانها تعرف اليمنيين معرفتها لليمن وطبيعته • ولذلك فقد كان من خطل الرأي أن أقدم على انجاز خطوة ابتعدت عنها بريطانيا وهي

---

(٦٧) أمين سعيد (المصدر السابق) ـ ص ٢٧٨ ـ ٣٧٩ •

(٦٨) جريدة (العراق) ـ في عددها الصادر في ١٠ أيار ١٩٣٤ •

في أوج قوتها العسكرية والسياسية والمالية ، وأن أعرض نفسي وبلدي الناشيء لمغامرة تهيبتها بريطانيا وهي امبراطورية عظمى ، بالاضافة الى الخلاف الاساسي بين أهدافي العربية الاسلامية والاهداف البريطانية »[٦٩] .

ان هذا القول يفصح عن طبيعة ابن سعود في تجنب المغامرات ، فهو لا يقدم على خطوة الا بعد تمحيص وتروي ، وكأنه كان يخشى أن يحل به ما حل بأسلافه حين غامروا وتوسعوا في الفتح من غير توقف ، وكان مصيرهم الاسر والقتل وضياع المملكة .

صدى الحرب في العراق :

كان الشيعة في العراق اكثر الناس تحمساً بحرب اليمن واهتماماً بها . فهم قد تحمسوا في تأييد الامام يحيى تحمساً عظيماً ، وكانوا يأملون منه أن يفتح الحجاز ويعيد تعمير قبور البقيع . وصادف أن حل شهر محرم في نفس الوقت الذي كانت فيه الحرب ناشبة في اليمن ، فصارت نوحيات المواكب الحسينية وأهازيجها تدور حول تأييد الامام يحيى والدعاء له بالنصر المبين .

ومما يلفت النظر ان الجرائد العراقية أخذت تنشر الاخبار المثيرة حول انتصارات القوات السعودية ، وأصدرت بعض الجرائد عقب احتلال الحديدة في ٦ أيار ملاحق خاصة ذكرت فيها أن ثورة قامت في اليمن على الامام يحيى ، وهجمت الجماهير على قصره في صنعاء ، واضطر هو الى التنازل عن العرش لابنه . وذكرت الجرائد أيضا أن القوات السعودية احتلت صنعاء ونودي بالامير فيصل بن عبدالعزيز ملكا على اليمن الخ ...

ولم يهن على الشيعة قبول هذه الاخبار ، فصاروا من جانبهم يختلقون الاخبار المضادة . وانتشرت الاشاعات بينهم عن ضخامة الجيوش اليمانية وكيف أنها سوف تصل الى مكة قريبا وتسحق الجيوش السعودية وتفنيها

---

(٦٩) أحمد عسه (معجزة فوق الرمال) ــ بيروت ١٩٦٦ ــ ص ١٢٣ .

عن بكرة أبيها • وأبرق بعضهم الى الامام يحيى يعربون عن تأييدهم له ، فأجابهم شاكرا بواسطة « طائر الهواء » •

مشكلة أخبار حرب اليمن أنها كانت من مصدر واحد تقريباً ، هو المصدر السعودي • فقد كان لابن سعود وكلاء وأعوان منتشرون في البلاد العربية وبعض البلاد الاخرى ، وكانوا ينشرون الاخبار المبالغ فيها حول انتصارات الجيوش السعودية • أضف الى ذلك ان الصحف الاوربية كانت تجد في تلك الاخبار ما يجذب القراء خاصة فيما يتعلق بابن سعود وصعود نجمه وشخصيته البدوية الرومانتيكية • أما امام اليمن فكان قد اتخذ سياسة العزلة عن العالم ، ولم يكن له في العالم معجبون أو دعاة • ولهذا اتخذت وكالات الانباء العالمية موقف التحيز الى جانب ابن سعود وأهملت جانب الامام يحيى • ولكنها عقب اعلان الصلح صارت تنفي كثيرا من الاخبار التي نشرتها من قبل •

محاولة اغتيال ابن سعود :

بعد مرور عشرة أشهر على توقيع معاهدة الصلح جرت في مكة محاولة لاغتيال ابن سعود قام بها ثلاثة يمانيون • وخلاصة الحادثة : ان ابن سعود بينما كان يطوف حول الكعبة في اليوم الأول من عيد الاضحى من عام ١٣٥٣ هـ ـ الموافق ليوم ١٦ آذار ١٩٣٥ م ـ خرج اليه من حجر اسماعيل رجل يماني وهو شاهر خنجره ويصيح : « الله اكبر ، الله اكبر » ، فاعترضه أحد رجال الشرطة ، ولكن اليماني تغلب عليه حيث طعنه بالخنجر وأرداه قتيلا ، وعند هذا أسرع اليه أحد عبيد ابن سعود فصوّب نحوه بندقيته وقتله • وفي الوقت نفسه ظهر رجل يماني آخر وبيده خنجر ، فاقترب من ابن سعود ، ولكن الامير سعود الذي كان يطوف خلف أبيه وقاه بجسمه ، وقد أصيب الامير من جراء ذلك بطعنة في أسفل كتفه اليسرى • وأسرع اليه أحد عبيده فأطلق على اليماني رصاصة من الخلف أردته قتيلا • وكان هناك رجل يماني ثالث كامناً في حجر اسماعيل ، وقد

خرج جارياً يريد العراق بعد مارأى مصير صاحبيه ، فأطلق عليه أحد رجال الشرطة النار من بندقيته ، فأصابه • وقد ألقي عليه القبض وفيه رمق من الحياة ، ولكنه مات قبل أن يصلوا به الى المخفر •

كان في مكة يومذاك كثير من الحجاج اليمانيين ، وقد خيف عليهم أن يهاجمهم النجديون للانتقام منهم ، ولكن ابن سعود أصدر أمره بعدم التعرض لأحد منهم ، وأنذر بالعقوبة الرادعة كل من يعتدي عليهم • وأصدرت جريدة « أم القرى » ملحقاً خاصاً طبعت منه كميات كبيرة ووزعته بين الحجاج مجاناً لتهدئة الخواطر وتسكين الاعصاب[٧٠] •

وكان في مكة أيضا وفد كشافي عراقي مؤلف من المعلمين والطلاب برئاسة يوسف عزالدين الناصري • وقد ذهب هذا الوفد مع الوفود الاخرى لتهنئة ابن سعود بنجاته ولمعايدته ، وهتف بحياته وحياة مملكته عدة مرات • ثم ذهب الوفد لتهنئة الامير سعود ، وألقى عبدالهادي الشماع من أعضاء الوفد قصيدة لتحية ابن سعود باسم الشعب العراقي ، كما ألقى عضو آخر هو يحيى قاف كلمة قصيرة •

دعي الوفد العراقي مع غيره من الوفود والشخصيات البارزة لحضور استعراض الجيش السعودي • وحدث آنذاك حادث كاد يؤدي الى قتل أحد أعضاء الوفد • وخلاصة الحادث ان عبدالكريم عسيران ، وهو من أعضاء الوفد ، حاول أن يأخذ صورة فوتوغرافية لابن سعود عند قدومه الى الاستعراض • فظن أحد عبيد ابن سعود المرافقين له ان آلة التصوير نوع من السلاح يراد قتل سيده به ، فصوب بندقيته نحو عبدالكريم بغية قتله ، ولكن ابن سعود صاح بالعبد : « حلي ! حلي ! » • ونجا عبدالكريم[٧١] •

---

(٧٠) نعمان الامين العاني (في المملكة العربية السعودية) ـ بغداد ١٩٣٧ ـ ص ٧٨ •

(٧١) مجلة (التربية البدنية والكشافة) البغدادية ـ في عددها الخاص في ١٥ أيار ١٩٣٥ •

تولى التحقيق في حادثة محاولة الاغتيال مدير الأمن العام ، وهــو عراقي الاصل اسمه « مهدي بك » • وبعد جهد عنيف استمر ثلاثة أيام اتضح له أن اليمانيين الثلاثة ينتمون الى قرية بيت حاضر في اليمن ، وهم علي بن علي ، وأخوه صالح ، ومبخوت بن مبخوت • وقد أرسل الامام يحيى الى ابن سعود برقية يستنكر فيها الحادث ويستفضعه ويبرأ الــى الله منه[٧٢] • وصرح ابن سعود قائلاً : « والذي اعتقده في الامام أنــه رجل شريف ولا يمكنني مطلقاً أن اتهمه بأن له يداً في هــــذه المؤامرة •• »[٧٣] •وقد دار التهامس بين الناس في مكة مؤداه أن سيف الاسلام أحمــد كبير أبناء الامــام يحيى له ضــلع في تدبير المؤامرة[٧٤] والله أعلم !

من الشدة الى الرخاء :

كانت سنة ١٩٣٠ وما بعدها سنوات منحوسة على ابن سعود وعلى سكان الحجاز بوجه عام • ففيها كانت الازمة الاقتصادية الكبرى قد خيمت بكابوسها على معظم أقطار العالم ، وبذا قل مجيء الحجاج الى الحجاز • فبعدما كان معدل عدد الحجاج في السنوات السابقة يقدر بمائة ألــف ، انخفض الى أربعين ألف في عام ١٩٣١ ، والى ثلاثين ألف في عام ١٩٣٢ ، والى عشرين ألف في ١٩٣٣[٧٥] • فســاد البؤس والحرمان في أنحــاء الحجاز ، وأصبح الكثير من سكانه على حافة المجاعة ، وصار الحجاج أينما ساروا يحيط بهم المتسولون والاطفال من كل جانب يلحفون عليهم فــي الاستجداء ، واذا رمى أحد الحجاج بفضلات الطعام أو قشور الفواكــه تهافت عليها الاطفال متكالبين من شدة الجوع •

وانخفضت عائدات الحكومة السعودية في عام ١٩٣٠ من خمسة ملايين

---

(٧٢) خيرالدين الزركلي (المصدر السابق) ـ ج ٢ ص ٦٢١ •
(٧٣) نعمان الامين العاني (المصدر السابق) ـ ص ١٣٤ ـ ١٣٥ •
(٧٤) خيرالدين الزركلي (المصدر السابق) ـ ج ٢ ص ٦٢١ •
(75) Monroe (Philly of Arabia) London 1973 - P. 173.

جنيه الى مليونين[٧٦] • وقد عانى وزير المالية السعودي عبدالله السليمان من ذلك أشد العناء فهو أصبح بين نارين : طلبات ابن سعود التي لايمكن ردها من جهة ، وشحة الموارد من الجهة الاخرى • ويقال انه أبدى حذقاً عجيباً في اجتياز تلك الازمة •

وقد تحمل الموظفون من ذوي الرواتب القليلة قسطاً غير قليل من هذا العناء • فقد فرض عليهم أن يساهموا في قرض كبير للحكومة ، ومرت فترة تأخر فيها دفع الرواتب للموظفين ثمانية أشهر • واضطر الموظفون أن يشركوا أصحاب الدكاكين في مصيبتهم اذ كانوا يبتاعون منهم ضروريات الحياة على الحساب واعدين اباهم أن يدفعوا لهم عند تسلم رواتبهم[٧٧] •

كان فيلبي يومذاك قوي الصلة بابن سعود ، وهو يحدثنا في مذكراته عن الحالة النفسية السيئة التي سيطرت على ابن سعود في عام ١٩٣٠ حيث يقول : « بدأ القلق يستحوذ على الملك عبدالعزيز ، وبدأت أرى معالم اليأس تسلط على نفسه فتضعف من حيويته ومن تفاؤله • وكنت في ذات يوم أستقل السيارة الملكية في معيته في جولة قمنا بها بعد الظهيرة ، عندما انطلق يتحدث عن آمال بلاده وأوضاعها ، فأعرب عن قلقه بأن ضعف موسم الحج في السنة التالية سيؤدي الى كارثة اقتصادية تحل بالبلاد ، بالنظر الى عدم وجود موارد أخرى لها » • ويقول فيلبي انه انتهز الفرصة وقال لابن سعود : « ليس ثمة من داع لليأس شريطة أن تكون على استعداد للسعي بدلاً من الاتكال على مشيئة الله لانقاذك ، اذ أن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم • فأنت تنام على كنوز مدفونة في الارض ثم تشكو من الفقر بينما لا تحاول القيام بأي عمل لاستغلالها » • فسأله ابن سعود : « ماذا تعني ؟ » ، فأجابه فيلبي : « أعني أن بلادك ملأى بالكنوز

---

(٧٦) خيري حماد (عبدالله فيلبي) — بيروت ١٩٦١ — ص ٢٠٨ •
(٧٧) عبدالله فيلبي (المصدر السابق) — ص ٣٦٩ •

الدفينة من نفط وذهب وأنت عاجز عن استغلالها بنفسك ولا تسمح في الوقت نفسه للآخرين باستغلالها بالنيابة عنك » • فقال ابن سعود وقد بدا عليه الجهد : « اسمع يا فيلبي ، لو وجدت من يدفع لي مليون جنيه الآن فانني سأمنحه كل ما يريده من امتيازات في بلادي » • فقال له فيلبي : « ان هذه الامتيازات تساوي أكثر من هذا المبلغ بكثير ، واذا كنت تعني حقاً ما تقول فأنا أعرف رجلاً يستطيع أن يساعدك • لقد جاء لزيارتك قبل عدة سنوات ولكنك رفضت أن تقابله • وهذا الرجل موجود في القاهرة الآن ، واذا حددت لي الموعد الذي ستكون فيه في جدة فسأبرق اليه ، وأنا أضمن لك أنه سيجيء • انه على استعداد للتضحية باحدى عينيه في سبيل لقائك »[٧٨] •

ان الرجل الذي أشار اليه فيلبي هو الثري الامريكي المستر كرين الذي ترأس لجنة الاستفتاء في سوريا عام ١٩٢٠ – كما ذكرناه في الفصل الثالث • فكتب اليه ابن سعود يدعوه لزيارته في جدة • فجاء الرجل في أيار ١٩٣١ ، وتعهد لابن سعود بأن يستدعي على نفقته الخاصة المهندس الجيولوجي المشهور كارل تويتشل للبحث عن امكانيات البلاد المعدنية • وقد أنجز المستر كرين وعده ، فوصل المهندس تويتشل الى جدة في صيف ١٩٣١ ، وتجول في أنحاء المملكة السعودية بحثاً عن مكامن الثروات الارضية فيها • وفي ربيع ١٩٣٢ قدم لابن سعود تقريراً ذكر فيه أن هناك علامات تدل على وجود النفط في منطقة الظهران بالقرب من الخليج العربي •

وعلى أثر تقديم هذا التقرير حصل تنافس للحصول على امتياز التنقيب عن النفط في الاراضي السعودية بين شركتين : احداهما أمريكية والاخرى بريطانية • وقد تمكنت الشركة الامريكية أخيرا من الحصول على الامتياز • وفي ٢٩ أيار ١٩٣٣ وقعت الاتفاقية في جدة من قبل

(٧٨) خيري حماد (المصدر السابق) – ص ٢٠٨ – ٢٠٩ •

المستر هاملتون ممثل الشركة الامريكية والشيخ عبدالله السليمان ممثل الحكومة السعودية .

بدأت الشركة الامريكية تبحث عن النفط في المنطقة التي عينهـــا تويتشل ، غير أنها لم تعثر على شيء . وظلت الشركة دائبة في البحث طيلة أربع سنوات دون جدوى ، حتى أدركها اليأس ، وكادت تحـــزم أمتعتها وتعود الى بلادها خالية الوفاض . وفي شهر آذار من عام ١٩٣٨ بينما كان مهندسو الشركة يقومون بمحاولتهم الاخيرة ، وهم بين اليأس والرجاء ، انبثق النفط بين أيديهم بشكل أثار دهشتهم وفرحهـــــم العظيم (٧٩) .

أخذ انتاج النفط في المملكة السعودية يزداد عاماً بعد عام ، وقـد تحولت هذه المملكة به من دولة فقيرة الى دولة تعد من أغنى الدول في العالم . انها الآن المصدرة الاولى للنفط في العالم ، والمنتجة الثالثة للنفط بعد الاتحاد السوفياتي والولايات المتحدة الامريكية ، وهي تحتل الآن المرتبة الأولى في العالم من حيث كمية النفط الكامن تحت أرضها ، اد تقدر هذه الكمية بنحو عشرين مليار طن .

زوجاته وأولاده :

كان ابن سعود مزواجاً الى درجة يندر أن يكون له مثيل فـــي عصرنا . فقد كان يتزوج ويطلق مرة بعد مرة على أن لا يزيد عدد زوجاته على الاربع ، وهو العدد الأقصى الذي تجيزه الشريعة الاسلامية . انـه كان يحتفظ دائماً بثلاث زوجات ليكون قادراً على الزواج بالرابعة عند الحاجة ، وقد سأله أحد البريطانيين في عام ١٩١٧ عن مجموع زوجاتـه بما فيهن المطلقات فأجاب : انهن مائة وسوف أتزوج اكثر ان شاء الله (٨٠) .

---

(79) Howarth (op. cit) - P. 195.

(80) Armstrong (op. cit.) - P. 137.

والمعروف عنه أنه يتزوج ويطلق عدة مرات في السنة الواحدة ، ولكنه قرر في عام ١٩٣٠ أن لا يتزوج اكثر من زوجتين جديدتين في السنة الواحدة[٨١] •

ان كثرة الزواج هذه قد أدت الى كثرة النسل طبعاً • يروي توفيق السويدي في مذكراته : انه عندما قابل ابن سعود في جدة في عام ١٩٢٨ بصحبة السرجلبرت كلايتون ، وجه كلايتون الى ابن سعود سؤالاً عن عدد أولاده الذكور ، فأجابه ابن سعود : « انهم ثمانية عشر » • وهنا اعترض عليه أخوه محمد الذي كان معه قائلاً : « يا محفوظ ، هم أكثر ، والبركة فيهم » • فتناول ابن سعود مسبحته وصار يعد أولاده بها ، وتبين انهم واحد وعشرون • فضحك الحاضرون وضحك ابن سعود معهم[٨٢] •

بلغ مجموع أولاده الذكور أخيراً خمسة وأربعين ولداً ، مات منهم عشرة وبقي خمسة وثلاثون • أما بناته فلا نعلم عن عددهن شيئاً • وكان آخر ولد لابن سعود ولد في عام ١٩٤٧ عندما كان هو في الواحد والسبعين من عمره • ومما يذكر أن عدد أولاده وأحفاده ، بما فيهم البنات ، بلغ عند موته أكثر من ثلاثمائة[٨٣] •

ومن الجدير بالذكر ان ابن سعود لم يكن وحده محباً لكثرة الانسال ، بل كان يشبهه في ذلك بعض أبنائه واخوته وابناء عمه • ولهذا تكاثر عدد أفراد الاسرة السعودية بشكل يثير الدهشة ، حتى قيل ان عدد الامراء والاميرات من آل سعود بلغ مؤخراً نحو خمسة الآف •

ان هذا العدد الكبير من الامراء أصبح ظاهرة اجتماعية لها أثرها الكبير في المملكة السعودية • فهم صاروا طبقة متميزة تعيش فوق القانون • وقد توافر لدى أفراد هذه الطبقة من جراء تدفق النفط مال كثير يكاد

---

(81) Monroe (op. cit.) - P. 171.

(٨٢) توفيق السويدي (مذكراتي) ـ بيروت ١٩٦٩ ـ ص ١٢٧ •
(٨٣) خيرالدين الزركلي (المصدر السابق) ـ ج ٣ ص ٩٥٧ ، ١٠٠٢ ، ج ٤ ص ١٤٠٠ •

لا يحصى • ولا حاجة بنا الى القول ان اجتماع هذين العاملين ـ أي التميز الطبقي وتوافر المال ـ لابد أن يؤدي بطبيعته الى الترف الباذخ والانهماك في الشهوات بلا حدود •

أعطانا المؤلف البريطاني هوارث في كتابه « ملك الصحراء » صورة عجيبة تكاد لا تصدق عن الترف والتبذير اللذين ابتلى بهما الامـــراء السعوديون • وهو يذكر أن ابن سعود لم يكن يعرف عما كان يفعلـــه أبناؤه الا قليلاً ، وكان اذا بلغه شيء عنهم يتملكه الغضب وقد يضربهم بالعصا • ولهذا كان في أواخر ايامه يشعر بالتعاسة العميقة(٨٤) •

يقول فيلبي في هذا الشأن ما نصه :

« كانت المشكلة الكبرى التي واجهها الملك ـ يقصد ابن سعود ـ في هذا النضخم الذي طرأ على الاسرة المالكة التي غدت تكوّن بمفردها طبقة خاصة قائمة بنفسها • وكانت لدى رجال الأمن أوامر شفوية بعدم التعرض للامراء أو المساس بهم مخافة أن تنتشر أخبارهم بين الناس ••• أما المشكلة الثانية التي ازدادت نتائجها مع الايام فهي اغراق الملك فـــي سخائه وعطاياه ، وهو كرم عُرف عنه منذ أيامه الاولى ••• ولكن مع تكاثر الاموال والموارد وتوقع استمرارها في المستقبل أخـذ سخاء الملك يفوق كل حدود الحكمة والعقل ، ويبذر بذور الفساد في طريقه • وكان أول المنتفعين من هذا السخاء حتماً نساء الحريم والامراء ، ويتلوهم رجال البلاط والحاشية والموظفون • واشتدت الشهوة عند هؤلاء في الحصول على المال كلما زاد الملك اغداقاً عليهم في عطاياه ، وبلغت الهبات حداً لم تعرفه أي بلاد في العصر الحديث • ولكن الملك نفسه لم يبدل طريقته البسيطة في الحياة ، فقد ظلت ملابسه على ما كانت عليه ، وقـد ظل على غرامه بانجاب الاطفال حتى اللحظة الاخيرة في حياته ، وان كان آخر أولاده قد ولد في عام ١٩٤٧ »(٨٥) •

---

(81) Howarth (op-cit.) - P 212 - 229.

(٨٥) خيري حماد (المصدر السابق) ـ ص ٢٣٦ •

كان الامراء السعوديون يخشون أباهم في حياته ، ولهذا كانـوا يتكتمون في أفعالهم بمقدار جهدهم • فلما مات أبوهم في عام ١٩٥٣ انطلقوا في الملذات ينهلون منها كما يشتهون • فلقد ذهب بموته الرادع الـذي كانوا يخشونه أو يستحون منه •

يتداول الناس في المملكة السعودية قصصاً مذهلة عن مبلغ الانهماك في الشهوات الذي ابتلى به الامراء بعد موت أبيهم • وربما كان في هـذه القصص قسط من المبالغة أو التزويق ، كما هي عادة الرواة في مثل هذه الامور ، انما هي على أي حال قد لا تخلو من الحقيقة قليلاً أو كثيرا • ان الانهماك في الشهوات أمر طبيعي في الانسان حين يغيب عنه الرادع • ولا يشذ عن ذلك الا القليل النادر من الناس •

فيلبي :

لا بد لنا في ختام هذا الفصل من القاء شيء من الضوء على حيـاة فيلبي ، وهو الرجل الذي ارتبطت حياته بابن سعود ارتباطاً وثيقاً • والواقع ان هذا الرجل عاش غريباً ومات غريباً ، وعده الكثيرون لغزاً من الألغاز •

ولد فيلبي في جزيرة سيلان عام ١٨٨٥ من أبوين بريطانيين • ويروي فيلبي في مذكراته حادثة غريبة وقعت له في طفولته خلاصتها : انه ضـاع من أمه وهو رضيع ، وبعد البحث عنه وجدوا امرأة غجرية تحمل رضيعين في عمر واحد وبينهما تشابه عجيب كان هو أحدهما ، فاسترجعوه مـن الغجرية • ويتساءل فيلبي في مذكراته : هل كان هو الذي استرجعوه ، أم استرجعوا ابن الغجرية ؟ !

في عام ١٩٠٤ دخل فيلبي في جامعة كمبردج ، وأخذ يتجه في حياته الجامعية نحو الاشتراكية والحرية الفكرية • وحين تخرج من الجامعة في ١٩٠٧ دخل في خدمة الحكومة الهندية • وفي ١٩١٠ تزوج من فتاة بريطانية اسمها « دورا » • وفي ١٩١٥ انضم الى الحملة البريطانيـة في العراق ، وعمل في البصرة والعمارة وبغداد حيث تعلم اللغة العربية •

وفي عام ١٩١٧ سافر فيلبي في بعثة سياسية الى الرياض ، فوصلهـا

في ٣٠ تشرين الثاني ، وقابل ابن سعود ، ثم عبر الصحراء بملابس عربية قاصداً جدة ، فوصلها في ٣١ كانون الاول ، وقابل الحسين فيها • وكانت سفرته تلك ذات أثر قوي في حياته اذ هو شعر بالتعاطف مع ابن سعود وأحب الصحراء والتغلغل في مجاهلها •

عند عودة فيلبي الى العراق أوعز اليه بالسفر الى الرياض مرة أخرى ، فقابل ابن سعود للمرة الثانية ، وقد سرّ به ابن سعود سروراً كبيراً ، أو تظاهر له بذلك • وقد انتهز فيلبي الفرصة فتجول في الصحاري الجنوبية لاكتشاف مجاهلها وكان معه حرس مؤلف من عشرين رجلاً جهزه بهم ابن سعود • ثم عاد فيلبي من بعد ذلك الى العراق •

في أواخر ١٩١٨ مُنح فيلبي اجازة يقضيها في بلاده ، فوصل الى انكلترا بعد غياب عنها اكثر من عشر سنوات • وبعد انتهاء اجازته قام ببعض المهام التي كلفته بها حكومته • وفي آب ١٩٢٠ أُمر بالعودة الى العراق في معية المندوب السامي السر برسي كوكس ، ولكنه لم يمكث في العراق طويلاً لأنه اختلف مع كوكس حول السياسة التي انتهجها في العراق ، فقد كان فيلبي يدعو الى انشاء النظام الجمهوري فيه بينما كان كوكس مأموراً بتنصيب فيصل ملكاً • وقد اضطر كوكس أخيراً الى نقل فيلبي الى شرقي الاردن(٨٦) •

أمضى فيلبي سنتين ونصف في وظيفته في شرقي الاردن ، وقد اختلف مع السر هربرت صموئيل المندوب السامي في فلسطين على نحو ما اختلف قبل ذلك مع السر برسي كوكس • فاستقال من وظيفته ، وكتب الى صديق له يذكر سبب استقالته حيث قال : « اني استقلت من هذا العمل لاسباب كثيرة جداً وفي مقدمتها اني لا أقدر أن أواصل العمل مع المندوب السامي الحالي الذي هو يهودي صهيوني والذي لا يستطيع أن يحفظ التوازن بين المصالح الصهيونية والعربية • أضف الى ذلك ان

(٨٦) انظر تفاصيل ذلك في الجزء السادس من هذا الكتاب ـ الفصل الثاني •

عبدالله قد خذلني باسرافه الذي وصل الى حد أدى الى تدخل الحكومة البريطانية ، وهذا معناه تدخل النفوذ الصهيوني • ولهذا خرجت »[٨٧] •

وفي نيسان ١٩٢٤ مُنح فيلبي اجازة طويلة كمقدمة للاستقالة ، فغادر عمان في ١٧ منه ، وبعد أن تجول في تركيا ذهب الى انكلترا • وفي ٢٨ تشرين الأول وصل الى جدة للتوسط في الصلح بين الملك علي وابن سعود ـ على نحو ما ذكرناه في الفصل السادس •

بعد استيلاء ابن سعود على جدة عاد فيلبي اليها ، وفتح محلاً تجارياً فيها • وقد حصل على وكالة فورد للسيارات ، كما استورد آلات المسح وأدوات الهندسة والمراوح التي تعمل بالنفط • وفي الوقت نفسه صار فيلبي مستشاراً لابن سعود وصديقاً ، وكان ابن سعود يثق به ويستمع الى نصيحته •

ان التقارير السرية التي كتبها القنصل البريطاني في جدة الى حكومته في تلك الفترة تدل على أن فيلبي كان يبدي نشاطاً ملحوظاً في بث الدعاية المضادة لبريطانيا وفي عرقلة مصالحها • ففي أحد تقاريره يقول القنصل : « ان فيلبي متمسك بكل عناد بديانته التي هي ديانة ثنوية تمثل بريطانيا فيها اله الظلام »[٨٨] • وفي تقرير آخر يقول : « انني أعتقد أن وجود فيلبي في جدة لن يؤدي الى تحسين العلاقات بين بريطانيا وابن سعود »[٨٩] • وفي تقرير ثالث يقول : « ان نشاط المستر فيلبي مستمر • ويبدو أنه لا يضيع أية فرصة لخلق المصاعب لحكومة صاحب الجلالة البريطانية • ولست أدري ما هو قصده من ذلك ، هل هو لتملق المسؤولين هنا من أجل الحصول على امتيازات معينة ، أم من جراء كونه موظفاً سابقاً متذمراً يريد الانتقام من حكومته ... »[٩٠] •

---

(87) Monroe (op. cit.) - P. 132 .

(٨٨) دائرة الوثائق العامة في لندن ـ رقم (أف٠أو٠ ٣٧١ـ١٠٨٠٧) •

(٨٩) دائرة الوثائق العامة في لندن ـ رقم (أف٠أو٠ ٣٧١ـ١١٤٣١) •

(٩٠) دائرة الوثائق العامة في لندن ـ رقم (أف٠أو٠ ٣٧١ـ١١٤٤٢) •

وفي شهر آب ١٩٣٠ أعلن فيلبي اعتناقه للاسلام ، وسمى نفسه « عبدالله » • وقد اختلفت الاقوال في السبب الذي حدا به الى ذلك ، فمنهم من قال ان مناخ جدة لم يلائم فيلبي ، وقد أغمي عليه فيها صيفاً ، فأراد الانتقال منها الى بعض المدن السعودية الاخرى • كما أنه كان يطمح الى تحقيق هدفه الاكبر وهو أن يكون أول من يخترق منطقة الربع الخالي ، وقد وجد ان اعتناقه الاسلام يسهل عليه ذلك (٩١) • وهناك من يقول ان سبب اعتناق فيلبي للاسلام هو حبه للنساء ، ولا سيما الشابات منهن ، وقد وجد في الاسلام وسيلة سهلة للتزوج بهن كما يشتهي •

أما فيلبي فيكذب هذه الاقوال كلها ويقول انه انما اعتنق الاسلام عن اقتناع واخلاص • وقد أشار الى ذلك في مذكراته حيث قال ما نصه :

« لقد اجتذبني الاسلام منذ أيامي الاولى في الهند ، اذ تأثرت بما فيه من بساطة في تناول حقائق الحياة الخالدة وفلسفتها • وكنت قد توقفت منذ أمد طويل عن أكون مسيحياً وأصبحت فيلسوفاً أتطلع الى الحياة بنظرة فلسفية عميقة دون أن تكون لي أية معتقدات أو مشاعر دينية ، على الرغم من اعترافي بان الديانة تؤلف لغالبية الناس ضرورة لا مناص منها • ومع ذلك فقد بدا لي ان الاسلام في الهند قد أصبح محاطاً بسلسلة من الطقوس والمظاهر الغريبة عنه ، وهي طقوس ومظاهر لا يمكن للانسان أن يتقبلها الا بعد تمحيص دقيق • وعندما انتقلت الى العراق وجدت طائفتها السنية كثيرة التعلق بالرسميات والمظاهر في أداء الفروض الدينية ، بينما وجدت من الصعب أن أؤمن بالنظرية الشيعية التي تستند الى الائمة والأولياء • وعندما مضيت الى السعودية اتصلت بما بدا لي الفكرة المبسطة عن الاسلام تستمد وحيها والهامها من القرآن الكريم

(91) Howarth (op. cit .) - P. 179 .

وسنه الرسول الأعظم ، وتبتعد عن النظريات والعقائديات الدينية المتشابكة والمعقدة • وبدا لي أن المذهب الوهابي هو الدين المثالي ، ولم أجد في تعصب أتباعه ما يسوءني أو ينفرني ، ورأيت أن مذهبهم يتفق مع حاجات الحياة البشرية والمجتمع في أبسط صورهما • واعتقدت ان الاسلام على هذه الطريقة هو المذهب الذي يستطيع الانسان أن يتقبله قبولاً حسناً ويؤمن به ايماناً صادقاً كوكيل موجه للحياة والسلوك ، وان مقاييسه الدينية تنسجم مع الحاجات الاساسية للبشرية أكثر من أي دين آخر • واذا كانت فيه بعض الخشونة فانه من الناحية الاخرى يرفض كل زيف وخداع ، كما أنه يرى في تعدد الزوجات خير سبيل لمنع العهر والدعارة من سبيل الوصايا العشر »[٩٢] •

مهما كان الحال فقد أصبح اسلام فيلبي خبراً مثيراً في البلاد العربية والعالم ، وكان معظم الناس في البلاد العربية يظنون ان اسلامه مصطنع لغرض التجسس أو الدس • وقد كتب اليه السر برسي كوكس يقول له : انه قام بحركة سيئة • كما انتقده السر آرنولد ويلسون في جريدة « الاوقات البغدادية » • أما زوجته « دورا » التي كانت حينذاك في انكلترا فقد انزعجت من اسلامه خشية أن يتزوج عليها امرأة اخرى ، ولكنها تظاهرت أمام الناس بالرضا وقالت لهم : « أظن أنكم تعلمون انني الآن مسز عبدالله »[٩٣] •

ومن الجدير بالذكر ان ما كانت تخشاه « دورا » قد حصل فعلاً • فبعد مدة قصيرة من اعتناق فيلبي للاسلام كان جالساً في مجلس ابن سعود ، فتحدث ابن سعود عن عزمه أن لا يتزوج بعد الآن أكثر من زوجتين جديدتين في كل سنة ، فقال له فيلبي معاتباً : « لا تنس أني ليست

(٩٢) خيري حماد (المصدر السابق ـ ص ٢٥٣ـ٢٥٤ •
(93) Monroe (op. cit.) - P. 169 .

لي سوى زوجة واحدة طيلة حياتي » . فرد عليه ابن سعود قائلاً : « انك الآن بعد دخولك الاسلام سوف تستفيد من حرية اكبر في هذا الشأن » . وعلى أثر ذلك أهدى ابن سعود الى فيلبي جارية صغيرة اسمها « مريم بنت عبدالله الحسن » . وقد كتب فيلبي الى زوجته « دورا » يصف تلك الجارية بقوله : « انها ليست جميلة على أية حال ، ولكنها شابة وحلـوة الى درجة كافية »(٩٤) .

مرت بفيلبي خلال الحرب العالمية الثانية فترة عسيرة جداً . فقد اتهمته حكومته بالميل الى المانيا النازية ، وحين ذهب الى الهند اعتقلتـه ونقلته الى بريطانيا ، وظل هناك طيلة الحرب . ويدّعي فيلبي ان نوري السعيد هو الذي وشى به الى الحكومة البريطانية(٩٥) . ولما عاد فيلبي الى المملكة السعودية بعد اطلاق سراحه أهداه ابن سعود جارية جديدة من أصل بلوشي أو فارسي اسمها « روزي العبد العزيز » . وكانت هذه الجارية نحيلة قصيرة في السادسة عشرة من عمرها ولكنها جميلة(٩٦) . أما جاريته الاولى فلا ندري ماذا صنع الدهر بها ، وربما أعتقها فيلبي أو أهداها ـ والله أعلم !

كانت لفيلبي داران متواضعتان أهداهما له ابن سعود ، احداهما في الرياض والاخرى في مكة . وصار فيلبي يقيم في الرياض تارة وفـي مكة تارة أخرى . وقد أنجبت له جاريته الجديدة أربعة أولاد مـات اثنان منهم ، وبقي اثنان هما : خالد وفارس . وكان فيلبي حريصاً على تربية هذين الولدين تربية عربية اسلامية .

يحدثنا أمين المميز : انه زار فيلبي في ٢٤ كانون الاول ١٩٥٤ ، في

---

(94) Ibid , P. 171 .

(٩٥) أمين المميز (المصدر السابق ـ ص ٢٧٧ .

(96) Monroe (op. cit.) - P. 244 .

داره التي في مكة وكانت مجاورة للحرم ، فوجد الدار بسيطة مكوّنة من طابق واحد ، وكانت غرفة الاستقبال مؤثثة بأبسط الاثاث • وقد جـاء اليه ولداه الصغيران خالد وفارس ، فطلب فيلبي من خالد أن يذهب الى أمه يدعوها للسلام على الضيف ، فذهب خالد الى أمه ثم عاد مكسور الخاطر وهو يقول بلهجة نجدية : « ما تبغي تجي » • ويقول المميز انه صحب فيلبي بعد ذلك للصلاة في الحرم ، فرآه يؤدي الصلاة بكل خشوع ويتلو الادعية والآيات القرآنية من أعماق قلبه • ويعلق المميز على ذلك قائلاً : « نهو ، والحق أشهد ، مسلم مؤمن بكل معنى الكلمة »(٩٧) •••

ظلت علاقة فيلبي بابن سعود حسنة حتى النهاية ، ولما مات ابن سعود أخذت علاقته مع ابنه الملك سعود تسوء تدريجاً • وسبب ذلك ان فيلبي بدأ ينتقد الترف والتفسخ اللذين سادا المملكة في العهد الجديد ، وكتب بعض المقالات حول ذلك في الصحف الاجنبية مما أغضب عليـه الملك سعود وحاشيته • وفي أواخر نيسان ١٩٥٥ أُخرج فيلبي من البلاد •

ذكرت الحكومة السعودية للقائم بأعمال السفارة البريطانية فـي جدة الاسباب التي دعتها لاخراج فيلبي من البلاد ، وهي : (١) نشـره للشيوعية في داخل المملكة السعودية ، (٢) عمالته للصهيونية ودعوتـه لليهود ، (٣) دأبه في كتاباته على الانتقاص من منزلة الملك سعود بالمقارنة الى أبيه ، (٤) استمراره على نشر المقالات في الصحف الاجنبية فـي انتقاد المملكة السعودية وسياستها ، (٥) القائه أخيراً سلسلة من المحاضرات على موظفي شـركة أرامكـو في الظهران تتضـمن الطعن بالمملكـة ورجالاتهـا(٩٨) •

اتخذ فيلبي بعد نفيه بيتاً له في قرية عجلتون في لبنان ، واستدعى

---

(٩٧) أمين المميز (المصدر السابق) ــ ص ٢٧٦ •
(٩٨) المصدر السابق ــ ص ٣٣٢ ــ ٣٣٣ •

انيه من الرياض زوجته الجديدة وولديه خالد وفارس • وفي ٧ ايلول ١٩٥٥ وصلت الزوجة والولدان الى مطار بيروت ، فطلب منها فيلبي أن تسفر عن وجهها حالاً[٩٩] ، فأطاعت أمره مرغمة •

أصبح اخراج فيلبي من المملكة السعودية محوراً لدعاية سيئة ضدها، وأخذت بعض الصحف البريطانية تنشر المقالات حول ما يجري في المملكة السعودية من تفسخ وتبذير • وقد ساهمت اذاعة بغداد في هذه الحملة مما أدى الى توتر شديد في العلاقة بين العراق والمملكة السعودية • واضطر الملك سعود أخيراً الى مصالحة فيلبي والى السماح له بالعودة الى الرياض •

وفي صباح ٣٠ ايلول ١٩٦٠ ، عندما كان فيلبي في بيروت في زيارة عابرة لها ، أصيب بهبوط بالقلب ، فنقل الى مستشفى الجامعة الامريكية • وفي غروب ذلك اليوم لفظ فيلبي أنفاسه الاخيرة ، وكانت آخر كلمة نطق بها هي : « أنا سئمت » • وفي ظهر اليوم التالي نقل جثمانه الى مقبرة « الباشورة » الاسلامية في حي البسطة • ولم يكن في تشييع جنازته سوى عشرة أشخاص كان فيهم ولده الاكبر « كيم » • وقد أمر « كيم » أن ينقش على قبر أبيه هذه العبارة : « أعظم مكتشفي جزيرة العرب »[١٠٠] •

مهما اختلفت الآراء في فيلبي وأهدافه في الحياة ، فهناك اتفاق بين الباحثين على أنه كان نزيهاً مترفعاً عن الدنايا ، وقد كان في مقدوره أن يكسب الملايين من ابن سعود أو من ابنه سعود ، كما فعل الكثيرون ، ولكنه مات ولم يملك من حطام الدنيا الا القليل • والواقع أنه أفضل من أولئك الذين جمعوا الملايين ، اذ هم تركوها لغيرهم يتنعمون بها وتحملوا هم أوزارها •

---

(99) Monroe (op. cit.) - P. 284 .

(100) Ibid ' P. 295 .

خاتمـــة

دروس من التاريـخ

عند صدور الاجزاء الاولى من هذا الكتاب أخذ بعض النقـــاد ينتقدونني على أنـي أصبحت مؤرخاً وأهملـت الجانب الاجتماعـــي من التاريخ • مشكلة هؤلاء النقاد أنهم يفهمون علم الاجتماع فهمـــاً محدوداً ، أو مغلوطاً من بعض الوجوه • ان الحقيقة التي أود أن يعرفها هؤلاء النقاد هي أنه لا يوجد فاصل حدي يفصل بين التاريخ والاجتماع • فكلا الأمرين مترابطان ، أو هما وجهان لشيء واحد •

قبل ربع قرن تقريباً كان بعض علماء الاجتماع يسيرون فـــي دراساتهم على الطريقة التي يريدها هؤلاء النقاد ، اذ هم كانوا اذا أرادوا دراسة مجتمع انكبوا على دراسة حاضره دون الاهتمام بدراسة ماضيه • وقد شاعت هذه الطريقة في الولايات المتحدة شيوعاً كبيراً ، حيث كان العلماء يريدون أن يجعلوا من الاجتماع علماً كعلوم الطبيعة ، ولهـــذا صاروا يستندون في دراستهم علـى مناهج الاحصـــاء والاستبيان ومـــا أشبه • وقد تبين للكثيرين منهم مؤخراً ان طريقتهم هذه ناقصة وقـــد لا تصل بهم الى نتيجة مجدية • أنقل فيما يلي قولاً في هذا الشأن لعالم مشهور من علماء الاجتماع الامريكيين ، هو الاستاذ روبرت نيسبت ، ذكره في كتاب له صدر في عام ١٩٧٠ ، حيث قال :

« ان الفجوة بين علم الاجتماع والتاريخ أخذت في السنوات الاخيرة تتقلص باستمرار ، وهي الفجوة التي كانت موجودة لمدة طويلة ولا سيما في الولايات المتحدة الامريكية • ففي السنوات العشر أو العشرين الاخيرة صار المؤرخون ينتفعون من مفاهيم علم الاجتماع تدريجاً ، وكذلك صار الاجتماعيون ينتفعون من المعلومات التاريخية ••• ان اكبر منفعة جناها الاجتماعيون من التاريخ هي في موضوع التغير الاجتماعي ••• »[1] •

(1) Robert Nisbet (The Social Bond) — New york 1970 — P. 344—345 .

بين الماضي والحاضر :

الواقع ان الباحث الاجتماعي الذي يتجول في صفحات التاريـــخ قد يستمد منها دروساً لا تقل أهمية عن تلك التي يستمدها من التجول في أنحاء المجتمع • وبعبارة أخرى : ان تجول الباحث في الزمان لا يقـل نفعاً عن تجوله في المكان ، كلاهما يمده بالمعلومات الضرورية لفهم المجتمع البشري وطبيعة الانسان •

خذ مثلاً حركة « الاخوان » التي استفحلت في نجد عقب الحرب العالمية الاولى ، والتي درسناها على شيء من التفصيل في فصول سابقة • فان هذه الحركة قد تعطينا دروساً اجتماعية لا تقل قيمة عن تلك التـي نستمدها من دراسة ظاهرة اجتماعية معاصرة •

ان القـارىء حين يرى مظاهر التعصب المفرط لدى الاخـــوان كتحريمهم للتلفون والتلغراف ، أو للدراجة والطائرة ، قد تـملكـــه الدهشة اذ هو لا يستطيع أن يتصور كيف يمكن للعقل البشري أن يهبط الى مثل هذا المنحدر العجيب • ان القارىء لا يدري أن عقله لا يختلف عن عقل الاخوان في شيء ، فكلاهما من طبيعة واحدة ، ولكن الظروف التي ينشأ فيها العقل هي التي تجعله يفكر على هذا النمط أو ذاك • ولو أن القاريء كان قد نشأ في مثل تلك البيئة الاجتماعية التي نشأ فيهـــــا الاخوان لكان مثلهم في تفكيره وسلوكه ، ولربما رأيناه يحمل السيف ليقتل به أمثال كاتب هذه السطور !

اني أدركت في صباي أناساً في العراق كانوا يحرمون قراءة الجريدة ودخول المدرسة وتعلم اللغة الانكليـزية ولبس القبعة وحلـق اللحيـة واستعمال الملعقة في الأكل • وفي عـام ١٩٢٤ صـدر في النجف كتاب مطبوع لأحد رجال الدين هو الشيخ عبدالله المامقاني كان عنوانـــه : « السيف البتار في الرد على من يقول ان الغيم من البخار » • وشهدت في تلك الآونة رجلاً من العامة يعتدي على آخر لأنه سمعه يقول بأن

المطر من البخار • وقد يعجب القاريء اذا علم أن خمسة كتب صدرت في العراق في موضوع تحريم حلق اللحية وهي : (١) « ارشاد أهل الحجى في حرمه حلق اللحى » لمحمد حسن كبة ، (٢) « تحريم حلق اللحية » لقاسم الجليلي ، (٣) « التفتيش في حلق الريش » لهبة الدين الشهرستاني ، (٤) « ذكرى ذوي النهى في حرمة حلق اللحى » لحسن الصدر ، (٥) « زينة الرجال ــ رسالة في اثبات حرمة حلق اللحية » لمحمد حسين الأديب • وربما كانت هناك كتب أخرى في هذا الموضوع لا نعرفها •

لا يجوز أن نلوم هؤلاء على ما قالوا أو فعلوا ، فهم ليسوا الا نتاج بيئتهم وظروفهم • ومن يدرس تاريخ الشعوب الاوربية يجد أنها لم تكن تختلف عنا من هذه الناحية عندما كانت ظروفها تماثل ظروفنا •

ان العقل البشري يخضع في تفكيره للقوالب التي تصبها البيئة الاجتماعية فيه • فلو أن انسانا نشأ في بيئة مليئة بالخرافات ، وظل يعيش في تلك البيئة لا يعرف غيرها ، لرأيناه يعتقد اعتقاداً جازماً بأن تلك الخرافات حقائق واضحة ، وهو يعجب حين يجدنا لا نوافقه على معتقداته ، وقد يحقد علينا ويضمر لنا الشر •

رأيت ذات مرة رجلاً يتحمس لعقيدته التي نشأ عليها تحمساً شديداً ، فسألته : لو أنه كان قد نشأ في البلدة الفلانية ، وهي بلدة مخالفة في عقيدتها لبلدته ، فهل كان يتحمس لتلك العقيدة مثل هذا الحماس ؟ فكان جوابه : « نعم بكل تأكيد لان الحق واضح وضوح الشمس ! » • انه لا يدري انه لو كان قد نشأ في البلدة الاخرى لوجد الحق واضحاً في الجانب الآخر •

طبيعة الانسان :

اني حين أدرس أحداث التاريخ أشعر كأني أنظر الى أحداث تجري في أيامنا • لا أنكر أن هناك فروقاً كثيرة بين أحداث الماضي والحاضر ،

ولكننا يجب أن لا ننسى ان هذه الفروق ظاهرية ، أما الجوهر فهو واحد لا يتغير ، وأقصد به هذا الحيوان العاقل الذي يُدعى « الانسان » .

ان الانسان قد تغير كثيراً في عاداته وأزيائه ، وفي قيمه ومعتقداته ، حسب تغير الزمان والمكان ، انما هو في أساس طبيعته لم يتغير ، حيث بقي هو هو ذلك الحيوان المتعصب الذي عرفناه منذ قديم الزمان . وأرجح الظن أنه سيبقى كذلك الى ما شاء الله .

اتفق الفلاسفه على أن أهم فرق بين الانسان والحيوان هو العقل ، ولكنهم اختلفوا في تعريف كنه هذا العقل وفي تحديد مجاله . فقد كان الفلاسفة القدماء يعتقدون ان العقل البشري قادر أن يدرك الحقيقة كاملة اذا تخلص من التعصب والانانية والعاطفة وغيرها من معوقات التفكير الصحيح ، وكانوا يتصورون ان التخلص من هذه المعوقات أمر يسير وأنه في مقدور أي انسان أن يفعله اذا أراد .

قيل لهؤلاء الفلاسفة : اذا كان في مقدور الانسان أن يتخلص من معوقات التفكير الصحيح كما تزعمون ، فلماذا لم تتخلصوا أنتم منها ؟ ! فنحن نراكم تختلفون فيما بينكم وتتنازعون كما يختلف العوام ويتنازعون . وهذا معناه أن عقولكم في أساس طبيعتها لا تختلف كثيراً عن عقول العوام .

أثبتت الدراسات العلمية الحديثة ان العقل البشري متحيز ومحدود بطبيعته ، وان معوقات التفكير الصحيح كالتعصب والانانية والعاطفة ليست طارئة عليه بل هي دوافع أصيلة فيه .

ان الانسان قادر أن يكون منصفاً وموضوعياً في حكمه على أمر من الأمور اذا كان ذلك الأمر خارجاً عن نطاق تعصبه الاجتماعي أو مصلحته الخاصة أو عاطفته . ولا يكاد الأمر يدخل في نطاق هذه الدوافع ، كلها أو بعضها ، حتى نجد الانصاف والموضوعية بدأتا تختفيان من ذهن الانسان ، وعند هذا يصبح الانسان كغيره من الناس ظالماً وهو يظن أنه عادل .

تمكن الانسان الحديث من الصعود الى القمر ، ولكنه في الوقت نفسه ظل كما كان أسلافه منذ آلاف السنين يشن الحروب ويقترف الفظائع

ويمارس التمييز العنصري والطائفي • فهو قد تقدم تقدماً عظيماً من ناحية ، انما هو من الناحية الاخرى ظل يراوح في مكانه •

رأينا الاخوان النجديين يقترفون الفظائع المنكرة وهم يحسبون أنهم سائرون على سنة الله ورسوله ، فاعتبرنا ذلك منهم همجية تنافي الحضارة ثم جاءت الحرب العالمية الثانية بعدئذٍ فرأينا بعض المتحضرين لا يقلون همجية عن الاخوان ، وربما تفوقوا عليهم من بعض الوجوه • فان ما فعلوه في معسكرات الاعتقال وغرف الغاز والمذابح الجماعية ما يمكن أن يستنكره حتى الاخوان • يجب أن لا ننسى ان الاخوان كانوا يتيحون فرصة لمن يقع في أيديهم في أن يتوب من كفره ويستغفر الله عنه ، وهم عند ذلك يعفون عنه ويقبلونه ويهنئونه بالايمان • أما المتحضرون فلم يكونوا يقبلون توبة ولا استغفاراً !

ان الانسان بوجه عام يكون طيباً بشوشاً نحوك حين تكون منسجماً مع دوافعه التي ذكرناها • انما هو لا يكاد يراك معارضاً له فيها أو منافساً له عليها حتى تنقلب ابتسامته الى تكشيرة ، والويل لك حين يسلّطه الله عليك •

نلاحظ هذا في الطفل البشري منذ سنواته الباكرة ، فهو لطيف جداً معك لانه يجد نفسه ضعيفاً تجاهك وهو يتوقع منك المنفعة والرعاية • غير أنه لا يكاد يلمح طفلاً أضعف منه وبيده لعبة يلهو بها حتى يسرع الى مهاجمته ، ويلطمه وينتزع اللعبة منه قسراً ، ثم يتركه يبكي دون أن يشعر بأيه شفقة عليه •

★ ★ ★

اني اعتذر للقارىء لتكرار هذه الاقوال في كتبي مرة بعد مرة • فهي في نظري تتضمن حقيقة كبرى يجب علينا استيعابها لكي نفهم بها أحداث التاريخ وظواهر المجتمع •

ان الذي أردت قوله في هذه الخاتمة هو أن الدنيا سارت ، وما زالت تسير ، على وتيرة واحدة لا تتغير ، ومن يريد أن ينجح فيها ينبغي أن يفهمها كما هي في الواقع لا كما يجب أن تكوّن •

فهرس المحتـويات

حول الاخطاء المطبعية

وقعت أخطـاء مطبعيـة في هذا الملحق على الرغم من شـدة العنايـة بالتصحيح ، وهي أخطاء نأمل أن يفطن القارىء اليها ويصححها بنفسه .

* * *

رقم الايداع في المكتبة الوطنية ببغداد ١٩٥٢ لسنة ١٩٧٩

١٢٠٠٠ / ٣٥٧

٢٣/ ١/ ١٩٨٠

كتب المؤلف

(١) شخصية الفرد العراقي	بغداد	١٩٥١
(٢) خوارق اللاشعور	بغداد	١٩٥٢
(٣) وعاظ السلاطين	بغداد	١٩٥٤
(ترجم الى الفارسية في عام ١٩٥٥)		
(٤) مهزلة العقل البشري	بغداد	١٩٥٥
(٥) اسطورة الأدب الرفيع	بغداد	١٩٥٧
(٦) الاحلام بين العلم والعقيدة	بغداد	١٩٥٩
(٧) منطق ابن خلدون في ضوء حضارته وشخصيته	القاهرة	١٩٦٢
(صدرت طبعته الثانية في تونس عام ١٩٧٧)		
(٨) دراسة في طبيعة المجتمع العراقي	بغداد	١٩٦٥
(ترجم الى الألمانية في عام ١٩٧٢)		
(٩) لمحات اجتماعية من تاريخ العراق الحديث		
الجزء الاول	بغداد	١٩٦٩
الجزء الثاني	بغداد	١٩٧١
الجزء الثالث	بغداد	١٩٧٢
الجزء الرابع	بغداد	١٩٧٤
الجزء الخامس (القسم الاول)	بغداد	١٩٧٧
الجزء الخامس (القسم الثاني)	بغداد	١٩٧٨
الجزء السادس	بغداد	١٩٧٦
الجزء السادس (ملحق)	بغداد	١٩٧٩
الجزء السابع	بغداد	

SOCIAL ASPECTS
Of
IRAQI MODERN HISTORY

by

Dr. **ALI WARDI**

EMERITUS PROFESSOR OF SOCIOLOGY
IN THE UNIVERSITY OF BAGHDAD

VOLUME SIX — SUPPLEMENT

SECOND EDITION